من داخل السجن ١٦

اللامنطق

في الفكر والسلوك

مواجهة النبي موسى لفرعون

(الجزء الثاني)

الأستاذ عبد الوهاب حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: اللامنطق في الفكر والسلوك (الجزء الثاني)
المؤلف: الأستاذ عبدالوهاب حسين
نشر: دارالوفاء للثقافة والإعلام
الطبعة الأولى: مايو ٢٠٢٠م - رمضان ١٤٤١هـ
دار الوفاء - البحرين
البريد الالكتروني: Mediaalwafa@gmail.com

اللامنطق

في الفكر والسلوك

مواجهة النبي الموسى لفرعون

(الجزء الثاني)

الأستاذ عبد الوهاب حسين

الفهرس

مقدمة الناشر ١٣

المحور الثالث: سورة طه (٤٠ - ٨١)

الفصل الأول: تلقي موسى للرسالة وحملها إلى فرعون ١٩
اصطفاء موسى للنبوة والرسالة والتكليم ١٩
تعليمات إلهية لموسى وهارون تتعلق بإيصال الرسالة ٤٣
القوة والضعف يدوران مدار العلم والإخلاص ٤٩
علة الرسالة الإلهية لفرعون ٥٧
التوصية الإلهية لموسى وهارون بالرفق واللين مع فرعون ٦٠
مخاوف موسى وهارون ٧٥
التطمين الإلهي لموسى وهارون ٨٠
بنود الرسالة الإلهية إلى فرعون ٨٤
الفصل الثاني: حوار فرعون مع موسى ١٠٣
التعريف برب العالمين ١٠٣
جواب موسى على سؤال فرعون ١١٠
مغالطة فرعون وحرفه مجرى الحوار ١١٩
رد موسى على مغالطة فرعون ١٢٢
الاستدلال بالآيات الإلهية ١٢٤
التفكر في الآيات الإلهية ١٢٧
بداية ونهاية الإنسان ١٢٩
عناد فرعون وعرضه المبارزة مع السحرة ١٣٢

الفصل الثالث: المبارزة التاريخية الفاصلة وإيمان السحرة ١٤٣

حضور السحرة وحوار موسى معهم في الميدان ١٤٤

تأثّر السحرة بكلام موسى وتدخل فرعون ١٤٨

المبارزة التاريخية الفاصلة بين موسى والسحرة ١٥٧

اطمئنان موسى ١٥٨

خوف موسى من انخداع الناس ١٦٠

المدد الإلهي العظيم ١٦٢

القوة المطلقة الإلهية ١٦٣

الانتصار التاريخي وفلسفة الحياة والصمود ١٦٩

ظهور الإيمان بالله ١٦٩

السياسة الطاغوتية الفرعونية ١٧١

فلسفة الصمود والحياة ١٧٩

التوبة والرجوع إلى الله ١٨٤

الفصل الرابع: هلاك فرعون الطاغية واستخلاف بني إسرائيل ١٨٩

المحور الرابع: سورة الشعراء (١٠ - ٦٨)

الفصل الأول: إرسال موسى إلى فرعون ٢٠١

المواجهة المباشرة مع فرعون ٢٠١

طلب موسى أن يشد الله أزره بأخيه هارون ٢٠٣

مخاوف موسى وهارون ٢٠٨

الإعانة الإلهية ٢٠٨

برنامج الرسالة الإلهية إلى فرعون ٢٠٩

الفصل الثاني: تبليغ الرسالة وإظهار الحجة ٢١٣

اعتراض فرعون على موسى وتوبيخه ٢١٤

رد موسى على اعتراض فرعون وتوبيخه ٢١٧
سؤال فرعون عن ماهية رب العالمين ٢٢٠
سخرية فرعون من موسى........ ٢٢٤
تهديد فرعون لموسى وردّه بالحجة ٢٣٠
مغالطة فرعون وتضليله ٢٣٤
الفصل الثالث: المبارزة التاريخية الفاصلة ٢٤١
جمع السحرة والحشد الإعلامي للمبارزة ٢٤٢
طلب السحرة الأجر على عملهم من فرعون ٢٤٧
الانتصار التاريخي وإيمان السحرة........ ٢٤٩
تهديد فرعون للسحرة ٢٥٨
ثبات السحرة أمام تهديدات فرعون ووعيده........ ٢٦٥
الفصل الرابع: هلاك فرعون وجنوده وخلافة بني إسرائيل ٢٧١
خروج بني إسرائيل من مصر........ ٢٧١
خروج فرعون لتتبع بني إسرائيل ٢٧٥
نجاة بني إسرائيل وهلاك فرعون وجنوده........ ٢٧٩

المحور الخامس: سورة غافر (٢٣ - ٥٢)

الفصل الأول: إرسال موسى إلى فرعون وعناده ٢٨٩
إرسال موسى إلى فرعون وتأييده بالمعجزات ٢٨٩
انتقام فرعون من بني إسرائيل ٢٩٤
إرادة فرعون قتل موسى ٢٩٧
الفصل الثاني: نصيحة مؤمن آل فرعون لقومه ٣٠٩
الضمير الحي المؤمن لآل فرعون ٣١٠
تدخل فرعون واعتراضه ٣٢٣

مواصلة مؤمن آل فرعون لنصائحه ٣٢٧
مؤمن آل فرعون يحذر قومه من عواقب الآخرة ٣٣١
تذكير قومه بنبوة يوسف الصديق عليه السلام ورسالته ٣٣٤
فرعون يأمر ببناء برجٍ عظيمٍ تمويهاً ٣٤٣
المفارقة العجيبة بين دعوتين: دعوة مؤمن آل فرعون ودعوة قومه ٣٥٤
نجاة مؤمن آل فرعون وهلاك فرعون وجنوده ٣٦٩

المحور السادس: سورة القصص (٢٩ - ٤٢)

الفصل الأول: تلقي الرسالة والضمانات الإلهية ٣٨٣
عودة موسى من أرض مدين إلى مصر ٣٨٤
تلقي الرسالة الإلهية ٣٨٨
مخاوف موسى وطلب مؤازرة أخيه هارون ٣٩٨
استجابه الرب الرحيم لطلبات موسى وتطميناته ٤٠٠
الفصل الثاني: تبليغ الرسالة إلى فرعون وردود فعله وهلاكه ٤٠٩
تكذيب فرعون لموسى واتهامة بالسحر ٤٠٩
رد موسى على اتهام فرعون وملئه ٤١٣
عناد فرعون وتضليله لقومه ٤٢١
هلاك فرعون بسبب استكباره ٤٢٧

المحور السابع: سورة الزخرف (٤٦ - ٥٦)

الفصل الأول: رد فرعون الاستكباري على رسالة موسى وعاقبته ٤٤١
تكذيب فرعون وملئه لموسى واستهزائهم بالآيات ٤٤١
مراوغة فرعون وتضليله ٤٤٨

المحور الثامن: سورة الدخان (١٧ - ٣٣)

الفصل الأول: الرسالة الإلهية إلى فرعون ٤٦٩
الأفكار الرئيسية والمضامين العامة ٤٦٩
الفصل الثاني: دعاء موسى وهلاك فرعون..٤٨٣
الأفكار الرئيسية والمضامين العامة ٤٨٣
الفصل الثالث: نجاة بني إسرائيل وتفضيلهم على العالمين ٤٩٣
الأفكار الرئيسية والمضامين العامة ٤٩٣

المحور التاسع: سورة النازعات (١٥ - ٢٦)

إجمال حديث موسى الكليم مع فرعون الطاغية...٥٠٣
الأفكار الرئيسية والمضامين العامة ٥٠٣

مقدمة الناشر

الحمدلله رب العالمين وأفضل الصلاة على المبعوث رحمة للعالمين حبيب إله الخلق أجمعين محمد وآله الطاهرين.

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[1].

وقال ﷻ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

إن قصة نبي الله موسى عليه السلام مليئة بالعبر، وغنية بالأحداث والمواقف السلوكية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية، وهي القصة الأكثر تكراراً في القرآن الكريم، والتي جاءت آياتها تشرح بعض تفاصيل تلك الأحداث، وممّا يميز قصة نبي الله موسى عليه السلام أنها تعرضت إلى العديد من المظاهر الفكرية والسلوكية الخاصة بالفرد والمجتمع على حد سواء، فعلى المستوى

١. سورة يوسف: ٣

٢. سورة يوسف: ١٢٠

الفردي ومن خلال استعراض الأحداث في تكامل نبي الله موسى عليه السلام ووصوله إلى مقام النبوة تعطي هذه القصة دستور حياة لكل إنسان على وجه المعمورة في كيفية الترقي على درجات سلم التكامل، وعلى المستوى الاجتماعي فقد ركزت الآيات على مفاهيم العدل ورفض الظلم والمطالبة بالحقوق المشروعة وبينت العلاقة بين المجتمع والناصح، والمجتمع المظلوم والحاكم الظالم، فهي تجربة متكاملة للإنسان والأمة اللذين يريدان السير على طريق الكمال والتحرر من قيود النفس والحاكم الظالمين.

بالإضافة إلى أهمية قصة نبي الله موسى عليه السلام في استسقاء العبر والاستفادة من أحداثها في رفد تجارب التحرر الحديثة فإن هذا الكتاب يكتسب خصوصية مهمة تجعله كتاباً مثيراً للاهتمام، حيث كتبت كلماته وصيغت عباراته في سجن جو المركزي، بما يحويه من تشديد وضغوطات تمارس على المعتقلين، وفي ظل شح المصادر التي يمكن أن يعتمد عليها الباحث في كتابته، ولا يخفى على ذي بصر صعوبة استحضار المعلومة والتوسع في المطلب وبيانه بشكل واضح وسلسل من دون توفر بيئة هادئة وأجواء بعيدة عن الشواغل والمزعجات، ووجود المصادر اللازمة لقراءة النصوص والمقارنة بينها، ورغم ذلك إلا أن مؤلفه برع في صياغة أفكاره، وتنظيمها، ووضعها في قالب مناسب للقارئ، وقد أشبع الكتاب بياناً وشرحاً مفصلاً جاء في جزئين.

ثم إن من خط بقلمه هذا الكتاب هو فضيلة الأستاذ المجاهد

عبدالوهاب حسين، أحد المفكرين الإسلاميين والسياسيين في الساحة الإسلامية، والذي يقضي حكماً بالسجن المؤبد في سجن جو المركزي في البحرين، فقد أشبع الكتاب تفصيلاً من بصيرة وعلم باحث طالب للحق متمسك بقيم الإسلام، وخاض في بيان أفكاره من تجربة قائد سياسي وناصح اجتماعي قضى سنين عمره في تجربة سياسية واجتماعية غنية وعميقة.

يسر دار الوفاء للثقافة والإعلام أن تقدم كتاب «اللامنطق في الفكر والسلوك» الذي كتبه فضيلة الأستاذ المجاهد عبدالوهاب حسين من سجن جو المركزي المعتقل فيه منذ عام ٢٠١١ في البحرين بسبب مشاركته في إشعال شرارة الثورة والقيام ضد النظام الخليفي.

دار الوفاء للثقافة والإعلام

المحور الثالث

سورة طه (٤٠ - ٨١)

- الفصل الأول: تلقي موسى الرسالة وحملها إلى فرعون
- الفصل الثاني: حوار فرعون مع موسى

الفصل الأول: تلقي موسى للرسالة وحملها إلى فرعون

قـول الله تعالـى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[1].

اصطفاء موسى للنبوة والرسالة والتكليم

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾

أتى الله تبارك وتعالى بقصة موسى الكليم عليه السلام مع فرعون الطاغية وملئه المستكبرين وقومه الفاسقين في القرآن الكريم؛ لما فيها من العبر البليغة والدروس العظيمة القيمة؛ لتقوية قلب الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله وتسليته

١. طه: ٤٠-٤٨

وتصبيره وتثبيته فيما يلاقيه من مقاساة المشاق والمصائب والمتاعب والمحن والشدائد في صراعه مع قومه المشركين، وتحمل أعباء النبوة والتبليغ بالرسالة؛ لينال عند الله تبارك وتعالى الفوز بالمقام المحمود عند الله تبارك وتعالى؛ وليقتدي به المؤمنون المجاهدون في الصبر على تكاليف الرسالة ومقاساة الشدائد والمصاعب في الصراع؛ وليعلموا أن كافة قوى الاستكبار العالمي والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين وما يملكون من سلطة وقوة وثروة وأنصار لا طاقة لهم بالوقوف أمام القدرة الإلهية المطلقة، وأن النصر حليف المؤمنين المجاهدين الصابرين المحتسبين في نهاية المطاف حتماً؛ وليعتبروا ويستمروا في طريق الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ودينه الحق وفي طريق الجهاد ومقاومة فراعنة عصرهم وسحرتهم والمستكبرين والمارقين عن الدين الحق والظالمين والمترفين والانتهازيين.

وكانت سورة طه من أوائل ما أنزل من السور، يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**أن أكثر السور والآيات التي تحدثت عن موسى عليه السلام نزلت في مكة حيث كان المسلمون قلة مستضعفة يلاقون أشد الإيذاء وألوان التنكيل من المشركين أصحاب الحَوْل والسلطان. فتكرر قصة موسى وبني إسرائيل و إذلالهم بيد فرعون، ثم دارت عليه الدائرة وكانت العاقبة لبني إسرائيل علماً بأن فرعون أقوى وأطغى من صناديد المشركين، وأيضاً سينتصر المسلمون على المشركين لا محالة إذا صبروا واتقوا تماماً كما انتصر موسى وقومه على فرعون وملئه**»[1].

---

١. التفسير المبين، محمد جواد مغنية، صفحة ٤٠٦

وما حكاه القرآن الكريم من قصة موسى الكليم عليه السلام أنه لبث في أرض مدين، وهي الأرض التي تسكنها قبيلة نبي الله شعيب عليه السلام، وهم من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام، لبث فيها عقداً من الزمان «عشر سنوات» تقريباً؛ بمقتضى العقد الذي بينه وبين نبي الله شعيب عليه السلام حين عرض عليه الزواج من إحدى بناته، وقد لجأ موسى الكليم عليه السلام إلى أرض مدين بعد أن خرج من أرض مصر مضطراً؛ خوفاً من القتل ظلماً وعدواناً على خلفية قتل رجل من الأقباط من قوم فرعون عن طريق الخطأ، وقد قضى موسى الكليم عليه السلام السنوات العشر في خدمة شيخ الأنبياء شعيب عليه السلام، وتزوج بإحدى بناته، وغرف من علومه، وعاش الأجواء الروحية المتلألئة بأنوار الملكوت في بيته، وواضح ما بينهما من صلة القرابة فهما أبناء عمومة، وكلاهما من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام.

وبعد أن قضى موسى الكليم عليه السلام الأجل المضروب في العقد بينه وبين نبي الله شعيب عليه السلام وهو عشر سنوات، استأذن شيخه وابو زوجته وجد عياله بالعودة إلى أهله ووطنه الأصلي مصر، فأذن له فخرج من أرض مدين متوجهاً إلى أرض مصر، وفي طريق عودته وفي ليلة شاتية مظلمة ممطرة شديدة البرد مثلجة ضل الطريق، وجاء زوجته مخاض الولادة، فنصب خيمته، وكان في حاجة ماسة وضرورية إلى النار من أجل الإضاءة والتدفئة، فحاول ولم ينقدح زنده فحار في أمره، وكانت الليلة ليلة جمعة، وبينما هو كذلك في حيرته لا يدري ماذا يصنع، إذ رأى عن بعد ناراً عن يسار الطريق من الجانب الأيمن من جبل الطور في صحراء سيناء، ولم ير النار غيره، فاستبشر وقال لأهله: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي

آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النارِ هُدًى﴾[١]، أي: أتى الفرج من عند الرب الرؤوف الرحيم، فقد رأيت ناراً لا أشك في وجودها، فسأذهب إلى مكانها برجاءين ﴿لَعَلِّي﴾[٢] فلم يقطع؛ لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به، وهذا دليل كمال الحكمة والصدق والأمانة وقوة المنطق، وهما:

أ. أن آتيكم منها بشعلة من النار للاستضاءة والتدفئة بها.

ب. أن أجد في المكان من يهديني إلى الطريق ويدلني عليها.

وقيل: إظهار النار لموسى الكليم عليه السلام فيه إغراء له؛ ليقصد المكان نظراً إلى حاجته الماسة والضرورية إلى النار من أجل الاستضاءة والتدفئة بها، ولأن المنطق يقول إن وجودها يدل على وجود أناس لعل فيهم من يدله على الطريق، وهي رمز رباني لطيف، إذ جعل اجتلابه لتلقي الوحي والاصطفاء للنبوة والرسالة باستدعائه بنور في ظلمة؛ إشارة إلى أنه سيتلقى ما به إنارة قلوب أناس وحياتهم و إرشادهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم ومصلحتهم وسعادتهم الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة بنور دين إلهي حنيف بعد ظلمة الجاهلية والضلال وسوء الاعتقاد.

قصد موسى الكليم عليه السلام يحدوه الأمل الكبير إلى مكان النار، فلما وصل إلى المكان رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها، تتوقد فيها نار بيضاء، وسمع تسبيح الملائكة في المكان، ورأى نوراً عظيماً يملأ الوادي، فوقف

---

١. طه: ١٠

٢. نفس المصدر

متعجباً من شدة خضرة تلك الشجرة وشدة ضوء تلك النار، وحيث رأى النار في الشجرة لم تضر خضرتها، وكثرة ماء الشجرة وخضرتها لم تطفئ النار ولم تضر بياضها، فعلم وتيقن أنه أمام أمر عظيم لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى، فبهت فألقيت عليه السكينة والوقار[١]، ثم سمع نداء من الله العلي الأعلى «يا موسى!!» وأخبره بأمور ووصايا عديدة، منها:

١. ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾[٢] أي: إني أنا ربك الذي أكلمك وتسمع كلامي وأنت بمحضر مني، ففي الكلام تنبيه رباني لموسى الكليم عليه السلام، أن الموقف موقف الحضور، والمقام مقام المشافهة والتكليم، وقد خلى به ربه ذو الجلال والإكرام وخصه بنفسه لمزيد العناية واللطف به، وأمره بالتزام شرط الأدب بحضرة القدس الذي يقتضي منه خلع نعليه؛ ليكون حافي القدمين، فإن ذلك أبلغ في شرف التواضع أمام عز الربوبية، والخضوع عند سماع كلام الرب الجليل سبحانه وتعالى، وأقرب إلى حسن التأدب بحضرة القدس؛ واحتراماً للبقعة المباركة وتعظيماً لها وتشريفاً لقدسها، وليباشر الوادي المقدس بقدميه الحافيتين تبركاً به، وفي الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**اخلع نعليك يعني ارفع خوفيك، يعني خوفه من ضياع أهله وقد خلفها تمخض، وخوفه من فرعون**»[٣].

١. تفسير السمرقندي، جزء ٢، صفحة ٣٣٧

٢. طه: ١٢

٣. علل الشرائع، صفحة ٦٦

وقيل: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾[١] إشارة إلى الزوجة والولد بأن لا يبقى مشغول القلب بأمرهما، وفي الحديث الشريف عن الإمام المهدي القائم عجّل الله تعالى فرجه الشريف أنه قال: «**إن موسى** عليه السلام **ناجى ربه بالوادي المقدس فقال: يا ربّ إني قد أخلصت لك المحبة مني وغسلت قلبي عمن سواك، وكان شديد الحب لأهله، فقال الله تعالى:** ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾[٢] **أي: انزع حب أهلك من قلبك إن كانت محبتك لي خالصة وقلبك من الميل إلى من سواي مغسول**»[٣].

وقيل: المراد بالوادي المقدس جلال الله سبحانه وتعالى، والأمر بخلع النعلين تطهير السر والقلب وترك النظر والالتفات إلى المخلوقات والمقدمات العلمية لكي لا يبقى محروماً من الاستغراق في الله ذي الجلال والإكرام والفناء فيه والبقاء به، فكأنه قيل له: لا تكن مشتغل القلب والخاطر بالنظر إلى المخلوقات والمقدمات العلمية فتكون محروماً من الاستغراق في الله ذي الجلال والإكرام وسبحات وجهه الكريم والفناء فيه والبقاء به، فإنك وصلت إلى الوادي المقدس الذي هو بحر معرفة الله ذي الجلال والإكرام ولجة ألوهيته وجلاله، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «**إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من**

١. طه: ١٢

٢. نفس المصدر

٣. كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، صفحة ٤٦٠

الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً. إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها إنك على كل شيء قدير»[1]، فالمقام مقامان: مقام المحو والفناء عما سوى الله ذي الجلال والإكرام، ومقام الفناء فيه والبقاء به، والمقام الأول مقدم على المقام الثاني ولازم له فلا يكون إلا به، فكل من أراد أن يكتب شيئاً في لوح مشغول بكتابة أخرى، فلا بد له من إزالة الكتابة الأولى ليمكنه إثبات الكتابة الثانية محلها.

وقيل: بني فعل النداء للمجهول زيادة في التشويق، أي: إن موسى الكليم عليه السلام ناداه مناد غير معلوم له، فلما عَلِمَ عِلْمَ اليقين بأن المنادي هو ربه ذو الجلال والإكرام والكلام كلامه وأن الكلام وحيٌ منه إليه، تمكن النداء من نفسه غاية التمكن وأكمله وهامت نفسه لذلك النداء المحيي للروح والمثير للأشواق، وملأت وجوده وأحاطت به لذة روحية غامرة لا يمكن وصفها.

---

١. دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام

٢. ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[١] أي: أن المكان الذي أنت تقف فيه هو الوادي المقدس طوى من أرض سيناء الذي تقدس وتبارك بهذا التجلي والظهور والحضور والتكلم، حيث يتجلى النور الإلهي فيه، ويسمع نداء الله رب العالمين سبحانه وتعالى في سمائه، وينال فيه شرف التكليم والنبوة والرسالة، أي: لكونه حظيرة القرب وموطن الحضور والتجلي والظهور ومكان المناجاة والوحي الإلهي والبعث بالدين الإلهي الحق والرسالة، يقول العلامة الطباطبائي: «**أن تقديس الوادي إنما هو لكونه حظيرة القرب وموطن الحضور والمناجاة ... وعلى هذا النحو يقدس ما يقدس من الأمكنة والأزمنة كالكعبة المشرفة والمسجد الحرام وسائر المساجد والمشاهد المحترمة في الإسلام والأعياد والأيام المتبركة فإنما ذلك قدس وشرف اكتسبه بالانتساب إلى واقعة شريفة وقعت فيها أو نسك وعبادة مقدسة شرعت فيها و إلا فلا تفاضل بين أجزاء المكان ولا بين أجزاء الزمان**»[٢]. وفي الحديث الشريف، سُئل النبي الكريم ﷺ عن الوادي المقدس، فقال: «**لأنه قدست فيه الأرواح، واصطفيت فيه الملائكة، وكلم الله ﷻ موسى تكليماً**»[٣].

٣. إن الله تبارك وتعالى قد اختاره - يعني موسى الكليم عليه السلام - للنبوة والرسالة، وهذه أكبر نعمة أنعم الله تبارك وتعالى وامتن بها عليه،

---

١. طه: ١٢

٢. تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي، جزء ١٤، صفحة ١٢٤-١٢٥

٣. علل الشرائع، الشيخ الصدوق، صفحة ٤٧١-٤٧٢

وتمثل كمال اللطف والرحمة والعناية وغاية الرجاء للعبد في عالم الدنيا، وأن عليه أن يتهيأ للمناجاة ويهتم لذلك كثيراً ويستمع لما يوحى إليه بعناية تامة، سماع قبول واستعداد تام للوعي والفهم والعمل والتبليغ، قوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾[1]، فكأنه قيل له: لقد جاءك أمر مهم عظيم الخطر فتأهب له وكن مستعداً تماماً واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه بالتمام والكمال.

٤. أمره بأن يوحدّه ويعبده وحده لا شريك له عبادة خضوع للإله الحق الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد لم يولد ولم يكن له كفواً أحد، قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[2]، وذلك لاختصاص الألوهية به سبحانه وتعالى؛ لكونه مبدأ كل شيء وموضع كل شيء والمدبر لكل شيء، فلا ينبغي أن يخضع العبد خضوع الطاعة والعبادة إلا له وحده لا شريك له، فهو الإله المعبود الحق لا إله غيره ولا شريك له، فالاختصاص بالألوهية موجب للاختصاص بالعبادة، أي: إن عبادته إنما لزمت لألوهيته، قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[3]، أي: لأنه خالق كل شيء ومتولي الأمور كلها ومدبرها وحده والألوهية منحصرة فيه، فهو يستحق العبادة وحده ولا يستحقها أحد غيره.

---

١. طه: ١٣

٢. طه: ١٤

٣. الأنعام: ١٠٢

وخص الصلاة بالذكر لكونها أفضل عمل يتمثل به الخضوع العبودي لعز الربوبية وأشرف العبادات وأكثر الطرق تأثيراً لعدم الغفلة والاستغراق في المحبوب والفناء فيه والبقاء به، ولهذا أطلق عليها في الإسلام عمود الدين، وقد أمر موسى الكليم عليه السلام بأن يقيمها خالصة من غير شائبة من الرياء والسمعة وفي وقتها؛ لتكون وسيلة إلى ذكرى ربه ذي الجلال والإكرام والتقرب إليه والزلفى لديه والفناء فيه والبقاء به والتخلق بأخلاقه واكتساب صفات كماله، صفات الجمال وصفات الجلال؛ ولتكون سبباً لذكر ربه له ونيل رضوانه وحسن ثوابه، قول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[1].

وقيل: إن الآية موضوع البحث من سورة طه تدل على أن علم الأصول مقدم على علم الفروع، وأن العمل بالفروع بدون العلم بالأصول جهل وحماقة وتخلف وعبث، والعلم بالأصول يعطي العمل بالفروع قيمته واعتباره العلمي الروحي والأخلاقي، ويحدد له وجهته وغايته، وتعتبر العبادة بنية خالصة ثمرة التوحيد والإيمان الصادق وبدونها لا حقيقة للتوحيد ولا مصداقية للإيمان.

٥. ذكّر الله سبحانه وتعالى عبده ووليه ورسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام بالآخرة وحتمية وقوعها وخفاء وقتها على الناس؛ ليكون وقوعها أشد في المباغتة والمفاجأة على قلوب الكافرين والمنافقين والعاصين

١. البقرة: ١٥٢

الغافلين عنها، وحتى يتوقع المؤمنون الصالحون المتقون وقوعها في كل وقت وحين، فيخافوا منها ويعملوا لها، فيتميز المخلصون عن غيرهم ثم يستوفي الجميع جزاءهم بالعدل والإحسان بحسب عقائدهم وأعمالهم، إن خيراً فخير و إن شراً فشر، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[١]، ولا شك فإن في التذكير بالآخرة تعليل للطاعة والعبادة، لأنه إذا لم يكن حساب وثواب وعقاب على العقيدة والعمل وتمييز بين المطيع وبين العاصي، فالطاعة والعبادة لغو لا أثر لها أو توجيه لخاصة الخاصة من الحكماء الذين يعملون العمل الحسن لذاته ويتركون العمل القبيح لذاته، وحتى مع هذا التوجيه الذي لا يكون لو صح إلا لخاصة الخاصة، فإنه لا يتبين في العقل والمنطق هدفية الوجود وغاية الحياة، ويكون الأمر كله أقرب إلى العبثية والفوضى وخارج العقل والمنطق السليم.

وعليه: فمقتضى الإيمان بالآخرة والتذكير بها هو العمل من أجلها، والحذر الشديد من المعصية، والمسارعة إلى التوبة والاستغفار من كل ذنب ومعصية، ونحو ذلك.

ثم حذّر الله ﷻ عبده ووليه ورسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام من الكفرة والعصاة الذين لا يؤمنون بالآخرة ويسعون للتشكيك فيها أو الذين يؤمنون بها نظرياً ويكفرون بها عملياً بالانهماك في المعاصي

---

١. طه: ١٥

والشهوات والملذات الحسية، والتورط في الجرائم الشنيعة والجنايات الفظيعة ضد الأبرياء والإنسانية، وترك التوبة والاستغفار، فإن عاقبتهم وعاقبة من يتبعهم ومن يتأثر بهم الهلاك والشقاء الحقيقي الأبدي الكامل في الدارين الدنيا والآخرة، قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾[1]، أي: فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتهلك كما هلك وتشقى كما يشقى، وفي الآية الشريفة المباركة أمر بالثبات والتحمل وأن يكون شديد الشكيمة قوياً في ذات الله ذي الجلال والإكرام عن علم ويقين صحيح حتى لا يكون كمن يكفر بالبعث والحساب وأي مطمع في صده عن الإيمان والعمل بمقتضاه والصمود في وجوههم ومقاومة شبهاتهم ووساوسهم وعدم الخوف من كثرتهم وقوتهم وكيدهم ومؤامراتهم وخططهم الشيطانية الخبيثة، فإنهم غثاء كغثاء السيل، وبناء أمرهم على ضعف المنطق والحجج الباطلة واتباع الأهواء الشيطانية والشهوات الحيوانية والملذات الحسية والاستغراق في عالم الدنيا والمادة والمصالح والأغراض الفاسدة والمقاصد الباطلة، وفيها دليل على وجوب تحصيل العلم اليقيني بالدليل الصحيح على أصول الدين وعدم التقليد في العلم الإجمالي فيها، وزجر بليغ عن التقليد الأعمى لأهل الزعامة والمترفين ونحوهم، وعليه: فإن موسى الكليم عليه السلام أمر بعلم التوحيد، وعلم الطريق «النبوة والإمامة والطاعة والعبادة الجسمية كالصلاة والروحية كالتفكر والإخلاص» وعلم المعاد.

---

١. طه: ١٦

٦. أيّد الله ﷻ عبده ووليه ورسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام بآيات بينات نيرات ومعجزات عظيمات قاهرات، تدل على صدق نبوته ورسالته وعدالة قضيته وشرعية مطالبه الإصلاحية والثورية، وهما معجزتان:

أ. العصا التي تتحول إلى ثعبان حقيقي عظيم.

ب. اليد السمراء التي تتحول إلى بيضاء جميلة بدون علة أو مرض، وتشع نوراً عظيماً يملأ المكان أبهى من الشمس الطالعة يغشي البصر، قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾[1].

٧. بعد أن أيّد الله ﷻ رسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام بالمعجزات، أمره أن يذهب برسالته التي حمله إياها إلى فرعون الطاغية الذي كان أعظم ملوك الأرض حينئذ، وقد تجاوز الحد في التجبر والتكبر والاستعلاء والظلم والطغيان والقهر والاستضعاف للعباد، فادعى الألوهية والربوبية بغير حق ولا حجة ولا دليل ولا برهان، وذبح الأطفال بغير ذنب، وبطش بالأبرياء والصالحين والمصلحين والمطالبين بالحقوق، وإلى ملئه المستكبرين الفاسدين المعينين له

١. طه: ١٧-٢٣

على الظلم والطغيان والبغي والفساد، وأن يبلغهم الرسالة الإلهية كما أمر ويكاشفهم بفسادهم ويردعهم عن غيهم وبغيهم وظلمهم وطغيانهم واستكبارهم وتجبرهم وضلالهم وإضلالهم وإفسادهم في الأرض بغير حق، قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[١]، وفي الحديث القدسي قال الله تعالى لموسى عليه السلام: «**اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي فإنك بعيني وسمعي، وإن معك يدي وبصري، وإني ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي، وإني أقسم بعزتي لولا الحجة والعذر الذي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار، ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه عني رسالتي وادعه إلى عبادتي وحَذِّر نعمتي، وقل له قولاً ليناً لا يغترن بلباس الدنيا فإن ناصيته بيدي لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمي**»[٢].

وقد خص فرعون بالذكر في قوله: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[٣] مع أن الرسالة عامة لكل الناس، لأن فرعون رأس الفساد والطغيان، مما يدل على وجوب تقصد رؤوس الفساد والطغيان واستهدافهم بشكل مباشر في كل حركة اصلاحية جادة أو حركة ثورية شاملة، يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**فمن أجل إصلاح بيئة فاسدة**

---

١. طه: ٢٤

٢. تفسير الفخر الرازي، جزء ٨، صفحة ٢٩

٣. طه: ٢٤

و إيجاد ثورة شاملة يجب البدء برؤوس الفساد وأئمة الكفر... أولئك الذين لهم تأثير في جميع أركان المجتمع ولهم حضور في كل مكان بأنفسهم أو بأفكارهم أو أنصارهم... أولئك الذين تركزت كل الوسائل والمنظمات الإعلامية والاقتصادية والسياسية في قبضتهم، فإذا ما أصلح هؤلاء أو قلعت جذورهم عند عدم التمكن من إصلاحهم، فيمكن أن يؤمن خلاص ونجاة المجتمع، و إلا فإن أي إصلاح يحدث فإنه سطحي ومؤقت وزائل»[1] وفي الآية الشريفة المباركة دليل على أن من أهداف الأنبياء العظام عليهم السلام العملية الرئيسية مقارعة الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين الظلمة والمترفين والمستكبرين والقضاء على الظلم والطغيان والفساد والاستكبار والاستبداد والدكتاتورية ونحوها من الأوبئة والأمراض.

٨. لما علم موسى الكليم عليه السلام بأمر التكليف له بالذهاب إلى فرعون الطاغية ودعوته إلى التوحيد والطاعة والكف عن الفساد والطغيان والقهر لعباد الله و إخضاعهم لإرادته الطاغوتية بغير حق، ولعلمه بتجبر فرعون وقسوته وقوة شوكة قومه الأقباط وشدة بطشهم، ولعلمه بحال بني إسرائيل وما هم عليه من الضعف والوهن والإذلال وقلة الإمكانيات المادية والبشرية، لا سيما إذا قيست بإمكانيات الأقباط، ولعلمه بما ستجبره عليه الرسالة من الفظائع والفجائع والمصائب والصعوبات والشدائد، فإنه عليه السلام لم يسأل ربه عز وجل أن يعفيه من المهمة أو يخفف من ثقلها، فقد قبلها وكان لديه كامل

---

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ٩، صفحة ٣٤٨

الاستعداد لتحمل المشاق والمصاعب والتضحية بالنفس والنفيس من أجلها، ولكنه سأل ربه العظيم بأربعة أمور من أجل النجاح في تبليغها والوصول بها إلى غايتها وأهدافها، والأمور الأربعة، هي:

أ. أن يمنحه رباطة الجأش ليكون شجاعاً ليجرأ على مخاطبة فرعون الطاغية، بما ينبغي عليه أن يخاطبه به، وأن يشرح صدره ويجعله واسعاً كالمحيط؛ ليتحمل عبء الدعوة والرسالة ويصبر على المشاق والمصاعب والشدائد والأذى الذي يمكن أن يقع عليه من فرعون الطاغية وملئه المستكبرين وقومه الفاسقين رداً على رسالته ودعوته لهم إلى التوحيد وتحرير بني إسرائيل، ولا يضجر ولا يغتم ولا يحزن ولا يتكدر قلبه ويضيق صدره فلا يقدر على تحمل المسؤولية ولا يصلح لهداية الناس و إرشادهم ودعوتهم إلى الحق والعدل والخير والفضيلة والإصلاح، وفي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «**آلة الرياسة سعة الصدر**»[1].

ب. أن يمده الله تبارك وتعالى بعونه ويوفقه ويؤيده ويسدد خطاه، وأن ييسر له سبل القيام بأمر الرسالة والنهوض بالمسؤولية على أكمل وجه، ويذلل له العقبات التي تعترض طريقه؛ لتكون المهمة الصعبة على ما فيها من العسر والصعوبات

١. نهج البلاغة، حكمة ١٧٦

وما تتطلبه من الصبر والتحمل والتضحيات سهلة مؤنسة للروح والقلب ومريحة للضمير والوجدان لما تربط به من رؤية نيرة مشرقة للكون والإنسان والحياة ومن أشواق وغايات إنسانية نبيلة عالية الشأن رفيعة المكان.

ج. أن يزيل الثقل وكافة الموانع النفسية والاجتماعية التي تعيقه عن الكلام الفصيح البليغ وتمنع الإفهام، أي: أن يعينه على البيان الواضح الصريح البليغ في إيصال المراد، وذلك لكونه عاش في بيت فرعون فله عليه فضل الإيواء والرعاية والتربية والإنعام، وأيضاً: له عليه القصاص في شأن قتل الرجل القبطي، قول فرعون له: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1]، مما من شأنه أن يقيد اللسان عن الانطلاق في الكلام والمحاجة ويضعف الحجة ويضع الحواجز النفسية التي تعيق الفهم والتفهم بين الطرفين.

د. أن يؤيده بأخيه هارون عليه السلام وهو الناصح الأمين الفاهم البليغ ونحو ذلك من الصفات، وأن يجعله شريكاً له في النبوة وأمر الرسالة والقيادة حتى يتعاونا على القيام بالأمر والنهوض بالمسؤولية وبلوغ المراد وتحقيق الأهداف والغايات المطلوبة؛ لأن أمر الرسالة والقيادة والتدبير كثير

---

١. الشعراء: ١٨-١٩

الجوانب متباعد الأطراف لا يقدر شخص واحد بمفرده على القيام به والنهوض بمسؤولياته، فيحتاج إلى وزير يشاركه في ذلك ويساعده ويحتاج إلى أعوان وأنصار، يقول العلامة الطباطبائي: «**وأما الإشراك في النبوة خاصة بمعنى تلقي الوحي من الله سبحانه فلم يكن موسى يخاف على نفسه التفرد في ذلك حتى يسأل الشريك و إنما كان يخاف التفرد في التبليغ و إدارة الأمور في اتحاد بني إسرائيل ومن يلحق بذلك**»[(١)].

وقد استجاب الله تبارك وتعالى لجميع طلباته، قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[(٢)].

وما سأل موسى الكليم عليه السلام من ربه يدل على كمال إخلاصه ونزاهته عن الأنانية والاستئثار، وكمال حرصه على تبليغ الرسالة على أكمل وأحسن وجه والنجاح التام في تحقيق كامل أهدافها وغاياتها، يقول السعدي: «**وهذا السؤال من موسى عليه السلام يدل على كمال معرفته بالله، وكمال فطنته ومعرفته للأمور، وكمال نصحه.**

---

١. تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي، جزء ١٤، صفحة ١٣٣

٢. طه: ٢٥-٣٦

وذلك أن الداعي إلى الله، المرشد للخلق، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تام على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح فيه يتمكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده. بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزمه ما يكون؛ لكثرة المراجعات والمراوضات؛ ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه؛ ليحببه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجيته ليتنفر عنه.

ويحتاج مع ذلك أيضاً، أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلاً بحسب حاله. وتمام ذلك: أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه؛ لأن الأصوات إذا كثرت لابد أن تؤثر، فلذلك سأله عليه الصلاة والسلام هذه الأمور فأعطيها»[1]، وقول الشيخ جواد مغنية: «ومهما يكن فلابد لصاحب الرسالة من التعاون مع من يخلص لها ويضحي في سبيلها، فإن النبوة في حقيقتها مجرد خبر ونبأ عن الله ينقله من يستحيل في حقه الكذب والخطأ، وما هي بقوة تنفيذية تقول للشيء كن فيكون، إن النبي بشر لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضراً، ويستعمل لتنفيذ مقاصده نفس الوسائل التي يستعملها المؤمن والجاحد، ولا يمتاز إلا بهذا النبأ عن الله وأنه أخذ من الإنسانية أكرم ما فيها،

---

١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، صفحة ٦٩٥ - ٦٩٦

واستصفى أجل صفاتها، ولكن الصفات الجلية لا تجعل صاحبها في المكان الذي يستغني معه عن الأسباب العادية والسنن الطبيعية... كلا، إن الأنبياء وغير الأنبياء سيان في الحاجة والافتقار إلى الأخذ بالعلل والأسباب»[١]، فالأنبياء يحتاجون إلى الأعوان والأنصار والمؤازرين والقوة الرادعة من الناس، قول الله تعالى: ﴿يَا أَيهَا النبِي حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] وتدل المطالب كذلك على ضرورة التحلي بالوعي والفهم والبصيرة، والاعتماد على التخطيط بدل التخبط، والأخذ بالأسباب الطبيعية والمعنوية لتحقيق النصر والظفر بالمطلوب.

وفي الآية الشريفة المباركة تحذير شديد من الأنانية والاستئثار والإقصاء، وهي خصال تتنافى مع الصدق والإخلاص، وفيها تحذير كذلك من الدكتاتورية والاستبداد في الحكم والإدارة والتدبير، فإنهما الطريق إلى الفشل والضعف والخسران والتخلف والانحطاط والهلاك.

الجدير بالذكر: أن الرسول الأعظم الأكرم ﷺ سأل الله ﷻ نفس ما سأله موسى بن عمران عليه السلام، قال السيوطي في الدر المنثور: إن الرسول الأعظم الأكرم ﷺ قال: «**اللهم إني أسألك بما سألك أخي موسى، أن تشرح لي صدري، وأن تيسر لي أمري، وأن تحلل عقدة من**

١. تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، جزء ٥، صفحة ٢١٣ - ٢١٤

٢. الأنفال: ٦٤

لساني، يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي، اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً»[١].

وفي الحديث الشريف، أن الرسول الأعظم الأكرم ﷺ قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**»[٢]، وإذا علمنا نفي الإشراك في النبوة، وأن الدعوة إلى الإيمان والتوحيد والدين الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على الخير والبر والتقوى، واجب على كل مسلم، وأن عبارة ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[٣] تفيد الاختصاص وليس عموم ما يشترك فيه جميع المسلمين، أي: إن المطلوب هو تمام خاص غير النبوة، وليس ذلك إلا الخلافة والإمامة قطعاً، التي يدخل في واجباتها: حفظ الدين الحق من التحريف والتغيير والتبديل، وصيانة الأمة من الانحراف عن الصراط المستقيم والنهج القويم والطريقة الوسطى، وبيان أحكام الدين وتفسير كل إبهام ورد كل إشكال وشبهة، وقيادة الأمة وتدبير شؤونها، وإعطاء القدوة للأمة من نفسه في دينه وأخلاقه وسلوكه لكي تتبعه الأمة وتقتدي به في دينها وحياتها، ونحو ذلك.

٩. ذكّر الله تبارك وتعالى عبده ووليه الناصح ورسوله الصادق الأمين

---

١. تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، جزء ٥، صفحة ٢١٥

٢. رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد والحاكم وغيرهم

٣. طه: ٣٢

موسى بن عمران الكليم عليه السلام ببعض ما أنعم عليه به من النعم الإلهية العظيمة، منها:

أ. سلامته من القتل على يد فرعون الطاغية حين كان طفلاً رضيعاً وكان فرعون يقتل كل مولود ذكر يولد لبني إسرائيل؛ لأن كاهناً أخبره بأن نهايته ونهاية ملكه تكون على يد مولود يولد في بني إسرائيل.

ب. تربيته تحت عينه وبرعاية وعناية خاصة منه وحفظه من كل سوء وشر، وقد كان في بيت فرعون وفي متناول يده ومع ذلك لم تمتد له يده بشر أو سوء أو ضرر.

ج. أن الله تبارك وتعالى ألقى عليه محبة خاصة عجيبة وخارقة للعادة، أدخلها في قلوب العباد بحيث يحبه كل من يراه ويتعلق قلبه به، ومن الذين أحبوه وعلقت قلوبهم به: فرعون وامرأته آسية بنت مزاحم، وفي ذلك دليل على حب الله سبحانه وتعالى له، فإذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده.

د. أن الله جل جلاله امتحنه بامتحانات صعبة عديدة، مثل: العيش في بيت فرعون الطاغية، الخوف والهرب من القصاص، الغربة ومفارقة الأهل والأحبة والوطن، الخدمة الصعبة في رعاية الغنم بعد أن كان يعيش الترف والنعيم المادي

في قصر فرعون أعظم ملوك الأرض حينذاك وأكثرهم ثروة وترفاً، حتى أصبح بهذه الامتحانات خالصاً لله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيه غيره، وكانت النتيجة أو الثمرة هي: الاصطفاء للتكليم والنبوة والرسالة؛ لأنه وجده أهلاً لذلك على غرار ما صنعه الله تبارك وتعالى مع خليله إبراهيم، قول الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1] أي: أن الله ﷻ امتحن إبراهيم الخليل عليه السلام بامتحانات صعبة عديدة، فنجح فيها جميعاً بامتياز مع درجة الشرف الأولى، فاصطفاه الله تبارك وتعالى إماماً للناس وقدوة حسنة لهم في الأمور كلها الدينية والدنيوية، الظاهرية والباطنية، وهي مرتبة فوق النبوة والرسالة؛ لأن إبراهيم الخليل عليه السلام نالها بعد أن امتحن وهو نبي ورسول.

هـ. سلامته من القتل ومن الحزن والغم بعد أن قتل الرجل القبطي عن طريق الخطأ، وهجرته راجلاً خائفاً من القتل وكان بلا زاد ولا دليل، وتخليصه مرة بعد أخرى من المحن والشدائد والمصائب التي حلت به طوال حياته منذ أن كان طفلاً رضيعاً وحتى ساعة الاصطفاء والوحي والتكليم؛ لطفاً منه وحناناً ورحمة.

---

١. البقرة: ١٢٤

و. العيش في بيت شيخ الأنبياء شعيب عليه السلام والتزويج من إحدى بناته، والاغتراف من علومه ومعارفه الإلهية الثمينة والاقتباس من الأنوار الملكوتية، والعيش في الأجواء الروحية العالية التي تملأ البيت كله، والحصول على معاملة إنسانية راقية تنضح بالقيم السماوية والمبادئ السامية والأخلاق الرفيعة.

ز. أخيراً: عودته من أرض مدين متوجهاً إلى أرض مصر، والظروف التي أحاطت به، مثل: ضل الطريق في ليلة شتوية مظلمة مثلجة، ولم ينقدح زنده، فاجأ المخض زوجته، رؤية النار من بعد، الأمور التي أوصلته إلى الوادي المقدس في الوقت المحدد حيث سبق في قضاء الله عز وجل وقدره أن يكلمه ويستنبئه ويبعثه بالرسالة في وقت بعينه قد وقته لذلك، وهو الوقت الذي وصل فيه إلى الشجرة المباركة في الوادي المقدس في صحراء سيناء بجانب جبل الطور الأيمن.

أي: وصل على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر، بعد أن أصبح على قدر كبير من الصفاء والنقاء الروحي والعلم والمعرفة والخبرة والصلاح وفعلية الكمال.

أي: أصبح مهيئاً ومؤهلاً للتكليم والنبوة والرسالة والإمامة وجعله وسيلة لإظهار دينه وتبليغ رسالته و إقامة حجته على عباده، وتخليص

بني إسرائيل من عبودية فرعون الطاغية وقومه الفاسقين، ودعوتهم إلى التوحيد والعمل الصالح وتربيتهم عليه، يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[١]، «**فمن أجل مهمة تلقي الوحي الصعبة، ومن أجل قبول الرسالة، ومن أجل هداية العباد وإرشادهم، ربيتك واخترتك في الحوادث الصعبة ومشاقها، ومنحتك القوة والقدرة، والآن حيث ألقيت هذه المهمة الكبرى على عاتقك، فإنك مؤهل من جميع الجوانب**»[٢]، ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «**كن لما لا ترجو أرضى منك لما ترجو، فإن موسى بن عمران خرج ليقبس لأهله ناراً فرجع إليهم وهو رسول نبي**»[٣]، فالإنسان كثيراً ما يأمل أن يصل إلى شيء لكنه يفشل في الوصول إليه، إلا أن أشياء أهم لا أمل له في نيلها تتهيأ له ويصل إليها بفضل الله تبارك وتعالى ومنه ورحمته عليه، مما يجعل الإنسان المؤمن يعيش الأمل دائماً ولا ييأس أبداً، ويفوض أموره كلها إلى الله عز وجل في الشدة والرخاء.

تعليمات إلهية لموسى وهارون تتعلق بإيصال الرسالة

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾

بعد أن اتضحت الصورة وأصبحت الرؤية واضحة، وأصبح كل شيء مهيئاً، وجعلت كل الوسائل اللازمة تحت تصرف موسى الكليم عليه السلام،

---

١. طه: ٤١

٢. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ٩، صفحة ٣٥٨

٣. نور الثقلين، جزء ٣، صفحة ٣٧٤

أمر الله ﷻ نبيه الكريم موسى الكليم وأخاه ووزيره وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام أن يذهبا برسالته الواضحة البينة التي أوحاها إليهما إلى فرعون الطاغية وملئه المستكبرين وقومه، وقد زودهما وأيدهما بما يثبت عن يقينٍ صدق نبوتهما ورسالتهما من رب العالمين سبحانه وتعالى، ويثبت الحق وحسنه وينفي الباطل ويكشف عن سوئه وقبحه من الآيات الكريمات والبينات النيرات الواضحات والمعجزات الباهرات القاهرات والبراهين القاطعة، وفي مقدمتها معجزتا العصا التي تتحول إلى ثعبان حقيقي ضخم، واليد السمراء التي تتحول إلى بيضاء جميلة من غير سوء وتشع نوراً بهياً يملأ المكان كالشمس الساطعة، قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾(١) وصيغة الجمع في لفظه ﴿آيَاتِي﴾(٢) تدل على أن كل آية من الآيتين السابقتين تنضوي على آيات أخرى، فتحول العصا إلى ثعبان آية، وعودتها إلى حالتها الأولى آية أخرى، وكذلك تحول اليد السمراء إلى بيضاء تشع نوراً آية، وعودتها إلى حالتها الأولى آية أخرى.

كما تدل صيغة الجمع على وعد إلهي جميل لموسى الكليم وهارون عليهما السلام بالتأييد لهما بآيات أخرى غير الآيتين، إشارة إلى بقية الآيات التسع، وهي آيات العذاب «الطوفان والجراد والقُمل والضفادع والدم والقحط ونقص الثمرات»، يقول الفخر الرازي: **«لأنهما لو ذهبا إليه بدون آية معهما لم يلزمه الإيمان، وذلك من أقوى الدلائل على فساد التقليد»**(٣).

---

١. طه: ٤٢

٢. نفس المصدر

٣. تفسير الفخر الرازي، جزء ٨، صفحة ٥١

ووجود هذه الآيات والمعجزات يدل على وجود الرقابة والمتابعة الإلهية، والحضور الإلهي في ساحة المواجهة والصراع، والتأييد والدعم الإلهي والمساندة غير المحدودة لموسى الكليم وهارون عليهما السلام وللمؤمنين معهما، ومن ذلك: ضمان حسن العاقبة والنصر على الأعداء والظفر بهم والتمكن منهم، بشرط اتباع التعليمات الإلهية والالتزام بالشروط.

ومن أجل رفع معنويات موسى الكليم وهارون عليهما السلام وحثهما على بذل أقصى الوسع من الجهد والطاقة والمساعي في تنفيذ الأوامر الإلهية والتعليمات والوصول إلى تحقيق الأهداف والغايات، فقد أكد لهما بأنه معهما يسمع ويرى، وأمرهما بالثبات والصمود والتحمل ونهاهم عن اليأس والقنوط، وحذرهما من الضعف والوهن أمام التحديات والصعوبات والعقبات والمشاكل التي من الممكن أن تواجههما وتقف في طريقهما، وأمام أيّ قوة أو قدرة استكبارية تقف في وجههما وتعترض طريقهما، طريق الحق والخير والفضيلة والحرية والتقدم والرخاء والازدهار، وتريد أن تمنعهما من الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، وتحيل بينهما وبين حمل الرسالة وأداء الأمانة والتذكير بأمر الله سبحانه وتعالى ونهيه وبنداء الفطرة والضمير والوجدان، وهذا التحذير منطقي للغاية ومقبول عند كل من يؤمن بأن الله عز وجل قريب مجيب، وأنه القادر على كل شيء يريد والقاهر فوق عباده والغالب على أمره، ولأن أي تهاون أو ضعف سيؤدي إلى فشل المهمة ويذهب بكل الجهود والمساعي أدراج الرياح، يتنافى مع روح الإيمان.

كما حذر الله عز وجل موسى الكليم وهارون عليهما السلام من التهاون والتقصير

والتخاذل في الدعوة إلى الإيمان والتوحيد والدين الإلهي الحق وفي تبليغ الرسالة والنهوض بمسؤولية تحرير بني إسرائيل، تحت تأثير التعلق بعالم الدنيا والمادة أو الخوف والطمع ونحو ذلك.

فلفظ الذكر يقع على جميع العبادات والطاعات، والدعوة إلى الإيمان والتوحيد واتباع الدين الإلهي الحق والاستقامة على الصراط المستقيم والنهج القويم والطريقة الوسطى وتبليغ الرسالة الإلهية ونصرة المؤمنين والمستضعفين والقيام بخدمتهم والسعي في قضاء حوائجهم من أَجَلِّ العبادات والطاعات وأعظمها، وهذا التحذير منطقي للغاية ومقبول عند كل مؤمن يؤمن بأن الدنيا إلى فناء وزوال والآخرة باقية بلا زوال أو فناء، وأن ما عند الله تبارك وتعالى من النعيم المقيم والرحمة الواسعة والزلفى والرضوان، خير وأبقى.

ولأن التهاون والتقصير والتخاذل يتنافى مع روح الإيمان وحقيقته وكماله، ولا يليق بالمؤمنين فضلاً عن الأنبياء الكرام والمرسلين عليهم السلام الذين هم أمناء على الوحي بالرسالة ومصالح الأمة، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[1].

وقيل: إن الله جل جلاله قد حذر موسى الكليم وهارون عليهما السلام من الكسل والفتور عن ذكره سبحانه وتعالى بتسبيح وتحميد وتهليل وتكبير ونحو ذلك، وعدم التقصير فيه، أي: حثهما على المداومة على ذكر الله ذي الجلال والإكرام والتزامه والاستمرار فيه.

---

١. طه: ٤٢

فلا يزال الله سبحانه وتعالى على ذكر منهما حيثما كانا، وحيثما تقلّبا، وعلى كل حال وفي مختلف الظروف والأوقات كما وعداه بذلك في قولهما: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[1]، أي: قد يحصل منك النسيان في كل شيء، ولكن لا يحصل منك النسيان لذكر الله ذي الجلال والإكرام؛ لأن بذكره تحيى القلوب والأرواح، وبه تقوم إنسانية الإنسان وتحفظ وتنمو وتتكامل وتصان حرمته وكرامته، وبه يزول عن الإنسان النسيان، وبه يوفق إلى معرفة الحق والعدل والخير والفضيلة والصواب، وفيه معونة إلى الذاكر على جميع الأمور، يسهلها ويخفّف حملها.

وكل من ينسى الله سبحانه وتعالى يموت قلبه وضميره ووجدانه، وتظلم روحه، ويضل فكره، وينسلخ من إنسانيته وتضيع كرامته، ويكثر نسيانه وغفلته مما فيه كماله وخيره وصلاحه ومصلحته وسعادته الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، ويكثر خطؤه وزَلله في أقواله وأفعاله ومواقفه وعلاقاته.

ولأن ذكر الله ذي الجلال والإكرام يوثق العلاقة بين الإنسان وربه ويعززها ويرسخها، ويكسب الإنسان المؤمن الذاكر صفات الله ذي الجلال والإكرام وأخلاقه، ويحثه على لزوم طاعته فيما يأمر به وينهى عنه وسلوك طريق رضوانه، ويسمو بنفسه ويرفعها في مدارج الكمال إلى منازل القرب والزلفى، ويسكنه في حظيرة القدس والنور والطهارة، ويمنحه الصدق واليقين والوفاء والإخلاص في العمل، والقوة والثبات في المواقف والجهاد

---

١. الكهف: ٢٤

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الحق والاستقامة والعمل الصالح، والتحمل والصمود في القبول بالذل والهوان والخضوع المذل لإرادة الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين، والانحراف وراء سيل المجرمين من الانتهازيين الأنانيين والنفعيين الفاسدين ونحوهم، تحت تأثير الخوف أو الطمع أو الترهيب أو الترغيب أو نحو ذلك.

وعليه: فإن ذكر الله ذي الجلال والإكرام فيه التوفيق والتسديد والتأييد، وأحسن المعونة وأفضلها على جميع الأمور، وللقيام بالمهام الصعبة والنهوض بالمسؤوليات الضخمة الثقيلة الدينية والدنيوية، وأدائها على أحسن وأكمل وجه وأتمه، ويسهلها ويخفف حملها على الإنسان، يقول الفخر الرازي: «**والحكمة فيه (يعني الذكر) أن من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحداً، ولأن من ذكر جلال الله تقوى روحه بذلك الذكر، فلا يضعف في المقصود، ولأن ذاكر الله لا بد أن يكون ذاكراً لإحسانه وذاكر إحسانه لا يفتر في أداء أوامره**»[1].

فكأن الله ﷻ قال لموسى الكليم وهارون عليهما السلام حين خاطبهما بقوله: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[2] أن اتخذا ذكري براقاً تعرجان به في مدارج معالي الكمال وتحلقان به في سماء عالم النور والطهارة والملكوت والمعرفة، وتستمدان به مني النور والتأييد والتوفيق والتسديد، والثبات والقوة والصمود والقدرة

١. تفسير الفخر الرازي، جزء ٨، صفحة ٥٢

٢. طه: ٤٢

على التحمل، ولقضاء الحوائج في جميع الأمور بأن لا أمر من الأمور يحدث أو يجري إلا بأمري وإرادتي ومشيئتي وتدبيري وحدي، لا يشاركني في ذلك أحد غيري.

وقيل ﴿لَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[1]، أي: عند فرعون الطاغية المتجبر، فعرّفاه حقيقة نفسه بأنه عبد مخلوق لرب العالمين، وأنه فقير في نفسه، ضعيف عاجز محتاج، وأن رب العالمين عزيز جبار، غني في نفسه، غير محتاج إلى غيره، وأن لا طاقة له على مجابهته، وعرفاه بآلائي ونعمائي وأنواع إحساني وثوابي وعقابي، وأني لا أرضى منه الكفر والضلال والظلم والطغيان والعدوان والاستكبار على الحق والإفساد في الأرض بغير الحق والإضلال للعباد، ونحو ذلك.

القوة والضعف يدوران مدار العلم والإخلاص

الجدير بالذكر: أن الضعف والقوة في ذات الله ﷻ والقيام بالواجبات الدينية، والنهوض بالمسؤوليات العامة، تدور مدار العلم والصدق والإخلاص، فكلما كان الإنسان أكثر يقيناً ومعرفة بالله ذي الجلال والإكرام، وأكثر صدقاً وإخلاصاً في إيمانه، والمعرفة اليقينية تولد بالطبع الصدق والإخلاص، وهي سابقة عليهما، كلما كان أكثر قوةً في ذات الله سبحانه وتعالى وثباتاً في مواقفه التي يتخذها على طريق الحق والعدل والخير والفضيلة والإصلاح والصلاح والمصلحة العامة، وأمام التحديات

١. نفس المصدر

والعقبات والصعوبات والمشكلات والترغيب والترهيب ونحو ذلك، وأكثر استعداداً للتحمل والصبر والتضحية والبذل والفداء في سبيل ما يؤمن به ويدافع عنه ويطالب به، ولتحصيل النعيم الإلهي المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال والرضوان العظيم، والدخول إلى ساحة القدس الإلهي والنور والطهارة التي لا يدخلها إلا الطاهرون من أرجاس المعاصي والذنوب والآثام والشهوات الحيوانية والأهواء الشيطانية، المطيعون لله ﷻ فيما يأمرهم به وينهاهم عنه في جميع شؤونهم العامة والخاصة وفي جميع الظروف والأحوال والأوضاع، والمطيعون كذلك لرسوله الكريم الناصح الأمين، ولأئمة الهدى الطاهرين المهديين عليهم السلام وللفقهاء المؤتمنين على الشريعة الإلهية، قول الله تعالى: ﴿إِنا أَنْزَلْنَا التوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبِيونَ الذِينَ أَسْلَمُوا لِلذِينَ هَادُوا وَالربانِيونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا الناسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[1]، فالآية الشريفة المباركة تحدد ثلاث مرجعيات مؤتمنة على الدين والشريعة ومصالح الأمة، وتتحمل مسؤولية الدعوة إلى الدين الحق وتبليغه وبيانه للناس، وحمايته من التحريف والتبديل، والإشراف على تطبيقه بشكل صحيح في واقع الحياة، والمرجعيات هم: الأنبياء الكرام عليهم السلام، والربانيون وهم الأوصياء المحدثون الطاهرون المهديون عليهم السلام، والأحبار وهم الفقهاء العدول العاملون بالدين والشريعة عن طريق التعلّم والاكتساب، وهذا يدل على أن الدعوة والعمل يجب أن تستند إلى العلم الصحيح والحجة وليس إلى الظن والتخمين والخيالات الباطلة.

---

١. المائدة: ٤٤

وفي المقابل، كلما كان الإنسان أكثر جهلاً، وأقل يقيناً ومعرفة بالله ذي الجلال والإكرام، وأكثر غفلة عنه ونسياناً له وبعداً عنه، وكلما كان أقل صدقاً في إيمانه و إخلاصاً لربه وتعلقاً به، - وقلة المعرفة وضعف اليقين، يترتب عليهما قلة الصدق والإخلاص بالطبع -، كلما كان أكثر ضعفاً في ذات الله ذي الجلال والإكرام وأقل ثباتاً في مواقفه التي يتخذها في الحياة على طريق الحق والعدل والخير والفضيلة والصلاح والإصلاح والمصلحة العامة، وأقل تحملاً وصموداً في مواجهة التحديات والصعوبات والمشاكل والمغريات والمرهبات، وأقل استعداداً للبذل والتضحية والفداء في سبيل ما يؤمن به ويدافع عنه ويطالب به، ويحركه في العادة المجاملة والتملق، والخوف والطمع والترهيب والترغيب، والتعصب والتقليد الأعمى، وذلك من الجاهلية الجهلاء، وبعيد عن الفضيلة ونور الإيمان وحقيقته وكماله.

والمعرفة اليقينية تدور مدار الكشف والرؤيا والمشاهدة، قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ السمَاوَاتِ وَالأرض وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِين﴾[1] أي: أدى الله تبارك وتعالى بنبيه الكريم وخليله إبراهيم عليه السلام وكشف لقلبه وبصيرته الحقائق العينية التي تدل على كمال الذات الإلهية المقدسة، وصفاتها صفات الجمال وصفات الجلال، وتنزهها عن العيوب والنقائص، وجهة انتساب السماوات والأرض وجميع الأشياء والموجودات في عالم الممكنات إلى الله ذي الجلال والإكرام سبحانه وتعالى.

أي: كشف لقلبه وبصيرته حقيقة كونها مخلوقة لله عز وجل وقائمة به

١. الأنعام: ٧٥

وخاضعة لربوبيته و إرادته وتدبيره، وما فيها من عجائب الخلق والقدرة والدلالة الساطعة القاطعة على التوحيد؛ لمعرفة مقامي الألوهية والربوبية بالشهود والرؤيا القلبية، وهدايته لمعرفة طرق النظر والاستدلال الصحيح.

أي: جمع له العلم اللدني والشهود القلبي والعلم الكسبي البرهاني والتجريبي؛ ليكون في جميع الأحوال من الموقنين، كاملي اليقين في حقائق التوحيد، الراسخين في الإيمان البالغين أعلى مراتب الكمال، العاملين الصالحين، الناهضين بجميع التكاليف والمسؤوليات الدينية، الذين لا يخالط إيمانهم ويقينهم الشك والريب والتردد.

والآية الشريفة المباركة تدل على أن نور الله ذي الجلال والإكرام ظاهر على الدوام، قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]، وأن الأرواح البشرية الشريفة الطاهرة النقية النظيفة مؤهلة لرؤية هذا النور ومشاهدته بطبيعتها، ولا تكون البشرية محرومة منه إلا لأجل حجاب منها يحجبها عنه، مثل: حجاب التعلق بعالم الدنيا والمادة والمصالح والمقاصد الفاسدة، والاستغراق في الشهوات الحيوانية والملذات الحسية والتأثر بالأهواء الشيطانية ونحو ذلك.

وعليه: فبقدر ما يزول من ذلك الحجاب تتأهل النفس ويحصل التجلي الإلهي ويستطيع ذلك النور الملكوتي الإلهي في قلب الإنسان، ويضيء روحه وكامل وجوده وكيانه، ويحصل له التوحيد العيني في الأشياء والإيمان الراسخ، وهذا يدل على أن حقيقة العلم اليقيني هي

١. النور: ٣٥

انكشاف ما وراء الحس من حقائق الكون العينية.

وأما الصدق والإخلاص فيدوران بعد المعرفة واليقين مدار حسن الطبع، ونقاء الفطرة وصفاء السريرة، والإدراك الواضح للعلاقة الوجودية الوثيقة والثابتة بين كمال الإنسان وخيره وصلاحه ومصلحته وسعادته الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، وبين معرفة الحقائق الإلهية والكونية والعمل بمقتضاها، فقد يكون الإنسان أو غيره على علم ويقين تام بالحقائق، ولكنه لخسته وسوء طبعه وفساد سريرته وتلوث فطرته يعمل على خلاف مقتضى الحقائق الوجودية الإلهية والكونية التي عرفها وتيقن منها، مثل: إبليس اللعين، وبلعم بن باعوراء الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

روي أن بلعم بن باعوراء كان عالماً ربانياً بارزاً ومشهوراً من علماء بني إسرائيل المعاصرين لموسى الكليم عليه السلام، عُلِّم الاسم الأعظم، وعرف بكثرة الكرامات الخاصة الباطنية، وكان مستجاب الدعاء، فلما نزل موسى الكليم عليه السلام في المدينة التي يسكنها، جاء بنو عم بلعم بن باعوراء وقومه إليه، وكانوا لا يريدون التسليم والانقياد لموسى الكليم عليه السلام، فقالو لبلعم بن باعوراء: إن موسى رجل حديد ومعه جند كثير، وإنه إن يظهر علينا

---

١. الأعراف: ١٧٥-١٧٦

يهلكنا، فادع الله أن يرده ومن معه عنا، وكان بلعم بن باعوراء يشاركهم الرغبة حسداً منه لولي الله الأعظم ورسوله الكريم عليه السلام، لكنه كان يخاف سوء العاقبة في الدارين الدنيا والآخرة، فقال لهم: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه، مضت أو خسرت دنياي وآخرتي.

فلم يتركه بنو عمه وقومه وحاولوا معه، ولم يزالوا يحاولون معه حتى دعا الله سبحانه وتعالى حسداً من نفسه على ولي الله الأعظم موسى الكليم عليه السلام، ونزولاً عند رغبات قومه الضالين عن جادة الحق والعدل والخير والفضيلة والصلاح والصواب، واتباعاً منه لأهواء النفس الشيطانية وشهواتها الحيوانية، وطمعاً في حطام الدنيا الفانية وزينتها وزخرفها، وحباً منه للرئاسة والزعامة والامتيازات المادية والمعنوية والصلاحيات الواسعة بدون حق، مخالفاً بذلك العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم والدين الحنيف وما كان يعلمه عن يقين من الحقائق والسنن الإلهية، فظهر بذلك الخبث الكامن من نفسه وسوء طبعه وفساد سريرته، وانسلخ بالكلية من إنسانيته وما كان عليه من العلم بآيات ربه الكريمة وبيناته الواضحة، كما تنسلخ الشاة أو الحية من جلدها، فطرد من ساحة القدس الإلهي كما طرد إبليس اللعين من قبله، قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنكَ مِنَ الصاغِرِينَ﴾[1]، فصار من الأشقياء التعساء، وقريناً للشيطان الرجيم، ومثله في الطباع والخصال والسلوك والمنهج، وأصبح من الغاوين المتمكنين من الغواية والكفر والضلال، والبعيدين عن الرشد والهدى والحكمة والصواب.

---

١. الأعراف: ١٣

وعليه: ليس كل من يعلم يعمل بمقتضى علمه، والعلم وحده ليس بضمانة للنجاة وتحصيل السعادة، بل يجب أن يقترن العلم بالعمل.

وليس كل الضالين والظالمين جاهلين بحقيقة أعمالهم وسوء عاقبتهم في الدارين الدنيا والآخرة، فقد يضل البعض ويعمل على إضلال غيره عن علم ويقين بحقيقة ضلاله وسوء عمله، ولكنه يعاند ويكابر.

وهذان الفريقان من أكثر الناس سوءً وشقاء في الدارين، ويعانون من العذاب النفسي والروحي دائماً ولا يشعرون بالراحة أبداً، قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[1].

وهذه حقائق قيمة يجب أن يعيها المؤمنون؛ ليقفوا على حقيقة من يواجهون في الحياة، ويكونوا على يقين منهم، وفهماً لسلوكهم وتصرفاتهم ومقاصدهم الفاسدة في الحياة، وسوء عاقبتهم والذين يتبعونهم ويتأثرون بهم.

والخلاصة: لا تكفي المعرفة لتحصيل الانقياد والتسليم للحق والثبات والقوة في المواقف، وإنما يجب أن يقترن بالمعرفة الصدق والإخلاص، وهذا يحتاج إلى سلامة الطبع والفطرة ونقاء السريرة، وبهذا نستطيع أن نفهم حقيقة العصمة والتقوى، وتعني العصمة: توفر المعصوم على ملكة نفسانية قوية تمنعه من ارتكاب المعصية في جميع الظروف والأحوال، وهي تدور مدار العلم اليقيني التام الكامل وسلامة الطبع ونقاء السريرة والصدق في الإيمان والإخلاص الكامل في نية العمل، وهي لا تعني الجبر

---

١. طه: ١٢٤

ولا تتنافى مع الاختيار.

وأما التقوى فهي الخشية والهيبة، وجعل النفس في وقاية مما يخاف منه ويحذر، وتنزيه القلوب من الذنوب، وهي تجمع الشروط الثلاث: العلم والإخلاص ونقاء السريرة.

ويمكن في هذا الصدد الإشارة الإجمالية وباختصار شديد إلى العوامل الرئيسية التي تحدد أنماط الشخصية وما تتمتع به من قوة وضعف وثبات وتراجع في المواقف، وهي:

١. الوراثة.

٢. التربية الذاتية والأسرية والمجتمعية.

٣. المعرفة والتجارب الروحية والعملية.

٤. الملكات الأخلاقية والخصال التي يتمتع بها.

٥. الظروف والتحديات والإغراءات.

٦. الأرباح والخسائر المادية والمعنوية، الماثلة والمتوقعة.

وغير ذلك.

علة الرسالة الإلهية لفرعون

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾

ثم بين الله ﷻ لموسى الكليم وهارون عليهما السلام العلة وراء إرسالهما إلى فرعون، قوله تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[1]، أي: إن فرعون بغى وطغى وتعالى وتكبر وتجبر على الناس، وادعّى كذباً وزوراً وبغير حق ولا دليل ولا برهان الألوهية والربوبية، وكفر بالله رب العالمين سبحانه وتعالى، وتجاوز الحد في كفره وضلاله وطغيانه وعدوانه وتمرده على الله ﷻ وعلى الحق والعدل والخير والفضيلة، ومال إلى الشيطان الرجيم وإلى الباطل والظلم والشر والرذيلة وتخلق بأخلاق الشيطان وعمل مثل أعماله، وأسرف في الظلم والبطش والعناد والإضلال والإفساد في الأرض بغير الحق ونحو ذلك، وكان السبب وراء كل شقاء وتعاسة تصيب أبناء الأمة على صعيد الأمن والسياسة والاقتصاد والمعيشة ونحوها، وما لم يتم إصلاحه وإعادته إلى رشده وصوابه، فلن تكون هناك فرصة حقيقية للإصلاح واجتثاث الفساد وإسعاد الأمة وتحسين أوضاعها الأمنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها؛ لأن عنوان تقدم الأمة وتخلفها، سعادتها أو شقائها، رخائها أو بؤسها، هم حكامها وقادتها ونظام حكمها وأسلوب إدارتها وتدبر شؤونها، وعليه: يجب أن يكون نظام الحكم والدستور والحكام والقادة، قبل أي شيء آخر، هدف كل حركة إصلاحية أو ثورية جادة، ولهذا وجب عليكما أن تقصدا فرعون بالذات وتستهدفانه مع

---

١. طه: ٤٣

ملئه قبل غيرهم.

وهنا تنبغي الإشارة إلى ضرورة التمييز بين ثلاث حالات رئيسية، وهي:

أ. من يكفر بالله سبحانه وتعالى ويضل عن الدين الإلهي الحق لقناعة حصلت له بسبب شبهات عرضت له أو منطق أو منهج خاطئ، أو تقليد للآباء والأجداد أو نحو ذلك، لكنه لا يتعمد الإضلال للآخرين ولا يسعى إليه، ولا يمارس الظلم والفساد والإفساد في الأرض بغير الحق، فهذا يُحاوَر ويُنصَح ويُدعى إلى الحق والتوحيد بالتي هي أحسن، ويؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإن استجاب و إلا ترك لخيار نفسه.

ب. من يكفر بسبب العناد والتكبر على الحق وأهله، ويدعو إلى الكفر والضلال، ويمارس الفساد والإفساد في الأرض بغير الحق، ويحارب أهل الحق ويعارضهم ويناهضهم بكل وسيلة، بالقول والفعل، ولا يترك وسيلة ممكنة أو متاحة إلى ذلك إلا أخذ بها، فهذا لا يترك وشأنه، و إنما يدافع ويجابه بالأساليب الحضارية والوسائل المشروعة الرادعة لدفع فساده، قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1]، أي: لولا دفع الله سبحانه وتعالى الناس الفاسدين الذين يباشرون الشرور والفساد والطغيان والعدوان والأعمال السيئة بأناس آخرين صالحين يكفونهم عن أعمالهم الشريرة وفسادهم، ويمنعونهم بالجهاد في

١. البقرة: ٢٥١

سبيل الله ﷻ والحق، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتغلب المفسدون وكثروا واشتدت قوتهم وقويت شوكتهم وعمت شرورهم الأرض بأسرها، وبطلت منافع الحياة، وتعطلت المصالح الحقيقية للناس، ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض ولكن الله سبحانه وتعالى ذو فضل عظيم على الناس في دينهم ودنياهم بتشريعه للجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ للتصدي للفساد والمفسدين لئلا يعم الفساد الأرض ويستأصل أهلها، ومنتهى المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان بظهور الدين الإلهي الحق، ويعم الحق والعدل والخير والصلاح والفضيلة الأرض كلها ويسعد الناس جميعاً بنعمة الله تبارك وتعالى عليهم.

ج. من يكفر بسبب العناد والاستكبار على الحق وأهله، وهو يشغل مناصب قيادية في الدولة والمجتمع، ويوظف سلطته وإمكانياته المادية والبشرية والمعنوية في الدعوة إلى الكفر والضلال والظلم والطغيان والعدوان والإفساد في الأرض ومحاربة الأولياء الصالحين والمصلحين وأهل الحق والمطالبين بالحقوق، مثل: الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والمترفين الفاسدين ونحوهم فهؤلاء يجب أن يقصدهم الدعاة والمصلحون والثوار، ويستهدفوهم بشكل مباشر، ولا يتركوهم وشأنهم لما يمثلونه من خطر جدي على الإنسانية جمعاء ومسيرتها التاريخية التكاملية.

وقد ثبت بالتجربة التاريخية والمعاصرة: أن تقدم الأمة وازدهارها أو

تخلفها وانحطاطها الفكري والروحي والتربوي والحضاري، يتوقف إلى حد كبير وفي المقام الأول على قادتها وحكامها وزعمائها، وفي الحديث الشريف: «**الناس على دين ملوكهم**»، وفي الحديث عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «**إنمّا الناس مع الملوك والدنيا، إلا من عصم الله**»[١].

وعليه: ينبغي على الدعاة والمصلحين والثوار أن يستهدفوا هؤلاء ويقصدوهم بشكل مباشر ولا يتركوهم وشأنهم إذا كانوا جادين في حركتهم الثورية والإصلاحية بحق وحقيقة وما لم يفعلوا، فلن يكون هناك إصلاح حقيقي أو تغير جذري.

التوصية الإلهية لموسى وهارون بالرفق واللين مع فرعون

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾

ثم أسدى الله سبحانه وتعالى بعض التعليمات الأساسية التي تتعلق بإيصال الرسالة بشكل واضح وخالٍ من كل لبس أو غموض ولا يقبل الاجتهاد والتأويل، ومن أجل إيجاد أفضل الفرص للنجاح، فقال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[٢]، أي: عليكما بمراعاة مكانته ومقامه ونفسيته ونمط شخصيته وتفكيره ولا تتجاهلوا شيئاً من ذلك، فلا تجابهاه بما يكره، وخاطباه بالرفق وقولا له قولاً سهلاً لطيفاً ليناً، وبأدب

---

١. نهج البلاغة، خطبة ٢١٠

٢. طه: ٤٤

بالغ، بعيداً عن الصلف والخشونة والتعنيف والغلظة والفحش والفظاظة والقسوة، وكنياه، أي: خاطباه بكنيته.

وقيل كان فرعون يكنى بكنى عديدة مثل أبي الوليد وأبي مصعب وغيرهما.

وباشرا إيصال الرسالة مباشرةَ من يرجو ويطمع في أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه ويصل إلى مراده، ولا تدخرا جهداً أو مسعىً في ذلك، أي: إبذلا أقصى ما لديكما من الجهد والوسع والطاقة، ولا تدخرا شيئاً من ذلك من أجل الوصول إلى الهدف و إقامة الحجة، ولكن بدون مداهنة أو تملق أو تلبيس للحقائق أو أي شيء من نحو ذلك؛ لأنه مخالف للصدق ولروح الرسالة وحقيقتها ويبطل الحكمة منها ولا يحقق غايتها.

فإن فعلتما ذلك فهو سلوك حكيم ومن شعارات الدين الإلهي الحنيف، قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[1]، وهو من أوجب واجبات الشريعة وألزم آدابها وأخلاقها، وأحرى بفرعون أن يمعن النظر فيما تبلغانه، ولا تستفزان لديه آليات المقاومة النفسية والدفاع عن الذات التي تحجبه عن رؤية الحق والاستماع إليه وتعقّل آياته وبيناته، فتكون له الحجة عليكما بدل أن تكون لكما الحجة عليه.

وقيل بحق: إن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم في الوعظ، أن يزدادوا عتواً ونفوراً وتكبراً على الحق وأهله، وهذا ما ثبت بالتجربة الواسعة

---

١. آل عمران: ١٥٩

التاريخية والمعاصرة، وهو مخالف للحكمة والمراد.

ومن شأن المخاطبة باللطف واللين والمنطق الملائم، وبيان المطالب بصدق وصراحة ووضوح وحزم، أن يساعد على العودة إلى الرشد والعقل والوجدان والفطرة والضمير وما ترشد إليه من قيم إنسانية ومنطق سليم، فيستمع إلى الأدلة الواضحة الساطعة القاطعة، ويتأمل في المعجزات والآيات والبينات بموضوعية ونزاهة فيعقلها ويستيقظ قلبه وضميره على وقعها، فيتعظ ويقبلها ويأخذها، فيعطي الإنصاف من نفسه، ويذعن للحق ويسلم له ويرجع عن إنكاره، فيؤمن ويعمل بمقتضى إيمانه برجاء جلب الخير والمنفعة لنفسه فينفع نفسه وتحسن عاقبته ويكون من السعداء الفائزين المفلحين في الدارين الدنيا والآخرة، وهذا هو مقصد الرسالات السماوية في الأساس والمقام الأول، وليس المقصود منها زيادة الضرر وإهلاك العباد، فإن الله واسع الرحمة رؤوف بالعباد.

وإن لم يفكر في الخير والمنفعة لنفسه، فإنه قد يفكر في دفع الضرر عن نفسه في الدارين الدنيا والآخرة، ويحرص على ذلك تمام الحرص، فيخاف من العقاب الإلهي وعاقبة السوء على نفسه في الدارين الدنيا والآخرة، وزوال ملكه إن هو خالف ما جئتما به إليه، أي: يخاف أن يكون الأمر كما تصفان بعد أن يكون قد رأى الآيات الكريمات والبينات الواضحات والمعجزات النيرات الباهرات القاهرات الدالة على صدق نبوتكما ورسالتكما، واستمع إلى أدلتكما المنطقية التامة المحكمة، فيجره ذلك إلى الإذعان للحق والتسليم به، فيؤمن ويجيبكما إلى كل أو بعض

ما جئتما به إليه وما تطلبانه منه، من الإصلاحات الدينية والسياسية والحقوقية الواقعية المشروعة، ولا يخالفكما لكي لا يجره إنكاره ومخالفتكما إلى الهلكة، فالعقل والمنطق والطبع السليم تدفع صاحبها إلى التحرز والحذر الشديد من المهالك والأخطار العظيمة حتى مع الاحتمالات الضئيلة لوقوعها، فإن شدة الحذر والتحرز من المخاطر والمهالك تتأثر بدرجة اليقين بوقوع الخطر، وبدرجة خطورته، فكلما كان اليقين أكثر، كان الحذر أشد، وكلما كانت درجة الخطورة كبيرة، كان الحذر أشد حتى لو كان اليقين بوقوعه ضئيلاً.

وقد ثبت بالتجربة، وأكد علماء النفس والأخلاق: أن القول اللين مشوّق عادة، وتحبه النفس وتميل إليه، ويؤدي إلى إمضاء الأمور و إنجاح المقاصد. والقول العنيف منفّر وتكرهه النفس عادة وتنفر منه، ويؤدي إلى اختلال الأمور و إفشال المقاصد.

يقول الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: «**إن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه**»[١]، ويقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**عليك بالرفق فإنه مفتاح الصواب وسجية أولي الألباب**»[٢]، وفي حديث آخر: «**الرفق مفتاح النجاح**»[٣]، ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «**إن الله عزّ وجلّ رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»[٤]، ويقول النراقي:

١. الكافي، جزء ٢، صفحة ١١٩

٢. غرر الحكم ٦١٤

٣. غرر الحكم ٢٩٤

٤. الكافي، جزء ٢، صفحة ١١٩

«التجربة شاهدة بأن إمضاء الأمور وإنجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق، فكل ملك كان رفيقاً بجنده ورعيته انتظم أمره ودام ملكه، وإن كان فظاً غليظاً اختل أمره وانفض الناس من حوله وزال ملكه وسلطانه في أسرع زمان. وقس عليه غيره من طبقات الناس من العلماء والأمراء وغيرهما من ذوي المناصب الجليلة وأرباب المعاملة والمكاسبة وأصحاب الصنايع والحرف»[1]. فالإنسان بطبيعته مجبول أو مفطور على دفع الضرر عن نفسه، وجلب النفع إليها.

ويختلف تأثير هذا من العاملين في الناس، فمنهم من يتأثر بالحرص على دفع الضرر عن نفسه أكثر من تأثره بالحرص على جلب المنفعة إليها، فإذا كانت هناك منفعة ولم يكن هناك ضرر، فإنه قد لا يستجيب ولا يتحرك، أي: لا تحركه المنفعة، وإذا كان هناك ضرر وإن لم تكن هناك منفعة فإنه يستجيب ويتحرك، أي: يحركه الخوف من الضرر.

ومنهم من يتأثر بالحرص عل جلب المنفعة لنفسه أكثر من تأثره بالحرص على دفع الضرر عنها، فإذا كان هناك ضرر ولم تكن هناك منفعة فإنه قد لا يستجيب ولا يتحرك، أي: لا يحركه الخوف من وقوع الضرر، وإن كانت هناك مصلحة وإن لم يكن هناك ضرر، فإنه يستجيب ويتحرك، أي: تحركه المنفعة، وهذا يتوقف على غلبة قوة الشهوة أو الغضب لدى الفرد.

وعليه: جمع الله سبحانه وتعالى بين الترهيب والترغيب، البشرى

١. جامع السعادات، النراقي، جزء١، صفحة ٢٠١

والإنذار في دعوات الرسل الكرام عليهم السلام إلى الإيمان والتوحيد، قول الله تعالى: ﴿رُسُلاً مبَشِرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلناسِ عَلَى اللهِ حُجةٌ بَعْدَ الرسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[١]، وقول الله تعالى: ﴿وَما نُرسِلُ المُرسَلينَ إِلا مُبَشِرينَ وَمُنذِرينَ فَمَن آمَنَ وَأَصلَحَ فَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنونَ ﴿٤٨﴾ وَالذينَ كَذبوا بِآياتِنا يَمَسهُمُ العَذابُ بِما كانوا يَفسُقونَ﴾[٢].

وقد ثبت بالتجربة الواسعة التاريخية والمعاصرة أن ميول الفراعنة المتجبرين والحكام الطغاة المستبدين الظالمين إلى التحرك والاستجابة تحت تأثير الحرص على دفع الضرر، ولهذا فهم يأخذون بالتهمة والظنة، ويوجهون الضربات الاستباقية لخصومهم ومعارضيهم؛ خوفاً من أن يتقووا ويظهروا عليهم ويأخذوا السلطة منهم أو يقيدوا إرادتهم ويقلصوا من صلاحيتهم أو يقللوا من امتيازاتهم أو نحو ذلك، ولا يتحرجون من ارتكاب أشد الجرائم وحشية وأشنعها همجية، مثل: القتل والسجن والتعذيب والتنكيل والتضييق والطرد والتشريد ونحو ذلك؛ لغلبة القوة الغضبية لديهم.

وعليه: فقد لجأ فرعون الطاغية إلى ذبح الأطفال الذكور من بني إسرائيل؛ خوفاً من تكاثرهم وتقويهم عليه؛ وخوفاً من أن تصدق نبوءة الكاهن بأن يولد منهم مولود تكون على يديه نهايته ونهاية ملكه ونظامه الفاسد.

---

١. النساء: ١٦٥

٢. الأنعام: ٤٨-٤٩

وهذا ما يفعله الفراعنة المتجبرون والحكام المستبدون الظلمة والمترفون المستعلون والمستكبرون الطغاة في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا.

وقد اتخذ الفراعنة والحكام المستبدون في الوقت الحاضر أساليب جديدة عصرية تتناسب مع روح العصر وأدواته وآلياته وأساليبه ووسائله؛ لحماية عروشهم؛ ولاستمرار بقائهم في السلطة ودوام مصالحهم وصلاحياتهم وامتيازاتهم بغير رضا أبناء الشعب وعلى خلاف إرادتهم ومصالحهم، منها: توظيف المؤسسات الصورية التشريعية والقضائية ومؤسسات المجتمع المدني؛ لتحقيق أهدافهم غير المشروعة وغاياتهم الخبيثة، وقد تنبه المجتمع الدولي والرأي العام العالمي ومؤسسات حقوق الإنسان، لذلك فأكدوا على عدالة القانون وتوافقه مع المواثيق الدولية وحقوق الإنسان، وأن يكون الدستور والقوانين والمؤسسات تعبر عن الإرادة الشعبية، وعدم الاكتفاء بشعار دولة المؤسسات والقانون، فإن أكثر دول العالم دكتاتوريةً واستبداداً ودمويةً وانتهاكاً لحقوق الإنسان في الوقت الحاضر، يوجد بها دستور وقوانين ومؤسسات.

وقيل: إن القول اللين الذي أمر الله ﷻ به موسى الكليم وهارون عليهما السلام قوله: ﴿فَقُلْ هَل لَكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾[1]، ففي هذا القول: لطف وسهولة وعذوبة للنفس، ولفظ ﴿هَل﴾[2]: يدل على التضامن

---

١. النازعات: ١٨-١٩

٢. نفس المصدر

والتبادل والمشاورة، ثم دعاه إلى التزكّي والتطهّر من الأدناس والذنوب والموبقات والسير في طريق الحق والعدل والخير والفضيلة والصلاح والكمال الإنساني، وهذا مما يأخذ بمجامع القلوب ويقبله كل عقل سليم ويرتضيه كل إنسان سوي لنفسه، ويبحث عنه ويطلبه أولو الرشد والألباب، ويتنافسون فيه، لاسيما أن لفظة ﴿تَزَكَّى﴾[١]: يعني أن تقوم أنت بتزكية نفسك وتطهيرها، ولم يقل: أزكيك، كأنه يجعل نفسه فوقه ورقيباً ووصياً عليه وهو تابع وخاضع له، فيحمله ذلك على البغي ويزداد عتواً وعناداً وكفراً.

ودعاه إلى سبيل ربه الرحيم القهار القائم على التدبير لأمره وشأنه وأحواله والمنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، والذي إليه مرجعه ومصيره، وهذا من شأنه أن يدفعه إلى المزيد من معرفته وحبه ورجاء رحمته الواسعة والخشية من غضبه وعقابه، والقبول بهذا الأمر بعد ثبوته وقيام الدليل عليه من موجبات الفطرة والطبع السليم والعقل والمنطق.

وتنبغي الإشارة إلى أن لفظة ﴿لَعَلَّه﴾ في قوله ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[٢] يدل على حالتين:

أ. أن يقبل الدعوة ويؤمن عن قناعة تحت تأثير الرغبة في الخير وجلب المنفعة لنفسه، أو تحت تأثير الرهبة والخوف من سوء العاقبة في الدارين الدنيا والآخرة، وهو المطلوب في المقام الأول.

---

١. نفس المصدر

٢. طه: ٤٤

ب. أن يستمر في العناد والاستكبار و إنكار الحق ومجابهته، وتكون الفائدة من دعوته إلى الحق و إظهار الآيات والمعجزات والأدلة القاطعة، هي إقامة الحجة التامة عليه تمهيداً لمؤاخذته وعقابه.

فالعبارة: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[1] تحمل روح الرجاء للاستجابة للدعوة، وهذا من شأنه أن يرفع معنويات الداعية، وهما: موسى الكليم وهارون عليه السلام، ويزيد في رغبتهما وحرصهما على الاجتهاد والمثابرة وبذل أقصى الوسع والطاقة، ويمنع من اليأس والقنوط، وهما مما يهبط بالمعنويات ويدفع إلى الكسل والخمول والتقصير، وعليه: فإن هذا التعليم الإلهي ينسجم كلياً مع التحذير لموسى الكليم وهارون عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾[2]، فبدون الرجاء لا توجد قيمة واقعية من التحذير من التقصير والكسل والفتور.

وفي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «**واعلم أن الله جل ثناؤه قال لموسى عليه السلام حين أرسله إلى فرعون:** ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[3]، **وقد علم أنه لا يتذكر ولا يخشى، ولكن ليكون ذلك أحرص لموسى عليه السلام على الذهاب**»[4]، وذلك لكي تقوم الحجة البالغة التامة لله سبحانه وتعالى على فرعون، ولا تكون له على الله جل جلاله حجة ولا عذر إذ يهلكه في الدنيا أو يعذبه في الآخرة، قول الله

١. نفس المصدر

٢. طه: ٤٢

٣. طه: ٤٤

٤. الكافي، جزء ٧، صفحة ٤٦

تعالى: ﴿وَلَو أَنا أَهلَكناهُم بِعَذابٍ مِن قَبلِهِ لَقالوا رَبنا لَولا أَرسَلتَ إِلَينا رَسولاً فَنَتبِعَ آياتِكَ مِن قَبلِ أَن نَذِل وَنَخزى﴾[1] أي: لو أنا أهلكناهم بسبب كفرهم بعذاب من قبل أن نبعث إليهم رسولاً ونقيم الحجة عليهم، لقالوا يوم القيامة ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً من عندك في الدنيا فنتبع آياتك التي يأتي بها الرسول، قبل أن نذل بعقوبة الهلاك والاستئصال في الدنيا، ونخزى بعذاب نار جهنم وفضيحة العار في يوم القيامة. فهذا ما يلزم به العقل والمنطق، ولكانت الحجة لهم علينا، لكنا ألقمناهم ناراً وقطعنا عليهم كل عذر على أيدي الرسل والذين جاؤوهم بالآيات والبينات والمعجزات النيرات القاهرات، وأقمنا عليهم الحجة التامة البالغة، ومع ذلك عاندوا وجحدوا الحق وأنكروه ولم يؤمنوا حتى رأوا العذاب الأليم وكانت لنا الحجة عليهم، وهذا يدل على وجوب اللطف الإلهي بالعباد.

وإقامة الحجة مما ينبغي أن يلتفت إليه الدعاة والمصلحون، ويأخذوا به في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وإلى الدين الحق أو في المطالبة بالإصلاح والحقوق، وهذا يتطلب أن تكون القضية عادلة، وأن تكون المطالب والأهداف واقعية وقابلة للتحقيق، والأساليب والوسائل مشروعة ومناسبة، وتقف وراء ذلك استراتيجية واضحة المعالم والخطوط، وخطط وبرامج عمل فاعلة ومؤثرة، والتحلي بالجرأة والشجاعة الكافية التي تلامس الإمكانيات المتوفرة المادية والبشرية والمعنوية، وتفعلها ولا تقصر عنها في الحركة والمقاومة ونحو ذلك.

---

١. طه: ١٣٤

وقد ثبت بالتجربة الواسعة التاريخية والمعاصرة، أن اللين يعطي غالباً أكثر وأفضل مما يعطي العنف والخشونة، ولكن الذين يتأثرون باللين غالباً هم العامة من الناس، أما الخاصة من الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظالمين والمترفين المستغلين والمستكبرين الطغاة والانتهازيين الأنانيين سيئي الخلق والطبع والنفعيين الخبثاء الساقطين ونحوهم، فإنهم أقل تأثراً بالرفق واللين والإحسان، وقد يسعون إلى قلب الحقائق وتضليل الرأي العام وتهييجه على الأولياء الصالحين الشرفاء الأوفياء والمطالبين بالحقوق المخلصين والاستفادة من كل الفرص، حتى روحهم الطيبة للإضرار بهم، لأنهم لا يقيمون وزناً للحقائق والحقوق والمنطق والقيم والمبادئ والدين والمصلحة العامة الإنسانية والدينية والقومية والوطنية والجماعية، ولا تهمهم، وإنما يقيمون الوزن والاهتمام لذواتهم ولرغباتهم وشهواتهم وملذاتهم ومصالحهم وآرائهم وأهوائهم، وهدفهم قلب الطاولة على معارضيهم بأي وسيلة، ومع ذلك لا ينبغي للدعاة والمصلحين والمطالبين بالحقوق أن يبدؤوهم بالخشونة والعنف في الأقوال والأفعال، لأنه منهي عنه عقلاً وشرعاً وعلى خلاف الخلق الحميد والفطرة والطبع الإنساني السليم.

لأنهم إن فعلوا ذلك معهم، فإنهم يستفزون دفاعاتهم النفسية، فيلجأوا إلى المقاومة والدفاع عن الذات بشكل انفعالي بعيداً عن العقل والمنطق والواقعية والرشد، فيشكل حجاباً إضافياً غليظاً يحجبهم عن رؤية الحق والمصلحة الحقيقية لأنفسهم وغيرهم، ولا يسمعون إلى الأمناء الناصحين، فتكون الحجة لهم وليست عليهم، ولكن ليس بشكل تام وتكثر الخسائر

المادية والبشرية والمعنوية، وهذا كله خلاف المراد والمطلوب، وخلاف الحكمة والمصلحة، والحكيم لا ينقض غايته.

ولهذا أمر الله ﷻ الكريم عبديه ووليه موسى الكليم وهارون عليهما السلام أن تكون مخاطبتها لفرعون الطاغية الذي ادّعى الألوهية والربوبية، وقال للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[1] باللين والرفق، وليس بالقسوة والخشونة والعنف والفظاظة؛ لكي لا تكون له حجة على الله سبحانه وتعالى، قول الله تعالى: ﴿رسُلاً مبَشِرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يكُونَ لِلناسِ عَلَى اللهِ حُجةٌ بَعْدَ الرسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2].

ولكن مع الأسف الشديد جداً، هناك من يتشدق بالدين والإيمان والزهد والصلاح والفضيلة، ويلجأ إلى إظهار الغضب والتشنج بغير مبرر وبدون مقدمات، وإلى العنف في الكلام، وإلى أقسى العبارات، والفظاظة في السلوك والتصرفات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى في الأمر بالمستحبات والنهي عن المكروهات، بل في النهي عن المباحات بدعاوى باطلة مخالفاً بذلك الأحكام الشرعية الصريحة الواضحة والعقل والمنطق والأخلاق الحميدة والفطرة والطبع السليم.

وهذا التصرف من الحمق الشديد، ويكشف عن تضخم الذات والأنانية والعدوانية، والجهل بالحقائق والسنن، وضعف البصيرة، ولا علاقة له بالدين والزهد والفضيلة والصلاح، ويدل على قلة الصدق وعدم

---

١. النازعات: ٢٤

٢. النساء: ١٦٥

الإخلاص، أي: إنه يكشف عن رغبة الشخص النفسية الدفينة في البروز و إثبات الذات، وتزكية النفس المنهي عنها في القرآن الكريم، قول الله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[1]، وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[2]، وهم يفعلون ذلك على حساب كرامة الآخرين وحقوقهم، ويأخذون من التظاهر بالدين والزهد والصلاح ساتراً يستترون به، والله ﷻ فاضحهم ومخزيهم، فعلى المؤمنين الصالحين الأعزاء التطهر من هذه الأرجاس والرذائل القبيحة، ويحذروا حذراً شديداً من المطب والدرك الشيطاني الخطير، ويتمسكوا بقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[3].

الجدير بالذكر: أن الموعظة الحسنة تقتضي أن لا يريد الواعظ بموعظته إلا الخير الحقيقي والصلاح لمن توجه إليه الموعظة، وأن يشعر بأنها في مصلحته ومن أجل هدايته و إرشاده إلى الخير والصلاح والفلاح، وليس فيها أي خدش لإنسانيته وكرامته، ولكن يجب التمييز بين اللين والرفق والاحترام ومراعاة المقام وأدب الخطاب والكلام، وبين المداهنة والتملق والتساهل في توضيح الحقائق وتحديد المطالب والكشف عنها بصراحة ووضوح وتمييزها عن كل باطل وظلم.

---

١. النجم: ٣٢

٢. النساء: ٤٩

٣. النحل: ١٢٥

وللأسف الشديد جداً: هناك من يتساهل في بيان الحقائق والمطالب تملقاً أو تحت تأثير الخوف أو الطمع أو نحو ذلك، ولكن بحجة مراعاة أدب الخطاب والكلام ومراعاة المقام، وتحت عناوين مضللة، مثل: المرونة والتسامح والواقعية والوسطية والاعتدال ونحو ذلك، وهي عناوين صحيحة ولكن الخطأ في التطبيق والمصاديق، وما يقوم به هؤلاء هو تصرف فيما لا يملكون، وهو خلاف الصدق والإخلاص والوفاء والأمانة، ومن الحمق ومخالف للحكمة.

والأنبياء الكرام والأوصياء المطهرون المهديون والأولياء الصالحون والعلماء العدول والمؤمنون المتقون والمصلحون الحقيقيون الشرفاء بعيدون عن هذا التصرف الأخرق الأحمق، وهو من كمالهم وصلاحهم وقوتهم وثباتهم وأحد مصاديق قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[1]، ويقع في هذه الرذيلة والتصرف الأخرق الأحمق الضعفاء والانتهازيون والنفعيون الفاسدون، وينبغي للمؤمنين الأعزاء أن يقتدوا بساداتهم أئمة الهدى والدين من الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام، لكي يحصلوا على نفس النتائج التي حصل عليها سادتهم في دعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى وجهادهم في سبيله، مثل: التأييد والتسديد والتوفيق والنصر على الأعداء، ويصلوا إلى نفس الأهداف والغايات العظيمة التي جاهدوا من أجلها، مثل: الكمال الروحي والقرب من ساحة القدس والزلفى والنعيم المقيم والرضوان الإلهي العظيم.

---

١. طه: ٤٢

وتجدر الإشارة هنا: أن الحكمة والمصلحة قد تقتضي في بعض الحالات، مثل: الإصرار على العناد والمكابرة والاستمرار في الظلم والطغيان والعدوان والإضلال والإفساد في الأرض بغير الحق، وعدم جدوى الرفق واللين واللطف والحوار، تقتضي اللجوء إلى الشدة والخشونة والعنف والغلظة، قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[١]، وقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[٢]، ولكن ينبغي تشخيص الحالات بدقة وتمييزها، وعدم الخلط فيها، وفرزها بموضوعية تامة وعناية فائقة وإخلاص شديد كامل، ومراقبة شديدة ومحاسبة للنفس حتى لا تخون ولا تفرط في الحقيقة والنصيحة والمصلحة.

وقيل: إن الله تبارك وتعالى أمر موسى الكليم عليه السلام بالرفق واللين مع فرعون؛ لأن لفرعون على موسى الكليم عليه السلام حق الحضانة والتربية والرعاية، فأمره الله تبارك وتعالى أن يخاطبه برفق ولين رعايةً لتلك الحقوق، وفي ذلك تنبيه بليغ جداً على تعظيم حق الأبوين والمحسنين ومقابلة الإحسان بمثله، وأن مقابلة الإحسان بالإساءة مخالف للدين الحنيف والعقل والمنطق والفطرة والطبع السليم والأخلاق الحميدة، فهو من سوء الطبع وقبيح الأخلاق ومذموم الخصال.

وعليه: ينبغي على المؤمنين الأعزاء أن يتنزهوا عنه ويتطهروا منه، وهو

---

١. العنكبوت: ٤٦

٢. النساء: ٦٣

غير لائق بالنبوة قطعاً من حيث هي اتصال بالله سبحانه وتعالى وتلقي منه وسفارة عنه، ومن حيث مبادئها وقيمها وأحكامها وأهدافها وغاياتها، فمقابلة الإحسان بالإساءة يهدم النبوة من الأساس ويهدم قواعد الدين الحنيف، ولا يمكن أن يحصل من الأنبياء الكرام المطهرين المعصومين عليهم السلام مطلقاً.

مخاوف موسى وهارون

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾

بعد أن أمر الله جل جلاله موسى الكليم عليه السلام وأخاه ووزيره وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام بالذهاب إلى فرعون الطاغية لإبلاغه بالرسالة الربانية، وأعطى لهما التعليمات اللازمة بشكل واضح ومحدد ودقيق لا لبس فيه ولا غموض، أعربا له عن مخاوفهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾[1]، أي: أقرا لله سبحانه وتعالى بالربوبية، وأنه وحده المالك لأمرهما والمدبر لهما، وأعربا له عز وجل عن اثنين من المخاوف، وهما:

أ. ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾[2]، أي: يعجل ويبادر إلى عقوبتنا ولا يمهلنا أو يصبر علينا حتى نبلغه الرسالة ونقيم عليه الحجة بإظهار المعجزات التي أيدتنا بها، فإنه طاغية متجبر ولا رادع يردعه عن الشر والغدر والبطش وارتكاب جريمة قتلنا أو التنكيل بنا أو غير

١. طه: ٤٥

٢. نفس المصدر

ذلك من الجرائم البشعة والجنايات الفظيعة والأعمال الشنيعة التي يرتكبها الفراعنة في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا عادة وبسهولة تحت غرور السلطة والقوة والنفوذ، ومن أجل حماية عروشهم.

فهما لم يخافا في الحقيقة على نفسيهما في بطشه بهما، فالأنبياء الكرام والأوصياء المطهرون والأولياء الصالحون لا يخافون على أنفسهم من الأذى في جنب الله ذي الجلال والإكرام وفي سبيله، فقد نذروا أنفسهم خالصة لوجهه الكريم أكرم الوجوه، ولسان حالهم جميعاً كالإمام الحسين عليه السلام في كربلاء في اليوم العاشر من المحرم حين تكالب عليه القتلة من كل جانب، فقال:

إلهي تركت الخلق طرا في هواك   وأيتمت العيال لكي أراك

فلو قطعتني بالحب إربا   لما حان الفؤاد إلى سواك

ولكن كان خوفهما في الحقيقة من مبادرته لمعاقبتهما والبطش بهما قبل أن يتمكنا من تبليغ رسالة ربهما إليه وأداء الأمانة التي حملهما الله سبحانه وتعالى إياها و إقامة الحجة الإلهية عليه.

وهذا يعبر عن الصدق والإخلاص والوفاء والتفاني في ذات الله سبحانه وتعالى، وهي الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمنون الدعاة والمصلحون، أي: أن لا يخافوا على أنفسهم، و إنما يخافون على رسالتهم وقضيتهم ومطالبهم المشروعة اللازمة للحياة الكريمة

الطيبة، وأنهم يفدون الرسالة والقضية والمطالب بأرواحهم ونحوها، ولا يدّخرون في سبيلها شيئاً.

ب. ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾[١]، أي: نخاف أن يطغى بملكه وسلطانه ونفوذه، ويأخذه الزهو والغرور بالذين هم حوله من الجند والأتباع والأنصار والأعوان وما تحت يديه من المال والثروة والعسكر والسلاح ونحو ذلك، وتأخذه العزة بالإثم، فيزداد كفراً وعتواً ونفوراً من الحق وعناداً واستكباراً، ويجترئ على ساحة قدسك بما لم يجترئ عليه قبل سماع دعوتنا إياه للإيمان بك والتسليم لربوبيتك، حيث تأتي دعوتنا لتوحيدك على خلاف ما يزعمه لنفسه من الألوهية والربوبية، ويتخوف من دعوتنا للتوحيد على نظامه ودولته وملكه، ولأنها تفسد صفو عيشه وملكه، وتجرئ الرعية عليه وتحرضهم على اختلاف الكلمة حوله ومخالفته فيما يدعوهم إليه وما يدبره ويرسمه في دولته ونحو ذلك.

وذلك متوقع منه لجهله بك وبالحقائق الإلهية والسنن الكونية والتاريخية، ولقسوة قلبه وتلوث فطرته وسوء طبعه وخلوه من حسن الأدب، أي: يسمع الدعوة ويرى المعجزات، ولكن يعاند ويكابر ولا يستجيب للحق ويسلم به، بل يتجاوز ذلك للإساءة إلى ساحة قدسك وجلالك سبحانك وتعاليت عما يصف الظالمون، فهو بحسب التجربة: جبار، عنيد، متكبر ومتغطرس على الحق، مدعي الألوهية والربوبية بغير حق،

---

١. نفس المصدر

ولا دليل ولا برهان، بل على خلاف الحقيقة والدليل والبرهان، ولا يراعي لأحد حقاً ولا حرمة، ولا يراعي مع أحد أدباً وحشمة.

وقيل: أنهما خافا أن يطغى ويتجاوز الحد في الإسراف في القتل والبطش والتنكيل ببني إسرائيل المستضعفين، الذين هم قوم موسى وهارون عليهما السلام، وهذا تخوف واقعي ومشروع، ويدل على الرحمة والشفقة والحرص على سلامة ومصلحة الأتباع، وهو الأمر الذي يحرص عليه ويظهره جميع الأنبياء الكرام والأوصياء المطهرين عليهم السلام تجاه قومهم وأتباعهم، إذ أن التضحية في سبيل الله بالنفس والنفيس مطلوبة، وهي فضيلة عظيمة، ولكن في حينها ومكانها المناسبين، والتضحية بالنفس والنفيس بغير لزوم أو في غير الوقت والمكان المناسبين وبدون حساب مرفوض، وهو من الرذائل ومن الحمق والتهور وخلاف الحكمة والشجاعة.

فالأنبياء الكرام والأوصياء المطهرون المهديون والأولياء الصالحون عليهم السلام والقيادات الربانية الصالحة، تكون شديدة الرحمة على الأتباع، وحريصة على أن لا يصيبهم أذى أو مكروه بدون موجب أو لازم أو حاجة تستحق، فالثمن لا ينبغي أن يكون أكبر من المثمن، وكلما زاد الفارق زاد القبح والمنع.

فالأتباع أمانة عظيمة في أعناق القادة، والمحافظة على سلامتهم ومصلحتهم واستخدامهم في المكان والزمان المناسبين والمهام الصحيحة والنظيفة أخلاقياً والمشروعة عقلاً وشرعاً من المسؤوليات الكبيرة الرئيسية الملقاة على عواتق القيادات بمختلف درجاتها ومستوياتها، فلا يفرطوا في سلامتهم والمحافظة على أرواحهم ومصالحهم قيد شعرة، ولا يهملون

أو يتساهلون أو يتسامحون في أخذ الحيطة واتخاذ الاجراءات والتحرزات اللازمة لسلامتهم وصيانة مصالحهم والمحافظة عليها، فلا تكون هناك تضحية غير لازمة أو في غير وقتها أو في غير مكانها أو تحدث بسبب التساهل والتسامح والإهمال في اتخاذ الاجراءات والاحتياطات اللازمة للمحافظة على أرواحهم وسلامتهم من الأذى، والمحافظة على أموالهم وكافة مصالحهم.

وما نجده لدى الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والقيادات الحزبية أو القبلية أو العشائرية المتعجرفة ونحوها من التضحية بالأتباع والجنود في سبيل أمجاد أو نزوات شخصية أو في نزاعات عبثية أو لإرضاء قوى الاستكبار العالمي أو من أجل مصالح ضيقة ونحو ذلك، هي جرائم كبيرة وخيانات عظيمة للأمانة والمسؤولية والرعاية، ورذائل يندى لها جبين الإنسانية، يجب أن يحاسبوا عليها.

وقيل: خافا أن يبطش بهما بعد سماعه الرسالة مباشرة ولا يمهلهما، مما يهدد الرسالة بالخطر، لأن بقاء الرسالة وتحقيق أهدافها يتوقف على بقائهما؛ لأنهما حاملاها والأمناء عليها.

وهذا القول لا يخالف في الجوهر والنتيجة القول الأول، والاختلاف بين القولين في توقيت القتل، المبادرة إلى قتلهما قبل تبليغ الرسالة أو المعاجلة بقتلهما بعد سماع الرسالة انتقاماً منهما.

التطمين الإلهي لموسى وهارون

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾

بعد أن سمع الله سبحانه وتعالى مخاوف موسى الكليم وهارون عليهما السلام وهو العالم بما في نفسيهما، طمأنهما رب العزة والجلال وسكن خوفهما وقلقهما، فقال: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[1]، ففي هذا القول تأكيد على الحضور المطلق التام للحق سبحانه وتعالى في المشهد وساحة المواجهة، والمراقبة والمتابعة التامة المباشرة، وليس الاعتماد على التقارير التي ترده فقط، والتدخل فوراً عند الحاجة، وتقديم الدعم والمساندة المطلوبة أو اللازمة، وهذا يعني:

١. بخصوص التخوف الأول، قولهما: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾[2] أنهما بحفظه ورعايته لهما، وأنه سيدافع عنهما وسيدفع شر فرعون الطاغية عنهما، ويضمن حمايتهما وسلامتهما من بطشه وغدره وغوائله، فلا يصل إليهما بسوء أو شر، وأنه ينصرهما عليه ولا يخذلهما أبداً، فليس من شأنه سبحانه وتعالى أن يخذل رسله وعباده المؤمنين المخلصين، قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[3]، ويضمن لهما أن يتمكنا بإذنه وتوفيقه وتأييده من إيصال الرسالة الإلهية إلى فرعون الطاغية وملئه المستكبرين

---

١. طه: ٤٦

٢. طه: ٤٥

٣. غافر: ٥١

وقومه الفاسقين تامة واضحة صريحة كاملة، بدون نقص أو لبس أو تشويش أو غموض، وهذه ضرورة عقائدية رئيسية في نظام الخلق والتدبير والهداية، محكومة بقاعدة اللطف الإلهي، فهو الرفيق بعباده الذي يوصل إليهم ما ينتفعون به في الدارين الدنيا والآخرة، ويهيئ لهم ما يتسببون به إلى المصالح العامة والخاصة من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، ومنه أن يضمن وصول الرسالة الإلهية إليهم بشكل تام وواضح وكامل في دورتها الرسالية أو في المدى الزمني المقدر لها، ويضمن قيام الحجة والدليل النير الساطع على صدق الرسول أو الوصي وصحة الرسالة.

١. بخصوص التخوف الثاني، قولهما: ﴿أَوْ أَن يَطْغَى﴾[١]، التأكيد على أن التكليف الإلهي الواجب عليهما هو الصدق والإخلاص وبذل الوسع والطاقة في إيصال الرسالة و إقامة الحجة، وليس من مسؤوليتهما أو تكليفهما أن يستجيب فرعون لهما، فاستجابته أو عدم استجابته خارجتان عن التكليف وعن مسؤوليتهما، قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[٢]، وقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[٣]، فأمر الاستجابة أو عدم الاستجابة بيد الله سبحانه وتعالى وحده، وهو الكفيل بها والمحاسب عليها، وهو حاضر بذاته سبحانه وتعالى حضوراً تاماً مطلقاً، وهو يسمع ويرى

١. طه: ٤٥
٢. آل عمران: ٢٠
٣. الرعد: ٤٠

ما يدور بينهما وبين فرعون وملئه من الأقوال والأفعال بشكل تام وواضح، وليس بغافل أو يفوته شيء من ذلك، وهو يعلم حقائق الأمور ويعلم حقيقة ما عليه أحوالهما وأحوال فرعون وملئه، فلا تخفى عليه خافية وهو اللطيف الخبير، وهو يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، أي: يعلم ما هو داخل النفوس وما هو خارجها.

وعليه: فعليهما مع هذه الضمانات الربانية الأكيدة أن يطمئنا بشكل تام ومطلق ولا يقلقا ولا يخافا فالله ﷻ قادر على كل شيء وهو نعم المولى ونعم النصير.

ومما سبق نخلص إلى النتائج المهمة التالية:

أ. إنه ينبغي على الدعاة والعاملين المجاهدين في سبيل الله ﷻ أن يبينوا بشكل تام وواضح للقيادة ما يحتاجونه وما يلزمهم لنجاح المهام التي يكلفون بها، وهذا شرط مهم من شروط النجاح في العمل وتحقيق التقدم فيه.

ب. يجب على القيادة أن تلبي احتياجاتهم وتوفير ما يلزمهم لنجاح المهام التي يكلفون بها، وإلا أصبح التكليف غير مناسب وغير منطقي وتكليف بما لا يطاق.

فالتكليف بالمهام يكون منطقياً وسليماً وبما يطاق بمقدار ما يتم توفيره من الإمكانيات اللازمة ومراعاة الشروط ومختلف

الظروف، بالإضافة إلى عزائم الرجال وصدق إيمانهم و إخلاص نيتهم واستعدادهم للبذل والتضحية والفداء والعطاء، قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١٣ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾[١].

ج. يجب على الدعاة والمجاهدين في سبيل الله ﷻ الصبر والثبات والتحمل والصمود أمام طغيان وجبروت الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والمترفين المستغلين، وأن لا يهنوا ولا يضعفوا ولا يخضعوا لإرادتهم الشيطانية الضالة عن جادة الحق والعدل والخير والفضيلة والرشد والصلاح والصواب، ولا يتأثروا بأراجيف الانتهازيين المبطلين والنفعيين المتسلقين ونحوهم، وأن يتوكلوا على الله ﷻ ويستعينوا به ويثقوا بوعده لهم بالنصر على الأعداء إن

١. الأنفال: ٧-١٤

هم وفوا بالشروط في عالم الدنيا، وبالجزاء الإلهي بالنعيم المقيم في الدرجات العليا في جنات الخلد وبالرضوان الإلهي في عالم الآخرة.

أ. إن دور القيادة ومكانتها وطاعتها إنما تتعزز وترسخ بحسب ما في يديها من القدرات والامتيازات المادية والبشرية والمعنوية، وبمقدار ما تتمتع به من الصدق والإخلاص والوفاء، وبمقدار ما تعطي وتبذل وتقدم من نفسها مما تحب، وبمقدار ما لها من الحضور والمراقبة والمحاسبة، ومما لها من الرحمة والرفق والشفقة والتضامن والتكافل مع الأتباع والمواساة لهم في المحن والشدائد ومشاركتهم في الأفراح والأحزان، والوقوف إلى صفهم وعدم التخلي عنهم في أوقات المحن والمصائب والشدائد ونحو ذلك.

بنود الرسالة الإلهية إلى فرعون

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

بعد أن طمأن الله ﷻ موسى الكليم وهارون عليهما السلام من مخاوفهما، أوضح لهما بدقة بالغة ووضوح تام، تمام مضمون الرسالة الإلهية التي يحملانها إلى فرعون الطاغية، وتتضمن النقاط الرئيسية التالية:

١. ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾[1]، أي: إنك عبد من عباد الله سبحانه وتعالى، هو الذي خلقك ويملك أمرك ويدبر شؤونك كلها، بيده حياتك وموتك، وأن يعطيك أو يمنعك، فرزقك ومعاشك بيده لا بيدك ولا بيد غيرك سواه، وأنت لست بإله أو ابن آلهة، ولست برب للناس، ولا يصح منك بحكم العقل ولا يجوز لك بحكم الشرع الإلهي ادعاء ذلك، وإنا نحمل إليك رسالة من ربك الذي هو رب العالمين، وأن عليك بحكم العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم أن تؤمن به وتسلم إليه وتخضع لإرادته فيما تفعل وفيما تترك؛ لأنه الخالق لك والمالك لأمرك والمدبر لك والمنعم وصاحب الحق والفضل عليك من جميع الوجوه وجميع الجوانب، وأن تكف عما تزعم من صفتي الألوهية والربوبية التي تنسبها لنفسك بغير حق ولا حجة ولا دليل ولا برهان.

وأن في طاعتك له والتسليم لأمره ونهيه كمالك الإنساني، وخيرك وصلاحك ومصلحتك وسعادتك الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة، وفي تكذيبك بالرسالة وإصرارك على العناد والاستكبار والبقاء على دعوى الألوهية والربوبية هلاكك وشقاؤك في الدارين الدنيا والآخرة، أي: دعوة إلى الإسلام الحنيف والتوحيد والفضيلة والأعمال الصالحة، بغية نجاته من الهلاك والشقاء وتحصيل الخير والسلامة والسعادة الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة، يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**والجميل هنا أنهما بدل أن يقولا**

---

١. طه: ٤٧

(ربنا) فإنهما يقولان (ربك)؛ ليثير عواطف فرعون وإحساسه تجاه هذه النقطة، بأن له رباً، وأنهما رسولاه، ويكونان قد أفهماه بصورة ضمنية أن ادعاء الربوبية لا يصح من أي أحد فهي مختصة بالله»[1].

٢. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[2]، أي: ليس لك الحق في استعبادهم وفرض سلطتك عليهم بغير رضاهم وعلى خلاف ما يأمرك به الله سبحانه وتعالى ربك وربهم وينهاك عنه، فأنت عبدالله مثلهم، وإن الحكومة والسلطة لا تفرض على الناس بالقوة والإكراه وبحكم الأمر الواقع، بل يجب أن تنبع من إرادتهم واختيارهم وتجري وفق أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه، وليس وفق أمر غيره ونهيه، فالشرعية للحكومة تستمد من مصدرين: الله سبحانه وتعالى، ورضا الناس وإرادتهم واختيارهم.

فالحكومة الشرعية لا تكون إلا حكومة إلهية إلا أنها لا تفرض على الناس بالحديد والنار، وإنما برضاهم واختيارهم، فإن قبلوا ما رضيه الله رضي عنهم وأثابهم، وإن لم يقبلوا ما رضيه الله لهم لم يرضَ عنهم وعاقبهم، وعليه: فإن فرض حكومتك وسلطتك عليهم يا فرعون بغير رضاهم وعلى خلاف إرادتهم ومصلحتهم، والحكم فيهم واستضعافهم وإذلالهم وتعذيبهم وذبح أبنائهم الذكور واستحياء نسائهم؛ للخدمة والمتعة الجنسية، وتسخيرهم واستخدامهم

---

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ١٠، صفحة ٦

٢. طه: ٤٧

في الأعمال الشاقة، وتكليفهم ما لا يطيقون، والتمييز بينهم وبين المواطنين الأقباط في الحقوق والواجبات وأمام القضاء، وفرض الإقامة عليهم في مصر وحرمانهم من حق الهجرة والسفر، ونحو ذلك من صنوف الظلم والتعذيب والاستضعاف والإذلال وانتهاك حقوق الإنسان، ليس لك فيه أدنى حق، وليس من صلاحيات الحكم والسلطة، وليس في مصلحتك ولا في مصلحة الدولة، ويجر عليك أو على نظامك وحكومتك وملكك الدمار والهلاك والزوال، فيجب عليك أن تتوقف عنه فوراً وتماماً.

وعليك أن تحرر بني إسرائيل وتخلي سبيلهم وترفع يدك عنهم وترفع عنهم حظر السفر والهجرة، وتترك لهم أن يقرروا لأنفسهم بأنفسهم وبحسب اختيارهم مصيرهم، ويختاروا دينهم وعقيدتهم وحكومتهم بما يعكس قناعتهم الداخلية الحقيقية ويرون فيه كمالهم الإنساني، وخيرهم وصلاحهم ومصلحتهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة.

وأن يكون لهم حق الإقامة في مصر والهجرة منها إلى الأرض المقدسة فلسطين، التي هي موطن جدهم إسرائيل «يعقوب» عليه السلام قبل هجرته إلى مصر في عهد حكومة ولده يوسف الصديق عليه السلام في القرن الثامن عشر «١٨» قبل الميلاد. أي: قبل أكثر من أربعمائة سنة تقريباً، والتي أمرهم الله جل جلاله بالهجرة إليها من جديد والسكن فيها.

أي: طالبه بالحرية والعدالة والحياة الطيبة الكريمة وحق تقرير المصير لبني إسرائيل، وهذا يمثل البعد العملي في الرسالة الإلهية، كما أن الدعوة إلى التوحيد تمثل البعد النظري في الرسالة، وهو يدل على أهمية البعد الاجتماعي والعملي في الرسالات السماوية حيث يضفى عليها الواقعية ويربط الرسالات بواقع الحياة و إصلاحها وتنميتها وتطويرها، فلا يكفي أن يهتم الرسل الكرام عليهم السلام والدعاة بالجوانب الفكرية والروحية والأخلاقية، بل يجب عليهم أن يهتموا أيضاً بالجوانب العملية في الحياة، الإصلاح الشامل لجوانب الحياة، وتحقيق الرخاء والازدهار، والأمن والسلامة، وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله سبحانه وتعالى، وضمان كافة حقوقه الطبيعية والمكتسبة، ورفع صنوف الظلم والاستضعاف والإذلال والطغيان والعدوانية عنه، وأن يكون له حق اختيار العقيدة والنظام السياسي والحكومة، وحق العبادة و إقامة الشعائر، وحق تقرير المصير، قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرجَالِ وَالنسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الذِينَ يَقُولُونَ رَبنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَليا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾[1].

والطرح يدل أيضاً على سلمية المنهج الذي سلكه موسى الكليم وهارون عليهما السلام وسارا عليه واتبعاه في الدعوة إلى التوحيد والمطالبة بالحقوق الواقعية المشروعة، مدعوماً بمنطق العقل والفطرة

١. النساء: ٧٥

والوجدان الإنساني السليم، فلم يستخدما العنف والقوة، وإنما استخدما الحوار والدليل والحجة والبرهان على صحة الدعوة وواقعية المطالب وشرعيتها، مما يدل على كذب دعوى النظام بأن غاية موسى الكليم وهارون عليهما السلام ومعهما بني إسرائيل هي إسقاط النظام الفرعوني بهدف الاستيلاء على السلطة وإقصاء أنصار فرعون عن المناصب والوظائف العامة الرئيسية في الدولة، وطرد الأقباط من أرضهم وديارهم ووطنهم بغية الاستئثار بالسلطة والثروة والمقدرات دونهم، وذلك لأنهم نظروا إلى موسى الكليم وهارون عليهما السلام بعين طبعهم، وأسقطوا عليهم أخلاقهم وأسلوبهم في الحياة والحكم وغاياتهم وأهدافهم منهما «الحياة والحكم»، ولو كان موسى الكليم عليه السلام يريد إسقاط النظام الفرعوني والسيطرة على الحكم والاستئثار بالسلطة والثروة والمقدرات كما يزعمون، لما رغب في الهجرة مع قومه من مصر إلى أرض فلسطين، فقد أراد الهجرة مع قومه إلى أرض فلسطين، وأراد فرعون أن يمنعهم ويحول بينهم وبين الهجرة، وتبعهم بجيش ضخم بغية إرغامهم على العودة إلى مصر والاستمرار في إخضاعهم إلى سلطته، واستخدامهم في الأعمال الشاقة والوضيعة التي يستنكف عنها الأقباط ويرفضون القيام بها؛ لأنهم يعتقدون في أنفسهم بأنهم أشرف وأسمى من أن يعملوا فيها، فإن فشل في إجبارهم على العودة قام بتصفيتهم والقضاء المبرم عليهم ومحوهم من صفحة الوجود.

وزعم أن موسى الكليم وهارون عليهما السلام وبني إسرائيل يريدون الهجرة

إلى أرض فلسطين من أجل إعادة بناء صفوفهم وقومهم، وتشكيل تحالفات مع غيرهم يتقوون بها، ثم يهاجمون الأرض المصرية لإسقاط النظام الفرعوني والقضاء عليه ثأراً لأنفسهم مما سبق أن لحقهم من الظلم والاستضعاف والإذلال من فرعون ونظامه ودولته وحكومته وقومه الأقباط.

وهذا النمط من التفكير المريض يدل على تعجرف فرعون وحزبه المجرمين وغرورهم بما لديهم من السلطة والقوة والثروة والنفوذ، وما يتمتعون به من ظلم وطغيان وفساد يكشف عن روح عدوانية شريرة، ويكشف عن الهواجس والهوس والعقد النفسية التي تعيشها الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة والقائمون عليها ضد المعارضين لهم، ويكشف عن طبيعة التفكير والأخلاق والسياسة الفرعونية في التمييز والإقصاء وغيرها، و إسقاط ذلك كله على غيرهم والنظر إليهم بعين طبعهم.

٣. ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾[1]، أي: إننا لا نتكلم اعتباطاً أو جزافاً أو من فراغ أو ندعي شيئاً لا حقيقة له ولا دليل عليه، بل جئناك بمعجزات نيرات باهرات قاهرات عظيمات، وحجة بالغة كافية، ودليل ساطع قاطع، تدل على أنها من رب العالمين الذي هو ربك الأعلى الذي خلقك، وبيده تدبير أمورك كلها، وتثبت صدق دعوانا النبوة وصدق الرسالة التي نحملها إليك من ربك الأعلى

---

١. طه: ٤٧

رب العالمين سبحانه وتعالى، فليست دعوانا النبوة كاذبة، وليست دعوانا بحملنا الرسالة إليك من رب العالمين كاذبة، وليست مطالبنا الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية باطلة أو غير واقعية أو غير مشروعة أو غير منطقية، بل هي صادقة ومشروعة ومنطقية وواقعية، ونملك الحجة والدليل القاطع على صدقها وحقانيتها، وأنه بحسب العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم يجب عليك أن تتأمل كثيراً فيما جئناك به وتمعن النظر فيه وتطيل التفكير ولا تتعجل بإنكاره ورفضه، وعدم قبولها قبل أن تتثبت وتتبين ما فيه من الحق أو الباطل، الصواب أو الخطأ، بدليل وحجة وبرهان، فهذا ما يفرضه عليك العقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم.

وهذا يدل على ضرورة امتلاك الدعاة والمصلحين الحجة البالغة والدليل الصحيح والبرهان الساطع على صحة رسالتهم وعدالة قضيتهم وشرعية مطالبهم وواقعيتها، ولا يعتمدون فيها على المناكفة والخصومة بدون واقعية ومشروعية وعدالة، فتكون الحجة لخصمهم عليهم بدل أن تكون الحجة لهم على خصمهم، فيخالفون بذلك العقل والمنطق والفطرة والضمير والوجدان والطبع السليم ويكونون من إخوان الشياطين الضالين الآثمين، ويكون موقفهم ضعيفاً أمام الرأي العام الداخلي والخارجي، ويتحملون المسؤولية الدينية والإنسانية عن الخسائر المادية والبشرية والمعنوية، ويتحملون أوزارها في الدارين الدنيا والآخرة.

علماً بأن ضعف الحجة والبيان الناتج عن قلة الكفاءة والإهمال والتقصير في الواجبات يترتب عليه إضعاف القضية العادلة والفشل في الوصول إلى تحقيق المطالب المشروعة الواقعية، ويؤدي إلى ضياع الجهود والتضحيات، ويتحمل القائمون عليها المسؤولية الكاملة عن ذلك.

فلا ينبغي لمن لا يتوفر على الكفاءة والكسول أن يتصدى وينافس أصحاب الكفاءة والناشطين ويشوش عليهم تحت تأثير حب البروز والزعامة، مستفيداً من بعض العوامل الغريبة لصالحه، مثل: التعصب القبلي أو المذهبي أو التقليد الأعمى أو الجاه أو المكانة الاجتماعية الموروثة لطائفة من الناس أو لأفراد ونحو ذلك على حساب القضية والمصلحة العامة، فإن ذلك مخالف للعقل والمنطق وهو من الرذائل المخالفة للأخلاق الحميدة والأمانة والصدق والإخلاص والوفاء والفطرة والطبع السليم وفيه متاع قليل ثم يتبعه ألم شديد.

والخلاصة: إن أهمية الحجة والبيان لا تقل عن أهمية الحركة على الأرض والتضحيات، وإن الحركة والتضحيات بدون حجة قوية وبيان واضح بليغ يجعل الحركة والتضحيات العظيمة عرضة للفشل والضياع.

٤. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾[١]، أي: إنك إن آمنت بالله سبحانه

---

١. نفس المصدر

وتعالى ووحدته وسلمت إليه، واتبعت الدين الإلهي الحق، وسلكت الصراط المستقيم والنهج القويم والطريقة الوسطى وعملت بالشرع المبين، واستجبت لمطالب بني إسرائيل العادلة المشروعة الواقعية المدعومة بالعقل والمنطق وأعطيتهم كافة حقوقهم المشروعة الطبيعية والمكتسبة، فأنت سالم وآمن على نفسك من الهلاك والعذاب الأليم والشقاء الكامل في الدارين الدنيا والآخرة، ومحفوظ لك ملكك وسلطانك، أي: لا ترى مكروهاً في الدارين الدنيا والآخرة؛ لأن الأمن والسلامة الحقيقية والواقعية بحسب العقل والمنطق والحقائق الإلهية والسنن الكونية والتاريخية تدور مدار الهداية، أي: تدور مدار معرفة الحق والعمل بمقتضاه.

وفي هذا القول تأكيد على الحياة في العالم الآخر، وترغيب واستمالة فرعون للإيمان بالحق والعمل به.

أما إذا عاندت وكابرت وأصريت على الكفر والضلال وعلى ما تزعم من صفتي الألوهية والربوبية والتجبر والبغي والطغيان والعدوان والإضلال بغير الحق والإفساد في الأرض، ولم تؤمن بالحق ولم تذعن له ولم تسلم به، فإنك سوف تخسر الدارين الدنيا والآخرة، وتصير إلى الهلاك والشقاء فيهما؛ لأنك خالفت العقل والمنطق والفطرة والوجدان والطبع السليم والحقائق الإلهية والسنن الكونية والتاريخية، ولأن الشعب الإسرائيلي قد سرى فيه الوعي، وعزم على الرفض والمقاومة والتحرر، وهو مستعد إلى البذل وتقديم

التضحيات اللازمة من أجل تحرره وتحصيل حقوقه وامتلاك حق تقرير مصيره بنفسه وبإرادته التامة واختياره، وأن الله ﷻ قد وعدهم بالتأييد والنصر عليك، وهلاكك واستخلافهم في البلاد بدلاً عنك وعن قومك الذين يقفون إلى صفك ويساندونك في بغيك وطغيانك وعدوانك وظلمك لبني إسرائيل واستعبادهم واستضعافهم وإذلالهم وتسخيرهم واستخدامهم في الأعمال الشاقة والوضيعة، والله سبحانه وتعالى لا يخلف وعده، وهو قادر على كل شيء، فما وعد الله ﷻ به بني إسرائيل كائن لا محالة، وفي ذلك تحذير واضح وترهيب وإنذار واقعي ومنطقي من مغبة العناد والمكابرة والاستهانة بشأن موسى الكليم وهارون عليهما السلام وما جاءا به من الحجة والمعجزات والبراهين من عند رب العالمين والاستهانة بقضيتهم العادلة ومطالبهم الواقعية المشروعة.

٥. ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[١] أي: إن جميع ما جئناك به ليس من عند أنفسنا، بل هو وحي مقدس من عند الله رب العالمين سبحانه وتعالى أوحى إلينا به، وفي ذلك تأكيد على عقيدة الوحي والنبوة بالإضافة إلى عقيدة التوحيد والبعث والحساب، وفيه أيضاً: أن سنة الله ﷻ في الخلق والتدبير للمسيرة التكاملية للإنسان، بأن عذاب الهلاك والاستئصال في الحياة الدنيا واقع لا محالة على القوم الذين يعاندون ويستكبرون على الحق وأهله ويكذّبون بآيات الله ﷻ ومعجزاته النيرة الباهرة ويعرضون

١. طه: ٤٨

عنها وكأنها لم تكن بعد أن تأتيهم وتقام بها الحجة البالغة عليهم، وذلك لتطهير الأرض من المجرمين وضمان حق المؤمنين في الهداية رحمةً بهم، فقد ثبت بالدليل حقيقة كونهم مجرمين، وأنهم يشكلون خطراً حقيقياً وجدياً على الإنسانية والمسيرة التاريخية التكاملية للإنسان، واستحقاقهم العذاب.

وفي المقابل: حق الصالحين في الهداية والرحمة، فوجب على الله إهلاكهم وتطهير الأرض من رجسهم، لكي تتحقق غاية الخلق، وهي: وصول الإنسان إلى كماله الإنساني المقدر له، المعرفي والروحي والتربوي والحضاري، أي: إيجاد الفرد الكامل والمجتمع الكامل، قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِن وَالْإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[١] أي: إن الغاية من خلق الإنسان هي العبادة، والمراد العبادة الكاملة، عبادة الفرد الكامل والمجتمع الكامل، وفي ذلك دليل على أن النعيم والسعادة الحقيقية في الحياة الدنيا ليست في الملك والسلطة والنفوذ والقوة والثروة وزخارف الحياة الدنيا وزينتها، بدليل أن الذين يتمتعون بهذه الأشياء كثيراً ما يعيشون الضيق، وقد يلجأون إلى الانتحار، قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِن لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾[٢]، وأن النعيم الحقيقي والفرح الروحي الغامر والسعادة الحقيقة إنما تحصل بالإيمان واليقين حتى مع ضيق المعيشة وسوء الأوضاع، فالإنسان يشعر بالقلق والضيق مع وجود

١. الذاريات: ٥٦

٢. طه: ١٢٤

السلطة والثروة، وقد يقوده الشعور بالضيق إلى الانتحار والتخلص من الحياة؛ لأنه فاقد للإيمان واليقين.

بينما يشعر الإنسان بالأمن والطمأنينة والسكينة وهو في أشد أوقات المحنة والنكبة ويواجه الصعوبات والعقبات والمشاكل الجمة، ويعيش الأمل ويتوقع الفرج في كل ساعة؛ لأنه يمتلك الإيمان واليقين.

وبالإضافة إلى عذاب الهلاك والاستئصال في عالم الدنيا، فإن المعاندين الذين يستكبرون على الحق وأهله، ويكذبون بآيات الله ويعرضون عنها، فإنهم يدخلون إلى أشد العذاب في الدرك الأسفل في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

وفي ذلك تأكيد على البعث والنشور والحياة الخالدة بعد الموت، وأن السعادة والشقاء والنعيم والعذاب في العالم الآخر، يقومان على ما يعتقده الإنسان، وعلى أخلاقه وخصاله، وعلى أعماله التي يعملها في الحياة الدنيا، وأن الأمن والسلامة والنعيم والسعادة هي من نصيب المؤمنين بالتوحيد والنبوة واليوم الآخر، السالكين لطريق الهداية والصراط المستقيم والنهج القويم والطريقة الوسطى، الذين يتبعون أئمة الحق والهدى، ويتبرؤون من الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين وأئمة الضلال، ويتحلون بالأخلاق والخصال الحميدة، ويعملون الخيرات والصالحات.

وأن الخوف والهلاك والعذاب والشقاء، هي من نصيب الكافرين بالتوحيد والنبوة واليوم الآخر، السالكين طريق الضلال المنحرفين عن الصراط المستقيم والنهج القويم والطريقة الوسطى إلى التطرف والجريمة والإرهاب، والذين يتبعون الطواغيت وأئمة الجور والضلال، ويتحلون بالأخلاق السيئة والخصال المذمومة، ويعملون الأعمال الشريرة ويرتكبون الجرائم والجنايات بحق الأبرياء؛ بسبب التعصب أو من أجل المصالح الدنيوية العاجلة ونحو ذلك، وعليه: فالأمن والسلامة والنعيم والسعادة هي لأهل الإيمان واليقين، وليست لأصحاب السلطة والثروة والجاه والمناصب ونحو ذلك كما توهّم الطواغيت والفراعنة المتجبرون والحكام المستبدون والمترفون المستغلون والانتهازيون الأنانيون والنفعيون المتسلقون ونحوهم، قول الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾[1]، فهذا الجاهل المغرور الطائش، لم يشكر نعمة الله تبارك وتعالى السابغة عليه، بل كفر بالله سبحانه وتعالى وباليوم الآخر، وزعم أنه لو كانت هناك حياة ثانية وعاد فيها إلى الله ﷻ، فإنه سوف يكون في حال أفضل ويحصل فيها

١. الكهف: ٣٢-٣٦

على الكثير من النعم، مستنداً في ذلك ليس على إيمانه وعمله الصالح، بل على مكانته وما في يديه من الثروة والسلطة والقوة والنفوذ، قوله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[1]، متجاهلًا حقيقة كون الدنيا دار ابتلاء وامتحان يمتحن فيها بما يُعطى في يده من الأموال والثروة والسلطة والجاه والمكانة الاجتماعية، والآخرة دار الجزاء على عمله، إن خيراً فخير و إن شراً فشر.

فما عليه هؤلاء الضالون هو الجهل والغرور بعينه، وهو بعيد كل البعد عن العقل والمنطق والحقائق والسنن الإلهية في الخلق، وتقوم على الأوهام والتخيلات الباطلة والخرافات البعيدة عن الواقع بعد المشرقين والمغربين.

وعليه: فإن موسى الكليم وهارون عليهما السلام قد أوصلا إلى فرعون الطاغية ما يلي:

- أصول العقيدة كاملة: التوحيد النبوة والمعاد، وأن السلامة والسعادة الحقيقية تدوران مدار الإيمان بالدين الإلهي والأعمال الصالحة في الدارين الدنيا والآخرة، وليس مدار السلطة والثروة والجاه والمناصب ونحوها.

- اشتمل كلامهما إليه و إلى قومه على التبشير والإنذار، التبشير بالأمن والسلامة في الدارين لكل من آمن وأطاع، والإنذار

---

١. الكهف: ٣٤

بالهلاك والشقاء في الدارين لكل من عاند واستكبر وأصر على الكفر والأعمال السيئة ومخالفة الحق.

- الاستهانة بالمظاهر المادية والزخارف الاستعراضية الجوفاء الفارغة، والعزة الكاذبة بالسلطة والثروة والقوة والجند وكثرة الأتباع والأنصار ونحو ذلك، والهيبة الموهومة للنظام الفرعوني والبساط الملكي وما فيه من الزخارف والبهرجة والزينة ونحو ذلك، في مقابل نعيم الآخرة وجلال وجمال وزينة عالم الروح والقيم والأخلاق.

- التقليل من خطر وقيمة ما يمتلكه فرعون الطاغية وحزبه المجرمون من القوة المالية، والعسكرية، والبشرية، والخطط الجهنمية والتكتيكات المتقنة، العسكرية والأمنية والسياسية وغيرها، في مقابل قدرة الله ﷻ المطلقة وكيده الخفي ولطفه في مكره وجنوده في الأرض والسماء، مثل: الملائكة، والطوفان، والعواصف، والزلازل والبراكين، وجميع الكائنات الحية، وجميع الموجودات الكبيرة والصغيرة، القريبة والبعيدة، ما ترى وما لا ترى، وغير ذلك.

الجدير بالذكر: أن ما صدر عن موسى الكليم وهارون عليهما السلام من التبشير والترغيب، والإنذار والترهيب، لا ينافي ما أمرهما الله جل جلاله به من مراعاة مقام فرعون الملكي، ومخاطبته برفق ولين، ومراعاة أدب الخطاب معه؛ لأن مراعاة المقام ومراعاة أدب الخطاب لا تعني المداهنة و إخفاء الحقائق

وإعماءها بما يوقع في الوهم واللبس، فهذا من الخيانة لأمانة الكلمة والصدق والإخلاص، وهو مخالف للحكمة ولمقتضى الهداية للحق التي تقوم على بيان الحقائق وتمييزها عن كل باطل.

والهداية هي الوظيفة التي يقوم عليها الأنبياء الكرام والأوصياء الطاهرون الراشدون والأولياء الصالحون عليهم السلام، والتي بعث لأجلها موسى الكليم وهارون عليهما السلام وأُرسلا إلى فرعون وملئه، ومقتضاها بيان الحقائق كما هي بكل وضوح وصراحة، وبعيداً عن كل لبس أو غموض، يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**من الممكن أن يتوهم متوهم عدم تناسب هذه العبارة، يعني** ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[1] **والحوار الملائم اللذين كانا قد أمرا بهما، إلا أن هذا خطأ محض، فأي مانع من أن يقول طبيب حريص بأسلوب مناسب لمريضه: كل من يستعمل هذا الدواء سيشفى وينجو وكل من يتركه فسينزل به الموت. إن هذا بيان لنتيجة التعامل غير المناسب مع واقع ما، ولا يوجد فيه تهديد خاص، ولا شدة في التعامل، وبتعبير آخر: فإن هذه حقيقة يجب أن تقال لفرعون بدون لف ودوران، وبدون أي تغطية وتورية**»[2].

وعليه: فإن مراعاة المقام ومراعاة أدب الخطاب والحوار فضيلة، وبيان الحقائق كما هي عليه بدون لبس أو غموض فضيلة أخرى، ويجب إيجاد التوازن بينهما في الخطاب والحوار، أي: بدون الإخلال بأي منهما.

---

١. طه: ٤٨

٢. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ١٠، صفحة ٧

ومن المؤسف: فإن مثل هذا الوعظ والتنبيه والتذكير الصادق، إنما ينفع العقلاء الكرام، وليس الحمقى والجهلة والمغرورين اللئام، المستغرقين في حب الذات المتضخمة العفنة والأنانية النكراء، والمفصولين عن الواقع والحقائق، المعطلين للعقل والمنطق، المنحرفين عن الفطرة والطبع الإنساني السليم، الذين لا تنفع معهم آية أو معجزة أو بيان أو حجة أو دليل أو برهان، ولا يسمعون موعظة بالغة مؤثرة أو تذكير أو نصيحة صادقة من أحد، الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾[1]، وقال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[2].

١. الأنعام: ٢٥

٢. الملك: ١٠-١١

الفصل الثاني: حوار فرعون مع موسى

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾
قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا
بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾
مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا
فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ
مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ
يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[1]

التعريف برب العالمين

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾

أذن فرعون الطاغية لموسى الكليم وأخيه هارون عليهما السلام بالدخول عليه في قصره وبلاطه الملكي، وسمع منهما بحضور ملئه مقالتهما والرسالة الإلهية

---

١. طه: ٤٩-٥٩

التي يدعيان أنهما يحملانها إليه، فقالا ما أمرهما الله سبحانه وتعالى به: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾[1]، وقد جئناك بالحجة البالغة والبرهان القاطع على صدق نبوتنا ورسالتنا الإلهية إليك، فإن صدقت واتبعت ما تأمر به فلك الأمان، ويحفظ لك ملكك وسلطانك، وتصبح من الناجين السعداء، وإن كذبت وعصيت، فسوف تكون من الهالكين الأشقياء في الدارين الدنيا والآخرة.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها فرعون مثل هذا الكلام الخطير في نفسه وأبعاده العملية وما يترتب عليه من نتائج في واقع الحياة والنظام والدولة، وهو كلام مغاير للمألوف وللدين الرسمي للدولة.

ومع أن فرعون كان شديد الاستعلاء والتكبر والاعتزاز بنفسه، ويملك من السلطة والقوة العسكرية والأمنية والثروة والنفوذ ما لا يملكه غيره من ملوك الأرض آنذاك، إلا أنه لم يبادر إلى البطش بموسى الكليم وهارون عليهما السلام، بل سمع قولهما ولجأ إلى الحوار والمناظرة معهما.

وهذا مما وعدهما الله عز وجل به، وهو يدل بحكم العقل والمنطق والعرف على أن المبادرة إلى البطش بالمعارضين قبل سماع حجتهم رذيلة ومن الحمق وعلى خلاف الحكمة والرشد وحسن التدبير، ولا يليق بسمعة الحكام والملوك، ويسيء إلى سمعتهم ودولتهم وحكومتهم لدى الرأي العام الداخلي والخارجي المنصف، ويهدد الأمن والاستقرار في الدولة.

---

١. طه: ٤٧

فقال فرعون الطاغية لموسى الكليم عليه السلام في استعلاء وعلى وجه الإنكار: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾[١]، أي: من ربكما الذي تتكلمان باسمه وما هي ماهيته؟ فقد أضاف الرب إليهما ولم يضفه إلى نفسه، رغم أنهما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾[٢]، مما يعني أنه ينكر أن يكون له ربٌ؛ لأنه يزعم أنه الرب الأعلى للناس، فقد تجاهل تماماً قولهما ﴿رَبِّكَ﴾[٣]، ولكنه سايرهما فيما يدعيانه بأن لهما رباً غيره، وطلب من موسى الكليم عليه السلام التعريف بمجال وشأن وماهية من اِتخذاه رباً لهما غيره، ويزعمان أنهما رسولان منه إليه.

ويدل قول فرعون على أنه فهم منهما أموراً جوهرية ورئيسية عديدة، منها:

١. إن فرعون الطاغية قد فهم أن موسى الكليم وهارون عليهما السلام شريكان في النبوة والرسالة، ولهذا سألهما: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾[٤]، ولكن الزعامة والقيادة والإمامة هي لموسى الكليم على هارون عليه السلام، فموسى الكليم عليه السلام هو المقدم وهارون عليه السلام تابع له ووزيره وعضيده في الدعوة وحمل الرسالة والنهوض بمسؤولية القيادة، ولهذا خصه بالقول ﴿يَا مُوسَىٰ﴾[٥].

---

١. طه: ٤٩

٢. طه: ٤٧

٣. نفس المصدر

٤. طه: ٤٩

٥. نفس المصدر

٢. إن موسى الكليم وهارون عليهما السلام ينكران ألوهية فرعون وربوبيته، ويتخذان رباً و إلهاً غيره ويتكلمان عنه، وهذا الأمر يجري على خلاف المألوف والدين الرسمي للدولة وعلى خلاف ما يدعيه فرعون ويزعمه لنفسه، ويعد جريمة يعاقب عليها القانون، ولهذا سألهما: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾[1]؟

٣. إن موسى الكليم وهارون عليهما السلام يحملان رسالة من ربهما إلى فرعون ذات مضامين محددة، ويدعيان أن ربهما رب الخلائق أجمعين ورب فرعون أيضاً ورب جميع الملوك والعظماء غيره.

وهنا أسجل بعض النقاط لصالح فرعون، وهي:

أ. إنه سمح لموسى الكليم وهارون عليهما السلام بالنزول عليه في داخل قصره الملكي ومقابلته بحضور ملئه والاستماع إلى رسالتهما ومطالبهما ومحاورتهما، وهذا مما يستحيل حدوث مثله في قصور فراعنة القرن الواحد والعشرين، أي: بعد ثلاثة وثلاثين قرناً من الزمن، إذ يفترض أن التقدم العلمي والحضاري قد هذب أفكارهم وأخلاقهم وسلوكهم، ولكن العكس هو الصحيح فقد أصبحوا أكثر جلافة وعنجهية وغروراً وطيشاً وانغلاقاً على الرأي الآخر والضيق به، وأن فرعون موسى الذي عاش في القرن الثالث عشر «١٣» قبل الميلاد، وعرف عنه الطيش والغرور والقسوة، ويعد أكثر ملوك زمانه تجبراً واستعلاءً، يعتبر أكثر منهم شفافية وانفتاحاً، فلم تزدهم علوم

١. نفس المصدر

وثقافة وفنون وأدب وحضارة القرن الواحد والعشرين إلا جهلاً وحمقاً وطغياناً وعدوانيةً وعزلةً عن شعوبهم، فأسوار قصورهم أكثر تحصيناً والحرس والبروتوكولات أكثر صرامةً وتعقيداً، والبهارج الزائفة والاستعراضات التي تدل على الفراغ الفكري والخواء الروحي أكثر رسوخاً وأوسع رقعةً، والاستغراق في الذات المتضخمة والأنانية المذمومة والانفصال عن الواقع والحقائق والسنن الكونية والتاريخية أكثر تجلياً وبروزاً.

وكل تلك الحواجز والأوضاع والأحوال تجعل من غير الممكن لغير الموالين ووعاظ السلاطين الوصول إليهم، أي: لا يمكن للمعارضين والمصلحين والمطالبين بالحقوق تخطيها والوصول إلى أصحاب الجلالة والعظمة والفخامة والسمو والسعادة في ساحات وقاعات قصورهم المحرمة عليهم دخولها ومخاطبتهم بشفافية وحرية.

ب. لقد سمع فرعون من موسى الكليم وهارون عليهما السلام مقالتهما وعرف قضيتهما ومطالبهما بكل وضوح ودقة، وحاورهما فيما يدعون إليه، وطالبهما بالدليل على صدق نبوتهما ورسالتهما وعدالة قضيتهما وشرعية مطالبهما، ودعاهما إلى المبارزة العلمية مع السحرة، وهم أصحاب الاختصاص المحترفين لإثبات الحقيقة المدعاة أمام الجماهير في يوم الزينة، «أي: يوم العيد»، أي: منحهم فرصة الدفاع عن نفسيهما وقضيتهما، ولم يعاجلهما بالعقوبة قبل أن يسمع حجتهما ويرى شواهد صدقهما أو كذبهما فيما يدعيانه.

هذا و إن كان بدافع الثقة في النفس واليقين بالفوز، إلا أن فراعنة القرن الواحد والعشرين لا يسمحون بمثله، وتضيق صدورهم بكلمة قصيرة يعبر فيها معارض أو مصلح أو مطالب بالحقوق عن رأيه في محفل عام، فيحولون الكلمة إلى تهمة جنائية، ويرمى صاحبها في السجن لعقود من الزمن بدون محاكمة أو بمحاكمة صورية، وربما حكم عليه بالإعدام باسم العدالة والقانون والقضاء النزيه، ومن أجل المحافظة على الأمن والنظام وسلامة المواطنين ومصالحهم، والمحافظة على المكتسبات ونحو ذلك من النغمات، وربما قتل خارج القانون وبغير محاكمة، أي الطريقتين أسهل على النظام وأفضل له.

وهذا يدل على فقدان أنظمتهم الدكتاتورية وحكوماتهم المستبدة للشرعية والثقة في النفس ووضوح البطلان، فرغم وضوح بطلان النظام الفرعوني وفساده، إلا أن بطلان الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة وفسادها أكثر وضوحاً في هذا القرن، وأنها تعيش بفكرها وواقعها وممارساتها خارج روح وثقافة العصر، أي: خارج التاريخ والجغرافيا معاً، فلم تعد مقبولة لدى أي شعب من شعوب العالم في الوقت الحاضر، وأنها تعتمد على القوة والعنف والإرهاب والتضليل لبقائها وفرض وجودها على الشعوب بغير رضاها، وعلى خلاف إرادتها ومصلحتها.

كما يدل على ضعف بنية هذه الأنظمة والحكومات بسبب الظلم والطغيان والعدوان وانتشار الفساد السياسي والإداري، والتحلل

والانحلال الأخلاقي، والانحطاط الحضاري والتربوي، والخوف الشديد إلى درجة الهوس المرضي لدى القائمين عليها من غضب الشعوب، وفقدانهم السلطة والنفوذ والصلاحيات والامتيازات، مما يهدد الأمن والاستقرار، ويعطل عجلة التنمية والازدهار في البلاد، ويدخل البلاد في نفق لا مخرج منه إلا بالتضحيات الجسام، مما يجعل السلطة والشعب في اتجاهين متعارضين متناحرين لا يلتقيان.

وكلما زادت المواجهات بين السلطات والشعوب، وكثرت التضحيات والخسائر المادية والبشرية والمعنوية، كلما زادت الفجوة والتعارض بين الطرفين، أي: إن العنف يدخل الطرفين في طريق المفاصلة والمفارقة وعدم الرجعة.

والحقيقة المنطقية: لا شرعية لسلطة بدون إرادة أبناء الشعب ورضاهم، وقد ثبت بالتجربة التاريخية والمعاصرة وبالمنطق، أن لا حكومة في العالم تستطيع أن تقضي على إرادة شعب أو تهزمه، وإن قهرته فإلى حين، وأن السلطة لا تستغني عن الشعب، ولكن الشعب يستطيع أن يستبدل النظام السياسي بنظام آخر وسلطة بغيرها، فإذا كان ولابد أن يذهب أحد الطرفين، السلطة أو الشعب ويخرج من المسرح، فإن الذي سيذهب ويخرج حتماً هي السلطة وليس الشعب، ويبقى الشعب إلى الأبد أو إلى أن يشاء الله ﷻ اختيار نظامه السياسي وحكومته بنفسه.

جواب موسى على سؤال فرعون

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾

وقد قبل موسى الكليم عليه السلام مناظرة فرعون واشتغل بتعريف رب العالمين، و إقامة الدليل الساطع القاطع على وجوده وتوحيده، فأجاب على سؤال فرعون بإعطاء تعريف مختصر وقصير، ولكنه جامع مانع، وفي غاية الحسم والوضوح، ويضع النقاط على الحروف، فقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، أي: ربنا الذي نعتقد بربوبيته، هو رب العالمين الذي وهب الوجود وأفاضه على كل وجود، من الذرة الصغيرة إلى المجرة الكبيرة، ومن الكائنات الحية ذات الخلية الواحدة إلى الفيل والحوت الديناصور ونحو ذلك، وأعطى كل شيء خلقه، صورته وشكله المناسب له واللائق به، وزوده بكل ما يحتاجه في حياته وتحقيق غاية وجوده، مثل: كبر الجسم وصغره، وطوله وقصره، وطبيعة كل جزء من أجزائه أو عضو من أعضائه، وجميع خصاله وصفاته، وجعلها كلها بمقدار في منتهى الدقة والحساب، وأحكم خلقها وتصويرها وتقديرها، وأودع فيها من القوى والقابليات والاستعدادات والآلات ما يحفظ كيانها وبقاءها إلى حين أجلها المسمى أو المقدر لها، ويضمن سلامتها وتكاثرها ونحو ذلك. يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**إننا إذا دققنا قليلاً في النباتات والحيوانات التي تعيش في كل منطقة، سواء الطيور أو الحيوانات البحرية أو البرية أو الحشرات والزواحف، فسنرى أن لكل منها انسجاماً تاماً**

١. طه: ٥٠

مع محيطها الذي تعيش فيه، وكل ما تحتاجه فهو موجود تحت تصرفها، فإن هيكل الطيور قد هيئها للطيران من ناحية شكلها وحواسها المختلفة، وكذلك تكوين وبناء الحيوانات التي تعيش في أعماق البحار»[1].

ثم جعل في تقدير خلقها وما تم تجهيزها به من القوى والقابليات والاستعدادات والآلات، الأساس الذي تقوم عليه في تماسكها وتكاثرها وأداء وظيفتها وهدايتها وتسييرها إلى كمالها اللائق بها والمقدر لها وتحقيق غاية وجودها ضمن النظام الكوني والحيوي العام الشامل المحكم، الذي يقوم على أساس التعاضد والتكامل بين أجزائه، فكل شيء يهتدي إلى كماله الخاص به المقدر له ويسير نحو غاية وجوده بما جهز به من القوى والقابليات والمواهب والاستعدادات والآلات المتوفرة له والكامنة فيه، والمعطي والهادي هو الله تبارك وتعالى.

فالحيوانات والطيور والحشرات وغيرها، تعرف بناء بيتها المناسب لحياتها، وكيف تتكاثر وتحافظ على بقائها، وكيف تربي أولادها وتحافظ عليهم وتدافع عنهم وتبعدهم عن متناول الأعداء، بل تعرف أعداءها وأعداءهم بالفطرة، وتدربهم على كافة المهارات الخاصة التي يحتاجونها لبقائهم وحماية أنفسهم ونحو ذلك.

وتكوين البذرة وشكلها ومقادير خلقها والقوى الكامنة فيها أساساً لوصولها إلى كمالها وتحقيق غاية وجودها، بأن تتحول إلى شجرة مثمرة ومفيدة كغذاء ودواء للإنسان أو الحيوان أو غير ذلك من الوظائف والغايات

---

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ١٠، صفحة ١١

للشجرة في نفسها أو ما يحتاجه الإنسان أو الحيوان منها في حياته.

والنطفة تتحول بما ركب فيها من القوى والقابليات والاستعدادات والآلات المتوفرة لها والكامنة فيها إلى كائن حي كامل الخلقة، مثل: الإنسان والقرد والخيل والجمل والفيل وغيرهم، والأعضاء مثل: اليد والرجل والعنق والعين والأنف والأذن واللسان وغيرها، كل منها خلق وصور بشكل وبطريقة وبمقادير وأجزاء في منتهى الدقة والحساب بحيث تؤدي جميع وظائفها في يسر وعلى أحسن وأكمل وأفضل وجه، وتساهم في المحافظة على وجود الكائن الحي وتمكنه من القيام بوظائفه والوصول إلى كماله اللائق به والمقدر له وتحقيق غاية وجوده في النظام الكوني والحيوي المحكم والدقيق غاية الإحكام والدقة.

والشمس والقمر والماء والنار والهواء والتراب والمعادن وغيرها، كل منها خلق بشكل وبطريقة وبأجزاء وبمقادير في غاية الإحكام والدقة، تتيح لها القيام بدورها ووظيفتها في النظام الكوني والحيوي على أحسن وأكمل وأفضل وجه.

وغير ذلك، أي: إن الله ﷻ قد جعل الرابطة وثيقة وقائمة تكويناً بين ما يتم تجهيز الأشياء به في أصل الخلقة من القوى والقابليات والمواهب والاستعدادات والآلات، وبين الآثار التي تنتهي بها إلى كمالها اللائق بها والمقدر لها وتحقيق غاية وجودها، ولم يستعن الله ﷻ في شيء من ذلك بغيره؛ لأنه الغني بالذات، والعالم بالذات، والقادر بالذات قدرة مطلقة، فلا يجهل بشيء، ولا يخفى عليه شيء، ولا يعجزه فعل شيء

أو خلق شيء، وهو الغني عن كل شيء، ولا يحتاج إلى غيره في شيء، يقول العلامة الطباطبائي: «**النظام الخاص بكل شيء والنظام العام الجامع لجميع الأنظمة الجزئية من حيث ارتباط أجزائها وانتقال الأشياء من جزء منها إلى جزء، مصداق هدايته تعالى**»[١].

ولأن الإنسان كائن عاقل يمتلك حرية الإرادة والاختيار، فإن له حقوقاً وعليه واجبات ومسؤوليات جسيمة ليست لغيره ولا على غيره، وله مناهج تربوية وحضارية وتنموية خاصة به تناسبه من أجل تكميله، أي: من أجل الوصول به إلى كماله الخاص، المعرفي والروحي والتربوي والحضاري اللائق به والمقدر له وتحقيق غاية وجوده، وله نوعين من الهداية الإلهية الربانية:

أ. **الهداية التكوينية العامة**: وهي الهداية التي نشاهدها في جميع الموجودات، أي: يشترك فيها الإنسان مع غيره من الموجودات، وبها يدفع الضرر عن نفسه، ويسعى لما خلق له من منافع وأغراض، ويصل إلى تحقيق غاية وجوده كغيره من الموجودات وفق النظام والسنن الكونية والحيوية العامة.

ب. **الهداية التشريعية الخاصة**: وهي الهداية التي يختص بها الإنسان بين جميع الموجودات بما هو كائن عاقل يمتلك حرية الإرادة والاختيار، وتختص بتوجيه مسيرته التاريخية التكاملية، وركنيها: العقل، وحرية الإرادة والاختيار، ويحتاج فيها الإنسان إلى معرفة الحق والباطل، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والصلاح والفساد،

١. تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي، جزء ١٤، صفحة ١٥١

والصواب والخطأ، والتمييز بينها، ليتميز بمعرفتها والعمل بمقتضاها المحسن من المسيء، والصالح من الطالح، ومن يستحق الثواب ومن يستحق العقاب على أعماله الاختيارية في الدارين الدنيا والآخرة.

وهذه الهداية تقتضي بعث الأنبياء الكرام عليهم السلام، و إنزال الكتب السماوية؛ لهداية الناس وتعليمهم، وفرض التشريعات الإلهية والمحاسبة على الأعمال الباطنية والظاهرية، أي: العقيدة، والأخلاق، والسلوك، ولهذا قيل: الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يصنع ماهيته بنفسه عن طريق ما يختاره لنفسه بنفسه من المناهج الإلهية والوضعية، وما يقوم به من الأعمال الصالحة والسيئة.

وليس من الحكمة في شيء، أن يحتاج الإنسان وهو أكرم المخلوقات وأفضلها إلى الهداية التشريعية التي تمثل الجانب الأهم في الهداية، و تتوقف عليها ماهيته وحقيقته، ويقوم عليها جوهر وجوده، ويتوقف عليها كماله الخاص المقدر له وتحقيق غاية وجوده، أي: كرامته في الحياة وتحصيل السعادة الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، ثم تتوجه العناية الإلهية الكاملة إلى الهداية التكوينية التي نشاهدها ونعلم وجودها بالحسن والضرورة، وتوليها الأهمية الكبيرة، وتهمل الهداية التشريعية الأكثر أهمية في وجود الإنسان، وتمثل أساس تميّزه بين الموجودات، وتتوقف عليها ماهيته وكماله، أي: تمثل الجوهر في خلق الإنسان وكينونته.

وما سبق يدل: على أن الربوبية الحقيقة تقوم على أساس واقعي منطقي

متين، تدركه العقول وتقر به، وليست مجرد اِدعاء فارغ لا يقوم على أساس ولا يخضع لمنطق يدعيه كل من هب ودب بدون حجة أو دليل أو برهان أو أساس واقعي ومنطقي مبين، بل الوقائع والمنطق والحقوق تدل على خلافه، لا سيما إذا أخذنا ما يترتب على الإقرار بالربوبية على المربوب من حقوق وواجبات. يقول العلامة الطباطبائي: «**فقد تبين أن الكلام، أعني قوله:** ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] **مشتمل على البرهان على كونه رب كل شيء ولا رب غيره، فإن خلقه الأشياء وإيجاده لها، يستلزم ملكه لوجوداتها - لقيامها به - وملك تدبير أمرها**»[2]، وعليه: فإن ربوبية فرعون الطاغية، ربوبية وهمية مزعومة زائفة لا تستند إلى واقع ولا منطق يؤيدها، وتخالف الفطرة والطبع السليم والوجدان والكرامة الإنسانية والتساوي بين الناس في الحقوق والواجبات، وليس لأحد أن يفرض إرادته على الآخرين بغير رضاهم واختيارهم وعلى خلاف مصلحتهم وكرامتهم.

ولأن فرعون الطاغية يعلم، وكل الناس يعلمون بالوجدان وما كشفت عنه العلوم المختلفة، الرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء والفلك وغيرها، بأن الموجودات كلها مخلوقة وفق نظام كوني دقيق ومحكم وقوانين وسنن صارمة، وأن الأشياء والأجزاء في النظام الكوني والحيوي تتعاضد ويكمل بعضها بعضاً، وأن كل شيء قد تمت تسويته بمقادير في منتهى الدقة والحساب، بحيث يستفيد من القوى والقابليات والاستعدادات والآلات المتوفرة له والكامنة فيه؛ للمحافظة على بقائه وأداء دوره ووظيفته في

---

١. طه: ٥٠

٢. تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي، جزء ١٤، صفحة ١٥١

النظام الكوني والحيوي، ويعمل وفق قوانين صارمة ويسير بخطى ثابتة واثقة نحو كماله اللائق به والمقدر له ولتحقيق غاية وجوده، وهذا يدل بوضوح تام ويقين كامل على أن للعالم خالقاً ومدبراً يتمتع بالعلم المطلق والحكمة البالغة التامة والقدرة المطلقة، وأنه غني بذاته ووجوده مطلق غير محدود ولا متناهٍ في الزمان والمكان.

وفرعون يعلم من نفسه ويعلم الناس جميعاً عنه، أنه لم يخلق الوجود، ضعيف وعاجز، وأنه يخضع في حركاته وسكناته وجميع أفعاله إلى النظام العام الكوني والحيوي ولقوانينه الصارمة، ولا يستطيع أن يغير في ذلك شيئاً، وهذا يدل قطعاً على أنه مربوب وليس رباً، ومحكوم وليس حاكماً، وأن مثله في ذلك مثل غيره من الناس، لا يختلف عنهم ولا يتميز عليهم في ذلك بشيء، فهو وهُمْ في ذلك على قدم المساواة.

ولا ينبغي له ولا يصح منه أن يتقدم عليهم، ويتحكم فيهم، ويخضعهم لإرادته في التشريع والتدبير بغير رضاهم وعلى خلاف إرادتهم ومصلحتهم، وصاحب الحق الوحيد في التشريع والتدبير هو ربهم بحق وحقيقة، وهو رب العالمين.

وهذه حقيقة وجودية تامة في غاية الوضوح والتجلي والظهور لكل عاقل منصف وصاحب بصيرة وذي منطق سليم، وإنكارها لا يكون إلا عن عناد ومكابرة، لأنه إنكار لأعظم الأشياء وضوحاً وظهوراً للعقل والوجدان، حتى قيل بحق: «**فلو قدر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر،**

كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك»[١].

ومن نتائج التأسيس السابق: بطلان النظام الفرعوني وكل نظام ملكي أو جمهوري مفروض بالقوة والعنف والإرهاب وبحكم الأمر الواقع، ولا ينسجم مع الإرادة الربانية في التشريع والهداية، ولا ينبع من إرادة الشعب واختياره ورضاه، ولا يصب في مصلحته الحقيقية في دورة الحياة الكاملة وفي الدارين الدنيا والآخرة.

وقيل: إن فرعون الطاغية كان يعتقد بأن خالق العالم موجود أعلى، وهو واجب الوجود، وهو أعظم من أن يحيط به عقل بشر، ولا يمكن أن يتوجه إليه عامة الناس بالعبادة والطاعة بشكل مباشر، أو يتقربون إليه بالقرابين، وعليه: لا يتخذ إلهاً أو رباً لعامة الناس، وإنما هو رب الأرباب وإله الآلهة، والواجب على عامة الناس التوجه إلى بعض المقربين من خلقه، مثل: الملائكة والملوك والعظماء والكواكب والأصنام؛ من أجل التقرب إليه، لأنهم مظاهر عظمته، ويعتقد فرعون والقائلون بألوهيته وربوبيته بأنه واحد من هؤلاء الآلهة والأرباب، وفوقه إله يعبده، وأن سؤاله لموسى الكليم عليه السلام ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾[٢]، إنما أراد به من يكون من هذه الأرباب المتفرقة؟، إذ يفترض أنه واحد منها ولكنه غيره، ويستبعد أن يكون هو خالق العالم؛ لأنه يعتقد بأنه أعظم من أن تحيط به عقول البشر، أو يمكن التوجه إليه مباشرة بالطاعة والعبادة وبدون واسطة، وأن جواب موسى

---

١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، صفحة ٦٩٨

٢. طه: ٤٩

الكليم عليه السلام على سؤاله، فيه بيان بأن المقصود من رب العالمين هو خالق العالم نفسه، وأن المطلوب هو التوجه إليه مباشرة بالطاعة والعبادة، وفي ذلك إبطال لعقيدة فرعون وعقيدة الوثنيين، وأن لرب العالمين سفراء إلى الناس يقومون على هدايتهم و إرشادهم لما فيه كمالهم وخيرهم وصلاحهم ومصلحتهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة، وهم الأنبياء الكرام والأوصياء الطاهرون عليهم السلام، وأن حياة أخرى بعد هذه الحياة يبعث إليها الناس بعد الموت من أجل الحساب والجزاء على أعمالهم، إن خيراً فخير و إن شراً فشر.

وتدل استجابة موسى الكليم عليه السلام لطلب فرعون بالمناظرة على أمور عديدة مهمة، منها:

- فساد التقليد ووجوب تحصيل العلم اليقين في أصول العقيدة بالحجة والدليل والبرهان الصحيح.

- فساد رأي المدرسة التعليمية عند المسيحيين والحشوية عند المسلمين، الذين يقولون باستفادة معرفة الله ذي الجلال والإكرام سبحانه وتعالى من أقوال الرسول والكتاب؛ لأن معرفة الله سبحانه وتعالى سابقة على معرفة الرسول ولازمة لها؛ فلا يعرف الرسول ولا يصدق ولا يؤخذ منه قبل معرفة الله سبحانه وتعالى، وقيام الدليل الصحيح الناهض على إثبات نبوته ورسالته من عنده، ومن ذلك الإعجاز الذي لا يمكن أن يثبت قبل الفراغ من معرفة الله سبحانه وتعالى.

- جواز حكاية ونقل وبيان كلام المبطلين وأقوالهم بغية نقضها والرد عليها، وجواز استماع العلماء والدعاة بأدب جم و إصغاء كامل إلى كلام المبطلين؛ بهدف مناقشتهم والحوار معهم بالتي هي أحسن والرد على أقوالهم بحجج قوية ومنطق سليم مع مراعاة الأدب في الخطاب وبعيداً عن الإيذاء والغلطة والقسوة والايحاش.

مغالطة فرعون وحرفه مجرى الحوار

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾

ولأن فرعون كان يدرك تماماً الأبعاد المعرفية والعملية الخطيرة جداً على مستقبل نظامه الفرعوني الملكي في كلام موسى الكليم عليه السلام ولسلامة المنطق الرصين الذي يقوم عليه بحيث لا يمكن نقضه بالدليل والبرهان، فحاد عن الطريق السوي في الحوار الذي يكشف عن الحقيقة للبحث عنها، ويوصله إليها، وعمد إلى المشاغبة التي يلجأ إليها السياسيون الدنيويون والمجادلون في الحق بالباطل، حرصاً منهم على مصالحهم الدنيوية العاجلة الفانية، وللبقاء في السلطة والاستمرار فيها والعلو في الأرض بغير الحق، فحاول أن يغير مجرى الحوار، فقد حاول أن يغير مجرى الحوار من حيث الموضوع والمنهج، فقال: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾[1].

فمن حيث الموضوع: حاول نقل الحوار من موضوع الربوبية إلى موضوع مصير الأمم البائدة والأجيال الماضية، الآباء والأجداد الذين ماتوا

---

١. طه: ٥١

وانتقلوا من هذه الحياة، ولم يقروا برب موسى وهارون عليهما السلام الذي يتحدثان باسمه ويزعمان أنهما يحملان رسالة منه إلى فرعون وملئه وقومه، ولم يكونوا يعرفون عنه شيئاً، وكانوا على نفس الدين والحال الذي عليه فرعون وملؤه وقومه؟ أي: ما هو مصيرهم و ما هو حالهم بالنسبة إلى السعادة والشقاء والنجاة والهلاك؟

ومن حيث المنهج: حاول نقل الحوار من الأسلوب العقلي الاستدلالي المنطقي الهادئ الرصين إلى الأسلوب العاطفي الانفعالي، والهدف هو: تهييج العاطفة لدى ملئه وقومه عن طريق إثارة التعصب الأعمى للتراب والآباء والأجداد، و إثارة الحمية الجاهلية لديهم؛ لتعطيل عملية التفكير والاستدلال المنطقي لديهم؛ لكي لا يقبلوا من موسى الكليم وهارون دعوتهما ورسالتهما؛ وليتمكن من استخفافهم وتحريضهم على موسى الكليم وهارون عليهما السلام ورسالتهما وقومهما وكل من يتعاطف معهما ومع دعوتهما ورسالتهما.

وهذا يدل على ذكاء فرعون وحذاقته في الفهم والإدراك العلمي والعملي، وأنه محاور قوي وداهية في إدارة أطراف الحوار وتوجيهها بما يخدم أغراضه الخاصة، على خلاف ما عليه الكثير من ملوك وفراعنة العصر؛ لأنهم بقايا عصر مضى حيث سيطر أجدادهم على الملك بالقوة وفرضوا حكم الأمر الواقع على الناس، ثم ورثوه لأبنائهم جيلاً بعد جيل، بعد أن وطؤوا لهم الأمر، وليس بالضرورة أن يمتلك الأبناء كفاءة وقدرات ومواهب المؤسسين، وكان استمرار النظام الملكي وبقاء الأبناء في السلطة، في زمان

يحمل ثقافة مغايرة، ويعتبر النظام الملكي نظاماً سخيفاً في نفسه وغريباً على ثقافة العصر، وبفضل عوامل قاومت التغيير، ولكنها إلى زوال حتماً، فلا يمكن أن تؤسس أنظمة ملكية جديدة، والباقي منها سيقاوم إلى حين، أي: حتى تتكامل العوامل التي قاومت التغيير، وبعضها سيتحول إلى وجود صوري قبل أن يزول، ثم يزول نهائياً.

كما يكشف أسلوب فرعون ومحاولته تغيير مجرى الحوار من حيث الموضوع والمنهج، عن خبث شديد في محاربة الحق وتكريس الأنانية والمصالح الخاصة على حساب العدل والمصالح العامة للناس، وتضليل الرأي وجعل الناس يقفون المواقف التي يظهرون فيها وكأنهم في الحقيقة أعداء لأنفسهم ومناهضون لمصالحهم الجوهرية والحقيقية، وأعداء شرسين للأولياء الصالحين والمصلحين الشرفاء الذين يسعون ويضحون من أجل الصلاح العام وراحة الناس وازدهارهم وسعادتهم، وهي من الأساليب التي يعمل بها الفراعنة الخبثاء المجرمون في طول التاريخ وعرض الجغرافيا؛ للحفاظ على مصالحهم الأنانية الخاصة؛ ولاستمرار بقائهم في السلطة وحصولهم على المزيد من المصالح والامتيازات، حيث إنهم يعملون كما يعمل الشيطان تماماً في إضلال الناس، فإنهم يأتون للتأثير على العالم عن طريق العلم والمنطق، وللعابد عن طريق الطاعة والعبادة، وللمتدين عن طريق الدين والبدع والأخلاق، وللطامع والانتهازي عن طريق الجاه والمنصب، وللتاجر عن طريق المال والثروة، وللمتعصب عن الطريق التراث، ونحو ذلك، ولا ينجو من إضلالهم إلا الواعي البصير الخبير بأساليبهم الخبيثة ومكرهم ودسائسهم، عصمنا الله ﷻ منهم ومن مكرهم وحبائلهم وخدعهم.

رد موسى على مغالطة فرعون

﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾

وقد فطن موسى الكليم عليه السلام إلى خطة فرعون الخبيثة، فأجابه إجابة صاعقة، حافظ فيها على ذات الموضوع والمنهج، وأخرس لسان فرعون وملئه بحسب العقل والمنطق السليم، وأعطى المزيد من التفاصيل الدقيقة المنطقية التي تستثير دفائن الفكر والعقول، وتدعو إلى المزيد من التأمل والتحقيق، فقال: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[١] أي: علم أشخاصهم وأحوالهم وجزائهم عند ربي وليس عندي؛ لأنه من علم الغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وأنا عبد مثلكم لا أعلم الغيب، وإنما مجرد رسول أحمل لكم رسالة محددة منه، وكل علمي هو مما علمني، وقد علمني: أن حال كل إنسان، فكره وسلوكه ومواقفه وعلاقاته، وكل حركة من حركاته أو سكنة من سكناته، محفوظة عند الله سبحانه وتعالى، ومثبتة بشكل دقيق جداً لا يقبل الخطأ أو التبديل أو الزوال في كتاب محكم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويسمى كتاب الأعمال.

والله سبحانه وتعالى شهيد وحافظ لأحوال وأعمال العباد فوق هذا الكتاب، ومن صفاته: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[٢] أي: لا يخطئ في علم شيء من الأشياء، وهو يعلم حقائق الأمور وبواطنها، وليس يعلم الظواهر فقط، وهو لا ينسى شيئا مما علمه.

---

١. طه: ٥٢

٢. نفس المصدر

فقد نفى عن الله سبحانه وتعالى الجهل الابتدائي، ونفى عنه الجهل بعد العلم، أي: النسيان، فأثبت له بذلك العلم المطلق غير المتناهي، فلا يفوته علم شيء أبداً، وعليه: فهو لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، قليلاً كان العمل أو كثيراً، وأثبت أن الكتاب هو لمزيد من إقامة الحجة على العباد، وليس لكي يحفظ الله سبحانه وتعالى عمل العباد خوفاً من النسيان أو لكي لا يضيع، يقول العلامة الطباطبائي: «**وأثبت العلم ونفى الجهل عنه بعنوان أنه رب لتكون فيه إشارة إلى برهان المدعي، وذلك: أن فرض الربوبية لا يجامع فرض الجهل بالمربوب، إذ فرض ربوبيته المطلقة لكل شيء - والرب هو المالك للشيء المدبر لأمره - يستلزم كون الأشياء مملوكة له قائمة الوجود به من كل جهة، وكونها مدبرة له كيفما فرضت فهي معلومة له**»[1]، وهو لا يظلم أحداً من عباده في الجزاء، فلا ينقص شيئاً من ثوابه المستحق له، ولا يزيد شيئاً أكثر مما يستحق من العقاب على أعماله السيئة، ولا يعاقب أحداً بدون حجة وبرهان قاطع.

وعليه: فإن الأمم الخالية والأجيال الماضية قد قدموا على رب عليم كريم، عادل ورحيم بعباده، وقد لاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها بالعدل والإحسان، فإن أقيمت عليهم الحجة من الله سبحانه وتعالى ولكنهم عاندوا واستكبروا على الحق وأهله فسوف يكونون من المعذبين الهالكين، وإن لم تُقَم عليهم الحجة فهم معذورون ولن يظلمهم ربهم سبحانه، وإن أقيمت عليهم الحجة وأطاعوا فسوف يكونون من الناجين السعداء، وهذا أمر منطقي وعقلاني جداً ويتساوى فيه جميع الناس والأمم الماضين

---

١. تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي، جزء ١٤، صفحة ١٥٤

والمعاصرين ومن يأتي منهم في المستقبل، فعليكم بحسب العقل والمنطق أن تفكروا في أنفسكم وتحسنوا الخيار إليها، فقد جاءتكم البينات، وأقيمت عليكم الحجة البالغة، ومصيركم بأيديكم، فإن أطعتم فسوف تكونون من الناجين السعداء، وإن عاندتم واستكبرتم وعصيتم فسوف تكونون من الهالكين الأشقياء، وليس من الحكمة والمنطق أن تشغلوا أنفسكم بدون جدوى بمصير من سبق من آبائكم وأجدادكم وتنسوا أنفسكم وتوردوها موارد المهالك، فتلك أمم قد لها ما كسبت ولكم ما كسبتم.

والجدير بكم: أن تنظروا فيما جئتكم به وتتأملوه وتعقلوه جيداً، وتقابلوا البرهان بالبرهان، والدليل بالدليل، وأن تتركوا عنكم العناد والمشاغبة والجدل العقيم، الذي لا يفيدكم بشيء، ويقودكم إلى الهلاك والشقاء الأبدي الكامل، ويحول بينكم وبين الوصول إلى الكمال والحصول على النجاة والسعادة الحقيقية الأبدية الكاملة.

الاستدلال بالآيات الإلهية

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾

ثم أعطى موسى الكليم عليه السلام تفصيلاً إضافياً للتعرف على رب العالمين؛ لكي يميز بين الرب الحقيقي الذي تقوم ربوبيته على أسس فعلية واقعية موافقة للعقل والمنطق، وتحفظ كرامة الإنسان، وبين الربوبية الوهمية المزعومة بغير حق ولا منطق، ولا تقوم على أسس واقعية، والأخذ بها فيه

مخالفة للطبع الإنساني والفطرة السليمة وهدر لكرامة الإنسان، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾[1]، أي:

أ. الذي جعل الأرض فراشاً ممهداً ومستقراً تحصنكم للعيش عليها والبناء والغرس في يسر وسهولة، وتتخذون من العيش عليها زاداً لحياتكم العلوية الخالدة الكريمة، كما يحتضن المهد الصبي ليربى فيه لحياة أكمل وأشرف، وقد تم تدبير أحوالها الطبيعية ومحيطها بحيث تكون صالحة لحياتكم عليها، وتوفر لكم فيها كل ما تحتاجونه من الوسائل والمرافق التي تمكنكم من العيش الكريم وتمنحه الحياة عليها وصناعة حضارة إنسانية راقية ومتميزة، ولم يجعلها ممتنعة عن مصلحة من مصالحكم، وأن حركة الأرض حول نفسها التي تكون ظاهرة الليل والنهار، وحركة الأرض حول الشمس التي تكون ظاهرة الفصول الأربعة، وحركتها مع المجموعة الشمسية حول مركز المجرة، ونحو ذلك من الحركات الفلكية العديدة، كلها لا تضر بعيشكم بل تعود بالنفع عليكم، وسخرت لخدمة غاية وجودكم في الحياة.

ب. جعل لكم سبلاً «طرقاً» تسلكونها في البر والبحر والجو، وسهلها لكم؛ لكي تسيروا فيها؛ لتبلغوا مآربكم وتصلوا إلى مقاصدكم وتحصلوا على منافعكم في السفر التي لا تقل أهمية أو قيمة عن

---

١. طه: ٥٣

تلك التي تحصلون عليها في إقامتكم في أوطانكم، فرغم وجود الجبال العالية والبحار والعقار الواسعة والمسافات البعيدة جداً بين مناطق سكناكم إلا أن التواصل بين المناطق المتفرقة والبعيدة متاحة لكم براً وبحراً وجواً، فلا تنفصل مناطق الأرض والشعوب والأمم والحضارات عن بعضها البعض، بل تتصل وتتواصل، مما يتيح لكم فرصة السفر والتواصل؛ لما في ذلك من الأهمية والقيمة العالية في التقدم المعرفي والتربوي والحضاري، وإتاحة فرصة التواصل والتلاقي والتلاقح المعرفي والحضاري، وحصول التنمية المشتركة بين الشعوب والأمم والحضارات، وإتاحة الفرصة لقيام نظام عالمي ودولة عالمية واحدة في المستقبل، يقوم على المنهج الرباني العادل المنزل من عند الله سبحانه وتعالى، والذي يوافق العقل والمنطق والطبيعة والفطرة الإنسانية السليمة، ويقوم على التوازن والاعتدال، ويوصل الإنسان إلى كماله الإنساني، ويحقق له السعادة الحقيقية الأبدية الكاملة في جنة الخلد والفردوس الأعلى.

كما أتيحت لكم فرصة التواصل مع العالم الخارجي «غزو الفضاء»، مما يعطي الحضارة الإنسانية بعداً وميزةً إضافية معرفية وتربوية وحضارية، تختلف كثيراً عما لو كانت حركة الإنسان ونشاطه محصورين على وجه الأرض.

ج. الذي أنزل من السماء ماءً عذباً فراتاً، كثير الخير والبركة، ويعد بحق

وحقيقة: أساس الحياة على وجه الأرض، إذ بدونه لا تكون الحياة ممكنة، فمنه تشربون وتشرب أنعامكم، وبه يُخرج الله ﷻ أصنافاً شتى من النباتات التي تختلف في الشكل واللون والطعم والمنافع، فبعضها يستخدم غذاء للإنسان والأنعام، وبعضها يستخدم للدواء، وبعضها يستخدم لصناعة الملابس والبيوت والسفن ونحوها، وغير ذلك من المنافع التي لا تعد ولا تحصى والمقومة لحياة الإنسان وتنميتها وازدهارها.

وكل هذه الظواهر الطبيعية: من تدبير الله رب العالمين، وتدل على عظيم علمه وحكمته وقدرته وحسن تدبيره ورحمته بعباده، وأنه جدير بالطاعة والعبادة، وليس بالكفر والمعصية.

كما يدل على عدم صحة ادعاء غيره للألوهية والربوبية، وعدم صحة مجاراة من يدعي ذلك والقبول منه؛ لأنه مخالف للعقل والمنطق والطبع السليم والفطرة، ويهدر الكرامة الإنسانية؛ لأن فيه طاعة وخضوع للمساوي بدون حق وعلى غير أساس سليم.

التفكر في الآيات الإلهية

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾

ثم أشار موسى الكليم عليه السلام إلى نعمة إضافية امتن بها على عباده، فقال:

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾[1]، أي: إن الله تبارك وتعالى قد امتن عليكم بأن جعل لكم صنوف النبات الصالح لإطعامكم و إطعام أنعامكم التي سخرها الله تبارك وتعالى لكم التي تمثل جزءً من ثروتكم، ومصدراً لقيام جوانب عديدة رئيسية في الحياة، مثل: النقل والغذاء وصناعة الأغذية والملابس والخيام ونحوها، وأقيموا بهذه المصادر والثروات ومقومات الحياة التي هيّأها الله تبارك وتعالى المجتمعات والدول والحضارات العريقة الواسعة، وكلها بفضل الله تبارك وتعالى عليكم وحسن تدبيره لشؤونكم، وليس من فضل أو نعم غيره أو تدبيره، فالله وحده الغني بالذات والقادر على كل شيء، والمنعم على الاطلاق، وكل من سواه مخلوق له مثلكم، ومفتقر إليه في وجوده وصفاته وأفعاله، وخاضع لإرادته ومشيئته وتدبيره، فهو وحده سبحانه وتعالى الإله الحق والرب بصدق، الجدير بالطاعة والعبادة، ولا إله ولا رب يستحق الطاعة والعبادة والحمد والثناء غيره، فكل هذه الظواهر وجوانب التدبير، آيات بينات ظاهرة الحجة، لكل ذي عقل وبصيرة ومنطق سليم، الذين يبحثون عن السنن والحقائق ويعملون بمقتضاها مجردين عن الأهواء الشيطانية والأغراض الدنيوية الدنيئة والشهوات الحيوانية. فالواجب عليكم: بحكم العقل الذي يقود إلى الحق والمحاسن وينهى عن الباطل والمساوئ والقبائح، وبحكم المنطق السليم والاستدلال الرزين المحكم، أن تطيعوه وحده لا شريك له، وتشكروا له نعمه العظيمة المتتابعة عليكم، و إحسانه إليكم، وسعة رحمته بكم، وتمام وحسن تدبيره لشؤونكم وأحوالكم، يقول

---

١. طه: ٥٤

عبد الرحمن السعدي: «**وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار, وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم، يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية**»[١].

بداية ونهاية الإنسان

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾

ثم أشار موسى الكليم عليه السلام إلى حقيقة وجودية رئيسيه أخرى، فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[٢]، أي: من تراب هذه الأرض خلقتم، أولياء وأشقياء، ملوكاً وصعاليك أغنياء وفقراء، نساءً ورجالاً، ونحو ذلك.

فالإنسان الأول آدم وحواء عليهما السلام خلقا من تراب الأرض، والنطفة التي يخلق منها الإنسان بالتزاوج مخلوقة من تراب؛ لأنها تتكون من الغذاء الذي هو من النبات الذي خلق من التراب، أو من الحيوانات التي تتغذى على النبات، فالإنسان مخلوق من التراب ويتغذى من التراب، وفي الحديث الشريف: «**الأرض أمكم وهي برة بكم**»، ويقول الشيخ جواد مغنية في شرحه: «**أجل، هي أمنا لأنا منها ولدنا، وهي برة بنا لأنها تغذينا**

١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، صفحة ٦٩٩

٢. طه: ٥٥

كما ترضع الأم وليدها»[١]، ثم إليها نعود تارة أخرى، حين نموت وندفن في الأرض، فتتفرق أجزاء بدننا وتتحلل وتصير تراباً، فتعود جزء من الأرض كما كنا من قبل، ثم نخرج من الأرض مرة ثانية عند البعث والنشور بتألف أجزاء الجسم من جديد على الصورة السابقة قبل الموت، وترجع الروح إلى الجسد، فتعود إلى الله رب العالمين سبحانه وتعالى؛ من أجل الحساب والجزاء على الأعمال خيرها وشرها، بالثواب والعقاب.

فالنظام الكوني المحكم، يدل على الحكمة الإلهية البالغة، والقدرة العظيمة المطلقة، والهدفية التامة في الخلق، ومقتضى ذلك: أن تكون هناك حياة أخرى بعد الموت، وحساب وجزاء على الأعمال، وانقسام الناس إلى فريقين: فريق السعداء في الجنة، وفريق الأشقياء في النار، قول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٢].

والآية موضوع البحث: تحمل دليلين عقليين على البعث والنشور:

الدليل الأول: أننا خلقنا من التراب أول مرة، وخلقت النطفة التي تكونا منها بالتزاوج من التراب أيضاً، وتغذيتنا من النبات الذي هو أيضاً من التراب، وهذا كله معلوم لدينا بالحس والمشاهدة. وعليه: فإعادة الخلق من أجل الحساب والجزاء في يوم القيامة في غاية الإمكان بحسب العقل والمنطق السليم.

---

١. تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، جزء ٥، صفحة ٢٢٣

٢. المؤمنون: ١١٥

الدليل الثاني: أن إخراج النبات الحي من الأرض بعد موتها، دليل واضح على إمكان إخراج الحي من الميت، أي: دليل على إمكان إحياء الموتى في يوم القيامة. وعليه: ففي النبات غذاء للأجسام، وغذاء للعقول والأرواح، إذ يستدل بها على وحدانية الله سبحانه وتعالى وحكمته وعظمته وحسن تدبيره والآخرة.

والآية الشريفة المباركة تبين لنا دورة الحياة الكاملة للإنسان التي تبدأ وتنطلق من الأرض، حيث يخلق الإنسان من التراب، ثم يعيش ويتربى جسمياً وعقلياً وروحياً على الأرض، ثم يموت ويدفن في الأرض، فتتفرق أجزاء جسمه وتتحلل وتتحول إلى التراب، فيعود جزءاً من الأرض لا يتميز عنها في شيء، ثم يبعث يوم الحشر والنشور للحساب والجزاء في يوم القيامة، والصيرورة إلى المصير النهائي: فريق السعداء في الجنة، وفريق الأشقياء في السعير.

وهذه الدورة الكاملة للإنسان في الحياة من المبدأ إلى المعاد، تكشف بكل تجلي ووضوح عن عظمة الخالق المدبر الرحيم الحكيم، وتقنع الإنسان بالتواضع لله جَلَّ جَلَالُهُ، وتبعده في حال التفكير فيها عن التكبر والطغيان؛ لأنه مصنوع من التراب الذي يوطأ بالأقدام، وعائد إلى التراب حيث يوطأ بالأقدام، وأن له رباً عظيماً كريماً يدبر أمره، وسوف يحاسبه ويجازيه على أعماله الحسنة بالثواب إلى أعلى عليين، وعلى أعماله السيئة بالعقاب وينحدر إلى أسفل سافلين في سجيل.

أي: إن كرامة الإنسان وسعادته في كماله العقلي والروحي، وليس

في المال والثروة والجاه والسلطة ونحو ذلك، فإنها تنتهي به إلى أسفل سافلين في نار جهنم، حيث يتمنى حينها لو أنه بقي على حاله الأول تراباً، ولم يخلق إنساناً يختار المعصية لجبار السماوات والأرض، قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾[1].

وعليه: لا يصح منك يا فرعون بحكم العقل والمنطق والحقائق الكونية والسنن التاريخية أن تتعصب للآباء والأجداد والموروث الثقافي، وتكابر الحق وتهمل ما جئناك به من الحجج الباهرات والبراهين القاطعة وما بيناه لك ولملئك من الحقائق الساطعة، بل يجب عليك بحسب العقل والمنطق أنت وقومك أن تنظروا وتدققوا فيما جئناكم به من البينات، وفيما بيناه لكم من الحقائق والسنن الإلهية العظيمة، وأن تحسنوا الاختيار لأنفسكم قبل فوات الأوان؛ لتفوزوا بالسعادة الأبدية الكاملة والرضوان الإلهي العظيم والنعيم المقيم، ولا تتعصبوا لما لا ينبغي لكم التعصب إليه، وتنسوا أنفسكم مخالفين في ذلك العقل والمنطق والفطرة، فتخسروا أنفسكم وتكونوا من الهالكين والأشقياء في الدارين الدنيا والآخرة.

عناد فرعون وعرضه المبارزة مع السحرة

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ

١. النبأ: ٤٠

مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[١].

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾

الخطاب بلسان القدرة جل وعلا، بأنه سبحانه تعالى أرى فرعون آياته التسع كلها: اليد البيضاء، والعصا وغيرهما من الآيات الآفاقية والأنفسية والمعجزات التي أظهرها الله تبارك وتعالى وبيّنها على لسان نبيه الكريم موسى الكليم عليه السلام، بالإضافة إلى محتوى الرسالة السماوية التي بلغّها به موسى الكليم وأخاه ووزيره هارون عليه السلام، وعرّفه حقيقتها ودلالتها القاطعة على صدق النبوة والرسالة، فما ارعوى ولا استقام، و إنما كذّب بها وتولى؛ عناداً، وامتنع عن قبولها والانصياع إلى الحق واتباعه، وجادل بالباطل ليدحض به الحق ويضل الناس عن الهدى والاستقامة، وذلك من أجل البقاء في السلطة، والهيمنة على الثروة، وفرض السيطرة على مقدرات الشعب والدولة، والتمتع بالامتيازات الملكية والسلطانية.

وحينما يكون الخطاب بلسان القدرة الإلهية، ونسبة الله سبحانه وتعالى الآيات إلى نفسه، فهذا يعني: بلاغة البيان وتمام حجية الآيات، وأن الله تبارك وتعالى قد أرى فرعون الآيات كما هي عليه في نفسها، وكشف له عن حقيقتها ودلالتها.

ومع ذلك: فقد رفضها ولم يقبلها وكذب بها، ورفض الإيمان والطاعة والانصياع إلى الحق الذي عرفه واتباعه والعمل بمقتضاه، وأصرّ على

---

١. طه: ٥٦-٥٩

الكفر لعتوه، أي: إن الآيات كانت في غاية الوضوح ومنتهى الدلالة على صدق النبوة والرسالة، وضيقت الخناق على فرعون فلم يكن في وسعه رد الدليل بالدليل والبرهان بالبرهان، فلجأ إلى الغدر والافتراء بهدف التضليل وصرف الناس عن رؤية الحق واتباعه، فوصف المعجزات الباهرات والآيات البينات بالسحر، وذلك: بهدف ملامسة تأثيرها البالغ في النفوس، والتشكيك فيها، على غرار ما يفعله المبطلون في مواجهة معجزات الأنبياء الكرام عليهم السلام وبيانهم في جميع الأمم، قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[1]، لا سيما وقد شاع السحر وبرز وانتشر في مصر في ذلك الوقت، واتخذ بعداً دينياً وسياسياً في الحياة العامة والخاصة للمصريين، ولئلا يلزم عن الآيات والبينات التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام الإيمان بنبوته وفرض طاعته على فرعون وملئه وقومه.

أما صفة الجنون التي جاء بها المبطلون في وصف الأنبياء الكرام عليهم السلام رغم أنهم سادة العقلاء في أممهم، فذلك: لأنهم خالفوا المألوف، واعتبر المبطلون المألوف الذي يحفظ لهم السلطة ويؤمن مصالحهم هو العقل والرشد، ومخالفته جنون وسفاهة.

وموقف فرعون من الآيات والبينات والرسالة، يدل على فرط عتوه وغروره وعناده، وشديد إسرافه على نفسه، وعظيم استغراقه في ذاته وأنانيته، وفي عالم المادة والحياة الدنيا، وحرصه غير المتناهي على

١. الذاريات: ٥٢-٥٣

السلطة والمصالح الدنيوية العاجلة، مما يجعل منه صورة بشرية جليلة مماثلة للشيطان الرجيم في رؤيته للأمور، وفي عتوه وعناده واستكباره على الحق وأهله ومحاربته للأولياء الصالحين.

فقد كان إبليس الرجيم في صفوف الملائكة في عالم القدس، وكان يبدو وكأنه واحدُ منهم في طهارته وعبادته، وكان عالماً بالحقائق الملكوتية عن طريق المعاينة والمشاهدة، ومنكشفة له على ما هي عليه في نفسها، وقد خاطبه الله سبحانه وتعالى مباشرة وبدون واسطة، ومع ذلك: حين أمر بالسجود لآدم عليه السلام رفض واستكبر، وأصر على كفره بأنعم الله تبارك وتعالى عليه وعناده، وصمم على مبارزة الله جل جلاله ومحاربة أوليائه الصالحين عليهم السلام و إضلال عباده؛ ليكونوا شركاءه في النار، وذلك بسبب الاستغراق في الذات والأنانية والحسد لأولياء الله الصالحين عليهم السلام، مما يكشف عن مدى خطورة هذا الداء الروحي والأخلاقي، حب الذات والأنانية والحسد، وفتكه البالغ بالإنسان، وخطورة آثاره المدمرة على النفس وعلى غيرها.

فجدير بكل عاقل بصير بالأمور والعواقب: أن يحذر من هذه الأمراض الروحية والأخلاقية أشد الحذر، وأن يخاف منها خوفه من الهلاك والشقاء، ويفر منها بمقدار حبه لنفسه وحرصه عليها، وأن يحرص كل الحرص وتمامه على تطهير نفسه وشفائها التام منه.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾

أي: لم يكتف فرعون بعدم قبوله الآيات والبينات التي جاء بها موسى

الكليم عليه السلام من عند رب العالمين، ورفض الإيمان والانصياع إلى الحق والعمل بمقتضاه، وإنما كشف عما هو دفين في داخل نفسه، من أن دافعه لتكذيب الآيات والبينات ورفض الإيمان والطاعة، هو الأنانية والتعلق الشديد بالسلطة، والخوف الشديد من ضياعها وضياع المصالح والامتيازات الملكية والسلطوية القائمة عليها، وليس لشك حقيقي وعدم قناعة بالمعجزات والبينات في نفسها وفي دلالتها على صدق النبوة والرسالة، فاتهم موسى الكليم عليه السلام وهو النبي الكريم والولي الصالح بالتستر بالدين، واللجوء إلى السحر والتمويه تحت عنوان «المعجزات»؛ لأغراض سياسة تنافسية، وهي: الاستيلاء على السلطة والثروة ومقدرات الدولة، وإخراج الأقباط من أرضهم ووطنهم، بهدف الاستئثار مع بني إسرائيل بالسلطة والثروة والمقدرات، وذلك: وفق خطة منسقة ومتكاملة، تتضمن آليات لقلب النظام والسيطرة على الحكم في البلاد، على قاعدة: «كل من يرى الناس بعين طبعه»، والهدف من توجيه تلك الاتهامات لموسى الكليم عليه السلام هو التشكيك في نزاهته وقدسيته والإيحاء عن قرب إلى أنه يعمل لأغراض دنيوية تنافسية، وهي: السيطرة على الحكم والثروة والمقدرات، والاستئثار بها مع بني إسرائيل، وحرمان الأقباط منها والعمل على اقصائهم وتشريدهم وإخراجهم من أرضهم ووطنهم الذي ولدوا فيه وتربوا وترعرعوا فيه وأحبوه وارتبطوا به، وذلك: لأسباب عرقية، فهو يلجأ إلى الأساليب القذرة؛ لتحقيق أهدافه مثله في ذلك مثل كل السياسيين الذين يعملون من أجل السلطة والثروة والامتيازات ويتنافسون عليها على قاعدة «الغاية تبرر الوسيلة».

وفي ذلك ما يكفي لاستفزاز الأقباط واستثارة مشاعرهم، وتحريضهم ضد موسى الكليم عليه السلام ودعوته، وضد قومه بني إسرائيل الذين هم خصوم فرعون وأتباع موسى، وتنفير الأقباط من رسالته ومقاومتها ومحاربتها، بدوافع عديدة: التعصب للتراث الديني والثقافي وللعرق، والشك في الآيات وفي نزاهة موسى الكليم عليه السلام ودوافعه وأهدافه، والانجراف وراء المشاعر الوطنية والقومية، والخوف من الحرمان والتشرد ومفارقة الوطن إلى الأبد، والخوف من ضياع مجدهم ومجد آبائهم وأجدادهم وضياع مستقبل أبنائهم وأحفادهم من بعدهم، وهذه من أعظم المخاوف وأكثرها حساسية واستثارة للمشاعر؛ لأن الإنسان يميل بطبعه إلى وطنه وأبنائه وتراثه، ويحبهم كما يحب نفسه، ويصعب عليه فراق وطنه والخروج منه والتفريط في تراثه ومستقبل أبنائه، وهذا مما يظهر موسى الكليم عليه السلام على أنه عدو حقيقي لدود للأقباط ويشكل تهديداً وجودياً شاملاً لهم، فيدفعهم إلى بغضه ومحاربته ورفض دعوته، مما يدل على ذكاء فرعون وخطر مكره.

وهذا الأسلوب الخبيث الذي لجأ إليه فرعون في التعامل مع موسى الكليم عليه السلام ورسالته وما جاء به من الآيات والبينات من عند رب العالمين هو نفس الأسلوب الذي يلجأ إليه الفراعنة والحكام المستبدون على طول التاريخ وعرض الجغرافيا في التعامل مع الأولياء الصالحين والمصلحين المخلصين الشرفاء، من الاتهام لهم بالعنف والإرهاب وإثارة الفوضى وتعريض مصالح البلاد والعباد وأمنهم إلى الخطر ونحو ذلك من الاتهامات الجزافية الباطلة، واختلاف التبريرات الوهمية الباطلة؛ لتشويه سمعتهم

والتنكيل بهم وتصفيتهم، وكل ذلك: من أجل بقاء الفراعنة والحكام المستبدين في السلطة والتمتع بالامتيازات السلطوية والتشريفات الملكية، ونحو ذلك.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾

أي: كان فرعون في غاية الثقة بقوته وبولاء قومه الأقباط وتبعيتهم التامة له، وثقته بالظفر والنصر على موسى الكليم عليه السلام وقومه بني إسرائيل، ولأنه كذلك، ولأنه وصف الآيات والبينات التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام بالسحر، فقد أقسم: لنأتينك يا موسى بسحر يماثل سحرك، فلا يغرنّك ما عندك من السحر، فإن عندنا مثل ما عندك منه، وما يزيد عليه كماً ونوعاً، ما نستطيع به قطع حجتك و إبطال دعوتك، ولنواجهك ونبارزك به؛ لإفشال مؤامراتك ضد الشرعية والنظام الملكي الفرعوني القائم ومصالح الشعب، فأمهلنا بعض الوقت، واجعل بيننا وبينك موعداً، مكاناً وزماناً معلومين للمبارزة لا تخلفه نحن ولا أنت، على أن تكون الدعوة مفتوحة لكل الناس للحضور؛ لينظروا جميعاً وبشكل حر في أمرنا والاختلاف الواقع بيننا وبينك؛ ليفتضح أمرك على رؤوس الأشهاد، ويصدروا حكمهم العادل فيما نختلف فيه، ويحددوا خياراتهم بأنفسهم بحرية، وأن يكون مكان الاجتماع والمبارزة متوسطاً تستوي فيه المسافة بيننا وبينك، ولا يشق على الناس من أي طرف الوصول إليه بيسر وسهولة، وأن يكون مفتوحاً أو منبسطاً لا يوجد فيه ما يحجب أعين الحضور عن مشاهدة ومتابعة ما

يجري بدقة حتى يظهر لهم الحق فيما نختلف فيه نحن وأنت.

والملاحظ: أن فرعون قد ترك تعيين الموعد -المكان والزمان- إلى موسى الكليم عليه السلام، وفي ذلك: إظهار منه لكمال اقتداره وثقته من نفسه بالظفر والفوز في المبارزة، في سبيل الرفع من معنويات ملئه وقومه، وشحذ هممهم في مقاومة دعوة موسى الكليم عليه السلام وعدم الانحراف وراءها.

وهذا لا يعني صدق فرعون مع نفسه وأتباعه في وصفه الآيات بالسحر، فقد فهم حقيقة الآيات واستوعبها كما هي عليه وأقيمت عليه الحجة بها، وعَلِمَ عِلْمَ اليقين بأنها من عند الله سبحانه وتعالى، وأنها أبعد ما تكون في حقيقتها عن السحر والتمويه والخداع، وأن موسى الكليم وهارون عليهما السلام أجل وأكرم من أن يكونا من السحرة والمشعوذين، وأن السحرة أضعف من أن يستطيعوا تهديد نظامه ودولته، أو يخرجوه وقومه من أرضهم ووطنهم، ولكنه بسبب عتوه وفرط عناده واستكباره وجهالته، أراد أن يقاتل ويقاوم إلى آخر لحظة، وأنه وإن كان يعلم بأنه لن يستطيع أن يتغلب على موسى الكليم عليه السلام نفسه، ولكنه يعمل ويقاتل من أجل إلباس الحق بالباطل، وتضليل الرأي العام، وقطع الطريق على الناس، والحيلولة بينهم وبين الإيمان بنبوة موسى الكليم عليه السلام والتصديق برسالته، مما يهدد نظامه وبقاءه في السلطة، وهو شديد التعلق بالسلطة وما يرجع إليها من المصالح والامتيازات والتشريفات، ولا يريد أن يضحي بشيء من ذلك أو يتخلى عنه تحت أي ظرف من الظروف أو لأي سبب من الأسباب.

وهذا ما يفعله الفراعنة المتسلطون والحكام والمتعنتون دائماً في طول

التاريخ وعرض الجغرافيا، حيث يصفون المصلحين الأحرار والمطالبين بالحقوق بالعنف، والإرهاب، وإثارة الفوضى، والإضرار بمصالح البلاد والعباد وأمنهم؛ من أجل تشويه سمعتهم، وإيجاد التبريرات الوهمية الباطلة؛ لقمعهم وقهرهم والتنكيل بهم وتصفيتهم؛ لإسكاتهم والتخلص منهم ومن مطالبهم بالإصلاح ونحو ذلك. فالفراعنة المتسلطون لا يؤمنون بحق ولا حقيقة، ولا بمصالح الشعوب وأمن الأوطان، وإنما يفكرون فقط في أنفسهم واستمرار بقائهم في السلطة واستمرار حصولهم على مصالحهم والامتيازات السلطوية ونحو ذلك، ويتخذون من كل شيء: الدين والشعب والوطن وغيرها وسيلة من أجل ذلك، ويكفرون بكل شيء يحول بينهم وبين السلطة والامتيازات والتشريفات والمصالح، ولديهم كامل الاستعداد لارتكاب كل جريمة من أجل ما يطلبون ويرومون من البقاء في السلطة، ولا يتنازلون عن شيء إلا بمقدار ما يجبرون عليه وإلى حين استطاعتهم فيقتلون ولا يراعون في ذلك ذمة ولا عهد ولا ميثاق، وعليه: فقد لجأ فرعون إلى المراوغة والاحتيال والكذب والافتراء.

ومع كل ما سبق: أسجل نقطتين لصالح فرعون، وهما:

أ. تأكيده على الوفاء بالوعد من الطرفين ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنت﴾[1] وهذه خصلة حميدة لا تكاد تجدها عند فراعنة القرن الواحد والعشرين، الذين طبعوا على الغدر ونقض العهود والمواثيق، فلا تجد منهم الوفاء بشيء منها ما كانوا في سعة من الأمر.

١. طه: ٥٨

ب. الحياد في اختيار المكان من جهة الموقع: متوسط بين الطرفين ويسمح لكل الناس بالحضور في يسر وبسولة، ومن جهة الكيف والطبيعة: مكشوف أو منبسط بحيث يستطيع جميع الحضور رؤية المبارزة وجميع فصولها ومشاهدتها بوضوح تام، قوله: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾[١].

وهاتان الخصلتان و إن كانتا نتيجة لثقة فرعون بنفسه وقوته وولاء الأقباط التام إليه، إلا أنك لا تجد مثل ذلك لدى فراعنة العصر؛ لأنهم مجرد بقايا عهد مضى، وهم يفتقرون إلى الثقة بالنفس، ولأنهم محكومون بعقدة الاستعلاء والحرص التام على استصغار الآخر و إذلاله بسبب أو بدون سبب، وذلك للتعويض عن عقدة الشعور بالنقص، وبسبب الخواء الفكري والغيظ والانتقام من المعارضين الذين يجدون فيهم من خصال الكمال والثقة ومحبة الناس لهم ما لا يجدونه في أنفسهم.

فأجاب موسى الكليم عليه السلام فرعون بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[٢] أي: أن يكون موعد المبارزة هو يوم الزينة، وهو يوم عيد لهم يحتفلون فيه كل عام، وفيه: يعطل الناس أعمالهم ويقطعون شواغلهم، ويتزينون فيه، ويجتمعون، فيكونون بذلك أكثر تهيئة من الناحية: الذهنية والنفسية والعملية للحضور والتفاعل، وأن يكون الاجتماع والمبارزة في وقت الضحى، حين تطلع الشمس وتبسط ضوءها، وقبل أن

١. نفس المصدر

٢. طه: ٥٩

يشتد حرها، وذلك: لضمان حضور أكبر عدد ممكن من الناس، وضمان عدم أذيتهم من حر الشمس، أي: ضمان سلامتهم، وضمان وضوح الرؤية لفصول ومشاهد المبارزة، فقد قابل موسى الكليم عليه السلام ثقة فرعون في نفسه وقوته بثقة أكبر منها، وأدخل حيثيات جديدة على الزمان تضمن أكبر عدد من الحضور وسلامتهم ووضوح الرؤية لمشاهد المبارزة، مما يكشف عن ثقته بربه رب العالمين، ويقينه بصدق ما جاء به من عنده، وأنه ناصره على عدوه لا محالة، وذلك: ليعلو الحق على الباطل على رؤوس الأشهاد، وينتشر في الأقطار، ويكون أكثر ظهوراً في تلك المبارزة التاريخية الفاصلة.

الفصل الثالث: المبارزة التاريخية الفاصلة وإيمان السحرة

قول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ
أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ
خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا
إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا
بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ
السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ
أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ
مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا
أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ
لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ
الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[1]

---

١. طه: ٦٥-٧٦

حضور السحرة وحوار موسى معهم في الميدان

بعد أن رأى فرعون ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من معجزات باهرات وآيات بينات واضحات، وعرف تأثيراتها العظيمة في النفس، وخطرها على نظامه وملكه، وقرر المواجهة بالمثل مع موسى الكليم عليه السلام وعقد معه اتفاقاً حول زمان ومكان المبارزة مع السحرة، انصرف إلى حاشيته وكبار عماله ومعاونيه، وتشاور معهم للتهيء بجد واجتهاد ووضع الخطط وإحكامها واتخاذ التدابير اللازمة لخوض المعركة التاريخية الفاصلة بالنسبة إلى مصر والنظام السياسي والاجتماعي والديني فيها، وتحديد مصير القائمين على الحكم ومستقبلهم، ولضمان تحقيق النصر فيها، وذلك: بجمع كل ما يقدرون عليه من أسباب المواجهة وما يكيدون به موسى الكليم عليه السلام ويفتنون الناس ويخدعونهم ويلبسون عليهم الحق بالباطل ويحولون بينهم وبين الإيمان بنبوة موسى الكليم عليه السلام والتصديق برسالته، ليحافظوا بذلك على نظامهم السياسي والاجتماعي والديني القائم، وعلى بقائهم في السلطة والتمتع بامتيازات الحكم، واتفقوا على إرسال الرسل إلى جميع المدائن في جميع أنحاء مصر للبحث عن السحرة الماهرين المتمكنين منه والمتدربين على مختلف فنونه والعارفين لكافة أسراره، والإتيان بهم إلى العاصمة السياسية ومقر الحكم في البلاد ومكان المبارزة التاريخية الفاصلة مع موسى الكليم عليه السلام، فأرسل فرعون ضباطاً وجنوداً من جيشه إلى كافة أنحاء البلاد لجلب السحرة المطلوبين للمبارزة، وكان السحر شائعاً في مصر آنذاك، وعلمه مرغوب فيه، ويحتل السحرة مكانة مرموقة في النظام السياسي والاجتماعي والديني، حيث كان السحر يخدم

أهدافاً عديدة: دينية وسياسية واجتماعية، ويمثل السحرة طبقة مهمة وفاعلة في الحياة العامة، وقد نجح المبعوثون من فرعون في جمع عدد ضخم من السحرة يقدر عددهم بـ: اثنين وسبعين ساحراً، وقيل: أربعمائة ساحر، وقيل: أكثر من ذلك بكثير.

كما لجأ فرعون ومعاونوه إلى التعبئة الإعلامية والسياسية ضد موسى الكليم وأخيه ووزيره وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام وضد قومهم بني إسرائيل، والحث على الحضور إلى ميدان المبارزة في الوقت المعين والمكان المعلوم، من أجل مشاهدة المبارزة التاريخية المثيرة، وتشجيع السحرة ومناصرتهم، أي: عمل فرعون ومعاونوه على التحضير الشامل من جميع النواحي: العملية والسياسية والإعلامية لساعة المواجهة بين موسى الكليم عليه السلام والسحرة في يوم عيد مصر وزينتها، وذلك: لعلم فرعون وملئه بضرورة المواجهة وعدم الفكاك منها أو التهرب عنها، ولعلمهم بخطورتها التاريخية الفاصلة على النظام والقائمين على الحكم وتجديد مستقبلهم السياسي والوجودي الفرعوني القائم فيها.

ثم أتى الموعد المعين وحضر فرعون وملؤه من الأعيان والأشراف وكبار عماله ومعاونيه وأنصاره مع السحرة إلى مكان المبارزة المحدد في موكب فخم مهيب يستولي على القلوب، وحضر في المقابل موسى وهارون عليهما السلام وحيدين في موكب بسيط متواضع جداً، واحتشدت الجماهير من الرجال والنساء والأطفال، من الأقباط وبني إسرائيل، ومن المقيمين والسواح وغيرهم في المكان المعين الذي جرى اختياره وفق الشروط المتوافق

عليها بين الطرفين: موسى عليه السلام وفرعون، وكان الجمع حافلاً، والمشهد مثيراً للفكر والمشاعر وحماسياً جداً، فتوجه موسى الكليم عليه السلام لفرعون وملئه والسحرة وخص السحرة بالاهتمام أكثر لأنهم المعنيون المباشرون في المبارزة، فقال لهم واعظاً وناصحاً ومحذراً، وليهيئهم ويقيم عليهم الحجة قبل أن يباشروا أي عمل من أعمال السحر فيتحجروا ويتعصبوا لما عملوا، فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[1] باللجوء إلى الكذاب والخداع والتمويه على الناس وتضليلهم بإظهار الأوهام والأباطيل في لباس الحق والحقائق في أعين الناس عن طريق السحر، وبادعاء الربوبية كذباً وتعدد الآلهة والأرباب بدون دليل أو برهان، وتناصرون ما عليه مجتمعكم من الباطل وتغالبون الحق بسحركم وما مكنكم الله تبارك وتعالى فيه وأعطاكم إياه من العلم والفن والمهارة، وتزعمون أن آيات الله عز وجل ومعجزاته سحر، وأن الدعوة إلى الحق والعدل والتوحيد مؤامرة سياسية خبيثة تهدف إلى قلب النظام السياسي القائم والسيطرة على الحكم والثروة ومقدرات الدولة والاستئثار بها مع بني إسرائيل والإضرار بمصالح الوطن والشعب وحرمان الأقباط وطردهم من وطنهم وأرضهم، ونحو ذلك من الافتراءات فإن ذلك كله: لا أساس له من الصحة، وعاقبته وخيمة جداً عليكم ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾[2] أي: يهلككم الله عز وجل ويستأصلكم عن آخركم بعذاب عظيم مؤلم يرسله عليكم من عنده، بسبب كفركم بالحق وعنادكم له، وبسبب أعمالكم السيئة جداً في الحياة، كما حدث ذلك للعديد من

١. طه: ٦١

٢. نفس المصدر

الأمم والأقوام قبلكم، مثل: قوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود وقوم لوط وغيرهم، وأن فرعون وملأه وجنوده مهما بلغوا من القوة والثروة والسلطة في الأرض، فإنهم أضعف وأحقر وأعجز من أن يقفوا أمام جبار السماوات والأرض ورب العالمين والخلق أجمعين على الحقيقة وهم أضعف وأعجز وأحقر من أن يملكوا أنفسهم وغيرهم أو يستقلوا بنفع أو ضر لكم أو لغيركم.

ثم أشار موسى الكليم عليه السلام إلى قاعدة حضارية وسنة كونية وتاريخية عامة، وهي قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾[1] أي: أن الكذب والافتراء لا يمكن أن يفلح ويؤسس تأسيساً صحيحاً لقيام دولة أو حضارة أو موقف تاريخي عام، فإن حبل الكذب على الناس قصير، ولابد أن تظهر الحقيقة وتكشف للناس، والحقيقة تدافع عن نفسها وهي ظاهرة بذاتها وطلابها من الحكماء وغيرهم كثيرون، وأن الأسباب الوهمية والوسائل الخادعة لا تهتدي إلى مسببات ونتائج حقة ثابتة لها صلاحيات البقاء والاستمرار، وعليه: فكل ما بني على الكذب والباطل والافتراء والخداع والتمويه خاسر ولابد أن ينهار وينتهي ويزول إلى الأبد، ولا يمكن أن يسوق الإنسان إلى العزة والكرامة والحياة المستقرة الهنيئة ويحقق له السعادة الحقيقية الكاملة بل يقوده إلى الخسران والذل والهوان والشقاء الحقيقي في الدارين الدنيا والآخرة، لا سيما إذا كان الكذب والافتراء على الله جل جلاله ومن أجل محاربته، فمن الحتمي وبحكم العقل والمنطق والسنن الكونية والتاريخية العامة وبحكم التجربة التاريخية والمعاصرة، لن يدع الله عز وجل يكذبون عليه أو ينسبون الأكاذيب إليه، ويسعون بكل قوة ووسيلة لإطفاء نور الحق

١. نفس المصدر

و إظهار الباطل ونشر الظلم والفساد في الأرض بدون عقاب، بل سينتقم منهم، وعليه: سيخيب سعيكم، ولن تدركوا مرامكم وما تطلبون، ولن تبلغوا النتيجة التي تأملون من النصر والحصول على الثروة والجاه والمنزلة التي وعدكم بها فرعون وملؤه، ولن تسلموا أبداً من العذاب والشقاء في الدارين الدنيا والآخرة.

وبهذا: فقد قام موسى الكليم عليه السلام وعمل على تهيئة السحرة خاصة فكرياً ونفسياً لنتائج المبارزة بينه وبينهم، ووضع الجميع: الأطراف المتنازعة والمتفرجين في السياق المنطقي للفهم الصحيح لنتائج المبارزة التي يعلم بها عن يقين قبل أن تبدأ، فهو يعلم عن يقين: بأن ما عنده حقيقة فعلية يقف وراءها رب العالمين صاحب القدرة المطلقة، وما عند السحرة مجرد تمويه وتضليل وخداع ولا حقيقة له وراء ما يظهر في أعين الناس من الخداع والتمويه.

تأثّر السحرة بكلام موسى وتدخل فرعون

وقد ترك كلام موسى الكليم عليه السلام المتين والمحكم البنيان والمنطق، والصادر عن قلبه الطاهر وصفاء سريرته، والمنعم بالصدق والمحبة والإخلاص إلى الناس والحرص الكامل على هدايتهم ومصالحهم تأثيراً بالغاً في معسكر فرعون لا سيما السحرة، وظهر ذلك فيهم بوضوح لا تخطئه أعين الحاضرين؛ لأن ما صدر عن القلب المخلص يصل إلى القلب السوي ويترك تأثيره البالغ فيه حتى و إن كان الكلام بسيطاً، فكيف إذا كان بليغاً

ومحكماً ككلام موسى الكليم عليه السلام ولأنهم رأوا الهيئة المرعبة البسيطة على موسى الكليم وهارون عليهما السلام ورأوا مع ذلك القوة والثبات الكامل لديهما في المشهد العظيم وأمام جبروت فرعون وكبريائه وطغيانه، ولأنهم أدركوا أن اللغة والمنطق اللذين يستخدمانهما جديدان ومختلفان كلياً عما ألفوه، وأنهما ليسا بلغة ومنطق ساحر أو مجنون أو سفيه أو طالب حكم وسلطان وثروة وجاه ونحو ذلك، مما يؤثر بحق على كونهما نبيين إلهيين، ويثبت طهارة سريرتهما وحسن نواياهما وصدق دعوتهما وينفي عنهما كل ما نسب إليهما من وهم وأباطيل، فكانت النتيجة: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾[1].

أي: ظهر الاختلاف بين السحرة بشأن موسى الكليم عليه السلام: هل هو على الحق أم لا؟ وارتبكوا أو ترددوا في المواجهة معه وتخاصموا وتنازعوا: هل يمضون في تحديه، أم ينسحبون ويتركون ساحة المبارزة؟ وقد تحدثوا بذلك سراً بينهم بعيداً عن فرعون وملئه، وعن موسى وهارون عليهما السلام كذلك، لكي لا يظهر اختلافهم أمام موسى الكليم عليه السلام وأمام فرعون وأمام الجماهير المحتشدة، ولكي يعطوا أنفسهم فرصة التفكير والمراجعة ويتدبروا الأمر بينهم ويحسنوا التصرف ويتخذوا الموقف السليم الذي يفرضه عليهم الضمير والعقل والمنطق والمسؤولية التاريخية الإنسانية والقومية والوطنية، وما فيه مصلحتهم الحقيقية ومصلحة قومهم في الدارين الدنيا والآخرة.

بعد روية وبعيداً عن الارتجال والاستعجال، فقد أدركوا بوضوح تام: أنهم أمام موقف تاريخي مصيري حاسم وبشكل استثنائي مختلف عن

---

١. طه: ٦٢

كل المواقف التي وقفوها بشأن الحياة العامة في الماضي، وأن حدود موقفهم ونتائجه وحدود أشخاصهم وزمانهم، لتشمل الأمة بكافة طبقاتها وانتماءاتها، ولتشمل التاريخ بعدهم بأسره، بل تمتد آثاره لتشمل المصير فيما بعد الموت والانتقال من هذه الحياة الفانية إلى الحياة الآخرة الباقية، وقيل: إنهم عزموا على اتباع موسى الكليم عليه السلام إن هو تغلب عليهم؛ لأنه سيثبت بذلك أنه ليس بساحر مثلهم؛ لأنهم يعلمون بأن لا أحد يتفوق عليهم في فنون السحر والمعرفة بأسراره، وهو واحد وهم خلق كثير من السحرة الماهرين، ولا يمكن لساحر واحد مهما كان علمه وفنه ومهارته وقدرته في السحر، أن يتغلب على هذا الخلق الكثير والعدد الضخم المتناصرين من السحرة المهرة، فضلاً عن أن موسى الكليم عليه السلام لم يكن معروفاً في أهل هذا الفن، ولم يتلق العلم والخبرة والتدريب على يد واحد منهم أو من أساتذتهم المعروفين بقدم السبق في فن السحر وعلومه وأسراره، وعليه: فإن كان ساحراً فسيتغلبون عليه حتماً، و إن كان نبياً ومدعوماً من الله عز وجل والسماء كما يدعي، فسوف يهزمهم وينتصر عليهم ويظهر بذلك الحق وينكشف؛ لأنه لا قدرة لأحد بأن يتغلب على السماء وعلى القدرة المطلقة، ويكون الإيمان به بعد ذلك منطقياً وعن حجة ظاهرة واضحة، ولا شك: فإن هذا التدبير موافق للحكمة والمنطق والسياسة أيضاً.

ولما رأى فرعون وكبار معاونيه اختلاف السحرة وترددهم، وما في ذلك من خزيهم وخذلانهم وفقدان دولتهم وضياع مجدهم وعزهم، تدخلوا واجتهدوا لرفع الاختلاف والتردد الحاصل بين السحرة ولتثبيتهم وتقوية

عزيمتهم على المواجهة والإصرار على تحقيق النصر والغلبة على موسى الكليم وهارون عليهما السلام وقد عدلوا بكل دهاء ومكر عن مناقشة السحرة فكرياً فيما سمعوه من موسى الكليم عليه السلام من حكمة وعقائد وأفكار ومبادئ وأصول أخلاقية ومواعظ ونصح وتحذير، وعمدوا إلى أمور عملية وركزوا عليها، بحيث يستثيرون فيهم العواطف والمشاعر الوطنية والقومية وتعصبهم للتراث ولأمجاد الآباء والأجداد، ويخوفونهم بالفناء والضياع والحرمان، فقالوا لهم: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾[1] أي: لا تنخدعوا بما سمعتم من موسى وهارون عليهما السلام فقد سمعنا منهما مثلما سمعتم، ورأينا ما عندهم، وقد ظهر لنا وتبين أنهما ليسا بنبيين كما يزعمان، ولا يمتلكان أي إسناد غيبي غير محدود، فما عندهما هو مجرد سحر وتمويه كالذي هو عندكم، وأنتم كبار هذا الفن ورواده وأساتذته، وقوتكم وقدراتكم فيه أكبر بكثير منهما، ونحن نقف إلى صفكم، والجماهير محتشدة لتأييدكم ومناصرتكم، فلا تخافوا مواجهتهما.

ومن جهة ثانية: نحن خبيرون بألاعيب السياسة والسياسيين وطلاب السلطة والمتنافسين عليها، ونحن نعتقد بأن موسى وهارون عليهما السلام ساحران بارعان جداً في فن السحر وفي التمثيل والسياسة، وقد تسترا بالدين لتنفيذ مؤامرة سياسية خبيثة وخطيرة جداً ضد النظام والدولة ومصالح الشعب، فهما يريدان إسقاط النظام الملكي الفرعوني، والسيطرة على الحكم والثروة ومقدرات الدولة، ويستأثرون بها مع بني إسرائيل، ويذيقون الأقباط الإقصاء والحرمان، ويعملان على أن تكون لهما حالة رمزية عظيمة ومقدسة

١. طه: ٦٣

بين الناس، تحت عنوان النبوة والسفارة عما يزعمان أنه رب العالمين، ولتكون لهما بذلك الشهرة والصيت والمجد والفخر والرئاسة عليكم وعلى الأمة بأسرها، وتكون أزمة السحر وفنه بيدهما دونكم، ليتغلبا عليكم بالحيلة والمكر والخديعة ويقوما بإقصائكم عن الفن أو تهميشه في الشأن والحياة العامة، فلا يبقى لكم سبيل إلى الرزق والدين والدولة، فتضيع بذلك منزلتكم عند الناس وسلطتكم عليهم، بينما هما في الحقيقة من طبقة مسحوقة أسفل منكم، ولكم المكانة والمنزلة الرفيعة عليهما، وأنتم أصحاب الفخر والمجد بما لديكم من العلم والخبرة بفنون السحر وتقنياته وبما لكم من دور فعال ومهام عظيمة في المجتمع والحياة العامة.

ثم إن موسى وهارون عليهما السلام لن يكتفيا بذلك، بل يريدان أن يخرجا الأقباط جميعاً من أرضهم وديارهم ووطنهم العزيز جداً على قلوبهم؛ لأنهم ولدوا وتربوا وترعرعوا فيه وأكلوا من خيره، وهو مصدر عزهم وفخرهم ومجدهم في الحياة وبين الشعوب والأمم، وسوف يؤول وجودهم إلى الفناء، ومجدهم وعزهم إلى الضياع، وينتهي أمرهم إلى الخيبة والحرمان والشقاء في الحياة، وهذه نتائج لا يمكن القبول بها والتسليم لأمرها، فقد عمل فرعون وكبار معاونيه على تحريك الميل الطبيعي إلى الأرض والوطن لدى السحرة، وأثاروا فيهم المشاعر الوطنية والقومية من أجل تثبيتهم وتعزيز موقفهم في مواجهة موسى الكليم وهارون عليهما السلام وتحريضهم ضدهما وتحفيزهم على الاجتهاد والإصرار على محاربتهما وتحقيق النصر والغلبة عليهما بكل حيلة أو وسيلة.

ثم لجأ فرعون وكبار معاونيه إلى تحريك الميل الطبيعي لدى السحرة إلى التراث الموروث الحاكم فيهم قروناً من الزمن، وقد توارثوه جيلاً بعد جيل، وإلى تقدير أمجاد الآباء والأجداد التي يقدمونها لسائر أبناء الشعب ويطربون كثيراً لسماعها ويتغنون بها، فقالوا لهم محذرين ومخوفين: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾[1] أي: لن تقف أهداف موسى وهارون عليهما السلام عند حدود الأهداف السياسية المذكورة ونحوها، بل ستتعداها إلى تحقيق أهداف ثقافية ودينية واجتماعية وحضارية، فهما يسعيان إلى القضاء على مقدساتكم، وإلى تغيير دينكم ودين آبائكم وأجدادكم الذي افتخروا به، وعاشوا وماتوا عليه، ويجب عليكم أن تفخروا به، وتعيشوا وتموتوا عليه كما فعل آباؤكم وأجدادكم؛ لأنه الأفضل بين الأديان على وجه الأرض، لا أن تسمحوا بضياعه وجعله أضحوكة بين الناس ومحلاً لسخريتهم.

كما أن موسى وهارون عليهما السلام يسعيان للقضاء على حضارتكم الفرعونية العريقة الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، وقد بناها آباؤكم وأجدادكم وبذلوا أرواحهم ودماءهم لقرون عديدة في سبيل بنائها وتشييدها، فالواجب عليكم أن تكافحوا وتناضلوا وتضحوا من أجل بقائها واستمرار وجودها، وتعملوا على تنميتها وتطويرها، لا أن تتنكروا لها وتفرطوا فيها وتسلموها وقت الوثبة وكأنها لا تعنيكم بشيء، فيذهب بذلك تاريخكم العريق ومجدكم العظيم وعزكم وكبرياؤكم، وتنتهي سنتكم وفلسفتكم في الحياة وكأنها لم تكن في يوم من الأيام، وهي أرقى السنن والفلسفات التي عرفتها الأمم في تاريخها الطويل.

---

١. نفس المصدر

ومن المعروف أن عامة الناس يقدمون كثيراً حضارتهم وتاريخهم وتراثهم والعبادات والتقاليد والسنن القومية التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم وتربوا ونشأوا عليها جيلاً بعد جيل لقرون عديدة ولفترة طويلة من الزمن، لا لأنها حق في نفسها، وقد قام عليها الدليل والبرهان الصحيحان، بل لأنهم ألفوها وأنسوا بها وأصبحت جزء من شخصيتهم وكيانهم المعنوي في الحياة ومنها يستمدون قوتهم وشوكتهم، وعليها يقوم مجدهم وكبرياؤهم، وهي عنوانهم في الحياة بين الشعوب والأمم.

وعليه: فقد وضع فرعون وكبار معاونيه الدين والحضارة والتاريخ والأمة بيد السحرة، وبينوا لهم بأن ذلك سيتحدد بنتائج المبارزة التاريخية العظيمة بينهم وبين موسى الكليم وأخيه ووزيره هارون عليهما السلام وبطبيعة الحال فهي مسؤولية عظيمة بدون شك، ولا يمكن لأي عاقل مخلص لدينه وحضارته ووطنه وشعبه أن يفرط أو يقبل التفريط في شيء من ذلك، والمطلوب من أجل مقدساتكم: الدين والتراث والحضارة والتاريخ والوطن والأمة، عليكم أن تتركوا الخوف والشك والتردد والاختلاف والتنازع، فلا تجعلوا لها طريقاً تصل منه إلى نفوسكم، واحكموا أمركم بينكم وأتقنوه، وخططوا جيداً للمعركة التاريخية العظيمة الفاصلة والحاسمة في تاريخكم، وشدوا عزمكم ولا تهنوا وأظهروا كل ما لديكم من فنون السحر ومهارته، وكل ما لديكم من المكر والدهاء ولا تدّخروا شيئاً من ذلك، وكونوا يداً واحدة وصفاً متراصاً، وأقبلوا على المعركة إقبالة واحدة، بعزم وثبات وقوة إرادة وتصميم، وواجهوا موسى وهارون عليهما السلام متحدين مجتمعين عليهما، متساعدين متناصرين متوافقين غير مختلفين فيهما وفي أمرهما،

فإن ذلك؛ أنظم لأمركم، وأشد لهيبتكم وأظهر لقوتكم في قلوب الرائين، وأمكن لعلمكم، وأمضى لسعيكم، وهو السبيل الوحيد لفوزكم على موسى وهارون عليهما السلام في هذا اليوم العظيم المشهود، ولتكون لنا ولكم ولقومنا الغلبة والرفعة والمكانة العالية عليهما وعلى قومهما إلى أبد الآبدين، واعلموا أن هذا اليوم هو يوم عظيم وفاصل في تاريخ بلدنا وحضارتنا ودينا، ولن يكون ما بعده كما قبله، وأن المستقبل: السيطرة على الحكم والثروة ومقدرات الدولة والشعب، وتحكيم الإرادة والثقافة والدين والفوز بالمطلوب، سيكون من نصيب من يحظى بالغلبة والانتصار على الطرف الآخر: نحن وأنتم والأقباط، أو موسى وهارون عليهما السلام وبنو إسرائيل، فلن تقوم لنا أو لكم أو للأقباط قائمة إن تراجعتم أو هزمتم.

فقد خوّفهم بالفناء والتهميش والطرد من ديارهم ووطنهم وضياع مجدهم إن غُلبوا، وقد وعدهم بالأجر العظيم وتعديل الميزان الطبقي وإعطائهم المكانة والمنزلة الرفيعة وتنزيلهم من العرش الملكي إن غَلبوا.

ثم لماذا الاختلاف والتنازع ورمي الأوراق قبل أن تبدأ المبارزة وتظهر النتائج، فعليكم بالاجتهاد في الأمر وبذل الوسع والطاقة والتعاون والتعاضد والتناصر بينكم من أجل الفوز والغلبة وتحقق النصر، وخوض المعركة وانتظار النتائج وتقييمها والحكم عليها، وهذا كله كلام وتدبير سياسي محكم، يكشف عن دهاء وفطنة بدون شك أو ريب.

وبذلك فقد جمع فرعون بين التضليل والترغيب والترهيب في تثبيت السحرة وتحريضهم ضد موسى الكليم عليه السلام وتوحيد صفوفهم وتحفيزهم

لمحاربته بكل وسيلة، وأتى بكل سبب ووسيلة متاحة وبكل خبث ومكيدة سيواجه بها الحق ويطفئ نوره، وهو عين الأسلوب والمنطق الذي تلجأ إليه الأنظمة الدكتاتورية المستبدة في التحريض ضد المعارضين ومواجهتهم، إذ تتهمهم بالعمل على قلب النظام السياسي بالقوة والأساليب غير المشروعة، والتآمر للإضرار بالمصالح الشعبية والوطنية والقومية، والخروج على العادات والتقاليد والتراث، واعتبار المألوف والتراث والنظام الرسمي هو العقل والرشاد والصواب، والخروج عليها جنون وسفاهة وخطأ فادح، وهو ما حمل كبراء الأمم وسادتها ومترفيها على وصف الأنبياء الكرام عليهم السلام وهم سادة العقلاء وكبارهم، ووصف المصلحين الراشدين وأتباعهم بالمجانين والسفهاء، لا لشيء إلا لأنهم خالفوا المألوف والتراث الموروث والنظام الرسمي وطالبوا بتغييره أو إصلاحه، وهذا الوصف منهم للأنبياء الكرام وقادة الإصلاح، هو في الحقيقة والواقع عين السفاهة والحماقة، وأساس التخلف والتحجر في المجتمعات والأمم في منطق العقلاء والحكماء.

وعلى كل حال: فقد قرر السحرة المضي قدماً في التحدي والاشتراك في المبارزة، وفي ذلك حكمة ربانية ومصلحة عظيمة للرسالة والناس، حيث أن حدوث المبارزة سمح لظهور الحقيقة وانكشافها بشكل تام وواضح أمام أعين الجماهير، وأقام الحجة على الناس جميعاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة، كما حمل السحرة على الإيمان بالتوحيد والنبوة والقيامة، والتصديق برسالة موسى الكليم وهارون عليهما السلام الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية في الحياة، وكفروا بألوهية فرعون

وربوبيته الوهمية الزائفة ونظامه الملكي الفاسد، وأعلنوا عصيانهم له وتحديه وتمردهم عليه، وما كان ذلك ليحدث وتحصل آثارها ونتائجها العظيمة لو أن السحرة انسحبوا من المبارزة وتركوا الساحة ولم يمضوا قدماً في التحدي.

المبارزة التاريخية الفاصلة بين موسى والسحرة

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾

اتحد السحرة وأتوا متضامنين في الموقف كما أمرهم زعيمهم وولي نعمتهم فرعون وعزموا من أجل إرضاء فرعون وكسب تأييده وجائزته على مبارزة موسى الكليم عليه السلام وهزيمته بكل وسيلة، فتقدموا لموسى الكليم عليه السلام بكل ثقة واطمئنان إلى كفاءتهم ومهارتهم وقدراتهم في السحر وتمكنهم من فنونه ومعرفة خفاياه وأسراره وجازمين بتفوقهم على موسى الكليم عليه السلام وظهورهم عليه وغلبته، إذا كانت المسألة تتعلق بالسحر وحده ولا علاقة لها بما فوق الطبيعة كما يدعي موسى الكليم عليه السلام فقالوا: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[1] فاختر ما تراه مناسباً لك: إلقاءك أو إلقاءنا أولًا، حيث لا يغير في النتيجة عندنا بتقدمنا نحن أو تقدمك أنت في الإلقاء، فإذا كانت المسألة تتعلق بالسحر فنحن الفائزون عليك في الحالتين، و إذا كانت المسألة تتعلق بقوة مطلقة فوق الطبيعة وفوق البشر كما تدعي، فأنت الفائز حتماً في الحالتين، وقيل: كان هذا التخيير منهم لموسى

---

١. طه: ٦٥

الكليم عليه السلام تؤدباً منهم معه، ولوقوعهم تحت تأثير نصائحه ومواعظه وتحذيره لهم، وما ظهر منهم من التنازع في أمره.

اطمئنان موسى

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾

فقال لهم موسى الكليم عليه السلام من غير تردد أو اضطراب أو قلق: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾[1] أي: أخلى لهم الظرف وأعطاهم الفرصة الذهبية بالبدء، وهي بدون شك تعمل لصالحهم في المبارزة وكسب رأي المشاهدين؛ لأن الذي يبدأ يملأ الكأس ويكسب الرأي ويوجهه لصالحه، والذي يأتي لاحقاً، عليه أن يحدث تغييراً في الرأي والتوجه الذي خلقته الفرصة الأولى ويهدم بنياناً قائماً، مما يتطلب جهداً إضافياً مصحوباً بالمخاطر والصعاب، وكان ذلك الموقف من موسى الكليم عليه السلام مقابلة لأدبهم معه بالحسنى وأدب مثله، وجوداً عليهم بما مالوا إليه وبما هو في مصلحتم من البدء بإلقاء ما عندهم، وإخلاء الظرف لهم ليبرزوا كل ما لديهم من المهارة والفن والكيد ويأتوا بأقصى ما في وسعهم من الأسباب، ليأتي الحق بعدهم فيبطل بكل ما جاءوا به فلا تكون لهم حجة ولا عذر، ولتكون معجزته وسلطان الله عز وجل فيها أظهر، وإظهاراً منه لعدم المبارزة والاحتفال بكيدهم وبسحرهم، معتمداً على ربه، وواثقاً بما جاء به من عنده، ومطمئناً إلى وعده إياه بالنصر والغلبة على عدوه وأنه معهما يسمع ويرى فلا يصلون

---

١. طه: ٦٦

إليه أو إلى أخيه ووزيره هارون عليه السلام بسوء.

فاستجاب السحرة إلى ما أمرهم به موسى الكليم عليه السلام فألقوا كل ما كان في أيديهم في وسط ساحة المبارزة دفعة واحدة، واستخدموا كل ما أعدوه للمبارزة من أسباب ووسائل ومكائد يكيدون بها الحق ويبطلونه ويغلبون به موسى الكليم عليه السلام ويقهرونه، فإذا حبالهم وعصيهم وكانت ألوفاً تظهر فجأة وبدون مهلة تذكر من سحرهم البليغ، في خيال موسى الكليم عليه السلام وغيره من الناظرين الحاضرين في المشهد كأنها قد ولجتها الروح وأصبحت حيات وثعابين حقيقية كبيرة وصغيرة ومختلفة الأشكال والأنواع، تمشي بسرعة، أمثال ما كان يظهر من عصا موسى الكليم عليه السلام وإن كانت في الحقيقة والواقع لا تزال حبالاً وعصياً مما جعل المشهد عظيماً ومخيفاً للغاية، قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[1] فتعالت صرخات التأييد والفرح والسرور من فرعون وملئه، وتعالت صرخات الخوف والفزع من الجماهير وتراجعوا إلى الخلف، مما يدل على شدة براعة السحرة ومهارتهم وتمكنهم من فنون السحر وأسراره، وقد أظهر الله عز وجل الأمر في خيال موسى الكليم عليه السلام كما أظهره في خيال غيره ليدرك عظمة الموقف وخطورته وعظيم النعمة الإلهية عليه، وذلك يثبت: أن حركة الحبال والعصي كانت حركة حقيقية فعلية، ولكنها حركة صناعية مادية بحتة، فيزيائية وكيمائية ورياضية، وليست حركة حيوية وبإرادة حرة كما هي عند الحيات والثعابين الحقيقية.

١. الأعراف: ١١٦

وقيل: إن السحرة استخدموا مواداً كيميائية كالزئبق وغيره، تتأثر وتمتد بأشعة الشمس، وتتولد عنها حركات سريعة ومختلفة في الحبال والعصي تشبه في ظاهرها حركات الحيات والثعابين الحقيقية، حيث كانت الحضارة الفرعونية متقدمة جداً في علوم الكيمياء والرياضيات والهندسة وغيرها، التي كان من نتاجها في الحضارة الفرعونية: تحنيط الجثث وبناء الأهرامات، كما يثبت براعة السحرة ومهارتهم الفائقة وشدة تمكنهم من فنون السحر وأسراره وخفاياه، وعميق تأثيرهم على خيال وعقول المشاهدين.

خوف موسى من انخداع الناس

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾

ولأن سحر السحرة كان في الواقع عظيماً، وتأثيره في المشاهدين كان بالغاً وعميقاً، فقد أحس موسى الكليم عليه السلام بخوف خفيف غير ظاهر يسري في داخل نفسه، ولم يظهر له أي أثر على ظاهر البشرة وملامح وجهه الشريف، فضلاً عن تصرفاته وعمله وأفعاله، وكان ذلك الخوف في نفسه من أن يلتبس الأمر على الناس فينخدعوا بما شاهدوا من عظيم السحر، والظاهر المموه، فلا يميزوا بينه وبين آية الله سبحانه وتعالى ومعجزته للتشابه الظاهر بينهما، ويرسخ تأثير السحر في أعماق أنفسهم فيصعب بعد ذلك إزالته منها، فيصيبهم الشك في أمرهم فلا يؤمنوا ولا يستجيبوا للحق كما ينبغي، أو أن يترك بعضهم الميدان وينسحبوا تحت

تأثير الخوف والرعب الذي أحدثه السحر في أنفسهم قبل أن يتهيأ له الظرف ويتمكن من إظهار معجزته فلا يتضح لهم الحق، ونحو ذلك، ولم يكن خوفه أبداً على نفسه أو أنه أولى اهتماماً كبيراً لعمل السحرة، أو أنه خاف من أن يغلب السحرة بسحرهم ما جاء به من الحق من عند ربه جل ﷻ، فقد كان واثقاً وجازماً بالنصر والغلبة من هذه الجهة، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**لم يوجس موسى خيفة على نفسه بل أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال**»[1].

وكان فرعون في الحقيقة يراهن على أن تنخدع الجماهير بما يأتي به السحرة من السحر العظيم، لا أنه كان طالب حقيقة، أو كان شاكاً أو جاهلاً بحقيقة ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من عند ربه. فقد أراه الله ﷻ آياته ومعجزاته وحقيقتها وعرفها بما هي عليه من الحقيقة والدلالة، ولكنه وقف موقف الحكام والسياسيين المكابرين، الذين يعرفون ما يأتي به المعارضون لهم من المطالب والحقائق كما هي، ولكنهم يكابرون ويعاندون ويسعون إلى لبس تلك المطالب والحقائق وخلطها ومغالبة معارضيهم بالباطل، وتضليل الرأي العام بشأنها، وتحريض الناس عليهم بغير حق، من أجل أهداف سياسية بحتة، تتعلق ببقائهم في السلطة أو الوصول إليها ونحو ذلك من المصالح، فإذا تحقق له ذلك، بطلت حجة موسى الكليم عليه السلام وفشل سياسياً، مما يهيء الأجواء وتتاح الفرصة لفرعون بمواجهة موسى الكليم عليه السلام أمنياً وعسكرياً ويسمح له بتصفيته والذين آمنوا مادياً، والتخلص منهم إلى الأبد بدون أن يحصل على أي تعاطف شعبي،

١. نهج البلاغة، الخطبة ٤

أو تحدث ردود فعل شعبية واسعة تهدد أمن واستقرار نظامه ودولته.

وذلك التخوف من موسى الكليم عليه السلام يكشف الطبيعة البشرية للأنبياء الكرام عليهم السلام فهم يخافون ويحزنون كغيرهم من البشر عندما يشاهد أو يعرض لهم ما يوجب الخوف أو الحزن، إلا أن ذلك لا يخرجهم أبداً عن الطاعة إلى المعصية، ولا يحملهم على التقصير والتردد أو الضعف في تحمل المسؤوليات، وبذلك يستحقون الثواب العظيم والمنزلة الرفيعة عند الله تبارك وتعالى بما صبروا وتحملوا وعملوا، كما يكشف عن عظيم رحمتهم وتعاطفهم مع الناس وشديد حرصهم على هدايتهم وتكميلهم وإسعادهم في الدارين الدنيا والآخرة، والتضحية من أجلهم بالنفس والنفيس.

المدد الإلهي العظيم

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾

وأمام هذا التخوف الذي سرى في نفس موسى الكليم عليه السلام رغم أنه كان آنياً وخفيفاً وسطحياً لا يعبأ به، فقد جاءه المدد الإلهي العظيم، وخاطبه رب العزة والجلال، فقال تثبيتاً له وتطميناً وتأييداً: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾[1] أي: لا تخف ولا تستعظم ما جاء به السحرة، فإن ما معك أجل وأعظم، وسيظهر الفرق جلياً للناظرين بين ما جاءوا به من السحر وما جئت به من الحقيقة، فلا تخف من أن يلتبس الأمر على الناس، فسوف يظهر الحق جلياً للعيان وتدركه عقول جميع الناظرين، وستكون

---

١. طه: ٦٨

أنت المستعلي على السحرة والذي جاء بهم لمبارزتك بالظفر والغلبة، وتقهرهم بالتأكيد في حقيقة الأمر وفي نظر المشاهدين، وسيعرف السحرة أنفسهم وهم أصحاب الفن والحجة في المقام، بأنك الصادق الأمين، والرسول الكريم، وسيخضعون لك ويتبعونك؛ لأنك المحق وهم المبطلون، وسيعلمون أن ما عندك حقيقة فعلية عظيمة تقف وراءها قوة مطلقة فوق الطبيعة وفوق الإنسان، وما عندهم مجرد تمويه وخداع ولا حقيقة له، وسيُظهِرون أن فرعون الطاغية قد أكرههم على السحر والكذب والافتراء وابتزهم وسخّرهم وسخّر علمهم ومهاراتهم لسلطته وأغراضه الخاصة الأنانية، واعلم أن معك الله ﷻ ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[1] وهو القادر على كل شيء، ومعهم فرعون الضعيف العاجز الذي لا يملك لنفسه أو لغيره نفعاً ولاضراً، أي: أن الله ﷻ طمأن نبيه الكريم موسى الكليم عليه السلام بأن إعطاء السحرة فرصة البدء لن يعيق إزالة ما يعلق في أنفس الجماهير وعموم المشاهدين من تأثير ما جاء به السحرة من عظيم الفن والكيد وتقدم السحر لديهم، فقد ضمن الله ﷻ لموسى الكليم عليه السلام التفوق على السحرة من جميع الجهات، وطمأنه بأن فرعون سوف يفشل في تحقيق أهدافه ولن ينال ما يريد وسوف يصاب بالخيبة والخسران في نهاية الأمر.

القوة المطلقة الإلهية

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾

---

١. طه: ٤٦

ثم أمره بأن يلقي ما في يمينه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾[1] وذكر اليمين مع أن الحال لا يختلف عملياً بين أن يكون إلقاء العصا باليمين أو بالشمال، للتنبيه من ذي العزة والجلال على القدرة والسيطرة والتمكن من جهة، وعلى اليمن والبركة من جهة ثانية، وأخبره ﷻ بأن عصاه البسيطة سوف تبتلع بأمر الله ﷻ وقدرته غير المتناهية وبسرعة مذهلة وبحذق جميع ما صنع السحرة ولن تغادر منها شيئاً رغم كثرتها وعظمتها، وذلك لأن العصا التي في يده، تمثل حقيقة فعلية واقعية عظيمة، تقف وراءها قوة مطلقة غير متناهية، فوق الطبيعة وفوق قدرات الإنسان وطاقته، إذ ليس من الحقيقة إلا ما أراد وكيف أراد ومتى أراد وكم أراد، فإن أراد للعصا أن تكون عصا كانت عصا كما أراد، و إن أراد لها أن تكون حية كانت حية كما أراد، و إن أراد لها أن تكون حية عاجزة كانت حية عاجزة كما أراد، و إن أراد لها أن تكون حية فاعلة كانت حية فاعلة كما أراد وبالمقدار الذي أراد، ونحو ذلك، وعليه: فالعصا ليست هي المسألة المهمة في المعادلة القائمة في المبارزة بين السحرة وبين موسى الكليم عليه السلام و إنما المهم في المعادلة، هي إرادة الله ﷻ وأمره وقدرته الأزلية المطلقة غير المتناهية، فإذا أراد الله ﷻ شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فهو الغالب على أمره. والقضاء على ما صنع السحرة و إبطال كيدهم مثلما يكون بالعصا، يمكن أن يكون بغيرها من الأشياء، وبشيء أصغر منها وأحقر، ويمكن أن يكون بإرادته كن «المجردة».

والذي جاء به السحرة رغم عظمته بما هو سحر، إلا أنه في الحقيقة

١. طه: ٦٩

والواقع أو بما هو في نفسه مجرد تمويه وخداع، أثروا به في خيال الناظرين ولا حقيقة له وراء ذلك الظاهر التمويهي، والحق يعلو في نفسه ولا يُعلا عليه، فلابد للحق الذي جاء به موسى الكليم عليه السلام من عند ربه عز وجل أن يعلو على الباطل والتمويه والخداع الذي جاء به السحرة وسحروا به أعين الناس؛ لأن المغالبة والمبارزة الجارية بين موسى الكليم عليه السلام وبين السحرة وبين فرعون وملئه، هي في الحقيقة والواقع مباراة بين القادر المطلق الذي تستمد منه الأشياء وجودها وصفاتها وحقائقها وأفعالها ولا تستقل عنه في شيء من ذلك، وبين السحرة الفقراء العاجزين في أنفسهم والمستمدين وجودهم وصفاتهم وأفعالهم من الله جل جلاله، والممتهنين صناعة السحر القائم على التمويه والكيد والخداع، ويريدون أن يبارزوا به قدرة جبار السماوات والأرض، وهذا لا يكون أبداً، وقد أدرك السحرة أنفسهم هذه الحقيقة منذ البداية، وأذعنوا لها حينما ثبت لهم بالدليل الصحيح والبرهان المستقيم.

وفي جميع الأحوال، لا توجد قوة في الوجود كله تستطيع أن تناهض قوة رب العزة والجلال المطلقة، وما فعله فرعون وما يفعله أضرابه من الفراعنة في مناهضة رب العزة والجلال ومحاربة أوليائه الصالحين، هو من السفاهة والحمق بمكان ولا يخضع لمنطق سليم.

ثم أشار رب العزة والجلال إلى قاعدة عامة وسنة كونية، فقال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1] أي: لا يصلح السحر مطلقاً مهما بلغ من المهارة

---

١. نفس المصدر

والحذق في الفن والإتقان، ولا يصلح الباطل بما هو باطل أن يؤسس إلى حالة تربوية أو حضارية أو موقف ثابت يبنى عليه في أي مكان أو بقعة في الأرض وفي أي زمن من الأزمان؛ لأن السحر باطل يقوم على التمويه والتضليل والخداع وهو وهم لا حقيقة له ولا واقع، وكل باطل بما هو باطل غير مستمر، ولا يمكن أن يفلح في تحقيق البناء الصالح، والتأسيس لحالة ثابتة علمية أو عملية، تربوية أو حضارية؛ لأن البناء الصالح والحالة الثابتة العلمية والعملية، التربوية والحضارية، تبنى على الحقائق وليس على الأوهام والتخيلات، فالباطل وكل بنيانه المؤسس عليه زاهق لا محالة، ولا يستطيع أن يمحو الحق ويقضي عليه في منطق العقلاء وأصحاب البصائر النافذة، نعم قد ينجح أصحاب الباطل في تزيين أمور وهمية لا حقيقة لها، وتشبيهها بالحق والتشويش بذلك على الحق المبين عند البسطاء الذين لا يتوفرون على المنطق السليم والبصيرة الواضحة، ولكن ذلك لا يكون إلّا إلى حين من الوقت ثم يفتضح أمر الباطل وتنكشف حقيقته، فالحق يدافع عن نفسه بنفسه، ويظهر للعيان على المدى البعيد للجميع، ويمحق الباطل ويزهقه ويزيله عن الوجود، قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[1] أي: شبّه الله سبحانه وتعالى الباطل وما يعرض إلى قلوب الناس وعقولهم من الشبهات عند وصول الحق إليها بالزبد الذي يطفو فوق سطح سيل الماء فيستره، أو ما يعلو من الخبث والتراب والشوائب فوق المعادن مثل: النحاس والحديد والذهب والفضة حين تذاب بالنار من أجل تخليصها

١. الرعد: ١٧

من الشوائب وسكبها للزينة أو لأغراض الحياة العملية، مثل: أواني الطبخ وأدوات الصناعة والبناء والتعمير ونحوها، فالزبد يطفو فوق سيل الماء وفوق المعادن المذابة ثم يذهب ويتلاشى ويضمحل من تلقاء نفسه إذ يلقيه السيل على وجه الأرض، أو يلقيه الصانع عن المعادن المذابة، فالزبد في الحالتين: حالة سيل الماء، وحالة المعادن المذابة، ظاهرة سطحية عارضة لا فائدة فيها ولا أصل ولا ثبات لها ولا استمرار، يوجد ثم يذهب ويضمحل.

وفي المقابل ليبقى ما ينفع في ظهور الحياة وبقائها ونمائها وتطورها وما ينفع الناس عموماً في حياتهم على وجه الأرض من الماء والمعادن، كذلك الحال بالنسبة إلى الباطل والشبهات لافائدة فيها، ولا أصل لها ولا ثبات لها أمام الحق، فهي تطفو فوق السطح كالزبد، وتستر الحق إلى حين كما يستر الزبد الماء والمعدن، ثم يذهب ويضمحل بالبراهين الصحيحة؛ لأنها لا تملك القابلية للاستمرار في نفسها ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1] ولأن القلوب تستوحش منها وتنكرها وتجاهدها، ويبقى الحق وما ينفع الناس من العلم والقيم قائماً، ويرسخ بالبرهان الصحيح في العقول والقلوب والواقع العملي للناس في حياتهم، فلا يزال الباطل يزين أموراً ويشبهها بالحق في أوهام الناظرين، ولا يزال الحق يمحو الباطل ويبتلع ما فيه من كيد وخداع ومكر وتمويه حتى يحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، وهذه ضمانة ربانية وسنة كونية تطرب إليها قلوب عشاق الحقيقة وتطمئن إليها نفوس المؤمنين الموحدين.

---

١. الإسراء: ٨١

وبعد التطمين الإلهي، فعل موسى الكليم عليه السلام ما أمره الله تعالى به، فألقى عصاه فتحولت من حينها إلى ثعبان حقيقي ضخم، فطافت في حركة إرادية حرة حول الصفوف، متميزة في ذلك عما ألقاه السحرة من الحبال والعصي، ورآها جميع الحاضرين فلم يشكوا في حقيقتها وماهيتها، ثم قصدت ما صنع السحرة من الحبال والعصي فابتلعتها كلها، وبعد أن أنهت مهمتها على أكمل وجه، ولم يبق شيء مما صنعه السحرة، ورأى الناس جميعاً ذلك بشكل واضح ومذهل، أخذها موسى الكليم عليه السلام بيده الشريفة المباركة فعادت عصا كما كانت، فظهر هنالك الحق وانتصر؛ لأنه ظاهر في نفسه، وزهق الباطل واضمحل وتلاشى؛ لأن الباطل كان زهوقاً في نفسه، وثبت بما لا يدع مجالاً للشك صدق نبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام وصدق رسالتهما وأمانتهما، وقد تجلت للناظرين في المشهد ثلاث حقائق رئيسية، وهي:

١. تحول العصا إلى ثعبان حقيقي ضخم.

٢. ابتلاع العصا / الثعبان جميع ما صنع السحرة ولم تغادر منه شيئاً رغم كثرته.

٣. عودة العصا إلى حالتها الأولى، أي: تحول الثعبان إلى عصا في يد موسى الكليم عليه السلام كما كانت من قبل.

وهذه الحقائق الثلاث المذهلة، شاهد على صدق نبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام ورسالتهما وأمانتهما.

الانتصار التاريخي وفلسفة الحياة والصمود

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[1]

ظهور الإيمان بالله

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾

لما ألقى موسى الكليم عليه السلام عصاه، وابتلعت كل ما جاء به السحرة، ورأى السحرة ما كان من شأن العصا، وهم أهل الفن والعالمون بأسراره، ولم يروا من قبل مثل هذا المشهد، تحقق الحق وعلموا يقيناً بأن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام ليس من قبيل السحر، بل هو آيات ومعجزات تقف وراءها قوة مطلقة فوق الطبيعة وفوق الإنسان وطاقته وقدراته، وبعيدة كل البعد عن التمويه والخداع والتضليل الذي يقوم عليه السحر دائماً، وأن موسى الكليم وهارون عليهما السلام نبيان إلهيان يتحليان بالصدق والنزاهة

١. طه: ٧٠-٧٦

والأمانة، ويحملان رسالة صادقة من رب العالمين إلى الناس أجمعين.

ولم يتمالك السحرة أنفسهم، فقد غشيهم الحق بظهوره، وبهرت آياته عقولهم، وذللتهم القدرة الإلهية بتجليها، فأطاحت بكل ما كانوا يحملونه لفرعون من عزة وسلطان ومنزلة، وبكل ما عنده من زينة الحياة وزخرفها، واستولت على قلوبهم، فأزالت عنها الخوف والقلق والملق والأهواء، ومكنت فيها الحق والخير والصدق والشجاعة، فلا يريدون إلا ما أراد الله سبحانه وتعالى، ولا يرجون إلا ما عنده، ولا يخافون أحداً سواه، فخروا بشكل تلقائي على وجوههم سجداً لرب العالمين، كأنهم لا إرادة لهم تعظيماً لما رأوا، وتائبين عما صنعوا، وقيل: رأوا في سجودهم منازلهم في الجنة، فقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾[1] أي: أظهروا الإيمان بتوحيد الربوبية، وبالنبوة والرسالة، وأعلنوا صراحة أمام الجميع، وبشكل واضح جلي، وبتعابير لا يشوبها الغموض أو الإبهام، وكانوا في كامل الاستعداد للتضحية من أجل ما عرفوه من الحق، وآمنوا به وتيقنوه عن علم ودليل صحيح؛ لأنهم كانوا يعلمون بأن إظهارهم للإيمان و إعلانه أمام الجماهير، لن يرضي فرعون وسيغضبه كثيراً عليهم، ويدفعه لإنزال أشد العقوبة بهم، لما يمثله ذلك من تحدٍ لدعاويه، وخطر على نظامه وسلطته، ولكنهم فعلوا ذلك، ولم يقنعوا أو يرضوا من أنفسهم بمجرد الإيمان القلبي، وذلك لكي يقتدي بهم الناس ويرجعوا عن ضلالهم الذي شاركوا هم في ترسيخه بسحرهم ويؤمنوا بالحق، فيخرجوا بذلك من الواجب: العقلي والشرعي عليهم، ولا تبقى على عاتقهم مسؤولية من هذه الجهة، وبذلك: وقع الحق وظهر وأضاء،

---

١. طه: ٧٠

وبطل السحر والمكر والكيد والتضليل والخداع وسلطان القهر والقوة، وهوى كبرياء فرعون وجبروته وسلطانه إلى الحضيض في ذلك المشهد العظيم، وفصلت النتيجة بالدليل القطعي بين المتخاصمين، فكانت حجة ورحمة للمؤمنين، وخزي وعار ونقمة على الكافرين والمعاندين.

ونسبة الرب إلى هارون وموسى عليهما السلام وهو عينه رب العالمين، لئلا يحصل اللبس ويتوهم أن مرادهم فرعون أو أمثاله من الأرباب الوهميين المزعومين، وذكرهم هارون قبل موسى عليهما السلام: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾[1] رغم علمهم بتقدم موسى عليه السلام وزعامته لهارون عليه السلام ربما يؤشر على قيام الدليل المستقل على نبوة هارون عليه السلام وللتأكيد على وجوب الإيمان بنبوتهما معاً وشراكتهما في الرسالة، بحيث يكون نكران نبوة أحدهما نكراناً لنبوة الآخر.

السياسة الطاغوتية الفرعونية

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾

وقد وجه السحرة بإظهار الإيمان بتوحيد الربوبية وبالنبوة والتصديق برسالة موسى الكليم وهارون عليهما السلام صفعة سياسية وفكرية عقائدية قوية إلى فرعون ونظامه وهزوا أركانه وأطاحوا بقواعده، فقد ركز الإعلام الفرعوني كثيراً ولمدة طويلة على هذه المبارزة التاريخية الفاصلة،

١. نفس المصدر

وجمع لها كل قواه، وها هو يرى بأم عينيه رأس الحربة والصف الأول في المواجهة وهم السحرة يتكسر وينهار، ويتحولون فجأة أجمعون إلى صف العدو ويناصرونه عليه، وأيقن بأنه ما لم يتدارك الأمر فسوف يخرج من سيطرته ويقتدي سائر الناس بالسحرة ويتحولون إلى الإيمان بدين موسى وهارون عليهما السلام ويصدقون برسالتهما، ويتمردون على النظام الفرعوني ويعارضونه، وعليه: جمع ما تبقى من كيانه المعنوي وهيبته وسلطانه وأظهر استغرابه واستنكاره لما كان من السحرة من إظهار الإيمان بالتوحيد وبنبوة موسى وهارون عليهما السلام والتصديق برسالتهما، وذلك لما يعتقده في نفسه، وبما كان قد عهده من أدب السحرة معه، وتملقهم إليه وتذللهم بين يديه، وانقيادهم التام لإرادته ورغباته، فلا يتقدمون عليه في أمر، ولا يتأخرون عما أمرهم به، ولا يخالفونه فيما ينهاهم عنه، فهو إلههم وربهم الأعلى، بحسب ثقافة النظام وتربيته، فقال: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾[1] أي: كيف صدقتم قوله واتبعتم دينه وأقدمتم على الإيمان به من دون مراجعة لي و إذن مني إليكم في ذلك، والاستفهام منه: مسوق للإنكار وتقرير الجرم والتهديد بشديد العذاب، فهو لا يرى إلا نفسه، وأن له ملك مصر ومن عليها وله فيها جنود مجندة، فله ما يريد ويحكم ما يراه، فالحق تابع له، والحقيقة مطيعة لهواه، وليس لأحد أن يقرر شيئاً خلافاً لإرادته، وبدون إذنه و إجازته، فله السلطة التامة المطلقة على أجساد الناس وأرواحهم، وليس لهم أن يستقلوا في شيء عنه.

فهو لا يعترف بحق السحرة وغيرهم في حرية الاعتقاد والضمير وتقرير

١. طه: ٧١

المصير، ولم يعط وزناً لقيمة الحقائق في نفسها، ولا يعترف بتبعية الرأي والموقف إلى الدليل، وسعى في قلب انتصار موسى وهارون عليهما السلام إلى هزيمة، وهزيمته إلى انتصار، وفرض حكم القوة والأمر الواقع، بغض النظر عن قربه أو بعده عن الحقائق والحقوق والعقل والمنطق والمصالح الحيوية للناس، وبحكم الأمر الواقع فإنه الإله المعبود، والرب المدبر لشؤون الناس والمالك لرقابهم ومصائرهم، فليس لهم أن يقرروا شيئاً لأنفسهم على خلاف إرادته وبدون إذنه والرجوع إليه، أي: بشكل مستقل عنه، لا سيما في المسائل الجوهرية والقضايا العامة الحيوية، فإذا أراد أحد أن يقرر شيئاً فيها فعليه أن يستأذنه، وهذا ما يؤكد عليه عملياً كل الفراعنة المتجبرين في طول التاريخ وعرض الجغرافيا.

وعليه: فسّر موقف السحرة بدوافع سياسية خبيثة، وهي المؤامرة والتواطؤ مع موسى الكليم عليه السلام على الخيانة والانقلاب ضد النظام الملكي الفرعوني، والدولة والسنن القومية والتراث الوطني ومصالح الشعب والأمة، ليس لأنه حصل لديهم إيمان حقيقي لوجود معجزة تقف وراءها قوة مطلقة فوق الطبيعة وفوق البشر، فليسوا إلا جزء من مؤامرة، وهم مجرد تابعين لموسى الكليم عليه السلام فهو أسحرهم وأعلى منهم درجة في صياغة السحر وفنه، وهو زعيمهم الذي علمهم السحر ودربهم على فنونه، وقد تواطئوا معه ودخلوا في المؤامرة على النظام والدولة والشعب، وقد أرادوا جميعاً خداع الناس والمكر بهم وتضليلهم بهدف السيطرة على الحكم والثروة ومقدرات الدولة، والذهاب بالسنة القومية وتضييع التراث الوطني، وطرد الأقباط جميعاً من أرضهم ووطنهم من أجل الاسئثار بالحكم والثروة والأرض.

وهذه المقولة أراد بها فرعون إدخال الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا بنبوة موسى وهارون عليهما السلام ويصدقوا رسالتهما وليبقوا على الولاء له ولنظامه وحكومته، ومن شأنها أن تهيج الرأي العام ضد رسالة موسى الكليم عليه السلام وتحرض الجماهير على محاربته، وهي مقولة باطلة لا يمكن أن يقبل بها عقل أو منطق؛ لأن موسى الكليم عليه السلام لم يلتقِ بحسب الوقائع بالسحرة قبل موعد المبارزة وفي غير ساحتها، ولم تكن له أية معرفة سابقة بهم، فقد كان محصوراً بين أسوار القصر الملكي الفرعوني منذ كان رضيعاً، وتحت عيون شرطته ورجاله، ثم خرج من مصر مطارداً من النظام السياسي والدولة الفرعونية بعد أن قتل بالخطإ أحد الأقباط، وبقي بعيداً عن وطنه لمدة (٨ – ١٠) سنوات في ضيافة نبي الله شعيب عليه السلام في مدين، ثم عاد إلى مصر ودخل القصر الملكي الفرعوني حاملاً الرسالة من رب العالمين إلى فرعون وقومه بالإضافة إلى بني إسرائيل، ولم يجتمع من قبل ذلك بأحد في مصر، لا السحرة ولا غيرهم، ولو كانت لموسى الكليم عليه السلام صلة سابقة بالسحرة، لعلم بها فرعون وملؤه من خلال شرطته وجواسيسه، ولا يمكن أن يخفى ذلك عليه، لما يتمتع به من مركزية في السلطة، ولما يمثله السحرة من أهمية ولما يقومون به من أدوار.

وأن فرعون الذي اختار مبارزة موسى الكليم عليه السلام بالسحر، وهو الذي اختار السحرة وجمعهم من جميع مدن مصر وأنحائها، وذلك بواسطة ضباط جيشه وجنوده المخلصين له، والمؤمنين بألوهيته وربوبيته ونظامه والمروجين لها، وقد وعدهم بالأجر العظيم والمنزلة الرفيعة في النظام، إن هم تمكنوا من غلبة موسى الكليم عليه السلام والانتصار عليه، وقد

حرصوا كل الحرص وبذلوا كل ما في وسعهم وطاقتهم، وكادوا أشد الكيد من أجل غلبة موسى الكليم عليه السلام وجاءوا بسحر عظيم أذهل الجميع، وهذا ما يعلمه فرعون علم اليقين ولا يشك فيه أبداً.

ولكن الأمر لا يخضع لمنطق العقل والقيم والمبادئ، وإنما يخضع لمنطق السياسة الخبيثة التي لا تؤمن بالعقل والمنطق والقيم والمبادئ، وإنما تؤمن فقط بالغلبة والمصالح، وتهتم بأساليب ووسائل وأدوات قلب الطاولة على الخصم وإحراجه ومحاصرته والقضاء عليه، أو إرغامه وإخضاعه لإرادة صاحب القوة والسلطة والحاكم بفرض الأمر الواقع، وقد دأب الطغاة والفراعنة على الكذب وإلصاق التهم الجاهزة والمفبركة بالخصوم والمعارضين لأنظمتهم، عندما يشعرون بالخطر على سلطتهم ومراكزهم، وعليه: فقد لجأ فرعون إلى الصراخ والتهديد والوعيد، وأصدر حكمه السياسي البحت، فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾[1] أي: أقسم بأنه سيبالغ في تعذيبهم والتنكيل بهم، فيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف: اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس، وهو حكم المحارب الساعي بالفساد، ليحمل بذلك رسالة إلى الرأي العام وتضليله، بأن السحرة مجرمون خطرون جداً على الأمن وسلامة المجتمع، وليسوا مجرد مخالفين عاديين للنظام والقانون، ثم يتركهم ينزفون حتى يموتوا ببطء، فذلك أمثل في الهيئة وأشد عذاباً، فهو يجمع بين الإيذاء الجسمي والنفسي، فيقوم بعد قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف بصلبهم على جذوع النخل؛ لأنها من الأشجار العالية، ليراهم

١. نفس المصدر

القريب والبعيد وهم معلقون مصلوبون، وأن يكون الصلب صلباً شديداً بدون رحمة، بحيث تدخل نتوء النخل في أجسادهم من شدة الصلب، وقد اختار جذوع النخل لصلب السحرة لعلمه بخشونتها وأذاها، وكانت عمليات الصلب في ذلك الزمان، تتم بأن يشدوا جسد المصلوب على الصليب بالحبال حتى يموت، وقد أراد فرعون الطاغية إنزال المزيد من العذاب الشديد: الجسمي والنفسي بالسحرة، وإيذاءهم أبلغ ما يكون الإيذاء، والطريقة التي اختارها هي الأبلغ في القتل الفجيع:

أ. جسمياً: حيث النزف والموت ببطء، مع ألم الشد وحرارة الشمس.

ب. معنوياً: حيث الهيئة الشنيعة (نقصان من البدن من الجانبين للقطع من خلاف) فيشهرون ويخزون في أعين الناس برأيه، وهو في الحقيقة إنما أخزى نفسه ورفع شأنهم.

ثم كشف عن القاعدة السياسية التي استند إليها في إصدار هذه الأحكام القاسية، والتي يقوم عليها في الحقيقة نظام حكمه، فقال: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾[1] أي: لتعلمون أينا أشد عذاباً لكم وأبقى في السلطة والحياة، أنا فرعون الماسك بالحكم وزمام الأمور في الدولة، أم رب موسى وهارون؟ وعنده أنه هو المتمكن والقادر على تعذيبهم والنيل منهم وقتلهم والتمثيل بهم، وأن يفعل بهم ما يشاء، ولا يوجد أحد يستطيع أن يمنعه من ذلك أو يحد من سلطته وإرادته أو يحميهم من سطوته وقدرته وجبروته، والمهم في المقام ليس النظر والبحث عمن

١. نفس المصدر

يمتلك المنطق السليم والحقائق الدامغة لتقرير الرأي والموقف، وإنما النظر والبحث عمن يمتلك القوة والسلطة وفرض حكم الأمر الواقع على الناس والخضوع له، وذلك يكشف منه عن صلابته وعن غاية جهله وغروره؛ لأنه بارز جبار السماوات والأرضين، وأعلن الحرب عليه، وفي رأيه وقناعته العملية أن الوصول إلى السلطة والبقاء فيها لا يعتمد على المنطق والحقائق، وإنما يعتمد على امتلاك أسباب القوة وفرض حكم الأمر الواقع، وهي فلسفة الحكم والسياسة لدى فرعون ونظامه السياسي القائم آنذاك، وهي عينها الفلسفة والمنطق اللذان تعتمدهما جميع الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة في طوال التاريخ وعرض الجغرافيا.

وهنا ينبغي تنبيه الثوار والمناضلين الشرفاء، إلى منطق الفراعنة والحكام المستبدين الخبثاء، وأساليبهم في قلب الحقائق وخلط الأوراق من أجل تضليل الرأي العام وإضعاف معنويات المناضلين والثوار لا سيما في حالة غياب الوعي والرؤية الواضحة وضعف البصيرة، فقد تعرض فرعون ونظامه الفاسد إلى هزيمة ساحقة هزت أركانه، على يد موسى وهارون عليهما السلام إلا أن فرعون لم يستسلم، وأصر على المضي قدماً في المواجهة بعيداً عن منطق العقل والحقائق الفعلية القائمة على الأرض، واستخدم خبرته وخبثه، وسعى لتحويل هزيمته إلى انتصار، والإبقاء على سياسة حكم الأمر الواقع وبفرض منطق السلطة والقوة، بدل منطق العقل والحكمة، فقام بتهديد السحرة الذين خضعوا لمنطق العقل وسلّموا للحقائق المشهودة بالقتل الفجيع، ونفّذ فيهم التهديد لكي يكونوا عبرة لغيرهم فلا يفكرون مثل تفكيرهم ويتصرفون مثل تصرفهم، ولا شك فإن

هذه الأساليب الإرهابية والتضليلية القذرة تترك تأثيرات كبيرة في الناس الذين لا يرون إلّا الظاهر ولا ينفذون إلى الأعماق ليروا الحقائق كما هي عليه، ولا يمتلكون منطقاً إنسانياً سليماً ولا وعياً بالحقائق الكونية والسنن التاريخية ذات الصلة الوثيقة والقيمة العظيمة لإنسانية الإنسان وحقيقته وكرامته وحياته الطيبة، إلا أنها تنقلب إلى محفز قوي على الثورة ضد الأنظمه الفاسدة والحكومات الجائرة، والتضحية بالنفس والنفيس من أجل الإصلاح والتطوير لدى أصحاب المنطق السليم والبصائر النافذة والضمائر الحية اليقظة، على قاعدة: «حين يكون الظلم قانون، فالمقاومة واجب».

وعليه: ينبغي على الثوار والمناضلين أن يحافظوا على انتصاراتهم ويحرصوا عليها من الضياع، فلا يتأثرون بتهديدات الفراعنة والطغاة ودعاياتهم، فيخسروا انتصاراتهم تحت تأثير الدعايات والتضليل، ويظنوا بأنهم خسروا المعركة لمجرد أن المناضلين استشهدوا أو شرّدوا أو ادخلوا إلى السجون، فقد تكون هذه النتائج دليل الانتصار وليس الهزيمة، فقد استشهد السحرة واستشهد الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، ولكن الحق انتصر على الباطل وانهزم فرعون ونظامه وانهزم النظام الأموي، وكانت شهادة السحرة وشهادة الإمام الحسين عليه السلام التفجير الذي أطاح بالنظامين الفرعوني والأموي، ولكن الذين ينظرون فقط إلى الظاهر لا يفقهون ولا يدركون الحقائق كما هي، ويتوهمون خلاف ذلك. يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**كانت المبارزة بين موسى والسحرة في الظاهر، وبين حزب الله وحزب الشيطان في واقعها، ومن الشوط الأول أيقن كل من شاهد**

المبارزة حتى فرعون والسحرة أنفسهم أيقنوا جميعاً بأن حزب الله هم الغالبون، وأعلن السحرة يقينهم هذا عن علم لا يقبل الشك، وأنهم كانوا على ضلال في تحديهم لموسى»[1].

فلسفة الصمود والحياة

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

وأمام التهديد الفرعوني الظالم والبالغ القوة، لم يضطرب السحرة ولم يخافوا ولم يسعوا إلى الفرار من ساحة المواجهة، وإنما ثبتوا كالجبال الشاهقة، وواجهوا فرعون الطاغية بشجاعة منقطعة النظير، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[2] أي: أراد فرعون الطاغية من السحرة المؤمنين أن يتركوا الله رب العالمين وموسى الكليم عليه السلام ويتراجعوا عما أظهروا من الإيمان، وأن يبقوا على ما كانوا عليه من قبل ويخضعوا لنظامه وسلطته، بعد أن رأوا الآيات والبينات الواضحة الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد، واتضح لهم ضلال فرعون وطغيانه وبعده عن الخير والحق والعدل؛ لأن المهم عنده ليس المنطق السليم والحقائق في نفسها، وإنما الواقعية وحكم الأمر الواقع، وهددهم بأشد العقوبة إن هم أصروا على موقفهم ولم يتراجعوا عن الإيمان.

---

١. تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، جزء ٥، صفحة ٢٣٠

٢. طه: ٧٢

فردوا عليه: رغم تهديدك لنا بالعذاب الشديد والقتل الفجيع، ونحن على يقين بأنك سوف تنفذ تهديدك فينا إذا ثبتنا على خيار الإيمان والتوحيد؛ لأنك ترى في إيماننا تهديداً لنظامك وملكك، ومن مصلحتك ومصلحة نظامك كما تتوهم أن تنفذ فينا تهديدك لنكون عبرة لغيرنا فلا يقتدي أحد بنا ويسير بسيرتنا؛ لأنه لا يوجد ما يمنعك من تنفيذ تهديدك فينا من قيم أو ضمير، ولا توجد قوة خارجية تمنعك من ذلك أو تحول بينك وبينه، ولكننا مع ذلك: لن نختارك ونقدمك، ولن نختار ما تزعم بغير حق أنك تملكه من نعيم الدنيا وزخرفها، ومن السلطة وعزها، ومن المال والثروة واللذائذ الحية وبهجتها؛ لأنه لا يوجد أساس عقلاني ومنطق صحيح ولا حتى واقعي، لأن نؤثرك ونختارك ونقدمك ونختار ونؤثر دنياك العريقة على ما جاءنا به موسى الكليم عليه السلام وعرفناه من البينات الواضحة والمعجزات الباهرة الظاهرة الدلالة على التوحيد والنبوة والمعاد، فإننا نشاهد أنوار الإيمان في أعماق قلوبنا وصفحات أرواحنا، وأنت مخلوق عاجز لا تملك حياتك ولا تملك لنفسك نفعاً ولا ضراً، وأن هذه الدنيا العريضة ولذائذها وزخرفها كلها سراب باطل، وأنها إلى انقضاء وفناء وزوال وأنك تاركها وراحل عنها ونحن نعلم عن يقين واستناداً إلى الخبرة، بأن الذي جاء به موسى الكليم عليه السلام ليس من السحر، بل هو معجزة حقيقية تعجز أي قوة بشرية عن أن تأتي بمثلها، فوراءها قطعاً وبكل تأكيد قوة مطلقة فوق الطبيعة وفوق البشر، وتدل على أن الله سبحانه وتعالى الجامع لصفات الجمال والجلال كلها، هو الخالق المالك المدبر للعالم والناس، وهو وحده المستحق للعبادة والطاعة، والمعظّم وحده لا شريك له وما

سواه باطل، فلن نؤثرك على الله الجامع لصفات الكمال المدبر للعالم والمستحق وحده للطاعة والعبادة، فهو الذي خلقنا وفطرنا من العدم، ولا نملك في وجودنا وصفاتنا وأفعالنا أي استقلال عنه، وهو وحده المستحق منا للطاعة والعبادة.

أي: إن الحقائق والبينات والمعجزات التي رأيناها وأدركنا دلالتها، ليست مجرد أمور نظرية تسبح في فراغ وليس لها علاقة بحياتنا ومصيرنا، و إنما هي حقائق وجودية تكشف عن ماهيتنا ولماذا وجدنا في هذه الحياة و إلى أين نحن سائرون وما يجب علينا عمله، فهي تدل على وجود قوة مطلقة فاعلية جامعة لصفات الكمال، وهو الله الحق المطلق الذي تعتبر جميع الحقائق من تجلياته، ولا توجد حقيقة واحدة لا واقع لها، فما لا واقع له لا حقيقة له، وهذه الحقائق مؤثرة في حياتنا و إن تفاوتت في أهميتها وقيمتها بالنسبة إلينا، ونحن نعلم بحسب الفطرة والطبع والمنطق أن كمالنا الإنساني وكرامتنا وسعادتنا الحقيقية، في أن نقرر مواقفنا في الحياة وفق مقتضى الحقائق، وليس بمسايرة حكم الأمر الواقع المفروض علينا بالقوة والغلبة والقهر، بل الواجب علينا أن نرفض الواقع الظالم الفاسد ونقاومه ونثور عليه، ونسعى لإيجاد واقع جديد صالح يقوم على العدل وينجسم مع الحقائق الكونية والمنطق السليم.

وعليه: لن نختارك ولن نختار دنياك الفانية وزخارفها ولن نختار ولايتك وعزتك، بل نختار الله ذا الجلال والإكرام ودينه ورسله وولايته وعزه وثوابه ونقدمه عليك ولا نخافك، فقد عرفنا الحق واهتدينا إلى الصواب، ولن

نستبدل الحق بالباطل، والعدل بالظلم، والخير بالشر، والهدى بالضلال، والصواب بالخطأ، فنحن نتبع العقل والمنطق وما عرفناه من الحقائق، ولا نخاف تهديدك ووعيدك، فافعل ما أنت فاعل، واصنع ما أنت فاعل، ونفذ ما توعدتنا به من التعذيب والتنكيل والقتل الفجيع، فقد طشت وسفهت وغرك جهلك وسلطانك، وتوهمت بأنك المتصرف في النفوس، فلا نؤمن إلا بإذنك، فافعل بنا ما شئت ونفذ حكمك وامضِ فيه، فإنا لا نبالي بسيف الجلاد وبطشه، فلن تجد منا إلا الصمود والثبات؛ لأننا على الحق والصراط المستقيم وفي طريق الكمال والسعادة، وأن الغالب بالشر والباطل مغلوب في الحقيقة و إن انتصر في الظاهر وأعين البسطاء والحمقى.

واعلم بأنك لا تمتلك إلا أن تحكم وتتصرف في أجسادنا البالية في هذه الدنيا الفانية، أما العقول والقلوب والأرواح والإرادة التي تعبر عن جوهرنا وحقيقتنا، وفيها حريتنا الحقيقية وكرامتنا الإنسانية، فليس لك عليها سلطان ولا نفوذ، وليس لك علينا سلطة فيما بعد هذه الحياة الفانية، فلأذاك وعذابك إذاً حدود، وهي حدود هذا الجسد البالي وحدود هذه الدنيا الفانية التي سوف نرحل عنها جميعاً بحلوها ومرها نحن وأنت، وبأي سبب كان، فالأسباب عديدة لا حصر لها، وحقيقة الموت والرحيل عن هذه الحياة واحدة «تعددت الأسباب والموت واحد» وننتقل بعد تنفيذك حكم الإعدام فينا إلى الحياة الأخرى، حيث ينقطع منا أذاك وسلطانك، ونحمل معنا عزتنا وكرامتنا و إنسانيتنا كاملة غير منقوصة، ونتمتع بالنعيم الباقي والرضوان الإلهي العظيم وتنتقل أنت إلى الشقاء

الأبدي في نار جهنم، فنكون نحن المنتصرين السعداء في الحقيقة، وتكون أنت الخاسر الشقي في الحقيقة كذلك.

وعليه: فنحن لا نخاف من أن نخسر هذه الحياة الفانية إذا كان ذلك في سبيل أن نربح الآخرة الباقية التي هي دار السعادة والشقاء الحقيقيين، ونقبل ما تلحقه بنا من الضرر القليل نسبياً، في مقابل ذلك الخير العظيم في الآخرة، وليس من المعقول والمنطقي أن نؤثرك وأنت الفقير العاجز والحقير الفاني على رب العالمين الذي خلقنا وأنعم علينا بالوجود والعقل ولا تمتلك في وجودنا وصفاتنا وأفعالنا أي استقلال عنه، أو نفضل دنياك الفانية وذل ولايتك على نعيم الآخرة الباقية وعز الإيمان والتوحيد.

وبهذا الكلام البليغ في منطوقه، العميق في مضمونه ومعناه، الرفيع في منزلته، كأنه يفور علماً وحكمة، وبهذا المنطق المحكم الذي يدل على أن موقفهم وتحولهم إلى الإيمان كان عن علم ويقين لا يقبل الشك، سقط وجود فرعون المعنوي وتهدم بنيانه، وخرجت دنياه وهيبته وسلطانه من النفوس السامية، ليعلو الحق والمنطق السليم والحقائق والحقوق والقيم العالية فوق المادة والأمر الواقع، وفيه دليل قوي على أنه جدير بالعاقل أن يوازن بين الله ذي الجلال والإكرام وبين سواه فلا يختار على الله سواه، وأن يوازن بين معطيات الحق وبين معطيات الباطل على جميع الأصعدة والآماد فلا يؤثر الباطل على الحق، وأن يوازن بين نعيم الدنيا ولذائذها وزخارفها وبين نعيم الآخرة الباقي ولذائذها الخالصة، وبين عذاب الدنيا وبين عذاب الآخرة فلا يقدم الدنيا على الآخرة ويفضلها عليها، وأن لا تأخذه في الله والحق لومة لائم.

التوبة والرجوع إلى الله

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

أي: آمنا بالله ربنا الذي فطرنا من العدم والمالك المدبر لنا والذي إليه مرجعنا ومآبنا، واخترناه وقدسناه عليك، وقدمنا ولايته على ولايتك، وعزته الحقيقية الفاخرة على عزتك الوهمية الباطلة، وقدمنا رضاه على رضاك، وأجره وثوابه العظيم الباقي على أجرك وثوابك الهزيل الفاني، برجاء أن يغفر لنا خطايانا التي سبقت منا فيما مضى قبل الإيمان من الشرك والمعاصي والجرائم بحق أنفسنا والناس، وما يمكن أن يصدر منا من معاصٍ وتقصير بدون إصرار عليها فيما بقي من أعمارنا، فإن الإيمان يكفّر السيئات، والتوبة تحجب ما قبلها، ونحن نرغب في الطهارة من الذنوب والمعاصي، لندخل في ساحة القدس والنور، ونفوز بالسعادة الحقيقية الأبدية في الآخرة، وليغفر لنا كذلك ما أكرهتنا عليه من السحر، إذ ألزمتنا عن طريق ما تتمتع به من السلطة والقوة علينا، بأن نعارض بسحرنا الحق المبين الذي جاء به موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين، وقمت بتوظيف سحرنا لإرهاب أبناء الشعب وتضليلهم لكي يخضعوا لسلطتك ونظامك، ويقبلوا ولايتك وظلمك وفسادك، وتكريس ما تزعم من الألوهية والربوبية لنفسك بغير حق ولا دليل، كما هي عادة الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة، التي دأبت على استخدام كافة أساليب الإرهاب والتضليل لتخويف أبناء الشعوب من أجل قهرهم وإجبارهم على الخضوع لإرادتهم والقبول بحكم الأمر الواقع الظالم والفاسد

والمنحرف عن الطبع والفطرة، ولم نكن نقدر على عصيانك؛ لأننا لم نكن ندرك حقيقة وجودنا، ونجهل وجود حياة وراء حياتنا الدنيا والطريق إلى كمالنا والسعادة الحقيقية في الآخرة، وكنا نتوهم بأنك الإله المعبود والرب الأعلى الذي تجب علينا طاعته، وهذا يدل على أن المشاركة في دعم الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الظالمة ظلم وذنب كبير يؤاخذ عليه الرب الجليل، وتجب التوبة والاستغفار منه، وهذه حقيقة يقررها العقل والمنطق السليم، وتنسجم مع الفطرة والطبع الإنساني، وقرها الشرع الحنيف.

ثم أشار السحرة في جوابهم فرعونَ ومواجهتهم له، إلى حقيقة وجودية، فقالوا: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1]، الله تبارك وتعالى خير منك ثواباً وأبقى أمداً للمطيع، وعقابه أشد من عقابك وأبقى، فملاك الخيرية والجبروت والكمال والبقاء له وحده لا شريك له، وعليه: فإن ثواب الله تبارك وتعالى خير لنا ممّا وعدتنا به من الأجر والجاه والمنزلة عندك، وعقابه أجدر بأن يتوفى من عقابك؛ لأن كل شيء هالك إلا وجه الله سبحانه وتعالى، وكل عمل لغيره فإنه ينتهي بالخسران والحسرة والندم، ولا يبقى ولا ينفع إلا العمل الذي قصد به وجه الله سبحانه وتعالى الذي هو أبدي الوجود والقادر على كل شيء، وينتهي بصاحبه إلى السعادة الحقيقية الأبدية والنعيم المقيم الذي لا يزول في جنات عدن، وفي المقابل ينتهي الكفر والمعصية بصاحبهما إلى الشقاء الحقيقي الأبدي والعذاب العظيم المقيم، وعليه: فإن العمل من أجل الله تبارك وتعالى رب العالمين مقدم على العمل من أجلك، و إيثارك بالعمل

١. نفس المصدر

على الله رب العالمين وتقديمك عليه فيه، مخالف للمنطق والحكمة والطبع، ولا يفعله إلا سفيه أحمق عدو لنفسه.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾

أي: إن الناس الذين يلقون الله سبحانه وتعالى ربهم في يوم القيامة، بحسب عقيدتهم وأعمالهم ينقسمون إلى قسمين: شقي وسعيد.

أ. **أما الشقي:** فهو المجرم من كل وجه، الذي يشرك بالله سبحانه وتعالى، ويعمل السيئات وقبائح الأعمال، ويسعى في الأرض فساداً، ويموت على ذلك بدون توبة فيحرم من المغفرة والرحمة الإلهية، وينتهي به المطاف إلى الدخول في نار جهنم الشديد نكالها، ويعذب فيها عذاب الروح والجسد، عذاباً لا يقدره ولا يفتر عنه ساعة، عذاباً يحول بينه وبين الحياة الطيبة الممتعة، فلا يلتذ فيها بشيء، ولا ينال فيها شيئاً مما تطيب الحياة لأجله، ويستغيث فيها فلا يُغاث، ويدعو فلا يستجاب له، عذاباً لا ينتهي بالموت فيستريح المعذب منه كما هو الحال في عذاب الدنيا، وإنما يبقى فيه أبداً يألم كأشد ما يألم الحي ولا يبطل إحساسه بالألم أو يضعف، وهذا هو العذاب الحقيقي الذي يجب أن يُتقى إلا ما تتوعدنا به وينتهي بنا إلى السعادة الأبدية والنعيم الدائم في الآخرة، وفيما مضى دليل على أن الشرك والمعصية جريمة حقيقية

يجرمها الإنسان بحق نفسه ويظلمها ظلماً أبدياً، وأن غفران الذنوب والخطايا غاية من غايات الإيمان، لأن كل من لم يغفر له، كان مجرماً يستحق العذاب في نار جهنم في الآخرة.

ب. **وأما السعيد:** فهو المؤمن الموحد الصادق في إيمانه ويقينه، المصدق بالرسالات السماوية، الداخل في ولاية الله ﷻ وأئمة الحق من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام العامل بالطاعات والباقيات الصالحات من الواجبات والمستحبات، والتائب من كل ذنب ومعصية ولا يصر على شيء من ذلك ولا يكابر، الذي يلقى ربه بقلب سليم، أي: الصالح في مقاصده وأعماله، فتناله الرحمة الإلهية وينتهي به المطاف إلى الدخول في الجنة والمقام في الدرجات العالية ومنازل القرب التي تجري الأنهار المطردة بأنواع الأشربة من تحت مساكنها وفي بساتينها، ويحظى ساكنها بالسرور العظيم الدائم، واللذات الخالصة الباقية المتواصلة بدون انقطاع، وبما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم، وتتفاوت الدرجات والمنازل بتفاوت درجات الصدق والإخلاص والعمل، وأن أعلاها ينال بالتضحية والفداء والشهادة في سبيل الله تبارك وتعالى، ونحن سائرون بتوفيق الله ﷻ وتسديده في هذا الطريق ومنتهون إلى هذه الغاية إن شاء الله تعالى؛ لأن هذا الثواب العظيم أُعد جزاءً من الله تبارك وتعالى للذين عملوا على تزكية أنفسهم بالحب والصدق والإخلاص، وتطهيرها من أدناس الشرك والنفاق والخيانة والعصيان، وتنميتها وتكميلها بالاعتقاد الحق والخصال

الحميدة والأعمال الصالحة الواجبة والمستحبة، وهذا هو الثواب الحقيقي الباقي الذي يطلبه العقلاء وأصحاب البصائر، لا ما تعدنا به من الأجر الهزيل، والجاه الوهمي في ظل نظامك الفاسد، والعبودية المذلة والطاعة العمياء في ظل ولايتك وحكومتك.

وهذه الإجابات الواضحة البالغة والعميقة جداً تدل على نفاذ بصيرتهم، وقوة منطقهم، وأنهم استفادوا كثيراً مما كانوا يتمتعون به من الخبرة والكفاءة العلمية، في تمحيص الأمور وتقليب الوجوه و إدراك الحقائق كما هي عليه، وأن لا يجعلوا للتضليل وقوة الدعاية وضغوط السلطة تأثيراً سلبياً على تفكيرهم وأحكامهم وقراراتهم الوجودية والمصيرية، كما تدل على عمق إخلاصهم للحقيقة وقيدهم في العمل بمقتضاها، مما أدى إلى ظفرهم بالرحمة والتوفيق والتسديد الإلهي لهم، الأمر الذي انتهى بهم إلى الإيمان والتوبة والثبات أمام التحديات ومقاومة الضغوطات، وأن ما كان منهم يدل على أن الإنسان إذا توفر على الصدق والإخلاص، فإنه قادر على طي مسافة الألف ميل في لحظة، ويطوي المسافة بين السماء والأرض وعالم المادة والملأ الأعلى في طرفة عين، فقد حدث للسحرة التحول العميق بشكل سريع ومفاجئ، وكأنهم تعلموا المعارف والحكم الإلهية في لحظة، فانتقلوا من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال والانحراف إلى الهدى والاستقامة، ومن الجهل إلى العلم والمعرفة، ومن ساحة الطاغوت والظلام إلى ساحة القدس والنور، وكأن ذلك قد نقش في صفحات قلوبهم وأضاء أرواحهم في لحظة، مما أثار دهشة الجميع.

الفصل الرابع: هلاك فرعون الطاغية واستخلاف بني إسرائيل

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾[1]

بعد أن انتصر الحق انتصاراً باهراً وظهر تماماً على الباطل، وفرض وجوده المنطقي بقوة الحجة والبرهان، وأظهر السحرة الإيمان بالتوحيد والنبوة والمعاد، والمعارضة لفرعون ونظامه وحكومته، اهتزت الأركان المعنوية للنظام الملكي الفرعوني، وعاش فرعون وقلبه ممتلئ من الفزع والقلق والخوف على مستقبل النظام والسلطة، وأظهر أقصى درجات العتو والنفور من الحق، والتجبر والعناد والمكابرة والاستكبار، ونعت موسى الكليم عليه السلام بالخارجي، ومعجزاته بالسحر، وقومه بالشرذمة القليلة الخارجة على النظام والقانون، ونفذ حكم الإعدام في السحرة المؤمنين المظلومين، ليكونوا عبرة لغيرهم فلا يؤمنون، وبقي يتدبر في أمر موسى الكليم عليه السلام، وسام بني إسرائيل صنوف العذاب، وفي المقابل عاش موسى

١. طه: ٧٧-٧٩

الكليم عليه السلام سنين يقود بني إسرائيل ويسعى في تخليصهم من عذاب فرعون وحزبه، ويدعو الأقباط إلى التوحيد، وجاءهم بالكثير من المعجزات وأظهر لهم البينات الواضحات ولكنهم لم يجيبوه إلى شيء، وذلك بسبب وقوعهم تحت تأثير الخوف من سطوة فرعون وجنوده، والطمع في دنياه وجوائزه، والتعصب القومي وللذات الموروث من الآباء والأجداد، والخوف من المستقبل في ظل تغلب موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل على فرعون والأقباط واستيلائهم على سلطة البلاد، وهذا ما يفعله دائماً الشحن الطائفي والقومي بكثافة في أوساط الأقباط الخاصة والعامة، وتحت تأثير الخوف من المستقبل، وتحريض الحاشية والمتملقين والنفعيين، فقد قرر قتل موسى الكليم عليه السلام والتخلص منه بالتصفية الجسدية.

وفي ظل ذلك الوضع، أوحى الله جل جلاله إلى عبده ورسوله موسى الكليم عليه السلام وأمره أن يواعد بني إسرائيل سراً على الخروج من مصر بدون أن يشعر بهم فرعون وجنوده وقومه الأقباط، والتوجه إلى الأرض المقدسة أرض الميعاد فلسطين، التي هي موطن جدهم يعقوب عليه السلام قبل هجرته مع أسرته جميعاً إلى مصر في عهد حكومة ابنه يوسف الصديق عليه السلام قبل أربعمائة سنة تقريباً، أي: في القرن الثامن عشر قبل الميلاد (١٨ ق.م) وكان الأمر الرباني لهم بالخروج ليلاً؛ لأنه يساعد على التستر بحيث يكونون بعيدين عن عيون فرعون وجنوده والأقباط فلا يرونهم أثناء خروجهم، ولكي تتوفر لهم الفرصة الزمنية الكافية ليذهبوا بعيداً بما يكفي عن مركز الحكم، فيحتاج فرعون وجنوده إلى وقت لكي يدركوهم أو يصلوا إليهم، مما يتيح لهم فرصة الفرار والنجاة من خطر فرعون وجنوده وقومه.

تهيأ موسى الكليم عليه السلام وبنو إسرائيل للخروج، ثم خرجوا في أول الليل وبسرية تامة، كما أمرهم الله تبارك وتعالى، وفي الصباح علم فرعون بخروج موسى الكليم عليه السلام مع قومه من مصر متوجهين إلى الأرض المقدسة، فغضب لذلك أشد الغضب، ورأى في وجودهم بعيدين عنه وخارج رقابته وسيطرته، خطراً جدياً عليه وعلى نظامه، لا يقل عن خطرهم في مصر ومقاومتهم له؛ لأن خروجهم وبقاءهم بعيدين عن رقابته وسيطرته، يسمح لهم ويمكنهم من بناء قوتهم الخاصة والتحالف مع آخرين يؤمنون بدينهم أو يناصرونهم لأسباب ودوافع سياسية أو إنسانية، ثم يقومون بمهاجمة مصر والقضاء على النظام الملكي الفرعوني.

أي: إن فرعون رأى بأن وجود موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل يمثل خطراً وجودياً جدياً عليه وعلى نظامه ودولته وحكومته سواء بقوا معه أو خرجوا بعيداً عنه، فقرر استئصالهم والقضاء عليهم قضاءً مبرماً للتخلص من شرهم وخطرهم عليه إلى الأبد، فأمر بحشد قواته العسكرية على جناح السرعة، والخروج لملاحقة موسى الكليم عليه السلام وقومه، وإدراكهم قبل الخروج من الحدود المصرية والدخول إلى أرض فلسطين، بمعنى، أنه لم يكتفِ بالدفاع عن نفسه ودولته ونظامه، بل قرر الهجوم والتصفية الكاملة للخصم قبل أن يقوى ويستفحل خطره، مع أن دعواه السابقة بأن موسى الكليم عليه السلام وقومه يريدون إسقاط النظام الملكي الفرعوني، والاستيلاء على السلطة والثروة والمقدرات في البلاد، والاستئثار بها دون الأقباط، والسعي لطرد الأقباط من وطنهم وأرضهم وإخراجهم من أملاكهم، قد أصبحت بحكم الساقطة للإقامة فيها واتخاذها وطناً لهم، أو على الأقل

مشكوك فيها، إلا أن فرعون أراد أخذ موسى الكليم عليه السلام وقومه بالظن، كما هي عادة قوى الاستكبار العالمي التي تقوم بمهاجمة الخصم وتدميره لمجرد الشك في نواياه، وفي ذلك تجلي الروح العدوانية والانتقامية لدى فرعون وقومه ونظامه، و إصرارهم على استعباد بني إسرائيل واسترقاقهم، والرغبة الجامحة في تصفيتهم ورغبة بني إسرائيل في فك رقابهم وعتقها من عبودية فرعون وقومه والحصول على حقوقهم الطبيعية بما في ذلك حقهم في الهجرة وتقرير المصير.

ثم خرج فرعون وجنوده يقتفي أثر موسى الكليم عليه السلام وقومه، وأسرعوا في طلبهم، وتراءى الطرفان، وخاف بنو إسرائيل من أن يدركهم فرعون وجنوده ويصفوهم ويقضوا عليهم عن آخرهم، فلا يبقى منهم أحد لا رجل ولا امرأة ولا طفل، وقلقوا لذلك غاية القلق، فالبحر العظيم أمامهم والعدو القوي السفاك الغاضب: فرعون وجنوده بالسلاح من ورائهم يطلبونهم للانتقام منهم والقضاء عليهم، وعددهم قليل في مقابل عدد جنود فرعون، وفيهم الأطفال والنساء والعجزة، وهم ليسوا متهيئين للقتال، وفي هذا الظرف الحرج والقلق العارم الذي انتاب بني إسرائيل، وبلغت القلوب الحناجر من الخوف كان موسى الكليم عليه السلام مطمئن القلب، ساكن البال، مرتاح الضمير، فهو على بصيرة من أمره، وقد أخبره الله سبحانه وتعالى حين أمره بالخروج مع بني إسرائيل، بأن فرعون وجنوده سيتبعونهم بهدف قتلهم والقضاء عليهم، إلا أنه سينجيه وجميع قومه من فرعون وجنوده، ويهلك فرعون وجميع الذين معه، وسيتخلف بنو إسرائيل ويورثهم الأرض مكانهم، وهو واثق بوعد ربه العزيز الحكيم القادر على كل شيء، فقال:

﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[1] أي: لن يدركنا فرعون وجنوده، فإن معنا الله ﷻ، وسيهديني إلى سبيل النجاة.

وفي هذا الوقت وظل ذلك الحال أدركت رحمة الله الواسعة عباده المؤمنين المستضعفين، الذين أراد تخليصهم من قبضة عدوهم الظالم الغشوم المتجبر و إهلاكه واستخلافهم في الأرض مكانه. فأوحى الله ﷻ إلى عبده الصالح المخلص ورسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام: أن اضرب بعصاك البحر، وهو بحر سوف أو البحر الأحمر عند خليج السويس الذي يفصل بين مصر وسيناء، واجعل لهم بهذه الضربة طريقاً في البحر يبساً صلباً لا ماء فيه ولا طين، يمرون فيه آمنين على أنفسهم مطمئنين إلى الجانب الآخر بين جبلين عظيمين من الماء، لا تخافون أن يدرككم فرعون وجنوده، ولا تخافون الغرق في البحر أو أي خطر آخر من جانب البحر أو غيره. فامتثل موسى الكليم عليه السلام الأمر الإلهي، فضرب بعصاه البحر فانشق له في البحر اثنا عشر طريقاً بعدد أسباط بني إسرائيل، وصار الماء كالجبال العالية (الطود) عن يمين الطرق ويسارها، وأيبس الله ﷻ تلك الطرق، فلم يعد فيها ماء ولا طين، فسلكها بنو إسرائيل جميعاً متجهين إلى الجانب الآخر من البحر.

وحدوث هذه الطرق في البحر العميق بفعل العصا إنما هو معجزة ربانية عظيمة، جاء بها الله ﷻ رحمة بعباده المؤمنين المستضعفين، وبإرادة نجاتهم وتخليصهم من عدوهم الظالم الغشوم، ولكي يمكن لهم في

---

١. الشعراء: ٦٢

الأرض ويستخلفهم فيها كما وعدهم، ليعبدوه جهراً ويقيموا أمره، وهذه من النتائج الضرورية لسنة الاستبدال التي هي من السنن الإلهية الحاكمة في المسيرة الإنسانية التاريخية، والتي تحمل البشارة والطمأنينة للمؤمنين في صراعهم ضد قوى الكفر والنفاق والدكتاتورية والاستبداد والظلم والطغيان والفساد، بأن رسالتهم باقية، وجماعة المؤمنين باقية، وأنهم سوف يصلون إلى ما يريدون في نهاية المطاف، وأن الأعداء لن يتمكنوا بأي حال من الأحوال من القضاء على الرسالة، أو على جماعة المؤمنين، فهما بعين الله ﷻ وتدبيره، وليس على المؤمنين إلا أداء تكليفهم في التبليغ والجهاد، ويتركوا التدبير والنتائج وراء ذلك إلى الله رب العالمين.

ولما وصل فرعون وجنوده إلى ساحل البحر، ورأوا الطريق في أعماق البحر والماء واقف كالطود العظيم على يمين الطريق ويساره، دهشوا لذلك المشهد المذهل المثير، وكان ذلك المشهد كافياً لأن يعيدهم إلى وعيهم ورشدهم، فيعرفوا الحق ويتبعوه، أو على الأقل أن يتوقفوا عن ملاحقة موسى الكليم عليه السلام وقومه ويعودوا عن غيهم وطغيانهم، إلا أن فرعون وجنوده قد عميت بصائرهم، وغرقوا في تجبر المادة والغرور والطغيان والاستكبار على الحق وأهله، فلم يهتموا بهذه المعجزة العظيمة، وأمر فرعون جنوده الذين ركبهم الجهل والحمق بالسير في ذلك الطريق الخطير المثير للدهشة والريب في أمره، والاستمرار في ملاحقة موسى الكليم عليه السلام وقومه، فلم يدركوا حقيقة الإعجاز الإلهي وأبعاده، بل كذب فرعون على قومه وغشهم حيث أنه حين انتهى إلى البحر فرآه قد يبست فيه الطريق، قال لقومه: ترون البحر قد يبس من خوفي، فصدقوه. إذ

كانوا يعتقدون بخلاف العقل والمنطق أنه إله وأنه ربهم الأعلى، فولجوا جميعاً في الطريق يريدون إدراك موسى الكليم عليه السلام وقومه، فما إن تكامل خروج بني إسرائيل من الطريق إلى الجانب الآخر، أي: خرج آخر واحد من بني إسرائيل من الطريق، وتكامل دخول فرعون وجنوده في الطريق، أي: دخل آخر جنود فرعون في الطريق ولم يبق منهم أحد في الخارج، أمر الله عز وجل البحر فانطبق الماء عليهم فغطاهم من كل جانب، وغمرهم جميعاً بطريقة فظيعة مهولة، فهلكوا عن آخرهم ولم ينجُ منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم وهم يغرقون، وبنو إسرائيل سالمون جميعاً.

وقد أقرّ الله تبارك وتعالى عيونهم بهلاك عدوهم ونجاتهم، واطمأنت أنفسهم وأيقنوا بصدق وعد الله عز وجل لهم بالنصر والاستخلاف، وتجلت لهم عاقبة الكفر والفسوق والعناد والظلم والطغيان والفساد في الأرض وعدم الاهتداء بهدى الله سبحانه وتعالى، وعاقبة الإيمان والصدق والإخلاص والصبر فقد هلك فرعون وجنوده بالغرق في وسط أمواج البحر المتلاطم ولم ينجُ منهم أحد، جزاء عنادهم وإصرارهم على الكفر والفسوق والظلم والطغيان والفساد في الأرض، فلم تنفع معهم الآيات البينات الواضحات والمعجزات الباهرات العظيمة، الدالة دلالة يقينية لا شك فيها ولا ريبة على التوحيد والنبوة والمعاد، وسلم بنو إسرائيل بإيمانهم وصبرهم واتباعهم أولياء الله وهديهم.

وقد تبين بحسب المقدمات والنتائج: أن فرعون الطاغية، قد أضل قومه الأقباط عن الحق، وأبعدهم عن طريق الهدى والاستقامة والرشاد

والسلامة والنجاة على خلاف ما كان بقوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[١]، وأوردهم موارد العذاب والهلاك في الدارين الدنيا والآخرة، بما زين لهم من الكفر والتعصب القومي الأعمى وللتراث الموروث من الآباء والأجداد، وتهجين ما جاءهم به موسى الكليم عليه السلام من الحقائق والبينات والمعجزات، وحين سلك بهم الطريق الخطير المثير للدهشة والاستغراب الذي سلكه بنو إسرائيل في البحر ولم يتعظ ولم يتراجع عن غيه وطغيانه، وذلك بعد أن ظهر الحق بأعظم المعاجز والبينات وآخرها شق البحر ووقوف الماء كالطود العظيم على جانبي الطريق.

يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**إن القائد قد يخطئ أحياناً، ويجر أتباعه إلى طريق منحرف، إلا أنه بمجرد أن ينتبه إلى خطئه يعيدهم إلى طريق الصواب، إلا أن فرعون كان عنيداً إلى الحد الذي لم يبين لقومه الحقيقة حتى بعد وضوح الضلال ومشاهدته، واستمر في توجيه هؤلاء إلى المتاهات حتى هلك وإياهم**»[٢].

ولا عذر لقومه في اتباعه، فقد خضعوا لأهوائهم الشيطانية ورغباتهم وشهواتهم الحيوانية، وتعصبوا تعصباً أعمى للقومية والتراث، وعطلوا عقولهم عن التفكير، وخالفوا فطرتهم وطبعهم الإنساني وضمائرهم، واستغرقوا في العناد والمكابرة والتعصب والطغيان، فكانوا مثله مستحقين لعقوبة الهلاك والاستئصال، وهذا ما يفعله للأسف الشديد الكثير من

---

١. غافر: ٢٩

٢. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ١، صفحة ٣١

الناس، إذ يحملهم الجهل والتعصب الأعمى الطائفي والقومي ونحوهما على الموالاة للفراعنة والطواغيت ومناصرتهم والقتال معهم ضد الأولياء الصالحين والدعاة المخلصين للإصلاح والمناضلين الشرفاء المطالبين بالحق والعدل والحقوق، والموت في سبيل ذلك، وليس ذلك إلا الحمق والضلال، والمخالفة للدين والعقل والمنطق السليم، والفطرة والطبع الإنساني والكرامة والضمير، فلا يملك الفراعنة والطغاة بما هم، إلا الضلال والفساد والسير بأتباعهم في طريق العذاب والهلاك في الدارين الدنيا والآخرة، فهل يفيق القوم من غفلتهم ويتعظون ويعودون إلى رشدهم قبل فوات الأوان وحلول الطامة الكبرى والعذاب العظيم؟!

وبعد هلاك فرعون وقومه، ورث موسى الكليم عليه السلام وبنو إسرائيل أرض مصر وتوابعها وبدأوا عهداً جديداً.

المحور الرابع

سورة الشعراء (١٠ - ٦٨)

- الفصل الأول: إرسال موسى إلى فرعون
- الفصل الثاني: تبليغ الرسالة و إظهار الحجة

الفصل الأول: إرسال موسى إلى فرعون

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾
وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ
﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1]

المواجهة المباشرة مع فرعون

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾

أمضى موسى الكليم عليه السلام السنين المتفق عليها (٨ – ١٠ / سنوات) في خدمة نبي الله شعيب عليه السلام في أرض مدين من أطراف الشام مما يلي الحجاز قريباً من بحيرة لوط، ثم خرج متوجهاً بأهله إلى أرض مصر، وحين أدرك طور سيناء ليلاً وكان الجو بارداً، رأى ناراً من بعيد، فقال لأهله: امكثوا، أي: الزموا مكانكم، فهذه نار أراها عن بعيد، سأذهب

١. الشعراء: ١٠-١٧

إلى حيث أرى النار، وآتيكم منها بقبس نستضيء به أو جذوة نصطلي (نتدفأ) بها، فلما بلغ موضع النار، ووقف في ساحة القدس عند الشجرة، سمع نداءً ربانياً له: إني أنا ربك فأخلع نعليك تأدباً وتواضعاً، إنك بالوادي المقدس (المطهر) طوى، وأراه الله ﷻ بعض معجزاته، وأخبره أنه اصطفاه للنبوة والرسالة، وأمره بأن يذهب إلى القوم الظالمين، وهم فرعون وملؤه وقومه، الذين جمعوا بين الكفر بالله سبحانه وتعالى الذي هو ظلم من الإنسان لنفسه؛ لأنه يؤدي به إلى الهلاك في الدنيا وإلى الخلود في العذاب العظيم في نار جهنم في الآخرة، وبين الجور والتعدي على حقوق الآخرين وحرماتهم، ومنها: استعباد بني اسرائيل، وتعذيبهم باستخدامهم في الأعمال الشاقة، وذبح أبنائهم واستحياء نسائهم للخدمة وللمعاشرة الجنسية ظلماً وعدواناً، وبين العناد والمكابرة ضد الحق والفساد في الأرض، وهي من المعاصي والذنوب الكبيرة التي تنتهي كذلك بصاحبها إلى الهلاك في الدنيا والخلود في العذاب العظيم في نار جهنم في الآخرة، مما يعني أنه في الحقيقة ظلم كذلك للإنسان نفسه، أي: إن كل ظلم من الإنسان لغيره، هو في الحقيقة والواقع وفي المقام الأول ظلم من الإنسان الظالم لنفسه قبل أن يكون ظلماً لغيره، فكل ظلم للغير يبدأ بظلم الإنسان لنفسه يتمثل في المعصية التي تنتهي بالإنسان إلى العذاب المؤلم في الآخرة، وهذا يدل على أن للظلم معنى واسع جامع للعديد من الرذائل والمعاصي والذنوب الكبيرة، وأن عاقبته وخيمة على الإنسان في الدارين الدنيا والآخرة، وأن دعوات الأنبياء الإلهيين عليهم السلام تركز على ضرورة مواجهة الظلم ومبارزته بجميع أبعاده الفكرية كالشرك والعملية كالجور

والتعدي على حقوق الآخرين وحرماتهم الفردية والاجتماعية، التربوية والحضارية ونحو ذلك، ليبلغهم الرسالة الإلهية الجامعة إليهم، فقد كفروا بالله سبحانه وتعالى، وتكبروا على الحق، وأفسدوا في الأرض، وعلى أهلها بالقوة والبطش وحد السيف، وتجاوزوا كل الحدود في الظلم والطغيان والتجبر، وزعم كبيرهم ورأس نظامهم أنه إله وابن آلهة، وأنه الرب الأعلى للناس في مصر وتوابعها.

طلب موسى أن يشد الله أزره بأخيه هارون

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾

ولما كانت مهمة حمل الرسالة مهمة صعبة وشاقة وحمل ثقيل جداً ومسؤولية عظيمة في نفسها وتاريخية؛ ولأن مواجهة فرعون الطاغية تستدعي رباطة الجأش والشجاعة والاستعداد التام ووضوح الرؤية، لما يتمتع به فرعون من القوة والقسوة والدولة العميقة، فقد أظهر موسى الكليم عليه السلام لربه مخاوفه، وسأله أن يشرح صدره باليقين ووضوح الرؤية ليستطيع تحمل ما يمكن أن يواجهه من صعاب ويسهل عليه الأمر ويثبت في الموقف أمام التهديدات والصعوبات والتحديات؛ لأن الصبر والثبات والتحمل يدور مدار اليقين وقوة الأمل ووضوح الرؤية والإيمان الصادق بالقضية، فلا يضعها في موضع المساومة عليها، أو يتخلى عنها تحت ثقل الصعاب والتهديدات والتضحيات، أو ينخدع عنها بالتضليل

والتمويه والخداع، فهناك ثلاثة مخاطر تواجه المناضلين: الضعف تحت تأثير الإغراءات، والضعف تحت تأثير الصعاب والتهديدات والتضحيات، والانخداع مما يطرحه الثعالبة المخادعون من النفعيين والانتهازيين والمنافقين أو التضليل السياسي والإعلامي الذي يقوم به الأعداء وحبائلهم ومكائدهم الشيطانية للإيقاع بالمناضلين والسيطرة عليهم أو إخراجهم من حلبة الصراع ونحو ذلك.

وفي ظل ذلك، سأل موسى الكليم عليه السلام ربه أن يحل عقدة لسانه التي لم تكن عقدة في الجارحة، و إنما كانت عقدة في قوتها: النطق والكلام بسبب ما تقدم وما يأتي بيانه، وأن يرسل لأخيه هارون عليه السلام بالوحي، ليكون نبياً مرسلاً يقوي به قلبه وجناحه، ويكون مساعداً ومؤازراً ومعاوناً له في أمره: مواجهة الظالمين المستكبرين القساة، وحمل الرسالة الإلهية الشاقة وتبليغها على أكمل وجه، وأن ينوب عنه ويقوم مقامه إذا اعتراه الحبس في اللسان، أو عاجله فرعون بالقتل أخذاً أو ثأراً لدم القبطي، مما يؤكد أهمية التشاور والتفكير والقيادة الجماعية في إدارة الدولة والشأن العام وحمل الرسالات والتبليغ بها، لا سيما مع العودة إلى الماضي القريب، حيث عاش موسى الكليم عليه السلام وليداً في بيت فرعون وتربى فيه في حجر فرعون وزوجته الصالحة آسية بنت مزاحم رضوان الله تعالى عليها ولأنه قتل بالخطأ واحداً من الأقباط، حيث استغاث به الإسرائيلي على قبطي كان يتشاجر معه، فوكز موسى الكليم عليه السلام القبطي ليخلص الإسرائيلي منه، إلا أن الوكزة قتلت القبطي وقضت عليه لما كان يتمتع به موسى الكليم عليه السلام في شبابه من الفتوة والقوة.

وبسبب هذين الأمرين الذين قد يتحجج بهما فرعون وينحرف بإثارتهم عن القضية الرئيسية ويتخذ منهما حجة للتكذيب بالنبوة والرسالة، مما قد يؤدي إلى ضيق صدر موسى الكليم عليه السلام همّاً وغمّاً، وانحباس لسانه نوعاً ما عن الانطلاق لتبليغ الرسالة على أكمل وجه، وعن محاجة فرعون وملئه بقوة في الحق والعدل والخير والفضيلة، وربما سعى لقتله بدم القبطي متى رآه قبل أن يسمع منه الرسالة التي يحملها من رب العالمين إليه، فيقوم في حال حدث شيء من ذلك هارون عليه السلام مقامه في تبليغ الرسالة ومواجهة فرعون وتخليص بني إسرائيل من فرعون وقومه.

وعليه: لم يكن خوف موسى الكليم عليه السلام خوفاً على نفسه، وإنما خوفاً من التقصير والفشل في حمل الرسالة وتبليغها والقيام بالمهمة على وجهها الكامل، فالمطالب التي تقدم بها موسى الكليم عليه السلام لرب العالمين، هي مطالب تجسد حرصه الكامل على الامتثال بتوفير جميع شروط النجاح وإبعاد جميع العوامل التي يمكن أن تؤدي إلى الفشل، وليس للتعلل والتهرب من التكليف ومن تحمل أعباء الرسالة وأداء الأمانة والرغبة في الاستعفاء منها.

والحرص على توفير شروط النجاح لامتثال التكليف ، والتعلل للتهرب من التكليف، حالتان نفسيتان وروحيتان متباينتان كل التباين ومختلفتان كل الاختلاف في الحقيقة والجوهر، وإن تشابهت مظاهرهما في أعين البسطاء الذين يفتقرون إلى البصيرة والنفوذ في معرفة حقائق الأمور، وعلى المخلصين والمناضلين الشرفاء التمييز بينهما والحذر من الاشتباه في

أهلهما، فمن يريد الامتثال ويحرص على تحقيق النجاح يهتم كثيراً بتوفير جميع الشروط اللازمة لذلك وهو محق ولا بأس عليه، ومن يريد التعلل والتهرب من التكليف يبحث عن المعاذير الباطلة ويختلق الصعوبات ليخرج عن عهدة التكليف، مما يدل على ضعف الإيمان واليقين، ويجب التمييز بين الطائفتين من خلال الأفعال وليس الأقوال، فالأقوال توقع الإنسان في الاشتباه والأفعال والأحوال تخرجه إلى نور الحقيقة والصواب.

فالمطالب التي تقدم بها موسى الكليم عليه السلام لرب العالمين هي مطالب تجسد حرصه الكامل على الامتثال بتوفير جميع الشروط والقوة اللازمة للنجاح، وإبعاد جميع العوامل التي يمكن أن تؤدي إلى الفشل، وليس للتعلل والتهرب من التكليف ومن تحمل أعباء الرسالة وأداء الأمانة والرغبة في الاستعفاء منها.

وما سيق يدل على ضرورة الأخذ في التحرك الرسالي والثوري والإصلاحي بعين الاعتبار جميع الأبعاد والأحوال والظروف والعوامل المؤثرة سلبياً وإيجابياً في نجاح المهمات والحرص الكامل على توفير شروط وعوامل النجاح وتجنب الظروف وإبعاد العوامل التي يمكن أن تؤدي إلى الفشل، ولا يصح الاكتفاء بمجرد عدالة القضية والتفكير المنطقي وقوة الحجة، وإنما يجب التحلي بالواقعية، والأخذ بعين الاعتبار الجوانب العرفية والاجتماعية والنفسية والعاطفية وكافة العناصر المادية والبشرية والمعنوية المؤثرة في حركة الواقع، ومقتضيات العمل السياسي والنضال والثورة والسعي لتغيير الواقع وتغيير موازين القوى على الأرض، تختلف عن مقتضيات التفكير النظري والإقناع فيه.

فأجاب الله تبارك وتعالى دعوة موسى الكليم عليه السلام الصادقة، وأعطاه جميع ما سأل، وبعثه ومعه أخاه ووزيره وشريكه في النبوة والرسالة هارون عليه السلام مؤيدين بالآيات البينات والمعجزات الإلهية الباهرة، إلى فرعون وملئه وسائر قومه، يدعوهم إلى الإيمان بالتوحيد والطاعة لله جل جلاله وحده لا شريك له، وإلى رفع اليد عن بني إسرائيل وتخليصهم من الأسر والعذاب، أي: إن الله جل جلاله قد حمّل موسى الكليم وهارون عليهما السلام رسالة دينية وسياسية مركبة، لا ينفصل الديني أو العقائدي فيها عن السياسي والعملي، ولا ينفصل السياسي والعملي فيها عن الديني والعقائدي، حيث لا سياسة صحيحة ولا عدالة ولا إصلاح بدون العودة الفعلية الجادة إلى الدين الحق الذي يقوم على عقيدة التوحيد، ولا دين صحيح لا يمتد شعاعه لإصلاح أوضاع الناس العملية في الحياة، ورفع الظلم والجور والطغيان والفساد والتخلف عنهم، وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه شعار: «ديننا سياسة، وسياستنا دين».

وقد خص فرعون الطاغية بالذكر؛ لأنه رأس النظام والكفر والطغيان والفساد في الدولة والمجتمع، ونهى الله جل جلاله موسى الكليم وهارون عليهما السلام عن الفتور والتقصير في ذكر الله ذي الجلال والإكرام وفي تبليغ الرسالة والقيام بواجباتها، وأوصاهما بأن يلينا إلى فرعون بالقول ويخصاه بعبارات لطيفة، لعل ذلك يلين من طبعه القاسي وخشونته، ويمكّن الرسالة الإلهية من الوصول إلى عقله وقلبه، فيعود إلى فطرته ويخشى ربه ويتخلى عن عناده وكفره وطغيانه وفساده ويسلم إلى الحق وإلى أولياء الله الصالحين عليهم السلام.

مخاوف موسى وهارون

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾

فقال موسى الكليم وهارون عليهما السلام لربهما: إننا نخاف أن فرعون الطاغية إذا عرف بغايتنا ومقصدنا فإنه يغضب علينا ويحمله غضبه على البطش بنا والتعجيل بمعاقبتنا قبل أن نبلغه بتمام الرسالة، وذلك لما عرف عن النظام الملكي الفرعوني من الدكتاتورية والاستبداد، وما عرف عن فرعون الذي هو رأس النظام من الطيش والقسوة والحمق والتجبر، بحيث لا يتمكن أي أحد من المواطنين المعارضين من التعبير الحر عن رأيه المخالف للنظام والمعارض لسياسته ومواقفه، فكل من يشعرون منه المخالفة في الرأي والمعارضة في المواقف، فإنهم يعاجلونه بالعقوبة ويبادرونه بالانتقام قبل أن يظهر رأيه وينتشر ويفسد عليهم الأمر.

الإعانة الإلهية

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾

فقال لهما ربهما تقوية لقلبيهما، وتأميناً لهما وتثبيتاً وتطبيباً لنفسيهما: لا تخافا أن يصيبكم شيء مما ذكرتما، فإني الخالق المدبر للعالم، ولا يخلو مني مكان، ولا يخرج شيء عن حولي وقوتي، فإني معكما حاضر في مجلس الدعوة وميدان المواجهة، وشاهد ومتابع لكل ما يجري بينكم ولا يغيب عني شيء منه، واسمع لما تقولان ولما يقال لكما، ولي كامل التوجيه

وتمام العناية بأمركما وشأنكما والمتولي لحفظكما ونصركما على عدوي وعدوكما، ومثبت لكما في المواقف الصعبة، ولن أترككما أبداً، وعليه: فلن يضيق صدركما، ولن يحتبس لسانكما أمام العتاة والمردة المتجبرين والمخالفين الماكرين وغيرهم، وسوف تتمكنان من تبليغ الرسالة تامة وفي غاية البلاغة والوضوح، وسأحفظكما من بطش فرعون وملئه وقومه وسطوتهم، فلن يصلوا إليكما بسوء، ولن يصيبكما منهم أذى، وسأجعل لكما عليهم سلطاناً، وستكونان ومن اتبعكما الغالبين، فاذهبا مطمئنين، وامضيا في هذا السبيل النوراني الحق بعين وأقدام ثابتة وعزيمة راسخة لا تتزلزل، فأنتما تحت رعايتي وحمايتي.

برنامج الرسالة الإلهية إلى فرعون

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

وامتثل موسى الكليم وهارون عليهما السلام الأمر الإلهي وحملا الرسالة، وذهبا إلى فرعون في قصره وبلغاه مع ملئه الرسالة الإلهية، والتي كانت تتضمن النقاط الرئيسية التالية:

- إنهما رسولان من عند الله رب العالمين ذي الجلال والإكرام وأنهما لا يقولان على الله سبحانه وتعالى إلا الحق، وأنهما مؤيدان من الله عز وجل، بما يثبت صدق نبوتهما ورسالتهما من البينات الواضحات والمعجزات الباهرات.

- إن فرعون عبد من عباد الله خالق العالم ومدبره، وخالق فرعون ومالك أمره، وليس فرعون إلهاً أو رباً كما يزعم، وإن الله ﷻ يوبخهم لفرط ظلمهم وقلة خوفهم منه وتجاهلهم التام وجوده المقدس وعقابه، فلم يمتثلوا أوامره ولم يجتنبوا نواهيه، وهذا أمر مخالف للعقل والفطرة والطبع السليم، ويدعوهم إلى توحيده لأنه خالقهم ومدبرهم مع العالم بأسره، وأن إليه معادهم ومرجعهم في يوم القيامة للحساب والجزاء، فعليهم أن يتقوه ويتركوا ما هم عليه من العناد والكفر والظلم والمعصية، وأن يكف فرعون عن ادعاء الألوهية والربوبية وعن كل إدعاء باطل لا يستند إلى دليل صحيح وأن ينقادوا لطاعته وعبادته؛ لأن ذلك هو السبيل الوحيد إلى كمالهم الإنساني المقدر لهم بحسب خلقتهم، وإلى النجاة من الهلاك والعذاب الأخروي العظيم، والفوز بالرضوان الإلهي وبالسعادة الحقيقية والنعيم الأبدي الخالد في الجنة. فقد آن الأوان أن يعرفوا الحق ويعرفوا العاقبة السيئة للعناد والاستكبار والإصرار على الكفر والباطل والظلم والطغيان والفساد في الدارين الدنيا والآخرة، فقد حان وقت جرد الحساب في عالم الدنيا قبل عالم الآخرة.

- ليس لفرعون وملئه وقومه الحق في أسر بني إسرائيل واستعبادهم وتعذيبهم باستخدامهم في الأعمال الشاقة وذبح أبنائهم واستحياء نسائهم للخدمة والمعاشرة الجنسية فجوراً، وإن عليهم أن يرفعوا اليد عنهم ليعبدوا ربهم الذي خلقهم ويدبر أمرهم وإليه معادهم وعليه حسابهم وجزاؤهم في الآخرة، ويقيموا أمر دينهم بحرية

وإخلاص، وأن يطلق سراحهم ويجعل لهم حرية الإقامة والهجرة والخروج معه إلى الأرض المقدسة فلسطين التي كتبها الله ﷻ لهم إذا شاؤوا.

ومع هذه الرسالة البليغة وما تضمنتها من منابذة شديدة شاملة: دينية وسياسية، وما فيها من غاية التسفيه للنظام الملكي الفرعوني، فإن فرعون رغم كل تجبره وطغيانه لم يتمكن من قتل موسى الكليم ﵇ أو إلحاق الأذى والضرر به وبأخيه ووزيره وشريكه في النبوة والرسالة هارون ﵇ مما يدل على شمول الرعاية الإلهية لهما وكمال العناية بهما وبأمرهما.

الفصل الثاني: تبليغ الرسالة وإظهار الحجة

﴿نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ
وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي
إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن
كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦)
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ
فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا
لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ
وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[1]

---

١. الشعراء: ١٨-٣٧

اعتراض فرعون على موسى وتوبيخه

﴿نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۞ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

لبى موسى الكليم وهارون عليهما السلام أمر ربهما وذهبا إلى فرعون ونزلا عليه في القصر الملكي وهما يلبسان مدارع الصوف وبلغاه مع ملئه الرسالة من رب العالمين، وأفهماه بقاء ملكه ودوام عزه إن هو أسلم وأطاع ربه، فاستغرب فرعون من أمر الرسالة ومن جرأة موسى وهارون عليهما السلام بحملها إليه وسخر منهما، وذلك لأنه يرى نفسه الرب الأعلى في الأرض، وأنه فوق أن يرسل إليه مثل ما جاءه به موسى وهارون عليهما السلام، والتفت إلى موسى الكليم عليه السلام وتكلم له بكلمات مدروسة بعناية كبيرة، وممزوجة بالخبث والشيطنة، تكشف عن دهائه، حيث ذكّر موسى الكليم عليه السلام بأمرين يريد بهما أن يُنفى بالمنطق دعوى النبوة وصدق الرسالة، وفيه توبيخ واعتراض وهما:

١. فضله عليه بأن التقطه من أمواج النيل فأنقذه من الهلاك المحتوم، وهيأ له المرضعة التي ترضعه، وكفّ عن قتله على خلاف ما كان يفعله مع بني إسرائيل، وفضلاً على ذلك: ربّاه في بيته منذ كان طفلاً في مهده، وأقامه في أسرته سنين عديدة في محيط هادئ يرتع في نعمته ويحظى بعنايته، ومقتضى هذه التربية والكرامة في ميزان القيم والأعراف أن يكون وفياً له وبعيداً عن كل ما يغيظه ويؤذيه، لا أن يخالفه في دينه، ويعارض نظام دولته وحكومته ويخرج عليه ويدعو إلى إله غيره، وهذه واحدة من طبائع الملوك

والفراعنة المتجبرين الخسيسة، فهم يعتقدون أن السلطة استحقاق لهم في أنفسهم، وليست عقداً أو تكليفاً يترتب عليه حقوق وواجبات بين الطرفين: الحاكم والشعب، وأنهم يملكون الأرض ومن عليها ، وأن أبناء الشعب بمثابة العبيد لهم، ويرون أنفسهم أرباباً منعِمين عليهم، فما يقدمونه لأبناء الشعب من خدمات عن طريق مؤسسات الدولة مكرمات يتفضلون بها عليهم، لا أنهم يؤدون واجبات مفروضة عليهم، ولا يرون جرائمهم وظلمهم لأبناء الشعب المستضعفين جرائم، بل يرونها حقوقاً ولوازم لهيبة السلطة واستقرار الدولة.

٢. قتل الرجل القبطي الموالي لفرعون ونظامه الملكي، وهذا فساد في الأرض وجريمة خطرة عظيمة الشناعة والفظاعة في جميع القوانين والأعراف، وفعل قبيح في نظام القيم عند جميع الشعوب والأمم لأنك قتلت رجلاً من أصحاب ولي نعمتك الذي نشأت في بيته وأقام على تربيتك والإنعام عليك، ولهذا: فقد جحدت النعمة وخرجت من الأخلاق الفاضلة، وخالفت الشرائع والقوانين والأعراف، وعليه: فأنت إنسان آثم ومجرم وبعيد عن رحمة الآلهة، فلست جديراً بأن تحمل رسالة إله إلى الناس.

وأضاف فرعون: إننا نعرفك ونعرف أصلك وصفاتك وأحوالك كلها، فقد كنت تعيش في بيتنا منذ كنت طفلاً في المهد وحتى فعلت فعلتك الشنيعة بقتل القبطي وفررت من العدالة والقصاص،

فأنت فقير من سائر الناس، ولست من أبناء الآلهة والعظماء، فمن أين كان لك هذا الذي تدعيه من أمر النبوة والرسالة؟ فكيف تجمع بين متناقضيْن: بين ماضيك حيث الفقر والتشرد وجحود النعمة وجريمة القتل، وبين النبوة وحمل الرسالة من إله عظيم، وتريد منا أن نسمع لك ونطيع ونحن سادتك وأولياء نعمتك، وهذه منزلة شريفة وعظيمة لا تنبغي إلّا لرجل عظيم المظاهر ومبجل بين الناس ويحمل الكثير من الألقاب التي تشرئب إليها الأعناق، وأنت محروم من كل ذلك.

ثم التفت فرعون إلى جلسائه المتملقين، فقال ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾[1] فالثروة والقوة هما أساس المكانة والفضل والجاه والسلطة، ولا نبوة ولا فضل ولا جاه ولا سيادة لفقير مغمور. وهذه المقالة المتغطرسة تكشف عن النظرة المادية البحتة لدى الفراعنة والمترفين عبيد الدنيا والمال والسلطة في تحديد قيمة الإنسان ومكانته، وهي نظرة منحرفة تقوم على الجهل بحقائق الكون وبحقيقة الإنسان وبغاية وجوده، تسيطر على عقول الطغاة والمترفين الخائبين، وتضيع معها الفضيلة والقيمة الإنسانية الفعلية والرتب الروحانية السامية والصفات التي يعرف بها كمال الإنسان وعلو قدره ومنزلته بما هو إنسان، ويجهل في ظلها حقائق الأشخاص ومنازلهم وتؤدي إلى الانحطاط الفكري والروحي والحضاري، و إلى غياب العدالة وانتشار الحروب والصراعات الدامية من أجل الثروة والسلطة وخراب الحياة بالكامل.

١. الزخرف: ٥٣

رد موسى على اعتراض فرعون وتوبيخه

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

فرد موسى الكليم عليه السلام على المسألتين بالتالي:

- إن قتله الرجل القبطي كان على وجه الخطأ وليس عمداً، بأن وكزه وكزة بغية تأديبه ومنع اعتدائه على الإسرائيلي المستضعف، فمات منها ولم يكن يعلم أنها ستؤدي إلى موته، أي: إنه قصد التأديب ومنع الظلم ولم يقصد القتل، وليس في ذلك مخالفة للشرائع والقوانين والأخلاق والعدالة؛ لأن العمد ركن من أركان الجناية عند المشرعين. وفي ظل الاستضعاف المتمكن من بني إسرائيل في مصر، والتعصب الطائفي الأعمى من النظام الملكي الفرعوني والأقباط الموالين للنظام ضد بني إسرائيل، فقد خشيت أن تعاملوني معاملة المجرم والقاتل المتعمد وتعاقبوني ظلماً بالقتل، ففررت من ظلمكم وليس من العدالة، وخرجت من مصر وتغربت عن وطني لسنوات عديدة، ولم أكن راغباً في تلك العاقبة الوخيمة، ولأن ما قمت به ليس جريمة، بل فضيلة لأنه كان بدافع الدفاع عن المظلومين المستضعفين ونصرتهم، ولأن رحمة الله جل جلاله لا تقسم بحسب أهواء الناس ومعايير الفراعنة والمترفين المادية المجحفة في الحياة فتعطى لعلماء المظاهر والألقاب الفارغة، وإنما تقسّم بحسب الاستحقاق الفعلي والكمال الروحي ومقتضى

الحكمة الإلهية البالغة، فقد قدر ربي حسن نيتي ودوافعي حين قتلت الرجل القبطي الظالم عن طريق الخطأ، حيث قصدت التأديب ومنع الظلم وليس القتل، فقابل إحساني بأحسن منه، فوهبني الفهم والحكمة وإصابة النظر في حقائق الأمور، وإتقان الرأي في التدابير العملية في الحياة العامة والخاصة، والعلم بدينه وأحكامه وأوجه الخير والفضيلة، وأعطاني الإرادة والشجاعة للعمل بما علمني، وجعلني أحد أنبيائه المكرمين، وأرسلني إليك وإلى قومك وإلى الناس أجمعين، حيث وجدني أهلاً للنبوة والرسالة فهو أعلم حيث يجعل رسالته التي تقوم على الصدق والإخلاص والفضيلة والكمال الروحي والعمل الصالح، وليس على الثروة والسلطة والمظاهر المادية والألقاب الفارغة والتبجيل القائم على الرياء والمجاملة والتملق، وعليه: فمعرفتك بحالي وتقييمك لي بحسب معاييرك المادية المنحرفة لا تنفي نبوتي ورسالتي التي تقوم على معايير إنسانية وإلهية عادلة.

- إن وجودي في بيتك وتربيتك إياي التي تعدها نعمة تمنّ بها عليّ وتقرعني بكفرانها ليست في الحقيقة وبحسب المنطق السليم وميزان القيم حجة لك عليّ، فعند التحقيق يتبين أنك في الحقيقة حاكم ظالم لشعبه، هضم حقوقهم وأذاقهم ألوان العذاب، وأن ما قمت به من أجلي لا يساوي شيئاً في قبال ما أسأت به لقومي من بني إسرائيل من ظلم واستعباد وهضم للحقوق، فلا منة لك عليّ فيما زعمت أنها نعمة. لقد كان السبب في وجودي في بيتك هو ظلمك وطغيانك وعدوانك وجورك البالغ

على بني إسرائيل وهم قومي، فقد سخرتهم وجعلتهم لك ولقومك بمنزلة العبيد وأذقتهم فنون وألوان العذاب والذل والظلم والهوان، إذ كنت تقتل أبناءهم وتستحيي نساءهم وتستعبد الكبار منهم وتسترقهم وتسخرهم في الأعمال الشاقة ظلماً وقهراً وعدواناً على حقوقهم الطبيعية في الحياة، فخافت أمي على حياتي، فالقتني في اليمّ من أجل إعطائي فرصة للبقاء، ولو لم تستعبد بني إسرائيل ولم تذبح أبناءهم ولم تنتهك حقوقهم الطبيعية في الحياة، لما اضطرت أمي إلى المجازفة بوضعي في التابوت و إلقائي في النيل بحثاً عن فرصة ولو ضئيلة للإبقاء على حياتي، فالتقطني رجالك وأدخلت إلى بيتك، أي: إن ظلمك الفاحش وطغيانك وجورك البالغ هو الذي ساقني إليك وأنا طفل رضيع لأكون في كنفك وأعيش في قصرك وأكون رهين منّتك، ثم إنك أبقيت على حياتي وقمت على تربيتي ليس رأفةً بي وحرصاً عليّ كأحد أبناء بني إسرائيل، فسيرتك الظالمة فيهم القتل بغير ذنب، و إنما لتأخذني من أهلي وتتخذني لنفسك ولدُ لحاجتك لأن يكون لك ولداً إذ لا ولد لك، فعشت غريباً عن أهلي وبعيداً عن حنان الأم ولطف الأب في بيتك، وأهلي يجرون أذيال الحزن عليّ ويندبون عليّ ليلاً ونهاراً، وهذا الظلم والإجحاف ببني إسرائيل مما يجب رفضه واستنكاره ومقاومته، على قاعدة: إذا كان الظلم قانوناً فالمقاومة واجب، وعليه: فلا وزن ولا قيمة لإيوائك إياي في بيتك وتربيتك لي في قبال ما أسأت به لقومي من بني إسرائيل.

سؤال فرعون عن ماهية رب العالمين

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾

لمّا سمع فرعون الرد المفحم والمنطق المتين، غيّر مجرى الحديث بدهاء ومكر خبيث، وشرع يجادل موسى الكليم عليه السلام في ربوبية رب العالمين، ليس بحثاً عن الحقيقة، فهو لا يبحث عن الحقيقة ولا يطلبها، وإنما أراد تضليل الناس وإبعادهم عن الحقيقة وإبطال كل ما يبطل ربوبيته ويفسد عليه نظامه ويهدد أمنه واستقراره، فقال متعنتاً: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1] الذي تزعم أنه أرسلك إلينا؟ فلكل عالم من عوالم الخلقة رب مدبّر، وأنا ربكم الأعلى المدبّر لعالمكم، ولا رب غيري في هذا العالم.

فأجابه موسى الكليم عليه السلام بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[2] أي: الخالق لجميع العوالم ومدبرها بأنواع التدبير المحكم، فإن كانت لكم عقول تدركون بها حقائق الأمور والظواهر الكونية، فسوف تعلمون بيقين أن هذا العالم وما فيه من صنوف التدبير، لا يكون إلا بقدرة خالق عظيم القدرة وحكيم في تدبيره، وهذا يشمل العالم بأسره وجميع المخلوقات فيه، أي: إن رب العالمين هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيها من المخلوقات من العدم، وهو القائم على تدبيرهم جميعاً وبدون استثناء، وقد أعطى الحياة لبعض المخلوقات: النبات والحيوان

١. الشعراء: ٢٣

٢. الشعراء: ٢٤

والإنسان، وهداها بما أودع فيها من السنن والغرائز والقدرات والاستعدادات إلى ما يحفظ به وجودها وحياتها، وعليه: فوجود السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات، وما تشتمل عليه من التنظيم والتدبير المترابط والمتصل والمحكم، يدل دلالة يقينية قطعية عند أهل الدليل والبرهان على وجود الخالق المدبر الواحد لجميع العوالم، ولا يشاركه أحد غيره من الموجودات الضعيفة والفقيرة في وجودها وصفاتها وأفعالها إليه مثل: فرعون وغيره، في استحقاق الطاعة والعبادة.

وهذه حجة واضحة وكافية لإدراك حقيقة توحيد الخالقية والتدبير لدى كل عاقل منصف يبحث عن الحقيقة بموضوعية ويطلبها، وسالك سبيل اليقين بموضوعية وبصدقٍ و إخلاص، عن طريق الدليل والبرهان والمشاهدة والوجدان، ولم يكن معانداً أو مكابراً كسائر الفراعنة والمترفين والانتهازيين الخبثاء، فافتحوا أعينكم وعقولكم وقلوبكم بحثاً عن الحقيقة، وانظروا في نظام الكون وتدبيره، لتعلموا حقيقة ما قلته لكم وتتيقنوا صحته، يقول العلامة الطباطبائي: «**أنه قيل له: ما تريد برب العالمين؟ فقال: أريد به ما يريده أهل اليقين إذا يستدلون برباط التدبير واتصاله في عوالم السماوات والأرض وما بينهما على أن لجميع هذه العوالم مدبر واحد و رب لا شريك له في ربوبيته لها... وبعبارة موجزة: رب العالمين هو الذي يوقن الموقنون بربوبيته لجميع السماوات والأرض ومابينهما إذا نظروا إليها وشاهدوا وحدة التدبير الذي فيها**»[1].

١. تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي، جزء ١٥، صفحة ٢٤٢ - ٢٤٣

ومن الملفت: أن فرعون قد سأل عن جنس رب العالمين وحقيقته: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[١] غير أن موسى الكليم عليه السلام أجاب ببيان أظهر به خواصه وفعاله و بما يدل على عظيم قدرته من آياته وآثاره، أي: أشار إلى الحجة والبرهان على توحيد الخالقية والربوبية المأخوذة من وحدة التدبير وقواعد المنطق السليم، حيث إن ذات الله سبحانه وتعالى بعيدة عن إدراك العقول ولا يمكن أن يعرف بما هو في ذاته، كما حرص موسى الكليم عليه السلام على أن يوصل الرسالة الربانية ويبينها إلى فرعون وملئه، وتجنب الخوض في المسائل الجانبية التي من شأنها أن تفتح أبواب الجدل العقيم التي تضيع فيها الحقائق وتلتبس على عامة الناس، وهو نفس المنهج الحكيم الذي سار عليه إبراهيم الخليل عليه السلام في محاجة الطاغية نمرود اللعين: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[٢] ولا أحد يشاركه في شيء من ذلك، فرد عليه نمرود فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾[٣] فأمر بإحضار رجلين من السجن، وأمر بقتل أحدهما فقتل، وأمر بإطلاق سراح الآخر فأطلق سراحه.

وفي جواب نمرود تمويه وتلبيس واضح لكل ذي بصيرة وفهم ومنطق سليم، فليس القتل والإفراج عن السجين بالإحياء والإماتة الحقيقيين الذين عناهما إبراهيم الخليل عليه السلام إلا أن ابراهيم الخليل عليه السلام لم ينجر إلى فخ نمرود ولم يدخل أنفاق ومتاهات الجدل العقيم المظلمة التي أراد له نمرود أن يدخلها ويضيع فيها بيانه الفصيح، و إنما عدل إلى حجة أخرى

---

١. الشعراء: ٢٣

٢. البقرة: ٢٥٨

٣. نفس المصدر

فاصلة، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾[١] أي: إن كان الأمر كما تقول، فإن الرب الحقيقي الذي بيده الخلق والتدبير، والذي يحيي ويميت حقاً وواقعاً وليس على سبيل الكناية والاستعارة، يأتي بالشمس من المشرق فأت بها أنت من المغرب حتى يثبت لدينا بالدليل والحجة الصحيحة أنك رب وبيدك الأمر والنهي ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[٢] وتحير وانقطعت حجته وظهر عجزه وكذبه أمام الحاضرين.

وفي ذلك درس مهم وبليغ للدعاة وحملة الرسالات، بأن يحرصوا على الركائز والمسائل الأساسية، ويتبعوا منهجية ذكية واضحة المعالم في الحوار، ولا يدخلوا في أنفاق ومتاهات الجدل العقيم التي تضيع فيها الحقائق وتلتبس على عامة الناس، وقيل: إن سؤال فرعون موسى الكليم عليه السلام ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٣] ليس سؤالًا عن حقيقة الله (واجب الوجود) سبحانه وتعالى؛ لأن فرعون يعتقد أن واجب الوجود هو رب الأرباب ولا رب فوقه، و إله الآلهة ولا إله فوقه، وهو أعظم من أن يحيط به فهم أو يناله إدراك، وعليه: لا تجوز عبادته لأن العبادة نوع توجه إلى المعبود والتوجه إدراك، والمطلوب: التقرب إليه بعبادة موجودات شريفة مقربة إليه، مثل: الملائكة والجن والقديسين الفانين في اللاهوت من البشر، ومنهم الملوك والعظماء الذي يرجع إلى كل واحد منهم تدبير عالم من عوالم الخلقة أو أمر من أموره أو جهة من جهاته، وكل منهم مربوب إلى رب الأرباب الذي

---

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

٣. الشعراء: ٢٣

هو خالقهم جميعاً، وهذا ما يقوم عليه دين فرعون ونظامه السياسي، فهو يرى نفسه ملك القبط وربهم الأعلى يعبده قومه كسائر الآلهة، وهو يعبد الآلهة الذين هم فوقه، وعليه: فسؤال فرعون إنما هو عن صفة وحقيقة واحدة من هذه الآلهة والأرباب، وليس عن حقيقة الله (واجب الوجود) الذي هو رب الأرباب و إله الآلهة، ولأنه يعتقد أن لا سبيل إلى إدراك كنهه وحقيقة وجوده، وعلى هذا الاعتقاد يقوم دينه ونظام دولته.

سخرية فرعون من موسى

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

وفي جميع الأحوال: لم يتعظ فرعون ولم يستيقظ من غفلته ولم يستفد شيئاً من البيان الشافي الواضح، ومن الحجج الواضحة والبراهين الساطعة التي ساقها موسى الكليم عليه السلام إليه، فالتفت إلى الذين حوله من أشراف قومه وأتباعه وحاشيته ومستشاريه ورجال دولته وكبار ضباط جيشه وشرطته، ويقدر عددهم في الروايات بخمسمائة نفر وكلهم من أصحاب المصالح الانتهازيين والمتملقين إلى فرعون، فقال متعجباً ومتجهماً ومستهزءً وبكل غرور وصلافة: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[1] أي: ألا تسمعون قوله وتعجبون منه، فقد نزع عني صفة الربوبية وزعم أن الربوبية لإله واحد على خلاف ما تعتقدون وجرت عليه سيرة

١. الشعراء: ٢٥-٢٦

الأولين من قومنا، وهذه هي الحالة التي يكون عليها الملوك المتغطرسون والفراعنة المتجبرون دائماً، إذ يستخفون قومهم ويضلونهم عن الصراط المستقيم ويبعدونهم عن الحق المبين، ويجعلون منهم وقوداً في مواجهة الأولياء الصالحين والمصلحين الشرفاء، ويحملونهم على ممارسة فنون الظلم والعدوان ضد المعارضين للنظام، وذلك حين يجدون من يستمع إليهم من خفيفي العقول وسفهاء الأحلام، تحت تأثير الجهل أو الخوف أو الطمع أو التعصب، ويقبل منهم ولا يرد عليهم منكرهم وشناعتهم.

وقد أراد فرعون بهذه السخرية الحقيرة من كلام موسى الكليم عليه السلام أن يشوش على كلام موسى الكليم عليه السلام لكي لا يترك كلامه بما يشتمل عليه من البيان الواضح المتين، وما يقوم عليه من المنطق السليم تأثيراً في قلوب الذين حول فرعون ويغير أفكارهم ومعتقداتهم الباطلة فيه، فهم خواص قومه وأهل الحل والعقد فيهم، والتأثير فيهم ينعكس على قومهم ويهدد نظامه وملكه بخطر شديد، فعدّ كلام موسى الكليم عليه السلام بلا محتوى وبعيداً عن المطلوب، إلا أن موسى الكليم عليه السلام بما كان يمتلك من بصيرة ومنهج واضح للحوار ومعرفة كاملة بالمغالطات ونحو ذلك، تابع بيانه ولم يساير فرعون ولم يجارِه فيما أراد أن يدخله فيه من دهاليز وأنفاق مظلمة، فقال مصراً ومؤكداً، وبدون خوف أو وهن أو إيهام أو تردد: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[1] أي: تعجبتم أم لا، استكبرتم أم أذعنتم، هو خالق الكون وربه، وهو خالقكم وربكم، وخالق آبائكم الأولين وربهم، وهو خالق فرعون وربه وخالق جميع الفراعنة السابقين واللاحقين وربهم، أي

١. الشعراء: ٢٦

هو رب عالم الإنسانية قبل أن يخلق فرعون الذي تخضعون إليه وتطيعونه وتعبدونه من دون الله سبحانه وتعالى و فرعونكم هذا عبد ضعيف ومخلوق مثلكم، فليس في الوجود إلا رب واحد هو رب السماوات والأرض ورب عالم الإنسانية وقد أرسلني إليكم بشيراً ونذيراً.

وقد أشار موسى الكليم عليه السلام بإصرار إلى عالم الإنسانية؛ لأن فرعون كان في الحقيقة والواقع وبكل دهاء ومكر وخديعة، يدافع عن نفسه، ويحتال بكل وسيلة ومكر ليبعد عن الأذهان كل ما يدل على أن ربوبية رب الأرباب تلغي ربوبيته وتبطلها، وعالم الإنسانية أقرب إلى الناظر وأوضح عند المتأمل، ويدل بدون شك على الخالق المدبر الحكيم الواحد، ويثبت بأن الدعوة إليه ليست أمراً مستحدثاً، و إنما هو أمر أصيل وقديم قدم العالم ومواكب لمسيرة الإنسان وتاريخه الطويل وباقٍ إلى نهاية التاريخ و الحياة على وجه الأرض، وأن فرعون مربوب وليس رباً كما يزعم، وأنه بحسب العقل والمنطق لا يجوز العبادة والخضوع إلى مخلوق ضعيف مثله في ذلك مثل سائر الناس، وله آباء وأجداد انحدر منهم وفنوا كما يفنى سائر الآباء والأجداد، وسيفنى كما فنى آباؤه وأجداده من قبله، يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**إن موسى عليه السلام بدأ في المرحلة الأولى بـ«الآيات الآفاقية» وفي المرحلة الثانية أشار إلى «الآيات الأنفسية» وأشار إلى أسرار الخلق في وجود الناس أنفسهم وآثار ربوبية الله في أرواح البشر وأجسامهم ليفكر هؤلاء المغرورين على الأقل في أنفسهم ويحاولوا التعرف عليها وبالتالي معرفة من خلقها**»[1] ولا شك فإن الإشارة إلى عالم الإنسانية

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ١١، صفحة ٢٣١

والآيات الأنفسية أقرب إلى الناظر وأوضح عند المتأمل من الآيات الآفاقية كما سبق ذكره.

ثم يتقدم فرعون خطوة في الاستهانة بموسى الكليم عليه السلام وتحقيره ومعاندة الحق ومخالفة العقل والمنطق، فتجاوز الاستهزاء بموسى الكليم عليه السلام إلى اتهامه بالجنون واختلال العقل، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون﴾[1] لأن الاختلال فيما يتكلم به يكشف عن الاختلال في عقله، حيث أسأله عن شيء ويجيبني عن غيره، ويخالف المألوف في النظام الذي توافق عليه الناس وارتضوه لأنفسهم ومضت عليه سيرة الأولين من الآباء والأجداد، ويقول إني مربوب وليس برب، ويدعو إلى عبادة إله واحد وطاعته وحده دون سواه، ويطالب بتغيير نظام الحكم في الدولة وبتغيير الأعراف والتقاليد التي يقوم عليها، ويطالب بالعدالة والمساواة بين المواطنين: الأقباط وبني إسرائيل، وبتحرير بني إسرائيل من الرق وإعفائهم من الأعمال الشاقة وعدم قهرهم عليها، وإعطائهم حق الإقامة والسفر والعيش حياة طيبة كريمة.

ومراد فرعون من وراء ذلك: تضليل قومه وإيقاعهم في الحيرة، واستثارة حفيظتهم ليواجه قوة الحجة والمنطق من قلق واضطراب، ويظهر على خلاف الواقع تمكنه وثباته، وأن لا قيمة ولا وزن لما قاله موسى الكليم عليه السلام لأنه لا حقيقة له ولا اعتبار في الواقع والمنطق، وقد سمّى فرعون موسى الكليم عليه السلام رسولاً على وجه السخرية والاستهزاء، وأضافه إلى الذين حوله

---

١. الشعراء: ٢٧

من قومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾[١] على وجه الترفع والاستعلاء عن أن يكون رسولاً إليه، مما يكشف عن النظرة الاستعلائية والغرور والاستكبار على الحق لديه، أي: إنه يرى نفسه أكبر من أن يكون له رسول يدعوه إلى التوحيد ويرشده إلى الحق والصواب و إلى العدل والخير والفضيلة، فلا حق فوقه، ولا عدل ولا خير ولا فضيلة على خلاف مايفعل.

وفي الواقع: فقد هز كلام موسى الكليم عليه السلام كيان فرعون من الداخل واضطربت نفسه بسببه كثيراً، وهو يعلم في قرار نفسه بأنه مخلوق ضعيف، إلا أن الثروة والسلطة وتملق ضعفاء العقول ومسايرتهم إياه فيما يدعي بغير حق على خلاف المنطق والواقع من الألوهية والربوبية ونحوهما، شجعه على المضي قدماً في ادعاءاته وحمله على ظلم العباد واستضعافهم.

وهذا ما يفعله حكام البغي دائماً في كل عصر ومصر، حيث يتباهون بالادعاءات والألقاب والمظاهر الفارغة، ويقومون على التشهير بالمعارضين لحكمهم من الشرفاء الأحرار والتنكيل بهم واتهامهم بالتخريب والجنون ووصفهم بأقبح الصفات ونحو ذلك، إلّا أن موسى الكليم عليه السلام لم يهتم بذلك السيل من التهم والسخرية والاستهزاء، ولم يؤثر في روحه ومعنوياته العالية، فهو على بصيرة ويقين من أمره، فتابع البيان لآثار القدرة الإلهية في عالم الإيجاد، ولم يشتغل بدفع ما نسب إليه فرعون من الجنون ونحوه؛ لكي لا يمنحه فرصة الهروب من الموضوع والتلبيس على الحقائق والبينات، فقال

---

١. نفس المصدر

مصراً ومؤكداً كذلك: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

أي: هو القائم على تدبير جميع العالم، تدبيراً واحداً مترابطاً متصلاً، على وجه محكم ينتظم به شأن جميع المخلوقات ونافع لها ويحقق غاية وجودها، مما يعلم فرعون ومما لا يعلم، فلا مدبر ولا إله غيره في العالم بأسره، وهذه حجة واضحة وكافية لكم إن كنت يا فرعون ومن معك من أهل العقول تدركون حقيقة العالم وحقيقة أنفسكم. فالذين لا يدركون وحدانية المدبر إذا نظروا إلى الظواهر الكونية والأنفسية و إلى وحدة التدبير واتصاله وترابطه في العالم بأسره وفي جميع الظواهر والمخلوقات، فهم في الحقيقة والواقع محرومون من العقل والفهم والإدراك لحقائق الأمور، وفي ذلك تعريض بفرعون الطاغية الذي سخر منه وأهانه ورماه بالجنون واختلال الكلام، و إن لم يشتغل بالرد عليه بشكل مباشر واللبيب يفهم.

كأنه قال لهم: لو كنتم تفكرون وتعقلون حقائق الأمور والمنطق السليم، لفهمتم أن كلامي حجة كافية وافية ودليل قاطع وبيان واضح على أن القائم بتدبير السماوات والأرض وعالم الإنسانية وجميع المخلوقات، مدبر واحد لا مدبر سواه ولا رب غيره وهو وحده الذي يستحق الطاعة والعبادة لا أحد سواه كفرعون ونحوه، لكنكم في الحقيقة والواقع حمقى لا تعقلون الحقائق الكونية والأنفسية، ولم تعتادوا التفكير المنطقي والعميق في الظواهر والآثار والدلائل، ولا ترونها ببصائركم العمياء المطموسة، فاتهامكم لي بالجنون ليس في محله وأنتم أولى به مني، وكان الأجدر أن تتهموا به

---

١. الشعراء: ٢٨

أنفسكم الظلامية، إذ لا تدركون هذه الدلائل والآثار، ولاتعقلون ما وراءها من الحقائق النورانية العظيمة، ولم تستفيدوا من موعظة أو دليل أو برهان يقال إليكم، والنتيجة: إن فرعون ما هو إلا مخلوق ضعيف كسائر الناس، وعبد خاضع في جميع أحواله لإرادة ربه التكوينية وتدبيره، وهو ليس بإله كما يزعم وليس بيده شيء من التدبير.

تهديد فرعون لموسى وردّه بالحجة

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾

وأمام منطق موسى الكليم عليه السلام القوي والسليم وبيانه المتين والواضح الذي خنق أنفاس فرعون وانقطعت به حجته، وأمام الحقائق البينة الدامغة التي كشف عنها الكليم ونزلت كالصاعقة على فرعون، فزلزلت كيانه وأفقدته هيبته وعجز بيانه ومنطقه عن معارضة ما جاء به موسى الكليم عليه السلام ومقارعة الدليل بالدليل والحجة بالحجة، وأمام ما لمسه فرعون من الثبات وقوة الشكيمة التي تأبى الانقياد لغير الحق لدى موسى الكليم وهارون عليهما السلام لجأ فرعون الضعيف في عقله ومنطقه إلى الخشونة في المقولة وإلى التهديد والوعيد، كما هي عادة الطغاة والفراعنة المستكبرين والمعاندين المحجوجين بقوة الحجة والمنطق، الذين يعتمدون في بسط سلطتهم على منطق القوة والعنف والإكراه وفرض

الأمر الواقع على الناس، فالقتل والسجن والتعذيب وتشريد المعارضين هو السلاح الوحيد منذ القدم لدى هؤلاء الطغاة المستكبرين في مواجهة قوة الحجة والمنطق وعدالة القضية لدى المعارضين المحقين الشرفاء ودعاة الحرية والمطالبين بحقوق الإنسان والحياة الكريمة والمشاركة في صناعة القرار وتحديد المصير.

فقال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[١] فلن ينفعك قوة منطقك وحجتك بشيء، فأنا صاحب القوة والسلطة ولا مكان عندي لقوة الحجة والمنطق، وإنما المكانة لمنطق القوة، والمهم هو الثروة والسلطة والمنافع والامتيازات، وسوف أدافع بكل ما أملك من القوة ووسائل العنف والإرهاب عن مصالحي وأحمي سلطتي وثروتي، وعليه: سأجعلك من الأذلاء المسجونين، وستلاقي في سجني ما تعلمه من أشد صنوف العذاب وتكون فيه في أسوء حال جزاءً لإنكارك ألوهيتي وربوبيتي وما تشكله دعوتك من خطر على ملكي ونظام دولتي ومصالحي في الحياة.

وقيل عبارة: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[٢] أبلغ من قول: لأسجننك، فقد هدده بما كان معهوداً عنده ويعرفه من أحوال المسجونين المعارضين للنظام والملك، وكان من أساليبه في التعذيب: أنه كان يلقي الشخص في حفرة عميقة وحيداً حتى يموت، وهناك ما هو أسوء من ذلك بكثير، ذكرت بعضه في كيفية إعدام زوجته آسية بنت مزاحم رضوان الله عليها.

---

١. الشعراء: ٢٩

٢. نفس المصدر

أراد فرعون بهذا التهديد والوعيد والخشونة في المقال والمنطق الإرهابي أن يردع موسى الكليم عليه السلام ويسكته عن البيان لكي لا يوقظ ضمائر المستمعين ويفتح عقولهم بكلماته الواعية ومنطقه الرصين وليكرهه على التراجع وترك الرسالة وخيانة أمانة العقل والضمير والرسالة.

لم يخشَ موسى الكليم عليه السلام من تهديد فرعون ووعيده ومنطقه الإرهابي العنيف، ولما لم ينفع معه منطق العقل والبرهان، لجأ إلى منطق الإعجاز الإلهي الذي ينقطع معه كل قول، فقال لفرعون بكل ثقة واطمئنان: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾[1] أي: أتفعل ذلك لي حتى وإن كنت محقاً وجئتك بآية ظاهرة جلية واضحة الدلالة قطعية الصدور تتبين بها صدقي، وتحمل الدليل القاطع الذي يزيل عنك كامل الشك في صحة النبوة والرسالة؟! هذا إن كنت تبحث عن الحق وتطلب الدليل عليه ولم تقف مع التعسف والبطش فقط!!

وهذا القول من موسى الكليم عليه السلام يدل على عمق الإيمان بالقضية وعدالتها، وعلى الصمود والثبات في الموقف مهما كانت التضحيات، وعلى الثقة الكاملة بالله عز وجل ونصره ومؤازرته للمؤمنين المخلصين الصادقين في حمل رسالتهم، الذين لديهم كامل الاستعداد للبذل والتضحية بأنفسهم وما يملكون في سبيل دينهم وقضيتهم العادلة في الحياة، وعلى أن تحلّي المجاهدين والدعاة بالصبر والصمود والثبات الممزوج بالحب والرحمة للناس جميعاً لا سيما المستضعفين، يعتبر السلاح الأكثر مضاءً الذي

---

١. الشعراء: ٣٠

يكسر كبرياء الطغاة ويرد كيدهم إلى نحورهم ويقطع ويرد ظلمهم.

وأمام هذه الثقة بالله ﷻ وبالنفس المؤمنة المطمئنة وبسلامة القضية وعدالتها وما أظهره موسى الكليم عليه السلام من التحدي والثبات وقوة المنطق، وجد فرعون نفسه في طريق مسدود لا يمكنه تجاوزه، فليس من الفطنة والكياسة، أن يقول مثلاً: نعم!! سأسجنك وإن جئتني بشيء بيّن يدل على صدق دعواك، فما زال هناك مجال للأخذ والعطاء والمراوغة، فاضطر إلى المرونة وخضع لطرح التحدي، فقال: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1] أي: إن كان عندك دليل يدل على صدق دعواك فأت به!!

فألقى موسى الكليم عليه السلام عصاه فصارت فجأة حية فعلية عظيمة تسعى بحيث لا يشك أحد في كونها حية حقيقية وليست خداعاً أو تمويهاً كما يفعل السحرة، فلم يبقَ أحد من جلساء فرعون إلا هرب خوفاً، ودخل في نفس فرعون من الرعب الكثير فلم يملك نفسه، فقال: يا موسى!! أنشدك بالله وبالرضاع إلا كففتها، فأخذ موسى الكليم عليه السلام العصا فرجعت إلى ما كانت عليه ورجعت إلى فرعون نفسه.

ثم وضع موسى الكليم عليه السلام يده السمراء تحت إبطه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء تتلألأ نوراً عظيماً للناظرين من غير علة أو مرض أو نحوهما.

---

١. الشعراء: ٣١

مغالطة فرعون وتضليله

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾

وهاتان المعجزتان جامعتان للدلالة بوضوح ويقين على وجود الصانع الحكيم المدبر للعالم بأسره، وعلى صدق دعوى النبوة والرسالة وأحقية المطالب السياسية والحقوقية التي تقدم بها موسى الكليم عليه السلام إلى النظام الفرعوني وواقعيتها، يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**في الحقيقة إن هاتين المعجزتين الكبيرتين، إحداهما كانت مظهر الخوف، والأخرى مظهر الأمل، فالأولى تناسب مقام الإنذار، والثانية للبشارة، والأولى تبين عذاب الله، والأخرى نور وآية رحمة! لأن المعجزة ينبغي أن تكون منسجمة مع دعوى النبي عليه السلام**»[1].

إلا أن فرعون لا يهمه في الحقيقة المنطق والبرهان والحقائق، وكل همه السلطة والثروة والمنافع والامتيازات، فأصر على التكذيب ولم يؤمن ولم يلن قلبه ولم يتحرك ضميره، وأمام المشهد المهول الذي استوحشت له نفسه كثيراً واضطربت في الحقيقة، تمالك نفسه، وأظهر قدرة شيطانية كبيرة، فلم يستسلم ولم يخضع، وواجه الحجة والبرهان بالمراوغة والخديعة والبهتان، فقال للذين حوله بهدف تضليلهم ورفع معنوياتهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[2] يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره.

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ١١، صفحة ٢٣٤

٢. الشعراء: ٣٤

أي: اتهم موسى الكليم عليه السلام بأنه ساحر حاذق بارع في السحر، فما جاء به مجرد سحر وليس معجزة، قال ذلك لعلمه بضعف عقولهم ولعلمه بأن المتقرر عندهم أن السحرة يأتون من العجائب الخارقة للعادة ما لا يقدر عليه الناس، وعليه: فمن المقبول عندهم توجيه المعجزة وتقديمها على أنها من السحر، وكان قبل لحظات يصف موسى الكليم عليه السلام بالجنون، وفجأة يعبر عنه بالعالم!! فهذا هو طريق الطغاة والفراعنة المتجبرين في الفهم والتفسير، فهو لا يقوم على المنطق والحقائق، وإنما يقوم على الإرهاب وفرض الأمر الواقع، وهم يعلمون بأن الذين حولهم من النفعيين والانتهازيين سوف يقبلون منهم؛ لأنهم لا يقيمون وزناً للمنطق والحقائق والمبادئ، وإنما يهتمون فقط بتأمين مصالحهم العاجلة ولو كان ذلك على حساب المنطق والحقائق والمبادئ وحقوق الإنسان والمصالح العامة الوطنية والقومية والإنسانية، ثم يتملقون إلى الفراعنة ويزينون لهم ما يفعلون.

ومن أجل تخويف قومه عموماً والذين حوله خصوصاً وإثارة حفيظتهم وتحريضهم ضد موسى الكليم عليه السلام ورسالته وتعبئتهم ضده، قال: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾[1] أي: إن لموسى الكليم عليه السلام هدفاً سياسياً خبيثاً من وراء ما جاء به من السحر، وهو التوصل إلى إسقاط النظام الملكي الفرعوني القائم، وإخراج الأقباط قاطبة من أرضهم ووطنهم الذي ولدوا وأقاموا فيه، وفيه أملاكهم وقوام حياتهم ولا يعرفون وطناً غيره، ليستأثر هو وقومه بالسلطة والثروة، ويحرموا منها الأقباط بشكل مطلق، وعليه: فما

١. الشعراء: ٣٥

جاء به موسى الكليم عليه السلام مجرد سحر ولا علاقة له بالإعجاز ولا يحمل الدليل على ربوبية ما يزعم موسى عليه السلام أنه رب العالمين، ولا على ما يزعم من النبوة والرسالة، وأن له وراء ذلك أهدافاً سياسية انقلابية خبيثة، وأن المعجزة والدين والهداية مجرد غطاء يغطي به أهدافه السياسية الخبيثة؛ ليخدع بذلك الناس ويضلهم عن الدين الذي ورثوه من آبائهم وأجدادهم، وقام عليه نظام دولتهم وحكومتهم، وعليه: ينبغي عليكم الحذر الشديد منه ومن ألاعيبه السياسية وأن تتفقوا على مواجهته بكل حيلة ووسيلة ممكنة.

وبعد أن وجه فرعون الذين حوله إلى الوجهة التي يريد أن يفهموا ما جاء به موسى الكليم عليه السلام، قال: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[1] أي: بماذا تأمرون وتشيرون عليّ به في معاملة موسى عليه السلام ولمواجهته والقضاء عليه وعلى دعوته التي تهدد نظام دولتكم وحكومتكم وتاريخكم ومصالحكم الجوهرية في الحياة، فهو في الحقيقة والواقع لم يناقشهم ولم يسمع رأيهم في إمكان صدق ما جاء به موسى الكليم عليه السلام ولم يطلب رأيهم في ذلك، و إنما أصدر حكمه في ذلك، وحثهم على مسايرته فيه، وأن يتفقوا معه ويتضامنوا على دفعه والقضاء عليه بكل حيلة ووسيلة ممكنة.

أي: إنه طلب منهم أن يشيروا عليه بما تكون به المواجهة مع موسى الكليم عليه السلام والقضاء عليه وعلى دعوته ورسالته بشكل ناجح، وأراد أن يشعر قومه بوحدة المصير التي تجمع بينهم وبينه، وضرورة التضامن في

---

١. نفس المصدر

مواجهة الخطر الداهم، وتجنب الاختلاف في الأمر والموقف، والحذر من التراخي في المواجهة، وقيل: إن مخاطبة فرعون من حوله، بقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[١] وكان يقدر عددهم بخمسمائة نفر، مع أنه يزعم بأنه ربهم الأعلى ويتكلم بذلك قبل ساعة ويزعم أنهم عبيده ولم يكن مستعداً لأن يصغي لكلام أحد منهم أو من غيرهم، فإذا به يتنازل عن غروره وكبريائه ويعود إلى طبيعته الإنسانية ويعبر عن ضعفه وحاجته للذين حوله، مما يدل على أن سلطان المعجزة قد هزه وأذهله حتى حطه عن دعوى الربوبية إلى القول بمؤامرة موسى عليه السلام وقومه، وأفقده صوابه ومنطقه، فغفل عن تكبره واستعلائه ومزاعمه، وغشيته المسكنة والفقر، فلم يدر ماذا يقول ولا كيف يتكلم، فأخذ يستدعي قومه.

هذا هو مسلك الطغاة الجبابرة و الفراعنة، إذا أقبلت عليهم الدنيا يزعمون أن الدولة ملك مطلق لهم والحكومة استحقاق لهم دون غيرهم من الناس، ويعدون الجميع عبيدهم، وينسبون كل إنجازات الدولة ونجاحات أبناء الشعب و إنجازاتهم لأنفسهم وبفضل مكارمهم وتوجيهاتهم السديدة، ولا يفهمون شيئاً سوى الاستبداد ومنطق القوة والإرهاب لاخضاع أبناء الشعب لسلطتهم و إرادتهم وخدمة مصالحهم والتأمين على آرائهم وتوجهاتهم السياسية والاقتصادية والثقافية في إدارة البلاد، وحين تهتز عروشهم تحت تأثير عوامل داخلية أو خارجية، ينزلون مؤقتاً عن استبدادهم ويلجأون إلى أبناء الشعب، ويتملقون إليهم ويتوددون ويظهرون لهم الاحترام والتقدير والتعظيم نفاقاً وكذباً، ويتحدثون باسم الشعب، فالأرض أرض الشعب،

١. نفس المصدر

والثروة ثروة الشعب، والشعب مصدر جميع السلطات، ونحو ذلك، حتى ينتهي الطوفان وتنقضي الأزمة، فيعودون إلى طبيعتهم الأولى في الاستبداد والإرهاب والطغيان وانتهاك الحقوق الطبيعية والمكتسبة لأبناء الشعب ونهب الثروة ونحو ذلك.

وقد سايره قومه فعلاً وقبلوا قوله وتفسيره لما جاء به موسى الكليم عليه السلام وأهدافه السياسية من وراء ذلك. ثم أشاروا عليه بقولهم: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[1] أي: أمهل موسى وأخاه هارون عليه السلام ولا تعجل عليهما بسجن أو نحوه، وعارض سحرهما بسحر مثله حتى تقيم عليهما الحجة ولا يتعاطف معهما أحد من الموالين للنظام والملك بحجة المظلومية حين تقتص منهم.

وعليه: ابعث من ضباط الجيش والجنود إلى كافة المدائن في مصر جامعين يأتوك بكل ساحر عليم حاذق، يتفوق على موسى الكليم عليه السلام في المعرفة بفنون السحر وأسراره وحقيقته وبارع فيه عملياً، فيبارزون موسى عليه السلام في السحر وينتصرون عليه ويثبتون بذلك كذب دعواه، ثم تعمد بعد ذلك إلى تصفية موسى وهارون عليه السلام وكل من يؤمن بدعوتهما من بني إسرائيل وغيرهم بدون أن يتعاطف معهم أحد من الموالين للنظام والملك، بسبب قيام الحجة عليهم.

والإشارة على فرعون من ملئه بمبارزة موسى الكليم عليه السلام بالسحرة، هو في الحقيقة من لطف الله عز وجل ومخفي مكره بالظالمين، حيث تتاح بهذه

١. الشعراء: ٣٦-٣٧

الوسيلة الفرصة الكافية اللازمة لموسى الكليم عليه السلام لكي يكشف لكل الناس الباحثين عن الحقيقة والطالبين لها حقيقة ما جاء به من عند الله رب العالمين، وينكشف لهم بطلان ما موّه به فرعون عليهم وأضلهم به عن الحق، إذ أوهمهم بأن ما جاء به هو من السحر ولأهداف سياسية، فقد تكفل فرعون بجمع أهل المهارة والفن في السحر، وحشر الناس لينعقد المجلس وتكون المبارزة في حضرة الخلق العظيم، ليظهر الحق جلياً واضحاً ويزهق الباطل في المبارزة التاريخية الفاصلة، ويقر أهل الفن بأن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام هو معجزة إلهية وليس بسحر.

الجدير بالذكر: أن الله سبحانه وتعالى قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[١] أي: إن القائل هم قوم فرعون، وهنا في سورة الشعراء، يقول: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[٢] أي: إن القائل هو فرعون نفسه، ووجه الجمع كما قال به العلماء: أن فرعون هو الذي ابتدأ وأنشأ هذا القول وخاطب به ملأه، ثم آمن الملأ من قومه على قوله وصدقوه وأخذوا يتبادلونه ويرددونه فيما بينهم تقليداً له كما هو دأب الأتباع المتملقين في تقليد رؤسائهم في كل شيء وعنايتهم بأقوالهم وحفظها والاستشهاد بها، الأمر الذي يترتب عليه تعزيز الباطل والظلم والرذيلة وضياع الحق والعدل والحقوق والفضيلة، مما يدل على أن وجود المتملقين والانتهازيين والنفعيين وبطانة السوء التي تحوط بالحكام الطغاة والمترفين والمتنفذين، هم في الحقيقة كمرض السرطان في جسم

١. الأعراف: ١٠٩

٢. الشعراء: ٣٤

الأمة، وقد صدق الرسول الأعظم الأكرم ﷺ إذ يقول: «أفضل الجهاد: كلمة عدل أمام سلطان جائر» وفي حديث آخر: «أحب الجهاد عند الله عزّ وجلّ: كلمة حق تقال لإمام جائر»[1].

١. كنز العمال، الحديثين: ٥٥٧٦ - ٥٥١٠

الفصل الثالث: المبارزة التاريخية الفاصلة

قول الله تعالى:

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا
نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا
إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا
أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ
مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي
عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ
كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]

---

١. الشعراء: ٣٨-٥١

جمع السحرة والحشد الإعلامي للمبارزة

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾

عمل فرعون بما اقترحه عليه حاشيته وأهل مشورته، فلما أصبح أرسل أعوانه من ضباط الجيش وجنوده إلى مدائن مصر كلها يجمعون له كل ساحر عليم حاذق في فنون السحر وعالم بأسراره وخباياه ودقائقه، وقد بذلوا قصارى جهودهم في هذا الصدد، فجمعوا الكثير من السحرة، قيل: جمعوا ألف ساحر، واختاروا من الألف مائة، ثم اختاروا من المائة ثمانين لمبارزة موسى الكليم عليه السلام ومباراته بسحرهم، وهيأوا الميدان ووفروا كافة الظروف والمستلزمات للمبارزة التاريخية الفاصلة وخطورة ما ينجم عنها على فرعون ونظامه، وعلى موسى وهارون عليهما السلام وبني إسرائيل، وعلى الأقباط وجميع سكان مصر والمقيمين.

وفي الزمان والمكان المعلومين، احتشدت الجماهير الغفيرة، وحضر السحرة المهرة الذين جمعهم فرعون عن طريق أعوانه من ضباط الجيش وجنوده، وكان اليوم الموعود الذي اتفق موسى عليه السلام مع فرعون على جعله ميقاتاً للمبارزة، ليثبت حقيقة ما جاء به موسى عليه السلام و ادعى استناداً إليه النبوة وحمل الرسالة من رب العالمين، هو يوم الزينة، أي: يوم العيد، ويظن أنه يوم وفاء النيل، وهو أعظم أعياد أهل مصر، يتفرغ فيه الناس من أشغالهم، وقد اختير أن يكون الوقت ضحى؛ لأن الرؤية تكون واضحة، ولاتكون حرارة الشمس شديدة فتؤذي المجتمعين، مما يوفر ظروف أفضل

لاجتماع أكبر عدد من الناس، حيث إن اليوم يوم عطلة رسمية، والرؤية واضحة، وحرارة الشمس غير مؤذية، وتوظيف الزخم المعنوي للعيد لحث الناس على الحضور.

يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**وواضح أن وجود المترفين كلما كان أكثر، شد من أزر الطرف المبارز، وكان مدعاة لأن يبذل أقصى جهده، كما أنه يزيد من معنوياته، وعندما ينتصر الطرف المبارز يستطيع أن يثير الصخب والضجيج إلى درجة يتوارى بها خصمه، كما أن وجود المتفرجين الموالين بإمكانه أن يضعف من روحية الطرف المواجه (الخصم) فلا يدعه ينتصر**»[1] والجماهير لا يحتاجون في الحقيقة والواقع إلى من يحثهم على الحضور لمثل هذه المبارزة التاريخية، فإنهم يتلهفون ويميلون وينساقون إليها بفطرتهم.

وعبارة: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾[2] تدل على التخيير والترغيب في نفس الوقت؛ لأن السعي لإجبار الناس على أمر ما، ينفرهم منه ويقلل من اهتمامهم به بحسب فطرتهم، والإثارة مع إعطاء الاختيار يثير المزيد من الاهتمام، وهذا ما أراده فرعون وأعوانه وعملوا من أجله، وهذا يدل على ثقة فرعون وملئه البالغة في الانتصار على موسى الكليم عليه السلام وهزيمته؛ لأنهم يعتقدون أن موسى الكليم عليه السلام مجرد ساحر، أو هكذا وصفوه وقالوا عنه، وقدموه إلى الناس، وعليه: فمهما بلغت خبرته ومهارته وحذقه في

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ١١، صفحة ٢٣٧

٢. الشعراء: ٣٩

فنون السحر ومعرفته بأسراره وخباياه ودقائقه، فهو لن يستطيع أن يواجه أمهر السحرة في مصر والعالم بأسره وينتصر عليهم، وهو واحد وهم كثر، وقد قيل: إن عددهم ثمانون ساحراً، وقيل: كان عددهم أكثر من ذلك بكثير.

ولولا هذه الثقة الزائدة العمياء في الانتصار على موسى الكليم عليه السلام وهزيمته، لما وافقوا أصلاً على المبارزة، فضلاً عن أن تكون في يوم العيد العام، وأمام الجماهير الغفيرة المحتشدة في الميدان، وفي أفضل الظروف وأكثرها ملاءمة، ولهذه الثقة الزائدة، حثوا الجماهير وحرضوهم على الحضور في الزمان والمكان المعلومين، ليروا بأم أعينهم عاقبة موسى وهارون عليهما السلام وهزيمتهم وافتضاح أمرهم على أيدي السحرة الوطنيين الشرفاء، وليعرفوا فضيلة صناعة السحر وأهميته العظيمة في الحياة العامة الدينية والمدنية، ويثبت أمام الجماهير المحتشدة بالدليل كذب موسى وهارون عليهما السلام في دعوى النبوة والرسالة، فلا يؤمن بهما أحد أبداً.

وعبارة: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾[1] فيها تحفيز كبير للسحرة على الاهتمام وبذل أقصى جهودهم في المغالبة وتحقيق الانتصار، وتحمل الأمل في الانتصار، ولكنها في نفس الوقت، تعلق اتباع السحرة على انتصارهم وليس مطلقاً، أي: تعليق الأمر والموقف على إرادة فرعون، وليس على ذات الحقيقة أو الدليل والبرهان وقيام الحجة الواضحة، فلا قيمة للحق في ذاته، ولاقيمة للحجة والدليل والبرهان في قبال إرادة

---

١. الشعراء: ٤٠

فرعون ورغبته وتقريره، فالحق والصواب هو فقط ما يريده فرعون ويرغب فيه ويقرره لا غير، وهذا هو عين ما تدعو إليه المدرسة الفلسفية النفعية، وهي مدرسة فلسفية قديمة حديثة، تنزع القيمة كلياً عن الحقيقة في ذاتها، وتفصل بين سعادة الإنسان وخيره ومصلحته (المنفعة) التي تتعلق بالمعرفة، ويضيف الطغاة المستكبرون، والفراعنة المتجبرون إرادة الحاكم المستبد المطلقة في تجديد قيمة الحقائق، وعليه: فقد اعتبروا انتصار السحرة دليلاً على صحة دينهم وجدارة اتباعهم، أما إذا لم يغلبوا فلا يعني ذلك صحة دين موسى الكليم عليه السلام وجدارة اتباعه؛ لأن المسألة في الحالتين ليست مسألة حق ودليل وبرهان وقيام الحجة، ولكن المسألة هي إرادة فرعون ورغبته وما يقرره، وفي التعبير أيضاً: التصميم على عدم اتباع موسى الكليم عليه السلام في جميع الأحوال، وهذا كله أبعد ما يكون عن الموضوعية والنزاهة والحياد، وفيه استخفاف واضح من فرعون بعقول قومه ومصيرهم وإرادتهم، ولو كانوا منصفين وباحثين عن الحقيقة وطالبين لها، لقالوا: لعلنا نعرف الحق والصواب في الأمر، ونتبع المحق السحرة أو موسى عليه السلام فذلك مطلوبنا وغاية مرامنا في الحياة.

إلا أن المؤسف حقاً وجود أناس من المتملقين وضعفاء العقول والأحلام حول الفراعنة والطغاة والحكام الظلمة، في كل عصر ومصر، بحيث لو قال لهم الحاكم عن شيء على خلاف الحقيقة بحسب ما هو معلوم لديهم بالضرورة، لصدقوه وقبلوه منه، واستنكروا على المعارضين الشرفاء مخالفته وإيمانهم بالحق البين استناداً على الدليل الواضح والبرهان الساطع والحجة الباهرة، مما يجعل هؤلاء المنافقين المتملقين بمثابة

مرض السرطان الخبيث في جسم الأمة، وأساس الفساد والظلم في الأرض.

ما أراده فرعون وأعوانه من اجتماع أكبر عدد من الناس في أفضل الظروف وأكثرها ملاءمة لمشاهدة المبارزة التاريخية الفاصلة، هو عين ما كان يريده موسى الكليم وهارون عليهما السلام ليحق الحق ويبطل الباطل، وليشرق نور الإيمان في القلوب، وتظهر آيات الله تبارك وتعالى، وتبين كيد فرعون وكذبه وفساد نظامه بمرأى عام من الناس، ولتظهر الحقيقة بكل جلاء ووضوح ويروها بأم أعينهم، لا أن يسمعوا عنها مشوهة عن طريق وسائل الإعلام الفرعوني التي تضلهم وتخفي عنهم الحقيقة وتبعدهم عنها، وتصور لهم الحق باطلاً والباطل حقاً، وذلك لعلمه ويقينه بأن ما عنده وما جاء به من عند الله سبحانه وتعالى هو حق حقيق، وأن حجة الله عز وجل هي الغالبة حتماً، وحجة الكافرين هي الداحضة.

وعليه: فما اقترحه ملأ فرعون عليه من مبارزة موسى عليه السلام بالسحرة، وما سعوا إليه من جمع أكبر عدد ممكن من الناس وحشدهم في ميدان المبارزة وتوفير أفضل الظروف للمشاهدة، هو في الحقيقة من لطف الله تبارك وتعالى ورعايته ومكره الخفي؛ لكي تظهر حقيقة دعوى موسى الكليم عليه السلام وتنكشف حقيقة النظام الملكي الفرعوني وكذبه وفساده، ويعلم بذلك جميع أهل مصر من الأقباط وبني إسرائيل وغيرهم، ولا يستطيع النظام الفرعوني و إعلامه أن يستر الحقيقة، وتقام الحجة التامة على فرعون وملئه وجميع الناس، وتحسن معاقبة المعاندين والانتقام منهم على كفرهم وعنادهم واستكبارهم على الحق والفضيلة.

طلب السحرة الأجر على عملهم من فرعون

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

وفي ساحة المنازلة، توجه السحرة إلى فرعون بالقول: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الغالبين﴾[1] أي: قد علمت يا فرعون أنه ليس في الدنيا من هو أسحر منا، وإننا نحن الظاهرون والمنتصرون على موسى عليه السلام قطعاً في هذه المبارزة، فهل لنا من مكافأة على ذلك فقد كان السحرة واثقين من انتصارهم وظهورهم بالسحر على موسى الكليم عليه السلام إذا كانت المسألة مسألة سحر وليست معجزة تقف وراءها قدرة إلهية غير محدودة حيث لا قبل لهم بها بما هم سحرة، فالسحرة كانوا يميزون بوضوح تام بين السحر والمعجزة، وعليه: سألوا فرعون وساوموه على الأجر الجزيل والثواب العظيم من مال ونحوه جزاء عملهم وانتصارهم على موسى وهارون عليهما السلام والقضاء على الخطر والتهديد المحدقين بالنظام والحكومة، وكانوا يحلمون كثيراً بجائزة كبرى، فقالوا له: ما لنا عندك جزاء عملنا؟

ولأن فرعون كان قلقاً جداً ومضطرب البال وفي طريق مسدود وفي غاية الخوف على نظامه وملكه، فقد كان مستعداً لأن يمنح السحرة الكثير من المكافأت والامتيازات إذا هم انتصروا على موسى وهارون عليهما السلام؛ لأنه كان يرى في هذا الانتصار طوق النجاة لنظامه المشرف على الانهيار ولملكه المشرف على الزوال إلى الأبد، فأجابهم بالرضا والقبول، فقال: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ

---

١. الشعراء: ٤١

إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[1] أي: وعدهم والتزم لهم بأكثر مما طلبوا ورغبوا فيه، فقد وعدهم بأن يمنحهم أجراً كبيراً على عملهم، وأضاف على ذلك: وعدهم بأن يجعلهم من المقربين من ساحة الملك، حيث يعتبر التقرب من فرعون وساحة ملكه التي هي مصدر القدرة والامتيازات في ذلك المحيط والنظام الفرعوني في غاية الأهمية، بحيث يعد أجراً عظيماً وكسباً نوعياً متميزاً جداً، ذلك يتطلب أن يحدث فرعون تغييراً في النظام الطبقي في الدولة والمجتمع، بحيث يجعلهم وفقاً للتغيير الجديد في مكانة ومنزلة أرفع من مكانتهم ومنزلتهم السابقين، وأن يجعلهم مقربين منه أكثر و أصحاب امتيازات دينية ومدنية أكبر.

وهذا التغيير في النظام الطبقي ورفع منزلة السحرة فيه وتقريبهم من ساحة الملك، أكثر إغراءً لهم من المال؛ لكي يزداد نشاطهم، وتكبر همتهم، ويأتوا بكل مقدورهم، ويبذلوا أقصى جهودهم في معارضة ما جاء به موسى الكليم عليه السلام والانتصار عليه؛ لأن النفس تميل في العادة إلى الجاه والمكانة والمناصب أكثر من المال، والإنسان قد يبذل الكثير من ماله رياءً وسمعة من أجل الجاه والمنصب والمكانة والسلطة والأمر على الناس، وعليه: فإن يصل المرء إلى مقربة من ساحة الملك ونفسه يعد أجراً عظيماً جداً في النظام الملكي الفرعوني، ويعتبر ذلك الأجر الفرعوني للحسرة اعترافاً منه بعظيم الخطر الذي يشكله موسى الكليم عليه السلام ودعوته على النظام والحكومة، وعظيم الخدمة التي يقدمها السحرة للنظام والحكومة ولذات فرعون بانتصارهم على موسى عليه السلام، يستحقون عليها الأجر النوعي العظيم.

---

١. الشعراء: ٤٢

الانتصار التاريخي وإيمان السحرة

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾

فلما واجه موسى الكليم عليه السلام في ساحة المواجهة، والناس محتشدون بحضور فرعون وملئه، وكان فرعون وهامان يجلسان في قبة قد ألبست الحديد والفولاذ المصقول بحيث إذا وقعت الشمس عليها لم يقدر أحد أن ينظر إليها من لمع الحديد ووهج الشمس، وقد أعطى السحرة موسى الكليم عليه السلام الاختيار في الابتداء بالإلقاء، أو يعطيهم هم فرصة الابتداء بالإلقاء، وذلك يدل منهم على الثقة التامة بالغلبة والانتصار على موسى الكليم عليه السلام إن كانت المسألة مسألة سحر وليست معجزة إلهية، أما إذا كانت المسألة مسألة معجزة تقف وراءها قدرة إلهية مطلقة وغير محدودة، فلا قبل لهم بها، ولن يغير التقدم والتأخر شيئاً في النتيجة.

فقال موسى الكليم عليه السلام للسحرة بعد أن وعظهم وحذرهم من سوء العاقبة جراء الكذب والافتراء على الله سبحانه وتعالى ومعاندة الحق: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾[1] أي: ألقوا ما شئتم من الحبال والعصي وغيرها، واعملوا ما في وسعكم من التمويه والخداع، وابذلوا أقصى جهدكم، وأخرجوا كافة ما لديكم من العلم والخبرة في فنون السحر وصناعته، ولم يقيدهم أو يشترط عليهم شيئاً، وأكد لهم أنهم مغلوبون ومهزومون لا محالة في جميع

١. الشعراء: ٤٣

الأحوال، مما يدل على أنه كان في غاية الثقة والاطمئنان والهدوء النفسي والسكينة والوقار أمام ذلك الحشد البشري الهائل، والتحدي العظيم من الأعداء، وما يمثله السحرة بكثرتهم الكبيرة وبما يتمتعون به من المهارة والحذق بالسحر من خطر عظيم على الدين والرسالة.

وكان ذلك منه؛ لأنه كان على اتصال بالقدرة الإلهية المطلقة، ولجزمه ببطلان ما عند السحرة، وأنه يقوم على الحيلة والتمويه والخداع بحيث يسحرون أعين الناس لمعارضة الحق الإلهي المبين، وأن ما عنده معجزة إلهية لها حقيقة واقعية فعلية في الخارج، وأنها فوق الطبيعة وفوق قدرة البشر، وأن حجة الله ﷻ فوق كل حجة.

وقد أراد بذلك: أن يقهر السحرة ويثبت لهم بما لا يدع مجالاً للشك، أن ما جاء به آية إلهية، وليس من جنس السحر، ولا شيء مما يمكنهم معارضته والغلبة أو الظهور والانتصار عليه، وفيه دلالة على الثقة التامة بربه، ورغم أن ابتداء السحرة بالإلقاء يعطيهم فرصة أفضل للتأثير في الناس وكسب تأييدهم، إلا أنه كان جازماً بأن ذلك لن يغير شيئاً في النتيجة كما وعده ربه، فسوف تظهر الحقيقة وتنجلي بوضوح ويعرفها الجميع، ولن تلتبس على الذين يبحثون عنها ويطلبونها.

وقد تأثر السحرة بموعظة موسى الكليم عليه السلام لهم، فتنازعوا فيما بينهم وتخاصموا، مما حمل فرعون على التدخل وحثهم على الثبات في المواجهة، وعدم التراجع والانسحاب قبل أن تبدأ المعركة، فاستجابوا لحث فرعون وتشجيعه إياهم، فألقوا حبالهم وعصيهم، قائلين عند الإلقاء: ﴿بِعِزَّةِ

فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُون﴾[١] أي: إنهم جزموا بأن الغلبة والانتصار لهم على موسى الكليم عليه السلام وأقسموا على الغلبة بعزة فرعون وعظمته، ثقة منهم بما كان لديهم من العلم والخبرة بفنون السحر والحذق فيه، وعزمهم على أن يأتوا بأقصى ما عندهم من الجهد والعلم والخبرة لتحقيق الغلبة والنصر.

ولأنهم كثر وموسى عليه السلام واحد، فإذا بذلوا جهدهم، فإن الغلبة والنصر لهم لا محالة في تقديرهم، وقسمهم بعزة فرعون وعظمته يأتي تملقاً منهم لفرعون، أو لاعتقادهم ظاهراً بأن فرعون هو ربهم الأعلى، وبيده أمر تدبير عالم مصر وأهلها، فقد جروا على ما هو مألوف ورسمي في النظام الملكي الفرعوني، وغرتهم أبهته وبهرجة النظام وأضلهم إعلامه، ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر وما وراء البهرجة والمظاهر الزائفة، متجاهلين حقيقة أنه استنجدهم، مما يدل على ضعفه وافتقاره إليهم في مواجهة موسى الكليم عليه السلام والقضاء على دعوته وما تشكله من خطر داهم على النظام والدولة وشخص فرعون وملكه، الأمر الذي يتنافى مع الألوهية والربوبية الحقيقية الصادقة، ويجعله كسائر الناس وفي درجتهم ومنزلتهم البشرية.

وقد بذل السحرة أقصى جهودهم للانتصار، وقد اختاروا العصي؛ لأنها من جنس عصا موسى الكليم عليه السلام، وأضافوا عليها الحبال؛ ليثبتوا علومهم وفضل قدرتهم على موسى الكليم عليه السلام، فخيل إلى موسى الكليم وهارون عليهما السلام ولجميع من حضر المشهد من فرط سحرهم وعظمته، أن العصي والحبال تتحرك وتسعى نحوهم، وتملأ قلوب من يراها خوفاً ورعباً لهول ما يرون.

---

١. الشعراء: ٤٤

وعليه: ابتهج فرعون وقومه، وتهللت وجوههم فرحاً وسروراً، وأشرق الأمل في عيونهم، وظهرت في نفوسهم لذة الظفر، وأيقنوا بنجاح السحرة وتغلبهم على موسى الكليم عليه السلام، فلم يبق لموسى الكليم عليه السلام أية فرصة للتفوق، وعرف ذلك في وجوههم، ولم يخف على المشاهدين، حتى أن موسى الكليم عليه السلام تحرك في نفسه شيء من الخوف، بأن ينخدع الناس ويترك سحر السحرة العظيم في نفوسهم تأثيراً يصعب إزالته، إلا أن ذلك الخوف لم يؤثر في شيء من سلوكه أو تصرفاته، وقد طمأنه ربه عز وجل، وأزال خوفه ووعده بأنه هو المنتصر، وأن الحقيقة سوف تظهر جلية واضحة لكل المشاهدين، ولن تلتبس على أحد ممن يبحث عنها ويطلبها بالدليل والحجة والبرهان، بقوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾[1].

وأمره بأن يلقي ما في يده، فألقى موسى الكليم عليه السلام عصاه، وفجأة انقلبت إلى حية (ثعبان) فعلية عظيمة، وأخذت تبتلع بسرعة مذهلة ما جاء به السحرة وسحروا به أعين الناس من الحبال والعصي وغيرها، فعلت وجوه الحاضرين دهشة لهول المشهد، وجمدت العيون في الأحداق، وتبدل كل شيء وانقلب الأمر على عقب، وانفجر الميدان بذعر المتفرجين وصراخهم، ففر خلق كثير خوفاً ورعباً لما رأوه من عظم الحية وهولها وعظيم صنيعها مما لم تر أعينهم من قبل ولا وصف الواصفين مثله، حتى وطئ الناس المنهزمون بعضهم بعضاً، وبقى آخرون في أماكنهم يترقبون نهاية المشهد وهم مدهوشون.

---

١. طه: ٦٨

وهذه نتيجة حتمية، كانت معروفة على وجه اليقين لدى موسى الكليم وهارون عليهما السلام ويحكم بها العقل والمنطق ويتوقعها العقلاء؛ لأن تحول عصا موسى الكليم عليه السلام إلى حية عظيمة، حقيقة فعلية تقف وراءها القدرة الإلهية المطلقة، وتحول عصي وحبال السحرة إلى حيات تسعى مجرد وهم في إدراك المشاهدين يقوم على التمويه والخداع ولا حقيقة له وراء ذلك، ولا يمكن للأوهام أن تقاوم الحق الحقيق وتنتصر عليه، ولا يمكن لأفك الكافرين أن يدحض حجة رب العالمين، وبذلك ظهرت الحقيقة بكل جلاء ووضوح، وميّز جميع من حضر المشهد وشاهد ما حدث بين السحر الذي يقوم على الخداع والتمويه، وبين المعجزة الإلهية التي تمثل حقيقة فعلية تستند إلى القدرة الإلهية المطلقة.

وبعبارة: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾[1] تعني: أن السحر يقوم على التمويه والخداع والحيلة وصرف الشيء وإخراجه في الظاهر عن وجهه وصورته الحقيقة الواقعية بتمويه وتزوير، إلى صورة وهمية خيالية لا حقيقة لها ولا واقع، فيخيلون بالتمويه والخداع والحيلة عصيهم وحبالهم في أعين الناس وإدراكهم الحسي أنها حيات تسعى بدون أن تكون في الحقيقة والواقع كذلك، وعليه: يتخيله الناس ويظهر في أعينهم وإدراكهم الحسي بسبب ما يقوم به السحرة من الحيلة والتمويه والخداع للناس.

رأى السحرة ما رأوا من صنيع عصا موسى الكليم عليه السلام في سحرهم، فثابوا إلى رشدهم، ولأنهم كانوا عارفين بقضايا السحر ودقائقه وأسراره وخباياه،

---

١. الشعراء: ٤٥

فقد عرفوا وتيقنوا حقيقة ما جاء به موسى الكليم عليه السلام وأن عصاه آية عظيمة من آيات الله عز وجل، ومعجزة تنبئ بصدق نبوة موسى الكليم وأخيه ووزيره هارون عليه السلام وبصدق رسالتهما من رب العالمين سبحانه وتعالى، وبعدالة قضيتهما ومطالبهما السياسية الواقعية من النظام الملكي الفرعوني الفاسد والظالم والمنتهك لحقوق الإنسان والمواطنين، وليست من جنس السحر وفنونه التي تكتسب بالتعليم والخبرة، وتقوم على الحيلة والتمويه والخداع، ولا حقيقة فعلية ولا واقع لها.

أي: عرفوا وتيقنوا بأن تحول عصا موسى الكليم عليه السلام إلى ثعبان عظيم وابتلاعه جميع ما أتوا به من السحر، هو حقيقة فعلية وآية باهرة ومعجزة عظيمة تقف وراءها قدرة إلهية مطلقة وغير محدودة، وأنها فوق الطبيعة وفوق قدرة البشر، ولا يمكن أن يؤتى بمثلها عن طريق التعليم والخبرة؛ لأنها من فعل القدرة الإلهية المطلقة التي تقدر على كل شيء، والتي تحيي وتميت وتقول للشيء كن فيكون، ولا شيء بحسب العقل والمنطق غير ذلك، فلم يتمالكوا أنفسهم وخروا على الأرض ساجدين لله رب العالمين ذي الجلال والإكرام سبحانه.

وعبارة: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾[1] تدل على عمق التأثر ومنتهى الجاذبية التي أحدثتها معجزة موسى الكليم عليه السلام في نفوس السحرة، حتى كأنهم أخذوا فطرحوا على وجوههم طرحاً وسجدوا لله رب العالمين بدون اختيارهم، وقيل: إن الله تبارك وتعالى ألهمهم ذلك، وقد فعلوا ما فعلوا

---

١. الشعراء: ٤٦

من السجود لرب العالمين لتجلي قدرته وجلاله وجماله لهم، وبفضل ما خولهم من التوفيق والتسديد، لأجل صدقهم و إخلاصهم للحقيقة وبحثهم عنها وطلبهم إياها عن طريق الحجة والبرهان الصحيح، ولأجل قابلية قلوبهم وما كانوا يتمتعون به من الاستعداد وليس اعتباطاً، وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] أي: آمنوا بتوحيد الله سبحانه وتعالى، وسجدوا له وحده لا شريك له، وصدقوا نبوة موسى وهارون عليهما السلام ورسالتهما التي من رب العالمين وبعدالة قضيتهما ومطالبهما السياسية الواقعية من النظام الملكي الفرعوني.

ولكي لا يلتبس الأمر على السامعين والمشاهدين، ولئلا يظن البعض أن مرادهم من رب العالمين هو فرعون، ولكي لا يبقى أي مجال للإبهام والغموض والتردد، ولكي لا يتركوا أية فرصة لدى فرعون و إعلامه المضلل للتحريف، قالوا شارحين ومبينين لمرادهم برب العالمين: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾[2] أي: خالق السماوات والأرض وما بينهما وربهما، ورب عالم الإنسانية بأسرها، ورب فرعون نفسه، وفي قولهم: إشعار بأن الموجب لإيمانهم هو ما أجراه الله عز وجل على أيدي موسى الكليم وأخيه ووزيره هارون عليهما السلام وأنهما شريكان في النبوة والرسالة فلا يجوز الإيمان بأحدهما دون الآخر، والتصديق بعدالة قضيتهما ومطالبهما السياسية من النظام الملكي الفرعوني.

١. الشعراء: ٤٧

٢. الشعراء: ٤٨

وفيه أيضاً: تعريض بفرعون الطاغية، وأنه ليس بإله ولا رب وليس بيده شيء من الخلق والتدبير للكون وعالم الإنسانية، وأنه مخلوق وضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولاضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وأنه لا يستحق الطاعة والعبادة؛ لأن الإله والرب في الحقيقة واحد، وهو رب العالمين، الذي خلق العالم والقائم على تدبيره، والذي يتمتع بالحكمة والقدرة المطلقة، وهو وحده الذي يستحق الطاعة والعبادة، وفرعون مخلوق لهذا الرب العظيم، وخاضع لإرادته وتدبيره، وضعيف وعاجز من كل وجه أمام قدرته المطلقة، إلا أنه مغرور، وقد تجبر وادعى ما ليس له بحق من الألوهية والربوبية والملك، وهذا بين وواضح من المبارزة بين السحرة وبين موسى الكليم عليه السلام ونتائجها المخيبة لآمال فرعون وملئه، حيث استنجد فرعون بالسحرة لمواجهة موسى الكليم عليه السلام والقضاء على دعوته وما تمثله من خطر داهم على النظام والدولة وملك فرعون وشخصه، ولو كان بيد فرعون تدبير العالم لما احتاج إلى شيء من ذلك، فهذا الاحتياج يتنافى مع الألوهية والربوبية الحقيقية.

ثم إن موسى الكليم عليه السلام غلب السحرة وانتصر عليهم، مما يدل على سوء تدبير فرعون وخيبة آماله، وهذا ينافي الألوهية والربوبية الحقيقية، وبهذا انقطع الباطل وانهزم أمام الحق المبين في ذلك الحشد الهائل والمشهد العظيم، وأقر أصحاب الفن من الخصوم بالحق، واعترفوا بهزيمة الباطل الذي جاءوا للدفاع عنه ونصرته بما لديهم من العلم والخبرة طمعاً في المال والمناصب والجاه والمكانة والمنافع والامتيازات في الحياة من فرعون، وعبروا عن ذلك بوضوح تام أمام الحضور، ويكشف هذا التبدل

والتغير المفاجئ والعميق في السحرة عن سلامة منطقهم و إدراكهم العلاقة الوثيقة التي تربط بين كمالهم الإنساني وسعادتهم الحقيقية وبين الحقائق الكونية والسنن التاريخية، حيث انتقلوا في لحظة واحدة من الظلمة المطلقة إلى النور المبين، ومن مناصرة الباطل والظلم والرذيلة والطاغوت إلى مناصرة الحق والعدل والفضيلة وأولياء الله الصالحين الشرفاء الذين جاءوا رحمة للعالمين، وأعرضوا عن مغريات فرعون وملذات الحياة المادية والأدبية، وأقحموا أنفسهم في خطر القتل والتنكيل والانضمام في صفوف الشهداء الأبرار، كأنهم ركبوا براق العشق وسكروا من عطر أزهاره ورياحينه.

مما يدل على أن أصحاب المعادن الطيبة من الناس قد يقعون في الضلال ويخطئون في الاختيار، وقد يسيئون إلى الغير جهلاً بحقيقة الحال، ولكنهم بمجرد أن تنكشف لهم الحقيقة وتتضح يتراجعون راشدين، ويقومون بتصحيح ما صدر منهم من الأخطاء قدر استطاعتهم، ولهذا فتح الله تبارك وتعالى برحمته أبواب التوبة، والتوبة أو التراجع الرشيد يتطلب أن يدرك الحقيقة في الدارين الدنيا والآخرة، ومصلحته الوجودية، والفضيلة الأخلاقية، تكمن في معرفة الحقيقة والتمسك بها والعمل بمقتضاها، وأن يفكر الإنسان بشكل موضوعي ومنطقي سليم، وأن يتخلى بشكل كامل عن العناد والمكابرة والاستكبار على الحق وأهله.

تهديد فرعون للسحرة

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

إلا أن فرعون الطاغية طاش وثارت ثائرته وغضب غضباً شديداً وأبى ولم يعترف بالحق المبين، ولم يقر به ولم يستسلم أمام الهزيمة الساحقة التي مني بها السحرة على يد موسى الكليم عليه السلام، وازداد عتواً وضلالاً ونفوراً من الحق المبين وأهله، وتمادى في غيه وعناده وضلاله وشرع يبرق ويرعد، فقال للسحرة في تعجب واستنكار: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] فقد تيقن فرعون بحسب المنطق ووقائع الأحداث، بأنه لن يستطيع أن يقهر موسى الكليم وأخاه و وزيره هارون عليهما السلام بل هما اللذان قهراه واخترقا صفوفه بإعلان السحرة للإيمان والتصديق بالنبوة والرسالة والمعاد وعدالة القضية والمطالب التي يحملها موسى الكليم وهارون عليهما السلام.

إلا أنه كابر وسعى لأن يستر فشله وضعفه وخيبة أمله، ويثبت على خلاف ذلك موقعه وقوته وثباته وتمكنه، فأظهر تعجبه من جرأة السحرة على إعلان إيمانهم برب موسى الكليم وهارون عليهما السلام وبصدق نبوتهما ورسالتهما وعدالة قضيتهما ومطالبهما السياسية من النظام الملكي الفرعوني قبل أن يأذن لهم، و إنكارهم لما يدعيه هو من الألوهية والربوبية وحقه

١. الشعراء: ٤٩

في الملك والسلطة على الناس، ورفضهم لما يمارس من الظلم والاستبداد والاستعباد لبني إسرائيل وانتهاك حقوق الإنسان والمواطنين وفرض إرادته الملكية المستبدة عليهم بدعوى الألوهية والربوبية كذباً وزوراً وبدون حق ولا دليل وعلى خلاف العقل والمنطق السليم، واستنكر ذلك كله منهم.

وكان ذلك التعجب والاستنكار لما أظهره السحرة من الإيمان؛ لأن فرعون الطاغية قد تربع بغير حق على عرش الملك، ومارس الدكتاتورية والاستبداد لسنوات عديدة، ولم يترقب من أحد من المواطنين أن يخرج عليه ويقوم بعمل صغير بدون إذنه وعلى خلاف إرادته ورغبته، فهو ربهم الأعلى المتصرف في وجدانهم وضمائرهم، وأن عقولهم وقلوبهم مرهونة به وبأمره، و إرادتهم خاضعة لإرادته ولا إرادة لهم مستقلة عن إرادته، ولا وجود لحق على خلاف رغبته، ولا لمنطق على خلاف ما يريد، ولا قيمة للحقيقة والأدلة والبراهين في نفسها بعيداً عن إرادته ورغبته وما يقرره، فليس لهم أن يفكروا بموضوعية وعلى خلاف رغبة فرعون و إرادته.

وقد جرت على هذه السنة الضالة سيرة الطغاة المستكبرين والفراعنة المتجبرين في عصر مصر، ولأن فرعون وجد نفسه مهزوماً مادياً ومعنوياً هزيمة نكراء، وفي طريق مسدود ونفق مظلم، وهو يرى نفسه ونظامه وملكه في خطر شديد محدق، ولأنه يعرف عمق تأثير إعلان السحرة لإيمانهم أمام الجماهير في ذلك المشهد العظيم في قلوب الناس في تلك الظروف الحرجة والأوضاع المضطربة والتحدي الشديد بين النظام من جهة وبين موسى الكليم من جهة ثانية، فلجأ إلى حيلة خبيثة

ليضل بها الناس، ويبعدهم عن الحقيقة، ويشككهم في إيمان السحرة، ويضع حداً لتأثير إعلان السحرة إيمانهم في نفوس الناس وقلوبهم.

فوجه سهامه السياسية بدهاء وخبث شديد، فاتهم السحرة بالاشتراك في التآمر مع موسى الكليم وأخيه و وزيره هارون عليهما السلام وأعداء الشعب من بني إسرائيل ضد النظام والدولة والحكومة والتاريخ والتراث، والسعي للإضرار بمصالح الشعب، وأن موسى الكليم عليه السلام هو زعيمهم وكبيرهم الذي علمهم السحر ودربهم عليه، وقد تواطئوا معه وخططوا معاً لخداع أهل مصر وتضليلهم، لينقلبوا على النظام والدولة والتاريخ والتراث والحكومة الشرعية لفرعون وسلطته، في سبيل السيطرة على الحكم والثروة و إقامة نظام سياسي في مصر، يقوم على دين موسى الكليم وأخيه هارون عليهما السلام وقومهما من بني إسرائيل، ويقضوا بذلك على تاريخ وتراث ودين الأقباط ويطردوهم من أرضهم ووطنهم مصر، الذي ولدوا فيه وعاشوا، وفيه أملاكهم ومصالحهم ومقومات حياتهم.

أي: أوهم السامعين بأن الذي شاهدوه من أمر عصا موسى الكليم عليه السلام و إن فاق ظاهره ما جاء به السحرة، إلا أنه في الحقيقة والواقع فعل كبيرهم وأستاذهم الذي علمهم السحر ودربهم عليه، وقد أخذوه منه، فعلمهم بعضه، وأخفى عنهم بعضه، وقد غلبهم بما أخفى عليهم من خبايا وأسرار السحر إضافة إلى التآمر، وعليه: فما جاء به موسى الكليم عليه السلام هو في الحقيقة والواقع بحسب ادعاء فرعون من جنس السحر، ولكنه أعظمه، وليس معجزة من فعل الرب الذي يزعم موسى الكليم عليه السلام أنه أرسله إلى

الناس أجمعين: فرعون والأقباط وبني إسرائيل وغيرهم، من أجل هدايتهم إلى الحق والخير والفضيلة و إرشادهم إلى الصواب في السلوك والمواقف والعلاقات، بحيث لا يقدر على مثله البشر، وأن ما أظهره السحرة من الإيمان هو في الحقيقة وليد التآمر والتواطئ مع موسى وهارون عليهما السلام على الانقلاب الخبيث ضد النظام الملكي الفرعوني ومصالح الشعب وتاريخه وتراثه، وليس وليد القناعة والبصيرة وظهور الحق المبين بالدليل والبرهان وقيام الحجة.

وهذه الاتهامات الباطلة من المنهزم معنوياً، ووسيلة يلتمس بها لنفسه العذر، وتقوم على البهتان والزور، أراد بها فرعون خداع الجماهير وتضليلهم، و إبعادهم عن الحق وصرف قلوبهم عن موسى الكليم عليه السلام ودعوته الربانية، وحماية نظامه وملكه وحكومته بهذا البهتان من الانهيار.

وقد تعمد الكذب والبهتان وهو يعلم في قرار نفسه بأنه يكذب ويقول غير الحق، فلا علاقة ولا صلة تربط بين موسى الكليم عليه السلام وبين السحرة، فقد تربى موسى الكليم عليه السلام في بيت فرعون طوال مكوثه في مصر منذ كان طفلاً في المهد، وحتى خروجه من مصر بعد أن قتل عن طريق الخطأ الرجل القبطي، ففر خوفاً من أن يقتلوه ظلماً وعدواناً بتهمة القتل العمد، تحت تأثير التعصب العرقي من الأقباط ضد بني إسرائيل المستضعفين.

وحين عاد إلى مصر وهو يحمل الرسالة الربانية إلى فرعون وقومه الأقباط بالإضافة إلى بني إسرائيل والناس في زمانه أجمعين، دخل على فرعون في قصره، ولم يلتق بالسحرة ولا بأحد غيرهم في مصر،

وكان السحرة متفرقين في جميع المدائن في مصر، وأن فرعون هو الذي جمعهم عن طريق أعوانه من ضباط الجيش وجنوده الموالين جداً إليه، وحشروهم في العاصمة السياسية من أجل مبارزة موسى الكليم عليه السلام بسحرهم والانتصار عليه، وقد وعدهم بالأجر الجزيل والثواب العظيم، حتى أنه وعدهم بتغيير النظام الطبقي في الدولة والمجتمع من أجل رفع منزلتهم وتقريبهم إليه و إعطائهم امتيازات جديدة دينية ومدنية.

وهو الذي اختار مقابلة موسى الكليم عليه السلام بالسحر، ولم يلتق موسى الكليم عليه السلام بالسحرة في ميدان المبارزة، وقد جاءوا بسحر عظيم يحير الناظرين ويبهتهم ويصيبهم بالدهشة، كل ذلك كان يعمله فرعون عن يقين، وكان يعلم حقيقة ما جاء به موسى الكليم عليه السلام وأنه ليس من جنس السحر، لا سيما وأن فرعون وهامان كانا قد تعلما السحر وغلبا الناس به، وأن فرعون ادعى الربوبية مما كان قد تعلمه وتدرب عليه من السحر، إلا أنه تعمد الكذب، وأراد أن يرمي موسى الكليم عليه السلام بداء نفسه، بما هي عادة الطغاة والفراعنة والحكام الظالمين المستبدين، الذين لا يقيمون وزناً للحقائق والحقوق والمنطق السليم، ويعتمدون على القوة والباطل والمغالطات لفرض الأمر الواقع وقلب الطاولة على معارضيهم بأية وسيلة كانت، على قاعدة: «الغاية تبرر الوسيلة».

وعليه: حدد فرعون الموقف من السحرة، بأنه لن يدعهم ولن يفسح لهم المجال لتنفيذ مؤامرتهم الانقلابية الخبيثة ضد النظام والدولة ومصالح الشعب وتاريخه وتراثه ودينه، وسوف يواجه مؤامرتهم ويخنقها ويقضي

عليها في مهدها، وأصدر حكمه الجائر وقضاءه فيهم بأنه سوف يعاقبهم على جريمتهم الجماعية بحق النظام والدولة والشعب والملك والتاريخ والتراث بأشد العقوبة، وذلك بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، كأن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس كما يفعل بالمفسدين في الأرض، ثم يصلبهم أجمعين على جذوع النخل ليخروا ويذلوا بين الملأ الأعلى، وسيشدهم شداً وثيقاً على جذوع النخل حتى تترك الجذوع الخشنة أثرها المؤلم في أجسامهم، ويتركهم ينزفون حتى يموتوا ببطء.

وعليه: فهذه العقوبة القاسية جداً، تجمع بين العقوبة الشديدة الجسدية والمعنوية، وذلك لكي يعلموا وبال أمرهم، ويكونوا عبرة لغيرهم، فلا يحذوا أحد حذوهم في التمرد على النظام والملك، خوفاً من العقوبة المؤلمة جداً: الجسدية والمعنوية.

والتصليب، معناه: أن يحمل الشخص الذي يراد قتله على الصليب، وهو خشبة قائمة مثبت في أعلاها خشبة معترضة، يثبت فيها الشخص المحكوم عليه بالقتل ويترك حتى الموت.

وقد أراد فرعون من صلب السحرة على جذوع النخل بدل خشبة الصليب، بعد أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويتركهم ينزفون حتى يموتوا ببطء، أن يجمع بين العقوبة الجسدية والعقوبة المعنوية، ولتكون العقوبة أشد إيلاماً، وهذا هو دأب الطغاة المتجبرين والفراعنة المستكبرين والحكام الظالمين، حين يغلبون بالحجة والمنطق، فيلجأون إلى منطق القوة والعنف والإرهاب في التنكيل بالمعارضين، وإلى الكذب

والمغالطات لقلب الطاولة عليهم، على قاعدة: «الغاية تبرر الوسيلة» فيتهمون المعارضين والمطالبين بالإصلاح الشرفاء بالتآمر ضد النظام والدولة والملك والسعي للإضرار بمصالح الشعب، ثم يضيقون عليهم الخناق، فيحرمون من حق التعبير عن الرأي، ويزجون بهم في السجون، ويذيقونهم فيها صنوف العذاب، ويقومون بتشريدهم وطردهم من البلاد، ومحاربتهم في أرزاقهم ويتعرضون لأهلهم بالسوء، ويعملون فيهم السيف، ليضعفوا موقع المعارضة والمطالبين بالحقوق ويزيحونهم من طريقهم تحت عنوان الوطنية وباسم الدين و العدالة والقانون ونحو ذلك، مما يدل على ضعف عقولهم وسياستهم وشعبيتهم بين الجماهير وعدم شرعيتهم، واعتمادهم في إقامة دولتهم على العنف والإرهاب والتضليل والمغالطات وشراء الضمائر لفرض حكم الأمر الواقع، بعيداً عن الحق والحقوق والعقل والمنطق والقناعة الشعبية الحقيقية بالنظام وسياسة الحكومة وكفاءتها وتعبيرها عن إرادة المواطنين وأمانتها على مصالح الشعب الحقيقية ومقدراتهم ونحو ذلك.

كما يدل على أن الأنظمة الدكتاتورية المستبدة، تلجأ إلى العنف والإرهاب متى تمكنت من ذلك، حتى في أكثر الحالات شعوراً بالضعف، للتعويض والظهور على خلاف الواقع وما يشعرون به في داخلهم من القلق والضعف والاضطراب، ولشراء الوقت قدر الإمكان، وينخدع بهم الأشخاص الساذجون الذين يحبسون عقولهم في آذانهم وعيونهم ولا يملكون بصيرة يدركون بها الحقائق الفعلية وراء ما يتظاهر به الفراعنة والطغاة والحكام الظلمة المخادعون، وما يتشدقون به من الأقوال المنمقة والفارغة من

المضمون والبعيدة جداً عن الواقع والوقائع والأحداث ومجرى الأمر.

فقد أصيب فرعون بالرعب والقلق الشديد والاضطراب، وشعر بالخطر الشديد على نظامه وحكومته وملكه، بعد أن غلب موسى الكليم عليه السلام السحرة وانتصر عليهم، وأعلن السحرة إيمانهم أمام الجماهير المحتشدة في الميدان، ورأى بأن هذه الهزيمة الساحقة قد هدمت أركان نظامه ودولته وملكه بالكامل، إلا أنه لم يعترف بالحقيقة ولم يستسلم لها، وكابر وأظهر خلاف ما كان يعتقده ويشعر به في داخل نفسه، ورمى السحرة بسهامه، بهدف تضليل الجماهير وتشكيكهم وإبعادهم عن الحقيقة، وهدد وتوعد ليظهر الأمر على خلاف الواقع، لشراء الوقت لعله يجد فرصة يسترد فيه هيبته ويحافظ على نظامه وملكه، كما هو دأب الطغاة والفراعنة والحكام المستبدين الظلمة في كل عصر ومصر.

ثبات السحرة أمام تهديدات فرعون ووعيده

﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

لكن السحرة المؤمنين الصادقين الذين غمر الإيمان قلوبهم، وأظهر نار العشق في أفئدتهم، لم يكترثوا بفرعون وسلطانه وجبروته وطغيانه وإرهابه وتنكيله، ولم يهزهم تهديد فرعون ووعيده، وردوا على فرعون بقولهم: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا

أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] أي: إنهم لا يخافون الموت والقتل والتنكيل والألم الشديد الذي توعدهم به فرعون، بل هم مشتاقون غاية الشوق ومنتهاه إلى لقاء ربهم؛ لأنهم على الحق وصراط الإنسانية المستقيم؛ ولأن عذاب الدنيا والتنكيل فيها زائل بالموت، وأنهم منقلبون بعد الموت إلى ما وعدهم به ربهم من الأجر الجزيل والثواب العظيم في الآخرة، وقد وعدهم بأن يكون صبرهم على ما توعدهم به فرعون من العقوبة والتنكيل، موجباً لمحو ذنوبهم وحصولهم على الثواب العظيم عند الله في الآخرة، والقرب منه والظفر برضوانه.

وعليه: فهم لا يبالون بالموت ولا بما توعدهم به فرعون من العقوبة والتنكيل، إذا كانت نتيجة ذلك هو الوصول إلى المعشوق والظفر بالقرب منه وتحصيل رضاه ورضوانه، فنهاية الإنسان هي الموت بأية وسيلة كانت، وأن الله يحكم بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون، فيثبت المحق ويعاقب المسيء أو المبطل، فمنقلبهم إلى الله ﷻ شهداء في سبيل الله ﷻ مظلومين صابرين على بلاء الله، هو خير لهم وفيه كمالهم الإنساني وسعادتهم الحقيقة بحسب المقاييس الإلهية والعقل والمنطق السليم، فكل نفس ذائقة الموت، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، والبقاء في الحياة الدنيا مع الظالمين على الذل والهوان والمعصية لله ﷻ هو شر المحيا، فنعم المنقلب منقلبنا، وأكرم الرجوع إلى الله ذي الجلال والإكرام رجوعنا، فلا نخاف منك ولا من عقوبتك وجورك علينا إذا كانت النتيجة والمنتهى هو هذا المنقلب والرجوع الكريم إلى الله ذي الجلال والإكرام، والنعيم الدائم

---

١. الشعراء: ٥٠-٥١

عنده في جنات الخلد، جزاءً على إيماننا الصادق وصبرنا على عذابك وعقوبتك، وثباتنا على التوحيد والدين الحق والصراط المستقيم والطاعة، والبراءة من الكفر والكافرين والنفاق والمنافقين وتجنب الذنوب والمعاصي وكل رذيلة وفعل قبيح، فاقض ما أنت قاض يا فرعون.

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**وهكذا شهداء العقيدة لا يبالون بسيف الجلاد، بل يشتدون صلابة في صمودهم، و إخلاصهم ورسوخاً في دينهم و إيمانهم، أما الذين ينهارون ويستسلمون باللمحة والنظرة بل وبمجرد الوهم، فما هم من الدين والإيمان في شيء، و إن انتحلوه وانتسبوا إليه**»[1] وهذا ما يفهمه ويقره كل من يعقل الحقائق الكونية والأنفسية والسنن التاريخية، ويفكر بالمنطق السليم، ولا يحيد الإنسان المؤمن العاقل بما هو عاقل عن مقتضى هذا الفهم والإدراك.

وأضاف السحرة في جوابهم لفرعون: نحن لا نستوحش اليوم وبعد الإيمان من أي شيء، لا من الموت ولا التنكيل ولا نحو ذلك، و إن كنا نخاف من شيء، فإننا نخاف من ذنوبنا وخطايانا وأعمالنا السيئة الماضية في ظل نظامك وخدمتك، مثل: الكفر والسحر ومعاونة الظالمين ومساندة النظام الفاسد ونحو ذلك، ونحن نأمل أن يغفر لنا ربنا ذنوبنا وخطايانا بلطفه ورحمته، وأن نحظى بفضله و إحسانه، أن كنا أول المؤمنين من قوم فرعون ورعاياه وحماته، المذعنين لآيات ربنا الواضحة الدالة على التوحيد ونبوة موسى الكليم وأخيه ووزيره هارون عليهما السلام رسوليّ رب العالمين،

---

١. التفسير المبين، محمد جواد مغنية، صفحة ٤٨٣

مما يدل على فضيلة السبق للإيمان، وأن السابقين للإيمان أفضل من المتأخرين، وأن لهم امتيازات في الآخرة عند ربهم، منها: سرعة المغفرة والمسامحة عما سبق الإيمان من الخطايا والذنوب، قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

أي: لا يستوي في ميزان العدل والحكمة الإلهية الإيمان والإنفاق والجهاد في الأوقات السهلة والعافية حين يكون الدين عزيزاً قوياً، مع الإيمان والإنفاق والجهاد في الأوقات الحرجة والصعبة التي يقتضي بذل التضحيات الجسام حين يكون الدين ضعيفاً ذليلاً. فلا شك أن الإيمان والإنفاق والجهاد في الأوقات الحرجة والصعبة التي تقتضي بذل التضحيات الجسام، أدل على الصدق والإخلاص، وأعظم درجة ومكانة وأجراً وثواباً من الإيمان والإنفاق والجهاد في الأوقات السهلة المؤاتية والقوة والعافية، لعلو إيمانهم وحسن صبرهم وعظيم تضحياتهم في سبيل الله ﷻ والحق المبين.

ولأن السبق إلى الإيمان يفتح الطريق إلى دخول المزيد من الناس في الإيمان، وفتح الباب على كل خير، له أثر من الخير، بحكم العقل والمنطق السليم، على قاعدة: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها». يقول العلامة السيد الطباطبائي: «**فلو أن الله سبحانه أكرم مؤمناً لإيمانه بالمغفرة والرحمة، لم**

١. الحديد: ١٠

تظفر مغفرته ورحمته أول الفاتحين لهذا الباب والواردين هذا المورد»[1].

وثمّة فرق بعيد جداً بين إخوان الضيق وإخوان السعة والرخاء، رغم أن الله تبارك وتعالى وعد كلتا الطائفتين المثوبة الحسنى في الآخرة، والله سبحانه وتعالى عليم بحقيقة ما يمضي به الإنسان ويعلن من العقيدة والأعمال، وبما تترك من آثار قريبة أو بعيدة في النفوس ومجرى الحياة والواقع، فلا يخفى عليه شيء من ذلك، وأنه يجازي على ذلك بما هو عليه في نفسه وحقيقته، ولا ينخدع برياء أو سمعة أو نحو ذلك.

وقد حفظ الله ﷻ للسحرة صدقهم وإخلاصهم، فثبتهم على الدين الحق، وصبرهم على ما توعدهم به فرعون الطاغية من العقوبة والتنكيل، حتى مضوا إلى الله ذي الجلال والإكرام شهداء أبرار. فأية طاقة عظيمة هذه التي تولدت في قلوبهم فجأة، وصغر عندها جبروت فرعون وكبرياؤه وطغيانه وفقد هيبته، وهانت عندها أشد الأمور وأصعبها، وجادت النفس بالنفس في موقف التضحية والإيثار. إنها قوة الإيمان ونفاد البصيرة واضطرام نار العشق وتوهجه في الفؤاد. الأمر الذي يجعل الوصول إلى المعشوق أسمى الأهداف، ويجعل الألم والشهادة في سبيل الله ﷻ أحلى من العسل، وتوصل الإنسان إلى أوج الكمال بسرعة مذهلة، وقد خلد الله تبارك وتعالى ذكرهم الحسن وفضلهم في كتابه المجيد، ليكونوا قدوة وأسوة حسنة للمؤمنين، ولكل إنسان مخلص للحقيقة وطالب إياها وباحث عنها.

---

١. تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي، جزء ١٥، صفحة ٢٤٩

فالوصول إلى القرب من الله ذي الجلال والإكرام ونيل رضوانه، يعد أعظم الأجر في ميزان المؤمنين الصالحين، حتى الجنة بما فيها من النعيم المقيم، لا تقاس بنظرة واحدة لوجه الله الكريم الذي هو أكرم الوجوه، وإن الشهداء في سبيل الله ﷻ هم أوفر المؤمنين حظاً في الأجر والثواب وفرص القرب من الله ذي الجلال والإكرام، فأنت بقتلنا والتنكيل بنا لا تنقص منا شيئاً، بل توصلنا إلى معشوقنا ومرادنا، فاقض ما أنت قاض يا فرعون.

والعبارة ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾[1] فيها دلالة على أنه لا يأذن لهم فيما أظهروه وأعلنوه من الإيمان أمام الجماهير، وهذا شيء طبيعي لأنه إنما أراد أن يبارز بهم موسى الكليم عليه السلام لينقض بسحرهم دعوته، لا أن يتحولوا إلى مناصرين له ومعارضين للنظام الفرعوني ووسيلة لهدم بنيانه.

---

١. الشعراء: ٤٩

الفصل الرابع: هلاك فرعون وجنوده وخلافة بني إسرائيل

﴿وَأَوۡحَيۡنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَاهُم مِّن جَنَّاتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَاهَا بَنِي
إِسۡرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ
﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ
فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ
وَمَن مَّعَهُۥ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٗ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]

خروج بني إسرائيل من مصر

﴿وَأَوۡحَيۡنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾

بعد سنين عديدة قضاها موسى الكليم عليه السلام بين أهل مصر بعد المبارزة

---

١. الشعراء: ٥٢-٦٨

مع السحرة، يدعو أهل مصر إلى الإيمان بالآيات والبينات، ويظهر المعجزات تلو المعجزات ويتم الحجة البالغة عليهم، إلى جانب منطقه المتين لعلهم يتقون، لكن دون جدوى، بل ازدادوا عتواً وفساداً في الأرض ونفوراً من الحق وأهله، حتى يئس موسى الكليم عليه السلام من إيمانهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، ووجب هلاكهم ونجاة بني إسرائيل وتخليصهم من أيدي فرعون وقومه، وتمكينهم واستخلافهم في الأرض بدلاً عنهم، وذلك بعد أن امتازت صفوف المؤمنين من صفوف المنكرين المكذبين، أوحى الله تبارك وتعالى إلى عبده ورسوله موسى الكليم عليه السلام: أن اخرج ببني إسرائيل من مصر متوجهاً إلى الأرض المقدسة فلسطين، وأمره بأن يجعل خروجهم ليلاً، وأخبره بأن فرعون وجنوده سيتبعونهم بهدف القضاء عليهم و إبادتهم، إلا أنهم لن يستطيعوا ذلك، بل سيكون فيه هلاك آل فرعون.

وسمّى الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل: ﴿عِبَادِي﴾ لأنهم آمنوا بتوحيد الله سبحانه وتعالى، وبالنبوة والمعاد، وصدقوا برسالة موسى الكليم وأخيه ووزيره هارون عليهما السلام وما جاء به من عند رب العالمين، والتفوا حول موسى الكليم عليه السلام حيث وجدوا فيه بعد سنوات طوال من القهر والذل والجور، نبياً سماوياً يضمن هدايتهم، وقائداً فذاً لثورتهم ومنقذاً لهم، كما تدل عبارة: ﴿عِبَادِي﴾ على محبة الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين وأوليائه الصالحين.

وقيل: أن عبارة: ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ تعليل لـ ﴿أَسْرِ﴾ أي: بيت أمركم على أن

تتقدموا بخروجكم ليلاً ليتبعكم فرعون وجنوده، فيكون في ذلك هلاك آل فرعون وفرج بني إسرائيل.

امتثل موسى الكليم ﷺ ما أمره الله ﷻ به، فعبّأ بني إسرائيل للخروج بعيداً عن أعين آل فرعون وعيونهم، وخرج بهم ليلاً كما أمره الله ﷻ.

إلا أن حركة جماعية بهذا الحجم الكبير (٦٧٠ / ألف) ليس من اليسير إخفاؤها لزمان طويل، فقد عرفت عيون فرعون وجواسيسه بخروج بني إسرائيل، فأسرعوا إلى إخبار فرعون بذلك، فلما علم فرعون بالأمر، أرسل أعوانه في المدائن التي تحت سلطته يعبئون الناس ويثيرون مشاعرهم ويحرضونهم ضد موسى ﷺ وقومه من بني إسرائيل، ويجمعون القوات المسلحة ويحثونهم لتجهيز جيش عظيم للقضاء على بني إسرائيل، وقد نجحوا في تشكيل جيش عظيم يتكون من أكثر من مليون ضابط وجندي، وقيل: لم يتخلف عن الخروج في الجيش سوى العجزة وأهل الأعذار، وقد خطب فرعون، فقال: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُون ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُون ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[1] أي: إن موسى ﷺ والذين آمنوا به واتبعوه من بني إسرائيل، الذين خالفوا النظام والملك وأعلنوا المعارضة، هم طائفة أو جماعة قليلة مفككة وضعيفة، لا يؤبه لهم وليسوا بشيء بالنسبة إلى جمعنا وقوتنا، فهم يمثلون ستمائة وسبعين ألف، في مقابل أكثر من مليون مقاتل فضلاً عن أمة عظيمة تقف خلف هؤلاء المقاتلين.

أراد بذلك، تحقير بني إسرائيل والتقليل من شأنهم، لكنهم يعلنون

١. الشعراء: ٥٤-٥٦

التحدي لنا، ويخلقون لنا المزعجات والمشكلات، ويأتون من الأعمال ما يغيظوننا به ويستفزوننا، بأن يعلنوا المخالفة والمعارضة للنظام والملك والخروج عليهما، ويظهرون العداوة للشعب الموالي للنظام والملك ولمصالحه، وإننا متيقظون لحركتهم ومتتبعون لهم ومدركون لخطرهم علينا جميعاً، فهم يستحقون بتلك الجرائم السياسية الخطيرة، عقوبة القتل والاستئصال، وقد اعتدنا في دولتنا طبقاً لنظامنا الفرعوني الرشيد، الحزم في الأمور وفي مواجهة الخصوم والأعداء وكل من يريد الشر بالنظام والملك ويتآمر على مصالح الشعب وهويته، ويسعى للإخلال بالأمن والاستقرار، فإذا خرج علينا خارج بادرنا إلى حسم مادة فساده وشره.

وعليه: فنحن لهذه الشرذمة بالمرصاد، وسيذوقون منا وبال أمرهم، ولن نمنحهم الفرصة لاغتيالنا والمكر بنا بأي حال محال، ونحن حكومة وشعباً متفقون على رفض ما يقومون به جملة وتفصيلاً، وعلى مواجهتهم والقضاء عليهم؛ لأنهم أعداؤنا جميعاً، والمصلحة مشتركة بيننا، ومصيرنا واحد، أراد بذلك: المزيد من الإثارة والتحريض على موسى الكليم عليه السلام وقومه.

وقال: إن الحذر من مكر الأعداء واجب بحكم العقل والمنطق وضرورات السياسة الرشيدة وإن كان ضعيفاً قليل العدد، أراد بذلك: إشعارهم بخطر دعوة موسى الكليم عليه السلام وحركة بني إسرائيل عليهم، من أجل التحرك بحماس شديد لمواجهة دعوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته وإحباط تحركهم، وفي نفس الوقت: أراد أن يفهمهم بأن ذلك من مقتضيات

الحكمة والسياسة الرشيدة، لئلا يظنوا أن به عجزاً أو يشعر بخوف غير عادي من موسى الكليم عليه السلام ودعوته وحركة بني إسرائيل التحررية، أو أي شيء يكسر من سلطانه وهيبته، وأيضاً: لأنهم شرذمة قليلة مفككة، فلا خوف من قتالهم؛ لأن الجيش الفرعوني جيشٌ عظيمٌ ومجهز، وفي كامل الجاهزية والاستعداد للقتال، فهو جيش متمكن من الانتصار عليهم وإبادتهم بأدنى جهد وأقل الخسائر، مما يجعل من الحكمة والمصلحة المبادرة بالخروج إليهم وإبادتهم والقضاء عليهم، قبل أن يتمكنوا من الفرار إلى فلسطين، حيث يتمكنون هناك من إعادة بناء صفوفهم وتجهيز أنفسهم وعقد التحالفات فيستفحل خطرهم ويعظم شرهم، ثم ينقضوا على مصر ويهددوا النظام والدولة والحكومة الرشيدة، ويوقعوا الخسائر الفادحة: المادية والبشرية والمعنوية في مصر وشعبها.

خروج فرعون لتتبع بني إسرائيل

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

سارع فرعون بالخروج بخيله ورجاله في جيش عظيم وقوة ضاربة على غبط وحنق لمطاردة موسى الكليم عليه السلام وأصحابه من بني إسرائيل، وقيل: إنه أرسل في مقدمة الجيش ستمائة ألف مقاتل، ثم تبعهم هو في أكثر من مليون مقاتل: ضابط وجندي، وقيل: لم يتخلف أحد عن الخروج سوى العجزة وأهل الأعذار، والهدف هو القضاء على بني إسرائيل وإبادتهم عن

آخرهم، لكنه في الحقيقة والواقع، كان خروجاً إلى الأبد وبدون رجعة مما كانوا يملكون وبه يتمتعون من جنات وبساتين زاهية، وأنهار مطردة وعيون جارية، ومسابح ومنتزهات، ومجالس رفيعة بهية، هي مجالس القادة والأمراء التي يحف بها الخدم والأتباع، ومجالس الفرح والسرور والنشاط والبهجة، ومنابر الخطابة التي تعمل لصالح النظام كوسائل إعلام ودعاية، ونحو ذلك، ومن كنوز مخبأة من الذهب والفضة والثروات العظيمة، وغير ذلك من مظاهر النعيم والترف والحياة والسلطة ورغيد العيش الذي كانوا يتمتعون به دهراً طويلاً وهم قائمون على الكفر والظلم والجور والفساد في الأرض والتيه في البلاد والتكبر على الحق والعباد.

وقد تركوه إلى الهلاك المحتم والخزي والعار في الدارين: الدنيا والآخرة، حيث مكر الله ﷻ الخفي بهم، جزاء كفرهم وطغيانهم واستكبارهم على الحق وأهله، ولفساد طباعهم وعنادهم المتأصل، وعدم استفادتهم من الحجج الباهرة والآيات الزاهرة، والأدلة والبراهين القاطعة، والبيان الواضح، والإرشادات النبوية والمواعظ الصادقة، وردهم دعوة موسى الكليم وأخيه ووزيره هارون عليهما السلام رسوليّ رب العالمين إليهم، وغيره من الجرائم والمنكرات.

وكان إخراج فرعون وقومه مثل ذلك الإخراج، بهدف توريث تلك البساتين والعيون والقصور والمواقع والمنابر والحكومة والمقدرات والمقام الكريم التي كانوا يتمتعون بها إلى بني إسرائيل المستضعفين الذين جعلهم فرعون وقومه من قبل عبيداً وأرقاء لهم، وسخروهم في الأعمال الشاقة.

وعبارة: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾[١] تدل على أن خروجهم كان من مكر الله ﷻ وحسن تدبيره، وذلك: بسبب كفر آل فرعون وعنادهم واستكبارهم على الحق والعباد والإفساد في الأرض والتيه في البلاد.

وعبارة: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾[٢] تدل كذلك على التدبير الإلهي، حيث أهلك آل فرعون، وأبقى بني إسرائيل بعدهم، ليكون بنو إسرائيل وارثين لآل فرعون، جزاءً لبني إسرائيل على إيمانهم وصبرهم وطاعتهم لولي الله الأعظم ورسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام مما يدل على أن الله ﷻ، لا يدع الظالمين وظلمهم، بل هو ينتقم منهم على أيدي المستضعفين المجاهدين المخلصين، أو على أيدي ظالمين مثلهم، حيث ينتقم الله جل جلاله بالظالم من الظالم، قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٣] أو بأي سبب كان من الأسباب الطبيعية أو الغيبية، ولو بعد حين من الزمن، ولهم في الآخرة أشد العذاب، وهذه سنة إلهية تاريخية عامة: هلاك المستكبرين، ونصرة المظلومين المجاهدين ولو بعد حين، فسبحان الله مالك الملك، مجري الفلك فالق الإصباح، ديان الدين رب العالمين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بكفره ومعصيته.

وحول استخلاف بني إسرائيل بعد هلاك آل فرعون، قيل:

---

١. الشعراء: ٥٧

٢. الشعراء: ٥٩

٣. الأنعام: ١٢٩

- إن موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل عادوا جميعاً إلى مصر بعد هلاك آل فرعون وسيطروا على السلطة وأنشأوا حكومتهم فيها، ومكثوا في مصر حاكمين مدة مديدة من الزمان.

- إن بني إسرائيل انقسموا إلى جماعتين بعد هلاك آل فرعون: جماعة ذهبت مع موسى الكليم عليه السلام إلى بيت المقدس في فلسطين، وجماعة بقيت في مصر وسيطروا على الحكم فيها.

- إن جميع بني إسرائيل ذهبوا إلى بيت المقدس في فلسطين وأقاموا حكومتهم فيها، وأن الاستخلاف، يعني: مجرد سقوط حكومة آل فرعون في مصر، وقيام حكومة بني إسرائيل في فلسطين.

- إن بني إسرائيل ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس في فلسطين بعد هلاك آل فرعون، إلا أنهم رجعوا إلى مصر بعد حين، على زمن سليمان بن داوود عليه السلام وسيطروا على الحكم فيها.

يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**إلا أنه مع ملاحظة أن موسى عليه السلام نبي ثائر كبير، فمن البعيد جداً أن يترك هذه الأرض التي تهاوت أركان حكومتها وقد أصبحت مقاليد أمورها بيده فيذرها كلياً دون أن يخطط لها خطة ويتجه نحو فلسطين وبيت المقدس والصحاري الشاسعة، ولا سيما أن بني إسرائيل قد سكنوا مصر لسنين طوال، وتعودوا على محيطها، فبناءً على هذا لا يخرج الأمر من أحد حالتين: إما أن نقول: إن بني إسرائيل عادوا جميعاً إلى مصر وحكموا فيها، أو أن نقول: إن قسماً منهم بقوا في مصر**

بأمر موسى عليه السلام واستولوا على العرش وحكموا في مصر... وفي غير هاتين الحالتين لا يتجلى مفهوم لإخراج الفراعنة منها ووراثة بني إسرائيل لها»[1].

نجاة بني إسرائيل وهلاك فرعون وجنوده

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

فلما قرب فرعون الطاغية مع جيشه الجرار من بني إسرائيل عند وقت شروق الشمس وطلوعها، وقيل: لفظة مشرقين، يعني: حال كون بني إسرائيل راحلين أو متوجهين نحو المشرق إلى جهة سيناء ليذهبوا إلى الأرض المقدسة فلسطين، ورأى الجمعان: فرعون وجيشه، وموسى الكليم عليه السلام وبنو إسرائيل، كل منهما الآخر، خاف بنو إسرائيل وذعروا وأيقنوا بأنهم هالكون لا محالة، فجيش فرعون الجرار الذي لا طاقة لهم به قد خرج بقيادة فرعون الطاغية بكامل تجهيزاته بهدف إبادتهم والقضاء عليهم، وهم غاضبون عليهم ومتعطشون لسفك دمائهم، وقد قتلوا أطفالهم الأبرياء من قبل بدون رحمة لسنوات عديدة، فقالوا شاكين لموسى الكليم عليه السلام: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[2]

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ١١، صفحة ٢٤٥

٢. الشعراء: ٦١

أي: سيدركنا جيش فرعون ويقضي علينا لا محالة؛ لأن البحر من أمامنا، والجيش الفرعوني الجرار الذي لا طاقة لنا به من خلفنا يريد الفتك بنا والقضاء علينا و إبادتنا، فلا فرصة لنا ولا أمل في النجاة والدلائل والقرائن كلها تدل على ذلك.

وفي هذه الحالة الصعبة جداً التي لا يمكن وصف مرارتها، وقد بلغت القلوب الحناجر، وربما تزعزع إيمان بعض بني إسرائيل من ضعفاء النفوس وفقدوا معنوياتهم وأنهارت قواهم، قال لهم موسى الكليم عليه السلام بكل ثقة واطمئنان: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1] أي: ليس الأمر كما يظهر لكم وتظنون، بل هو على خلاف ذلك في الحقيقة والتدبير الإلهي ومكره، فلا تخافوا من فرعون وقومه ولا تحزنوا، فلن يدركونا ولن يتمكنوا من القضاء علينا و إبادتنا؛ لأن معي ربي القادر على كل شيء: بالهداية والحفظ والنصر، وقد وعدني الخلاص منهم، وأن يحفظنا وينصرنا على عدونا، وهو صادق لا يخلف الميعاد، فسوف يهديني ويرشدني لا محالة إلى طريق النجاة من إدراكهم، فقد تيقن بنو إسرائيل الهلاك بجهلهم، وتيقن موسى الكليم عليه السلام النجاة بعلمه بالله الرحمن الرحيم وقدرته على كل شيء وحكمته، وقد وعده بهلاك فرعون وقومه ونجاة بني إسرائيل، ولا يمكن أن يخلف الميعاد بأي حال من الأحوال، وأنه يطوي الطريق إليه بلطف الله ذي الجلال والإكرام وتحت عينه ورعايته.

وفي ظل ذلك التجاذب بين اطمئنان موسى الكليم عليه السلام وبين ذعر بني

---

١. الشعراء: ٦٢

إسرائيل، أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى الكليم عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر، وهو البحر الأحمر على خليج السويس، وقيل: هو نهر النيل؛ لأن النيل هو الأقرب إلى مكان سكن بني إسرائيل والفراعنة أيضاً، ويجب على بني إسرائيل عبور نهر النيل؛ لأنهم يسكنون في جهة غرب النيل، ويجب أن يتجهوا نحو الشرق للوصول إلى الأرض المقدسة فلسطين، ولأنه لا حاجة لبني إسرائيل إلى عبور البحر الأحمر لكي يصلوا إلى الأرض المقدسة فلسطين؛ لأن هناك منطقة يابسة يمكن العبور منها قبل حفر قناة السويس في العصر الحديث، ولأن لفظ (اليم) أكثر دلالة على النيل، لأن لفظ اليم استخدم في سورة طه في البحر الذي ألقت أم موسى فيه موسى الكليم عليه السلام من أجل الإبقاء على حياته والتقطه رجال فرعون منه، وبإجماع الباحثين هو النيل، والبحر الذي عبره بنو إسرائيل وغرق فيه فرعون وجنوده، مما يشعر بأنهما واحد وهو نهر النيل.

ففعل موسى الكليم عليه السلام ما أمره به رب العالمين، فإذا هم أمام مشهد عجيب جداً ومثير للدهشة ورائع أيضاً، تهللت له وجوه بني إسرائيل وانفتحت أساديرهم وعادت لهم نفوسهم والأمل في النجاة بل تيقنوا به بلطف الله وحسن تدبيره، إذ انشق البحر وظهر اثنا عشر طريقاً يابساً بعدد أسباط بني إسرائيل، وقام الماء على طرفي كل طريق: عن يمين الطريق وعن يساره، كالجبل العظيم الثابت في مقره، الشامخ في علوه الجليل في رسوخه وهيبته، فسلك كل سبط من بني إسرائيل طريقاً من الطرق الاثني عشر الممهدة، وأقبل فرعون مع جيشه الجرار، فلما انتهوا إلى البحر ورأوا الماء قد انحسر عن الأرض وظهرت طرقٌ سالكة ممهدة في البحر، لم

يتعظوا بالآيات والبينات، فاقتحموا تلك الطرق، وهي نفس الطرق التي سلكها موسى الكليم عليه السلام مع بني إسرائيل، وساروا فيها آمنين مطمئنين، يريدون اللحاق ببني إسرائيل لإبادتهم والقضاء عليهم.

روي أن فرعون قال لأصحابه: ألا تعلمون أني ربكم الأعلى، فقد استجاب البحر لرغبتي وفتح الطريق أمامي لأصل إلى الخارجين على إرادتي وسلطتي الذين يرفضون الاعتراف بألوهيتي وربوبيتي، ومع ذلك لم يجرأ أحد من أصحابه على أن يدخل البحر، وامتنعت الخيل من الدخول إلى البحر لهول المشهد، فتقدم فرعون حتى جاء إلى البحر، فقال له منجمه: لا تدخل البحر، فعارضه فرعون ولم يقبل منه، وأقبل على فرس (ذكر الخيل) فامتنع من أن يدخل إلى البحر، فتمثل جبرائيل عليه السلام وهو على رمكة (أنثى الخيل) فتقدمه فدخل البحر، فنزل الفرس الذي كان عليه فرعون ودخل البحر يطلب الرمكة، ودخل أصحابه خلفه وهذا يدل على أن المعجزة لا تصنع الإيمان، و إنما الإيمان نور في القلب يسطع لسلامة الطبع والاستعداد الفعلي والإخلاص في طلب الحقيقة والبحث عنها والعمل بمقتضاها، فلما تكامل دخول فرعون وجيشه حتى آخر واحد منهم في داخل البحرة وتكامل خروج بني إسرائيل حتى آخر واحد منهم من داخل البحر إلى الضفة الأخرى (الشاطئ) أمر الله عز وجل الرياح فضربت البحر، فأقبل الماء ينطبق على فرعون وجيشه كما ينهال الجبل، فقال فرعون: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] فلم يقبل منه حيث فات وقت التوبة، فقيل: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ

١. يونس: ٩٠

﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[١] فأغرق الله ﷻ فرعون وجيشه أجمعين ولم ينجُ منهم أحد أبداً، وأصبح البحر مقبرتهم أجمعين.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾[٢] تدل على أن الله ﷻ قرّب فرعون وقومه من موسى الكليم ﵇ وقومه في الطرق السالكة في البحر، لئلا ينجو أحد من قوم فرعون، وبذلك أنجى الله ﷻ موسى الكليم ﵇ والذين معه من بني إسرائيل المستضعفين وأصبحوا أحراراً مكرمين، بأن أبقى الطرق السالكة في البحر على تلك الحالة والهيئة العجيبة، حيث الماء على جانبيها كالطود العظيم حتى عبروا وخرجوا أجمعين إلى الشاطئ من الضفة الأخرى، وأهلك فرعون وجيشه الجبابرة بأن أطبق البحر عليهم وهم في وسطه فأغرقهم أجمعين في لحظة واحدة.

فإن فرعون الطاغية الذي تجبر، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[٣] ولي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي، وقد خرج في جيش جرار عظيم من أجل الانتقام من بني إسرائيل المستضعفين و إبادتهم والقضاء عليهم ظلماً وعدواناً، فأنتقم الله ﷻ منه ومن جنوده أشر انتقام وأغرقهم أجمعين ليكونوا عبرة وموعظة للذين من بعدهم من الطواغيت والفراعنة والحكام الظالمين المستبدين والمترفين المتعالين، بأن يتعرفوا جيداً على الحقائق الكونية والسنن الإلهية في الحياة، ويعلموا بأن الظلم لا يدوم، وأن يد

---

١. يونس: ٩١

٢. الشعراء: ٦٤

٣. النازعات: ٢٤

الله ﷻ وقدرته تطالهم بالعذاب والانتقام على جرائمهم بحق المستضعفين والمظلومين.

وهكذا أصبح الأرقاء المستضعفون أحراراً، وهلك الجبابرة الطغاة، وانطوت صفحة من صفحات التاريخ، وفتحت صفحة أخرى، وورث المستضعفون السلطة والثورة، وتبين أن عصا موسى الكليم عليه السلام هي بحق وحقيقة: آية إنذار وعذاب عظيم للظالمين، وآية نجاة ورحمة للمؤمنين والأولياء الصالحين، وأنها معجزة ربانية عظيمة وخارقة لا توصف، قد عاينها الناس ورأوها رأي عين، وتدل على التوحيد وعظم القدرة الإلهية، وصدق النبوة والرسالة والمعاد وعدالة المطالب السياسية التي تقدم بها موسى الكليم عليه السلام إلى النظام الفرعوني، وبطلان ما كان عليه فرعون وقومه في الدين والسياسة لدى كل من تدبر فيها بموضوعية ونزاهة وحياد، إلا أن الترف والسلطة والأطماع والعناد والطبيعة الموغلة في السوء، أعمت عيون فرعون وملئه وقومه وبصائرهم عن العظة والاعتبار والإذعان للحق، فلم يستفيدوا من الآيات البينات والحجج الباهرات والمعجزات العظيمة والأدلة والبراهين المنطقية الساطعة القاطعة والمواعظ الصادقة، فلم يؤمنوا بالدين الحق، ولجوا في طغيانهم يعمهون، وذلك: لفساد قلوبهم وسوء طباعهم، كما هو دأب الطغاة المستكبرين والفراعنة المتجبرين والحكام الظلمة المستبدين والمترفين المتعالين وأعوانهم الطامعين والمتعصبين، حتى أهلكهم الله ﷻ أجمعين، بسبب كفرهم وعنادهم واستكبارهم على الحق والعباد، بعد أن حذرهم كثيراً وأمهلهم طويلاً.

فلا ينبغي الحزن والأسف عليهم؛ لأنهم يستحقون ما نزل بهم من العقوبة والنهاية المأساوية المؤلمة جداً جزاء أعمالهم وما كسبت أيديهم الآثمة، وليعلم الجميع بأن الله هو العزيز والمنتقم من أعدائه: أعداء الحق والفضيلة والإنسانية بعد أن يمهلهم ويقيم عليهم الحجة البالغة، فقدرته لا تحد ولا تقهر، وهو الرحيم بجميع عباده، فهو يمهل الكافرين المكذبين سنين طويلة ولا يعجل عليهم مما يدل على أن رحمته تشمل حتى المسيئين فهم خلقه وعباده، وهو الرحيم بأوليائه الصالحين وعباده المؤمنين، إذ يصبرهم ويربط على قلوبهم وينصرهم ويخلصهم من قبضة الجبارين والظالمين متى يشاء، فقد أهلك فرعون وقومه الجبارين، ونجى برحمته موسى الكليم عليه السلام وقومه المستضعفين، وعبارة: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1] تدل على أن رحمة الله ذي الجلال والإكرام لا تأتي من منطق الضعف، بل لكمال ذاته وعظيم صفاته وأفعاله.

---

١. الشعراء: ٦٨

المحور الخامس

سورة غافر (٢٣ - ٥٢)

- الفصل الأول: إرسال موسى إلى فرعون وعناده
- الفصل الثاني: نصيحة مؤمن آل فرعون لقومه

الفصل الأول: إرسال موسى إلى فرعون وعناده

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[1]

إرسال موسى إلى فرعون وتأييده بالمعجزات

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾

ذكر الله ﷻ أنه أرسل موسى الكليم عليه السلام وأيده بتسع معجزات عظيمة باهرة، تدل على صدق نبوته ورسالته وأحقية ما أرسل به وعدالة قضيته ومطالبه السياسية الواقعية من النظام الفرعوني، وبطلان ماعليه الذين أُرسل إليهم: فرعون وملئه وقومه الأقباط من الشرك والظلم والاستبداد

---

١. غافر: ٢٣-٢٧

والمعصية وجحود النعمة الإلهية عليهم ونحو ذلك من الجرائم والذنوب.

والمعجزات التسع، هي: العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان والقحط ونقص الثمرات، وعزز ذلك: ببيان واضح مبين، ومنطق سليم، وأدلة وبراهين صحيحة وقاطعة الدلالة على المطلوب، ظاهرة وموجبة لتمام الإذعان، وقاهرة تتسلط على العقول والقلوب وتهيمن عليها، وذلك على يد موسى الكليم عليه السلام، وأضفى عليه سلطة غيبية قاهرة وهيبة ووقار تخضع لها النفوس وتنكس لها الرؤوس منعت فرعون رغم طغيانه وجبروته من قتله وإطفاء نور رسالته أو أن تمتد يده إليه بسوء، مما يدل على أن موسى الكليم عليه السلام كان يزاوج بين منطق العقل وبين الإعجاز الذي يدل على ارتباطه بالله ذي الجلال والإكرام وبعالم الغيب، وهذا هو دأب الأنبياء والأوصياء عليهم السلام دائماً.

وكانت الرسالة الربانية على يد موسى الكليم عليه السلام إلى فرعون وملئه وقومه وإلى بني إسرائيل وسائر الناس في زمانه، وقد خص الله جل جلاله بالذكر فرعون وهامان وقارون؛ لأنهم رؤساء المكذبين، والأصول التي ينتهي إليها كل فساد وفتنة وضلال، ولو آمن هؤلاء الثلاثة لآمن الجميع تقريباً، كما هي سنة المجتمعات البشرية، ففرعون هو رأس النظام والتجبر والطغيان، وصاحب الجيوش العظيمة الجرارة، وقد زعم الألوهية والربوبية بغير حق وتعالى على العباد.

وهامان وزير فرعون الأعظم وشيطانه المقرب والمخطط الاستراتيجي الذي يحمي عرشه والقائم على تنفيذ السياسة الفرعونية الشيطانية

وشريك فرعون في جرائمة وطغيانه.

وقارون أغنى رجل في عصره وذو الخزائن العظيمة المليئة، ورمز الترف والبذخ والطغيان المالي، وصاحب التأثير الكبير في البساط الملكي الفرعوني، وقيل: كان يشغل منصبه وزير المالية والمسؤول عن تدبير الاقتصاد في الدولة الفرعونية، ورمز الأنانية والاستغلال والنفعية والخيانة؛ لأنه كان من بني إسرائيل فبغى عليهم واعتزلهم وأصبح يوالي فرعون ونظامه، ويساند فرعون في ظلمه وطغيانه ضد أبناء قومه وجلدته من بني إسرائيل من أجل المحافظة على مكانته لدى فرعون وزيادة ثروته؛ ولعداوته الشديدة وبغظه لموسى الكليم عليه السلام والمؤمنين من بني إسرائيل؛ حسداً منه إليهم لإيمانهم وغضباً عليهم لأنه يعلم بأن موسى الكليم عليه السلام على حق ودعوته صدق وعدل، ولكنه لا يريد أن يتبعه استنكاراً في نفسه على الحق وأهله، تماماً كما هو شأن إبليس مع آدم عليه السلام؛ ولأن اتباعه يتعارض مع دنياه ومصالحه الدنيوية العاجلة التي لا يريد أن يفرط فيها ولو كان ذلك على حساب آخرته.

مما يدل على أن المهم في الحكم على الأشخاص ليس انتماءهم الديني أو الطائفي أو العرقي الرسمي، وإنما على سلوكهم ومواقفهم وعلاقاتهم الاختيارية، ففي كل عصر ومصر، يجد الفراعنة المتجبرون والحكام المستبدون الظلمة من النفعيين والانتهازيين الأنانيين من جميع الطوائف والأعراق والأديان الذين يواسونهم ويدعمون سياساتهم الجائرة ضد أبناء جلدتهم، من أجل مصالحهم الشخصية الدنيوية، وهذا الولاء والدعم لا

يدل في ميزان التقييم السياسي الموضعي على قبول النظام أو الحاكم بالتنوع والتعددية و إنما يدل على أنه المركز أو المحور الذي يجتمع حوله ويدور الفاسدون والنفعيون والأنانيون، بغض النظر عن انتمائهم الديني أو الطائفي أو العرقي، فهم لا يعرفون إلا أنفسهم ولا يقيمون وزناً للمبادئ والقيم والمصالح العامة، و إنما يدورون مع مصالحهم الشخصية الدنيوية حيثما دارت، ويدخلون معها في كل حانة ومخدع.

كما يدل على الدور الخبيث الذي تلعبه الطبقة الفاسدة من السياسيين والمترفين والنفعيين من رجال الأعمال وأصحاب الثروة والطامعين في المكانة والجاه والمناصب في مساندة ودعم الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الظالمة، ونشر الفساد في الأرض من أجل نزواتهم ونوازعهم الأنانية ومصالحهم الخاصة، مما يكشف عن حماقتهم وأنانيتهم المفرطة وعدم وطنيتهم وعدم اكتراثهم بالقيم السامية والمبادئ الإنسانية، حيث يقدمون مصالحهم الشخصية على جميع القيم والمبادئ والمصالح العامة: الوطنية أو القومية أو الدينية ونحو ذلك.

ويدل على ذلك: أن دعوة موسى الكليم عليه السلام ودعوات سائر الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام والمؤمنين المصلحين في الأرض، تستهدف القضاء على الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الظالمة، وفضح الطبقة السياسية النفعية الفاسدة، والانتهازيين والمترفين المستغلين، الذين لا يهمهم سوى الحفاظ على مصالحهم وزيادة نفوذهم وثرواتهم، ويسعى الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحون والمؤمنون عليهم السلام إلى بناء مجتمع صالح يقوم على الدين الحق والصراط المستقيم، وعلى

قواعد العدالة الكاملة والقيم السامية والمبادئ الإلهية، ويتمتع أهله بالأمن والسلام والاستقرار والتطور والتنمية الشاملة المستدامة، وذلك بقيادة حكومة شرعية رشيدة تعتمد على الدعم الشعبي لها.

ولأن هؤلاء المفسدين: الفراعنة والحكام المستبدين الظلمة والطبقة السياسية النفعية الفاسدة والمترفين المستغلين والانتهازيين ومن لف لفهم، وممثلهم في موضوع البحث: فرعون وهامان وقارون، فإنهم بعد أن رأوا بأم أعينهم المعجزات الباهرة من موسى الكليم عليه السلام لم يذعنوا للحق المبين، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض والإنكار، بل ردوا بأسوء رد، إذ وصفوا موسى الكليم عليه السلام فيما جاء به من عند ربه جل وعلا بالسحر والكذب، وهو في الحقيقة وبحسب الشهادة والمنطق أطهر الخلق وأصدقهم في زمانه.

أي: إن ما جاء به ليس معجزة من عند رب العالمين تدل على التوحيد وصدق نبوته والرسالة التي جاء بها إليهم، و إنما هو من جنس السحر، و إن دعوى النبوة والرسالة دعوى كاذبة لا واقع ولا أساس لها من الصحة، و إن أهدافه سياسية انقلابية خبيثة، وهي: الانقلاب على النظام الملكي الفرعوني القائم، وعلى الدين الرسمي للدولة، وعلى التراث والثقافة الشعبية والتاريخ القومي، والسعي للإضرار بمصالح الشعب، وليس ذلك فحسب، بل السعي لطرد الأقباط من وطنهم و إخراجهم من أرضهم وأملاكهم، من أجل الاستئثار بالسلطة والثروة وفرض عقيدة التوحيد وبناء الحياة العامة والخاصة على أساسها، فسموا الحجة الباهرة والسلطان المبين سحراً

وكذباً، والحجج والبراهين التي يأتي بها الأولياء الصالحون والمصلحون الشرفاء والمطالبون بحقوق الإنسان الذين يعارضون سياساتهم، ويرون فيهم خطراً على امتيازاتهم ومصالحهم غير المشروعة، إذ يقابلونها بمنطق القوة والمغالطات والاتهام، بدل مقابلة الدليل بالدليل والحجة بالحجة، لأن سلطتهم ومصالحهم تقوم على فرض الأمر الواقع بالقوة، والتدليس على الناس بالشبهات والمغالطات، وليس على الحقائق والمنطق والإرادة الشعبية.

انتقام فرعون من بني إسرائيل

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

وعلى أساس وصفهم لما جاء به موسى الكليم عليه السلام بالسحر والكذب، فقد قرروا مقابلة السحر بسحر مثله، من خلال مبارزة تاريخية فاصلة بين أمهر السحرة في مصر وبين موسى الكليم عليه السلام، بهدف إثبات كذبه وعدم صدق نبوته ورسالته، و إثبات سوء سريرته وأهدافه الانقلابية، ولمّا انتصر موسى الكليم عليه السلام على السحرة، وأعلن السحرة إيمانهم أمام الجماهير، لم يذعنوا للحق المبين، ولم يقبلوا به، وكان من الواجب قبوله والإذعان له بحكم المنطق والفطرة والضمير، وعلى العكس من ذلك: ازدادوا عتواً وطغياناً ونفوراً من الحق وأهله، وقرروا إعادة السيرة الفرعونية السابقة في

بني إسرائيل، فقالوا: ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾[١].

أي: أعيدوا عليهم سيرتنا الأولى فيهم، وهي: قتل أبناء المؤمنين من بني إسرائيل و إبقاء نسائهم للخدمة والمتعة الجنسية، وعبارة: ﴿آمَنُوا مَعَهُ﴾[٢] تدل على الإيمان مع المناصرة وليس مجرد الإيمان، يريدون بذلك، القضاء على الطاقات الفاعلة التي تمد حركة موسى الكليم عليه السلام بالقوة والشكيمة، وترك غير الفاعلين للإفادة منهم في خدمة النظام: الطبقة السياسية والموالين لهم، وتلك واحدة من الممارسات والخطط الاستكبارية المشؤومة في مواجهة القوى المعارضة، وبلاء مبين، من أجل نشر الرعب والخوف من تبعات الإيمان بدعوة موسى الكليم عليه السلام، فلا يؤمن أحد بدين موسى الكليم عليه السلام ولا يظاهرونه في دعوته وحركته التحررية، وهذا هو دأب الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الظالمة، وهو الاعتماد على الإغرار والعنف والإرهاب؛ لإخضاع الناس عامة لا سيما أصحاب النفوس الضعيفة.

وفي الآية الشريفة المباركة مقايسة عجيبة بين ما جاءهم به موسى الكليم عليه السلام ودعاهم إليه، وبين ما قابلوه به، فقد جاءهم بالحق المبين من عند الله تبارك وتعالى وأقام عليه الدليل القاطع الذي لا يقبل الشك أبداً، ودعاهم إلى التوحيد واتباع سبيل النبوة والرسالة والفضيلة و إقامة العدل بين الناس والتنمية الشاملة المستدامة، وحذرهم من عواقب المخالفة

---

١. غافر: ٢٥

٢. نفس المصدر

في الدارين، الدنيا والآخرة، وكان من الواجب وبحسب المنطق والطبع السليم والفطرة أن يقبلوا منه، ولكنهم بدلاً من أن يذعنوا للحق ويقبلوه، قابلوه بالكيد والإيغال في الضلال والعناد والاستكبار والظلم والطغيان.

إلا أن العنف والإرهاب ضد المعارضين وأبناء الشعب المستضعفين، وإن أفاد الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الظالمة على المدى القريب، لكنه يقوض سلطتهم وحكوماتهم على المدى البعيد، قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[١] فقد قضى الله ﷻ أن ينتصر الحق وأهله، وأن يزهق الباطل وأنصاره، مما يجعل كيدهم وتخطيطهم للقضاء على الحق وحركة المستضعفين وحركات الإصلاح والتحرر في ضياع، فقد كاد فرعون وملؤه تلك المكيدة الخبيثة: ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾[٢] وظنوا أنهم إذا قتلوا أبناء المؤمنين من بني إسرائيل الذين يمثلون القوة الضاربة فيهم، فإنهم بهذه المكيدة الخبيثة، سيبقون بني إسرائيل ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، ولا يتمكنون من مناصرة حركة موسى الكليم عليه السلام الإصلاحية والتحررية، وسيبقون في رقهم وعبوديتهم للأقباط، وخاضعين لسلطة فرعون وحكومته الغاشمة، إلا أن فرعون وملأه أصيبوا بالإحباط والخيبة ولم ينالوا ما أرادوا، فبقي بنو إسرائيل على إيمانهم بنبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته، والتفوا حوله وثبتوا على مناصرته، وعلى العكس مما أراد فرعون وملؤه: فقد أهلكهم الله ﷻ وأبادهم عن آخرهم، واستخلف بني إسرائيل، وهذا كان على خلاف ما قصدوا تماماً.

---

١. فاطر: ٤٣

٢. غافر: ٢٥

وعبارة: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[١] تدل على أن ما حصل لفرعون وملئه، هي سنة إلهية وقاعدة ثابتة، فلم يقل مثلاً: وما كيد فرعون إلا في ضلال، و إنما قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِين﴾[٢] مما يدل على العموم، وأن ما أصاب فرعون وملأه ليس مختصاً بهم، بل يشمل كل من اتصف بصفاتهم وتطبع بطباعهم ومارس نفس أعمالهم القبيحة.

لقد أمر موسى الكليمعليه السلام بني إسرائيل بالصبر على البلاء العظيم والمحن التي وضعهم النظام الفرعوني فيها، ووعدهم بالفرج وهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض بدلاً من آل فرعون.

إرادة فرعون قتل موسى

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

وأدرك فرعون وملؤه فشل سياستهم الإرهابية في إبطال دعوة موسى الكليمعليه السلام والقضاء على حركة بني إسرائيل المستضعفين التحررية، وأيقن بأن دعوة موسى الكليمعليه السلام والحركة التحررية لبني إسرائيل، هي كالزلزال المدمر الذي يضرب نظامه ودولته وحكومته وهيبته، فقال فرعون في

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

يأس شديد وتجبر لملئه ومستشاريه: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾[١] أي: إنه يحملهم المسؤولية في عدم قتله موسى الكليم عليه السلام فهو كان مدركاً لخطر موسى الكليم عليه السلام من البداية، وكان مقتنعاً بقتله، إلا أنهم نصحوا بتركه فقالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾[٢] فتركه مراعاة منه لخواطرهم، ولولا ذلك لقتله وارتاح من شره بحسب زعمه، وأنه يرى الآن ضرورة المبادرة لقتله وعدم التراخي أو التأخر في ذلك.

وعليه: فهو يطلب منهم موافقته في قتله؛ لأنه ما دام موسى الكليم عليه السلام على قيد الحياة، فسيبقى يمثل خطراً وجودياً جدياً على النظام الفرعوني والدولة والحكومة والملك ومصالح الشعب، فالمؤمنون به والداعمون لحركته التحررية في ازدياد دائم، وحركته في تنام مستمر، ويخشى أن ينتقل تأثيره من بني إسرائيل ليشمل الأقباط والموالين للنظام والملك؛ لأن منطق موسى الكليم عليه السلام منطق متين، وبيانه بيان واضح وساحر يسطو على العقول والقلوب مما يتيح له الفرصة الكبيرة لأن يخدع البسطاء والعوام من الناس بدرجة مخيفة، مؤكداً أنهم يملكون القوة والقدرة، وأنهم متمكنون من قتله والقضاء على حركته تماماً.

وقال مستهزءً: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾[٣] الذي يزعم أنه أرسله إلينا لينجيه من سخطه ويخلصه من قبضتي ويمنع عنه القتل إن قدر ربه على ذلك،

---

١. غافر: ٢٦

٢. الأعراف: ١١١ - الشعراء: ٣٦

٣. غافر: ٢٦

أراد بذلك أن يقول: ليس لموسى الكليم عليه السلام رب حقيقي يستعين به فعلاً؛ لأني أنا ربكم الأعلى ولي ملك مصر وبيدي التدبير، وليس لغيري شيء من ذلك، وقيل: إنه قال ذلك تجلداً وللتمويه وإظهاراً لعدم مبالاته على خلاف الواقع وما كان يدور في نفسه من قلق وفزع وخوف شديد من موسى الكليم عليه السلام ومن دعائه عليه وعلى قومه، وذلك ليقينه بصدق موسى الكليم عليه السلام أو على الأقل: لاحتمال وجواز صدقه، لما رآه من شأنه وما جرى على يديه من الخوارق، فحمل مستشاريه المسؤولية لكي يخفي حقيقة ما كان يدور في نفسه مما يتنافى في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾،[1] وكان المستشارون يمنعون فرعون من الإقدام على قتل موسى الكليم عليه السلام ولم يذكر القرآن الكريم الأسباب التي حملتهم على ذلك، إلا أن علماء التفسير قد ذكروا أسباباً عديدة محتملة قد استفادوا من مجموع الآيات النازلة في الموضوع، ومن السياقات للآيات الشريفة، والتحليل المنطقي والواقعي للأحداث، ونحو ذلك.

ومن الأسباب التي ذكرها علماء التفسير، التالي:

- لكي لا يظن الناس عجز النظام الفرعوني عن معارضة موسى الكليم عليه السلام بالحجة والبرهان، فعاجله بالقتل ليقينه بصدقه وخطر دعوته، ويكفي نفسه أعباء مواجهته ويرتاح من شره، ولا شك فإن وجود مثل هذا الظن لدى الناس، مما يلحق الضرر بالنظام ويلطخ سمعة الملك.

---

١. النازعات: ٢٤

- لكي لا يتعاطف الناس مع موسى الكليم عليه السلام تحت عنوان المظلومية؛ لأن الناس يميلون غالباً بحسب طبيعتهم الإنسانية وفطرتهم إلى المظلوم، وقد يتحول إلى رمز محاط بهالة من القدسية، مما يزيد في عدد أتباعه والمؤمنين بدعوته والمناصرين لحركته التحررية، وتتحول حركته إلى تيار شعبي كبير تصعب السيطرة عليه، وقد يشمل التعاطف معه العديد من الأقباط الموالين للنظام إلى جانب بني إسرائيل، مما يلحق الضرر البالغ بالنظام.

- الخوف من الانتقام الإلهي، بأن يثأر رب موسى عليه السلام لقتله، وهذا مبني على جواز صدقه لما رأوه من شأنه وما جاء به من الخوارق، وقد ذكرهم بذلك مؤمن آل فرعون كما سيأتي بعد قليل، فيصيبهم الهلاك، أو أن يدعو عليهم بسحره لكونه أمهر السحرة وأعظمهم خبرة في فنون السحر واطلاعاً على دقائقه وأسراره وخباياه، وأكثرهم خطراً على الإطلاق، مما يجعل من قتله أمراً غير ميسورٍ ولا مأمون العواقب، ولولا هذا الخوف لما ترددوا في قتله ساعة واحدة، فالنظام الفرعوني تعود سفك الدماء لأتفه الأسباب.

- الانتظار لنتائج المبارزة بين موسى الكليم عليه السلام وبين السحرة؛ لأنهم كانوا يأملون انتصار السحرة، فيفتضح أمره ويكتشف كذبه ويقضى على دعوته بهذا الأسلوب الأسهل والأقل كلفة: مادياً وبشرياً ومعنوياً، وعليه فإن حماس فرعون لقتل موسى الكليم عليه السلام بناء على صحة هذا السبب المحتمل، جاء بعد المبارزة التاريخية

الفاصلة، وما حققه موسى الكليم عليه السلام من الانتصار الساحق على السحرة، و إذعان السحرة إلى الحق واعترافهم بالهزيمة و إعلان إيمانهم بكل وضوح وبدون لبس أمام الجماهير الأمر الذي يترتب عليه عواقب وخيمة، مما أصاب فرعون وملأه بالخيبة والخسران.

- وقيل: إن المستشارين أوهموا فرعون بأن موسى الكليم عليه السلام ليس هو الشخص الذي أخبره المنجمون بأنه يقضي على نظامه وملكه وعليه شخصياً، وخوفوه من ذلك وحذروه منه، بل هو مجرد ساحر يمتهن السحر بمهارة فائقة لا نظير لها.

- وقيل أيضاً: إن بعض الحاشية والمستشارين كانوا يرغبون في بقاء خطر موسى الكليم عليه السلام على النظام والملك قائماً حباً لموسى الكليم عليه السلام كما هو حال مؤمن آل فرعون، أو ليبقى بال فرعون مشغولاً بخطره، فيشعر بالحاجة إليهم لمواجهته، وليأمنوا رقابة فرعون على أفعالهم، مما يقويهم ويرسخ نفوذهم في البلاط.

ثم ذكر فرعون المبررات الخارجية الواقعية لإرادته قتل موسى الكليم عليه السلام ويجعل من قتله عملاً موافقاً للحكمة وللسياسة الواقعية الرشيدة بزعمه، وقد ذكر سببين: الأول ذي طابع ديني ومعنوي، والثاني ذي طابع مادي دنيوي.فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[1] أي: إني أخاف إن لم أقتله ونتخلص منه، أن يظهر دينه وينتشر بين الناس وينفذ إلى أعماق قلوبهم، فيبدل دينكم الذي أنتم عليه لقرون عديدة،

١. غافر: ٢٦

وهو: عبادتكم إياي لأني ربكم الأعلى، وعبادة الأصنام التي هي الوسيلة للتقرب إلى واجب الوجود الذي هو إله الآلهة ورب الأرباب، وهو الدين الذي يمثل هويتكم الدينية والوطنية، ويحفظ مصالحكم ووحدتكم الدينية والوطنية، ويدخلكم بدلاً عنه في دين التوحيد، الذي يدعو إليه ويقيم الحجة والدليل بزعمه عليه، ويشرحه ببيان واضح لا لبس فيه ولا غموض، وبإسلوب ساحر مؤثر في النفوس، ويسعى بكل جهد لتشييد الحياة: الخاصة والعامة على أساسه.

وبذلك: فقد أعرب فرعون عن تخوفه الشديد من أن يبدل موسى الكليم عليه السلام الدين الرسمي للنظام الفرعوني، وهو الدين الذي يكتسب به فرعون صفة الألوهية ويزعم أنه الرب الأعلى الذي له ملك مصر وتدبيرها، وبيده أرزاق الناس ومصائرهم، ونحو ذلك، مما يعني أنه يخاف من أن يفقد مكانته ومنزلته وهيبته بين الناس، ويضيع ملكه ويخسر كل ما كان يتمتع به من الامتيازات، وهذا يكشف فن الأسلوب الاستكباري الخبيث لدى الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الظالمة في ارتداء لباس الدين واستخدام اسمه، وتبني شعاراته، من أجل تخدير الناس وتجهيلهم وترسيخ سلطتهم، وحمل الناس على تجاهل سلبيات سياساتهم ومواقفهم بإضفاء الصبغة الدينية عليها كذباً ونفاقاً، واستعدائهم على المعارضة والحركات الإصلاحية والتحررية وتحريضهم عليها.

ومن المدهش والعجيب: أن يوجد أشخاص يصدقون أطروحات الفراعنة السخيفة المخالفة للعقل والمنطق، والتي تقوم على المغالطات

والقلب للحقائق والواقع، ويكذبون أطروحات الأولياء الصالحين والمصلحين الشرفاء والمطالبين بالحرية وحقوق الإنسان، التي تقوم على الحقائق الفعلية وتعتمد على البراهين والمنطق السليم، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[١] ويأتي ذلك تملقاً لفرعون، أو بسبب التعصب المحض للدين الموروث والقومية ونحو ذلك، واتباعاً للهوى، وغفلةً عن غاية وجود الإنسان ومصيره، مما يعد سبباً للهلاك، قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٢]

ثم ذكر فرعون سبباً آخر لإرادته قتل موسى الكليم عليه السلام وهو قوله: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[٣] أي: إن موسى الكليم عليه السلام إن فشل في تبديل دينكم بدين التوحيد، وهذا هو المتوقع منكم لما تتمتعون به من وطنية وإخلاص للنظام والملك والتراث، إلا أن نجاحه في إفساد دنياكم أمرٌ محتومٌ إن بقي على قيد الحياة، وذلك بأن ينتشر دينه ويكثر أتباعه ومناصروه وتقوى شوكتهم في المستقبل، وتصعب مجاهدتهم والقضاء عليهم، وتجر مواجهتهم إلى إراقة الكثير من الدماء، ثم يعلنون التمرد على النظام والدولة والملك، ويحرضون على الثورة ضدنا، فيقع بين الناس

---

١. الزخرف: ٥٤

٢. الزخرف: ٢٣-٢٥

٣. غافر: ٢٦

الخلاف والفتنة والتحارب والتنازع وتتفرق الصفوف وتتمزق الوحدة الوطنية، ويفقد الناس الشعور بالأمن والاستقرار وتضطرب الأوضاع الأمنية وتتضرر المصالح الحيوية للناس، ويقضي على النظام والدولة، وينتشر القتل في صفوف القادة والأتباع الموالين للنظام والملك من الأقباط وغيرهم، ويشيع الخوف والقلق في أطراف البلاد.

انظر إلى منطق الفراعنة السخيف: يزعمون أن الأولياء الصالحين من الأنبياء المرسلين والأوصياء عليهم السلام والفقهاء العدول (رضوان الله تعالى عليهم) الذين يدعون بالحجة والدليل والبرهان إلى الدين الحق، ويبينون الحقائق ويشرحونها للناس، ويدعون إلى عبادة الله ذي الجلال والإكرام وتحرير الإنسان من عبادة الإنسان، ويعملون من أجل الإصلاح والتنمية الشاملة المستدامة، يحرفون الدين الحق، ويفسدون في الأرض، وأن فرعون الطاغية الذي يزعم الألوهية والربوبية ويقول للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[1] كذباً وبغير حق وبدون حجة أو دليل، والذين معه من شرار الخلق من السياسيين الانتهازيين، والمترفين المستغلين الأنانيين، بما هم عليه من ضعف المنطق والسفه والسقوط الأخلاقي والطغيان والظلم الفاحش والجور ونحو ذلك، هم الذين يقيمون الدين الحق ويصلحون في الأرض وينصحون الناس، ومع هذه المفارقة العجيبة يوجد من يصدقهم ويتبعهم ويكذب الأولياء الصالحين ويعاديهم ويحاربهم بكل قوة ووسيلة !!

وبهذا: فقد حذر فرعون ملأه وقومه من دعوى موسى الكليم عليه السلام من

---

١. النازعات: ٢٤

جهة دينهم، ومن جهة دنياهم، ليخلص من ذلك إلى القول: بأن الحكمة والمصلحة الوطنية والسياسية الواقعية الرشيدة، تقتضي كلها الإسراع في قتل موسى الكليم عليه السلام وعدم التراخي أو التردد أو التأخير في ذلك.

ويمتاز الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدون الظلمة دائماً بالهوس الأمني والخوف الشديد من المعارضة والمعارضين، والمبالغة في المخاوف والإجراءات التحرزية والانتقام من المعارضين ودعاة الإصلاح والمطالبين بحقوق الإنسان، إلى درجة نشر الخوف والرعب بين الناس، ويفقد الناس الشعور بالراحة والأمن والاستقرار، وتعطل حركة التنمية والتطور في الحياة، وينشر الجهل ويكرس التخلف والتبعية في الدولة والمجتمع.

إلا أن موسى الكليم عليه السلام لم يكترث بتهديدات فرعون ووعيده، ورد على مقولة فرعون الشنيعة التي أوجبها له طغيانه وجبروته، واعتمد فيها على قوته واقتداره، واستظهر بعض المفسرين حضور موسى الكليم عليه السلام المجلس، فقال بقاطعية واطمئنان يستمدان أصولهما وجذورهما من قوة الإيمان والثقة بالله عز وجل واعتماده المطلق عليه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[1] أي: استجرت واعتصمت واحتميت بالله ربي وربكم، أي: ورب فرعون نفسه ورب ملئه وقومه، فهم جميعاً خاضعون إلى إرادته وسلطانه وحكمه نافذ فيهم كما هو نافذ في غيرهم وفي جميع الأمور، فلا يملكون أن يفعلوا شيئاً كبيراً أو صغيراً بدون إذنه وعلى خلاف إرادته، فلا يستطيع فرعون أو أي شخص آخر لا يرى إلا

١. غافر: ٢٧

نفسه، ويشاركه في صفة التكبر على الحق وأهله، ومتجبر على الخلق ومتعالٍ على العباد ولا يراعي حرمة أو حق لأحد من الناس، ولا يؤمن بيوم الحساب، فهو مستعد لأن يرتكب أية جريمة شنيعة من أجل رغباته ونزواته الشخصية ومصالحه، ويرى في نصيحة الأصدقاء المقربين ضعفاً أو تراجعاً، ويواجه كل دعوة صالحة ويحارب الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام والفقهاء العدول والمصلحين الشرفاء والمطالبين بالحقوق ونحوهم، ويرى نفسه حراً طليقاً، ولا يرى لنفسه حدوداً يقف عندها لأنه غافل عن الله ذي الجلال والإكرام، ولا يؤمن بيوم الحساب، فهو لا يؤمن بالرقيب عليه، ولا بما يردعه عن الفعل القبيح والعمل السيء، ويتمتع بصلاحيات مطلقة، ولا يخاف المحاسبة والعقاب على جرائمه، مما يحمله على الشر والفساد.

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**تعوذ موسى بالله ممن جمع بين التكبر وعدم الخوف من الله وحسابه وعقابه؛ لأن أرذل الخلق على الإطلاق من جمع بين هاتين الرذيلتين**».[1]

والواقع: أن كل من يجمع بين هاتين الصفتين: التكبر وعدم الإيمان بيوم الحساب، هو في الحقيقة إنسان سافل في غاية الخطورة على العباد، ولا يؤمن شره أبداً ما دام قادراً عليه، وتنبغي الاستعاذة بالله عز وجل منه، ومن شره وكيده، واستعاذة موسى الكليم عليه السلام تدل في الحقيقة والواقع على ثباته وصموده العظيم أمام تهديدات فرعون الاستكبارية ووعيده،

١. تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، جزء ٦، صفحة ٤٤٨

وأن الجمع بين الصفتين الرذيلتين القبيحتين: التكبر وعدم الإيمان عملياً بيوم الحساب، هو الداء العضال الذي يصيب الحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين في ظل ما يملكون من الثروة والسلطة وأسباب القوة، الذين يمارسون سلطاتهم المطلقة ونفوذهم، في غياب الرقابة الغيبية والشعبية، وغياب المحاسبة، والأمن من العقاب على جرائمهم، فكل الذين يملكون الثروة والسلطة وأسباب القوة، وليست عليهم رقابة شعبية ومحاسبة قانونية ويأمنون من العقاب، فإنهم يتمادون كثيراً في جرائمهم وخياناتهم ضد الوطن والمواطنين والإنسانية، ولا استثناء في ذلك وكلما ملكوا من أسباب القوة أكثر، كان خطرهم أكبر، وشرهم أعم، وحتى الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، وهم يملكون الثروة والسلطة وأسباب القوة، ولا توجد عليهم رقابة شعبية ومحاسبة قانونية ويأمنون من العقوبة الدنيوية على أعمالهم وأخطائهم، فإن ذلك من شأنه أن يدفعهم إلى الخطأ، وقديماً قيل: «من أمن العقوبة أساء الأدب».

وعبارة: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾[1] تدل على أن عمدة ما يدفع به الشر، هو العوذ بالله ﷻ وحده؛ لأنه وحده المستقل بالتأثير في الوجود ولا مؤثر في الوجود بغير إذنه وعلى خلاف إرادته التكوينية؛ لأن غيره يستمد وجوده وصفاته وقدرته وأفعاله منه، ولا يستقل تكويناً في شيء من ذلك عنه، وعبر بالرب: بمناسبته لطلب الحفظ؛ لأن الرب هو الخالق المالك المدبر في العالم، ولا مدبر في الحقيقة وبشكل مستقل عنه، وعبارة: ﴿بِرَبِّي

١. غافر: ٢٧

﴿وَرَبِّكُمۡ﴾[١] تدل على اشتراكهم جميعاً معه في الخضوع لإرادة وتدبير رب العالمين الذي هو الرب الحقيقي الوحيد، وفي العبارة مقابلة مع عبارة فرعون الاستعلائية ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾[٢] حيث خص ربوبيته تعالى بموسى الكليم عليه السلام بزعم أنه فوق أن يكون له رب، فأراد موسى الكليم عليه السلام أن يذكره مع ملئه، بأن ربوبية رب العالمين تشملهم، وأن حكمه نافذ فيهم، وعليه: فهو قادر على أن يقيه شرهم وغائلتهم.

وعبارة: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ﴾[٣] المراد بها: فرعون، إلاّ أنه لم يسمه لإرادة التعميم لكل من يحمل هذه الصفة القبيحة، وعبارة: ﴿لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾[٤] فيها إشارة إلى موجب شره وطغيانه وفساده في الأرض.

وقد قيض الله جل جلاله لموسى الكليم عليه السلام من الأسباب ما دفع به عنه شر فرعون الطاغية وملئه، ويخلص بني إسرائيل ويحررهم من قبضة فرعون واسترقاق الأقباط لهم، وينجيهم من إرادة إبادتهم والقضاء عليهم، ويهلك فرعون وملأه وجنوده أجمعين، ويستخلف بني إسرائيل المستضعفين في الأرض، ويورثهم الثروة والسلطة والديار وكل ما خلفه آل فرعون وراءهم من أسباب النعيم.

---

١. نفس المصدر

٢. غافر: ٢٦

٣. غافر: ٢٧

٤. نفس المصدر

الفصل الثاني: نصيحة مؤمن آل فرعون لقومه

قـول الله تعالـى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ
يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ
صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ
لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ
مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا
اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ
مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ
مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ
مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ
اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾
أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ
عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ

أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[١]

الضمير الحي المؤمن لآل فرعون

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾

ضاق فرعون الطاغية وملؤه الفاسدون المفسدون في الأرض ذرعاً بموسى الكليم عليه السلام، فأتمروا على قتله والخلاص من دعوته وما تشكله من تهديد جدي على النظام والدولة والحكومة والملك ومصالح الشعب والدين والتراث بحسب زعمهم، وبينما هم في أخذ ورد ويقلبون أوجه

---

١. غافر: ٢٨-٤٦

الرأي والحيكة لقتله، دفعت المروءة والإخلاص للحق والأهل والعشيرة، رجلاً مؤمناً قبطياً من أقرباء فرعون وخاصته، اسمه: حزقيل، وقيل: صبيت، وقيل: حزبيل، وهو ابن عم فرعون، وقيل ابن خاله، وكان ولي عهده وصاحب شرطته، وقيل: خازن خزائن فرعون والمسؤول عن الشؤون المالية في دولته، مما يشير بحسب منطق الأشياء: أنه كان مطلعاً عن كثب على تفاصيل قصة موسى الكليم عليه السلام مع فرعون وما جرى بينهما من أحداث ووقائع، وكان قد آمن بالتوحيد وبنبوة موسى الكليم عليه السلام وصدق رسالته من رب العالمين إيماناً عن يقين لا يشوبه شك أو تردد، لكن آل فرعون لم يكونوا يعلمون بإيمانه؛ لأنه كان قد كتم إيمانه عنهم، خوفاً على نفسه من القتل، ولمقتضى الحكمة والعقل في ذلك الجو المعادي للحق والفضيلة.

أي: كتم إيمانه عنهم تقية، إلى ذلك الوقت الذي قرر فيه أن يواجه فرعون وقومه بالحقيقة، حرصاً على قومه، وطلباً لخيرهم ومصلحتهم وسعادتهم الحقيقية في الدارين: الدنيا والآخرة.

وكان قد اعتبر نفسه من موقعه في القصر والبلاط الملكي الفرعوني، مكلفاً بحماية موسى الكليم عليه السلام من أي خطر يتهدده من داخل القصر أو البلاط الملكي ودفع الشر عنه، وحين رأى بأن حياة موسى الكليم عليه السلام في خطر حقيقي وقريب، بسبب غضب فرعون الشديد عليه، وإرادته إيقاع الشر به وقتله، ووافقه قومه على ذلك، دفعته مروءته وحرارة الإيمان إلى أن يحذر قومه من مغبة ذلك، ويستنكر عليهم ما أرادوه من الشر

بموسى الكليم عليه السلام، وأن يتحمل الكلفة الكبيرة من ذلك، فنطق بالحق المبين، وبين لقومه ما فيه الحكمة والفضيلة والصواب، وما فيه خيرهم ومصلحتهم وسعادتهم الحقيقية في الدارين: الدنيا والآخرة.

وذلك: بأسلوب حاذق ومؤثر، فقد لجأ إلى كل وسيلة وعامل منطقي ونفسي ليفتح له الطريق لينفذ إلى أعماق قلوبهم ويحدث فيهم التغيير المطلوب، ويثنيهم عن قتل ولي الله الأعظم موسى بن عمران الكليم عليه السلام متسلحاً بالحكمة واللين والإخلاص، وهو أسلوب العالم العاقل الخبير بحقائق الأمور ودفائن النفوس، والناصح الحليم والمشفق على قومه والحريص عليهم تمام الحرص، وله العناية التامة والكاملة للوصول إلى مراده، وجاء بما يؤكده العقل والمنطق السليم وتقبله الفطرة والوجدان، فالحق لا يخلو من ناصر ينصره، ولو بكلمة يجابه بها أهل الباطل والضلال والطغيان، فقد دافع مؤمن آل فرعون عن موسى الكليم عليه السلام دفاعاً مجيداً قوياً وخالصاً لله سبحانه وتعالى، فقال مقبحاً ومنكراً لفعل قومه، ومبيناً لشناعة ما عزموا عليه من قتل موسى الكليم عليه السلام: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾[1].

أي: لا ينبغي لكم بحكم العقل والمنطق والمصلحة المتعينة، أن تقتلوا رجلاً صالحاً لمجرد أنه يقول الكلمة الصادقة ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾[2] فهذه ليست بجريمة أصلاً، فضلاً عن أن تكون جريمة كبيرة وخطيرة لا تغفر، ويستحق

---

١. غافر: ٢٨

٢. نفس المصدر

صاحبها عليها القتل، بل هي في الحقيقة والواقع: عقيدة صحيحة ثابتة، يميل إليها الإنسان بطبعه الإنساني وبفطرته، ويقوم عليها الدليل والبرهان الصحيحان، والحجة القاطعة التي أفحمتكم وعجزتم عن الرد عليها بمثلها، مثل: العصا واليد البيضاء، وهي سبب لاستقامة الحياة وطهارتها وصلاحها وتنميتها التنمية الشاملة المستدامة، والوصول بالحياة إلى أعلى مراتب الكمال، وتحصيل السعادة للإنسان في الدارين: الدنيا والآخرة.

ولم يكن قوله مجرد إدعاء فارغ لا قيمة له ولا وزن في التقييم العلمي والمنطقي، بل ﴿جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[1] أي: جاءكم بالمعجزات التسع الباهرات وبالبينات الواضحات، التي تدل دلالة واضحة قاطعة على أنها من عند الله، الذي نسب إليه الربوبية المطلقة الحقة، وادّعى أنه أرسله إليكم، وهو ربكم وربه وليس ربه وحده، مما يوجب عليكم بحسب العقل والمنطق والفطرة، أن تقبلوا ما جاءكم به وتذعنوا إليه، فما جاء به يدل على صدق نبوته ورسالته.

وعليه: فما جاءكم به موسى الكليم عليه السلام صدق وعدل لا يوجب قتله ولا يستدعي ردة فعل شديدة عليه كما تعتزمون، فإرادة قتله منكر صريح، وفعل فظيع وشنيع، بحكم العقل والمنطق والفطرة، ويجري على خلاف الحكمة والعدل والخير والفضيلة والمصلحة العامة؛ لأنه قتل رجل صالح جاء بالحق من عند ربكم الحقيقي الذي يجب أن تؤمنوا به وتطيعوه وتسلموا لأمره، فالأولى بكم بحكم العقل والمنطق والفطرة، أن تبطلوا

---

١. نفس المصدر

صدق ما جاءكم به بالدليل والبرهان، فإن ظهرتم عليه بالحجة والبرهان، تنظروا بعد ذلك إن كان ينبغي بحكم المصلحة قتله.

والحال أنه قد ظهر عليكم بحجته،واستعلى برهانه، وعجزتم عن الرد المقنع عليه، فلا ينبغي لكم بحكم العقل والمنطق والفضيلة والمصلحة قتله، وعليكم بالتروي والتريث، وأن تفكروا جيداً وبسعة وعمق وتحسبوا لعواقب الأمور ولا تعجلوا في أمر خطير كهذا فيكون الندم والخسران حليفكم، فكل الأدلة تدل بصراحة ووضوح على أن محاربة هذا الرجل الصالح فضلاً عن قتله، أمر في غاية الخطورة.

وقد أضاف الرب إليهم ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾[1] بعد ذكر البينات، احتجاجاً عليهم واستدراجاً لهم ليحصل منهم على الاعتراف والقبول بما جاء به موسى الكليم عليه السلام، ومقولة مؤمن آل فرعون، تدل على أن معجزات موسى الكليم عليه السلام وبيناته الواضحة، كانت قد اشتهرت عند أهل مصر جميعاً اشتهاراً واسعاً بحيث علم بها الصغير والكبير وكانت موضوع حديثهم في المجالس والمنتديات، ثم احتج مؤمن آل فرعون على قومه بطريقة التقسيم، إذ طرح عليهم فرضيتين يدور بينهما حال موسى الكليم عليه السلام فهو لا يعد أن يكون: إما صادقاً أو كاذباً.

أ. **الفرضية الأولى:** ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾[2] أي: لو فرضنا أنه كاذب على الله جل جلاله فيما يدعيه من النبوة والرسالة، فإن هذا لا

---

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

ينفي صحة عقيدة التوحيد وأنها الأساس الصحيح لبناء الحياة الصالحة، لقيام الدليل عليها بشكل مستقل، وتبقى تبعات كذبه في دعوى النبوة والرسالة وإثمها على نفسه، حيث امتنعتم عن إجابته وتصديقه، وحصنتم أنفسكم ودولتكم ومصالحكم بالإجراءات الاحترازية، ثم يخذله الله ﷻ ويعاقبه على كذبه عليه ويفضح أمره عاجلاً أو آجلاً؛ لأن حبل الكذب قصير بحكم الطبيعة، وينال جزاء الكاذبين المارقين عن الحق وهو الهلاك؛ لأن مقتضى الحكمة الإلهية أن لا يترك الله ﷻ شخصاً يكذب عليه لشأنه، فيكون في ذلك إغراء بالكذب عليه، وسبب لإضلال الناس وإغوائهم، ولن ينالكم أو يصل إليكم ضرر من كذبه، وعليه: دعوه يلاقي من الله ﷻ جزاء الكاذبين المارقين، ولا حاجة لكم إلى قتله، ويعتبر قتلكم له سفهاً وجهلاً.

وليس في كلام مؤمن آل فرعون نفي للعواقب السيئة للكذب على الله ﷻ في المجتمع، وإنما في تأكيد على العقاب الإلهي، وعليه: يجب التحرز علمياً وعملياً لدفع العواقب السيئة على المجتمع، وفي كلام مؤمن آل فرعون تعريض بفرعون، بأنه سيلاقي عواقب وجزاء كذبه وإسرافه ومروقه من الحق، في الدارين الدنيا والآخرة، وفرض كذب موسى الكليم عليه السلام جاء على لسان مؤمن آل فرعون، تلطفاً منه مع قومه، ومجاراته لهم وتحديثهم على قدر عقولهم، وسعياً منه لاختراق الجدران ومع الحجب المضروبة على عقولهم ووجدانهم وضمائرهم، في سبيل توفير أرضية نفسية غير مقاومة

ومهيئة لقبول نصيحته الصادقة إليهم، ولم يكن ذلك عن شك منه في صدق نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته، فإنه كان مؤمناً بتزكية الله سبحانه وتعالى له ووصفه إليه بالإيمان، وهذا يكشف بوضوح عن أن للحوار والنصيحة قواعد وأصول ينبغي اتقانها وتفعيلها، مثل: الحرص على الطرف الآخر واللين والتلطف معه، والتحلي بالنزاهة والموضوعية والصدق، وأن يقوم الحوار والنصيحة على منطق ومنهج سليم ومعرفة صحيحة، وعدم القول في العلم بغير علم، والمعرفة بأساليب وطرق النفوذ إلى أعماق النفس واختراق الجدران والحجب المضروبة على العقل والقلب والضمير، ونحو ذلك.

ب. **الفرضية الثانية:** ﴿وَإِنۡ يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾[1] أي: لو كان صادقاً ومأموراً فعلاً من رب العالمين الذي يدعي أنه أرسله إليكم، وهذا هو الراجح نظراً لما جاءكم به من المعجزات الخارقة التي يعجز البشر عن أن يأتوا بمثلها، إضافة إلى البينات الواضحات والبراهين العقلية القاطعة، فإن لازم ذلك بحسب السنن الإلهية في الخلق، أن يصيبكم على الأقل، بعض أنواع العذاب الذي توعدكم به في الدارين الدنيا والآخرة، فقد أخبركم عن الله رب العالمين، أنكم إن لم تجيبوه إلى ما دعاكم إليه وطلبه منكم، فإن الله عز وجل يعذبكم عذابين: عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة، فإن لم يصبكم كل الذي توعدكم به من العذاب، فليس أقل من أن

١. نفس المصدر

يصيبكم بعضه، وعبارة: ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[1] فيها هضم لبعض حق موسى الكليم عليه السلام في الظاهر؛ لأن لازم صدقه إصابتهم بجميع ما توعدهم به لا بعضه.

ولكن مؤمن آل فرعون يريد في الحقيقة أن يتلطف إلى قومه ويجازيهم ويحدثهم على قدر عقولهم، ويثبت نزاهته وموضوعيته وعدم تعصبه إلى موسى الكليم عليه السلام على حسب الحقيقة والمنطق السليم، أي: إن مقولته صدرت منه على سبيل الاحتجاج والتنزل في الحوار بالاكتفاء بأيسر التقادير، وليس فيها على التحقيق أية نقيصة لموسى الكليم عليه السلام أو هضم لأي من حقه، وحاشا لمؤمن آل فرعون أن ينتقص من قدر موسى الكليم عليه السلام أو يهضمه من حقه الثابت له بالدليل والبرهان والحجة، كيف وقد زكّاه رب العالمين ووصفه بالإيمان.

كما تدل المقولة على المبالغة في التحذير، وأن القليل أو بعض ما توعدهم به موسى الكليم عليه السلام فيه خراب دنياهم وهلاكهم في الدنيا، مما ينبغي بحكم العقل والمنطق الحذر الشديد منه والحرص على عدم وقوعه، لا سيما إذا علموا بأن قتلهم لموسى الكليم عليه السلام لن يمنع نزول العذاب الإلهي عليهم، بل سيعجله الله عز وجل ويكون أشد انتقاماً لدم وليه الأعظم الطاهر مما يتطلب بحكم العقل والمنطق والفطرة والوجدان: الاحتراز والامتناع

١. نفس المصدر

عن قتله، وتعتبر مقولة مؤمن آل فرعون، مقوله عقلية منطقية محكمة لا تشويش فيها ولا غموض، من شأنها أن تقنع كل عاقل باحث عن الحقيقة وطالب لها، وهي تدل على مدى حكمته وسلامة منطقه وغزارة علمه وتلطفه بقومه وحرصه الشديد عليهم وسعيه الحثيث لإنقاذهم وحفظ مصالحهم و إيصالهم إلى السعادة الحقيقة في الدارين الدنيا والآخرة.

وقد علل مؤمن آل فرعون هلاكهم، بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[1] أي: أنكم بمخالفة موسى الكليم عليه السلام وعدم القبول منه، تكونون مسرفين في المعاصي الكبيرة والصغيرة، الظاهرة والباطنة، ومن المتعرين طور العبودية لله عز وجل، ومن المكذبين بالحق: بالتوحيد والنبوة والرسالة والمعاد و إقامة العدل والحكم بالشريعة الإلهية المقدسة، ونحو ذلك، والله جل جلاله بمقتضى حكمته لا يهدي من هو مسرف في المعاصي، يتجاوز حد الاعتدال والحكمة، بترك الحق والإقبال على الباطل، ولا يهدي من هو كذاب يدعي ما ليس بحق، وما هو بخلاف الفطرة والعقل والمنطق، مثل: دعوى الألوهية والربوبية والملكية المطلقة والاستقلال في التشريع بعيداً عن الله سبحانه وتعالى وعن الإرادة الشعبية واتخاذ أرباب من دون الله سبحانه وتعالى، وينسب ما أسرف فيه من المعاصي والذنوب إلى الله سبحانه وتعالى، فهذا المكذب المارق، لا يهديه الله سبحانه، بل يخزيه ويلعنه ويفضحه في الدنيا والآخرة وينزل به أشد العذاب، بل هو يفضح نفسه بنفسه لما يختلقه من الأباطيل ويخالف به العقل والمنطق

١. نفس المصدر

والوجدان، وما يقع فيه من التناقضات، وذلك بالضرورة العقلية ومنطق الأشياء، فهو يقف دائماً مفضوحاً عارياً على شفير حفرة هاوية.

هذا وقد رأيتم ما دعا إليه موسى الكليم عليه السلام من الحق وبينه من الصراط المستقيم والنهج القويم في الحياة، وما أيده به من المعجزات الباهرات الخارقة للعادة، مثل العصا واليد البيضاء، والتي يحكم العقل والمنطق بأنها فوق الطبيعة وفوق قدرة الإنسان: الساحر وغيره، وقد شاهدتم بأم أعينكم انتصاره على السحرة مما حملهم جميعاً على الاستسلام إليه والإذعان لعقيدته عن قناعة تامة، ولم يرضخوا لتهديدات فرعون ووعيده، بل استرخصوا الأرواح في سبيل الحق المبين الذي عرفوه عن يقين لا شك فيه ولا تردد، أضف إلى ذلك ما هداه الله تبارك وتعالى إليه من البينات الواضحات والبراهين العقلية القاطعة، ومن جاء بمثل ما جاء به موسى الكليم عليه السلام لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، بل هو صادق كامل العقل سليم المنطق، وذو قضية عظيمة وعلم واسع لا نظير له ومعرفة يقينية بالله ذي الجلال والإكرام، مما يتطلب بحكم العقل والمنطق والوجدان: الاحتراز والحذر الشديد والامتناع عن قتله، وعليه: فقد أثبت مؤمن آل فرعون صدق موسى الكليم عليه السلام ودافع عن حياته، وقدم احتجاجاً محكماً ذا وجهين:

- إذا كان موسى الكليم عليه السلام سائراً في طريق الكذب والإسراف والتجاوز، فلن تشمله الهداية الإلهية، ولن يكون في مقدوره الإتيان بالمعجزات الباهرات والبينات الواضحات؛ لأن ذلك مخالف للحكمة الإلهية،

ولأنه أتى بذلك، فهو صادق وليس بكاذب.

- إذا تكفل الله ﷻ بخذلان موسى الكليم عليه السلام وهلاكه لكذبه على الله جل جلاله، فإنه لا حاجة لآل فرعون إلى قتله.

وعلى كلا الفرضين: صدقه أو كذبه، فإن الإقدام على قتله مخالف للمنطق والصواب والفضيلة والمصلحة.

وعليه: فإن عبارة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[١] من تمام كلام مؤمن آل فرعون، وفيه ارتقاء في الاحتجاج وبيان لقرب موسى الكليم عليه السلام من الله ذي الجلال والإكرام، ومعناه: لو كان موسى الكليم عليه السلام مسرفاً كذّاباً كما تزعمون، لما أيده الله تبارك وتعالى بالمعجزات الباهرات، ولما هداه إلى البينات الواضحات؛ لأن ذلك مخالف لمقتضى الحكمة الإلهية، ولما كان في مقدوره أن يأتي بالأدلة والبراهين الساطعة القاطعة؛ لأن الباطل والرذيلة لا دليل صحيح عليها، ولأن موسى الكليم عليه السلام قد أتى بكل ذلك، فهو صادق ومخلص فيما يدعيه من النبوة والرسالة.

ثم خاطب مؤمن آل فرعون قومه بعد أن حذرهم من أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى الكليم عليه السلام من أنواع العذاب ومنه الهلاك وعقوبة الاستئصال كما حدث للأمم من قبلهم، مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن

---

١. نفس المصدر

جَاءَنَا﴾[١] أي: أنتم اليوم في أمن وأمان وذوو نفوذ وقوة ومناعة وسيطرة، ولكم الملك والحكم والطاعة والغلبة على بني إسرائيل وغيرهم، وتتمتعون بخيرات مصر ونعيمها عالين على غيركم، وتنفذون فيهم إرادتكم وما شئتم من التدبير، وهذه نعمة عظيمة امتنّ الله تبارك وتعالى بها عليكم، وتستوجب منكم الشكر لله سبحانه وتعالى عليها، وليس الكفر والمعصية والجحود بهذه النعم والطغيان كما هو واقع الحال عندكم، فليس من الحكمة والصواب والمصلحة الراجحة أن تفسدوا أمركم بأنفسكم وتعرضوا أنفسكم لبأس الله ﷻ وغضبه وضرباته وعذابه الشديد، ولتقلبات الدهر ونكباته وتغير النعمة ورغد العيش إلى العذاب والهلاك؛ بسبب التمادي في العناد والاستكبار على الحق وأهله والكفر بالله ذي الجلال والإكرام وعصيانه والتكذيب بدينه وأنبيائه ورسله وكتبه، وتتورطوا في العمل الشنيع المستقبح وهو قتل عبد الله الصالح ورسولة إليكم موسى الكليم عليه السلام لمجرد أنه قال ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾[٢]، وتعرضوا مستكبرين عما جاءكم به من الحق المبين والمعجزات الباهرات والبينات الواضحات الدالة دلالة قطعية لا يشوبها الشك على صدق نبوته ورسالته فهذا من السفه والحمق ومخالف لمقتضى الحكمة والفضيلة والمصلحة حتى و إن كان الذي توعدكم به موسى الكليم عليه السلام احتمالاً لا يقيناً فكيف إذا كان يقيناً لا شك فيه.

ثم نهى مؤمن آل فرعون قومه عن الاعتزاز بما لديهم من الملك الظاهر وأنواع القدرة والقوة وعدم التعويل عليها لتحصيل النجاة والخلاص من

١. غافر: ٢٩

٢. غافر: ٢٨

العذاب؛ لأنها لا تقدر على الثبات لحظة أمام قدرة الله المطلقة والنافذة في كل شيء، وعلى جميع الناس بدون استثناء فلا يستطيع أحد أي كان قدره ومكانته وقوته حتى فرعون أن يدفع عنا عذاب الله ﷻ وبأسه، ويحول بيننا وبينه عند مجيئه، وعليه: فلا ناصر ينصرنا من بأس الله ﷻ وعذابه الذي توعدنا به موسى الكيلم عليه السلام إذا جاءنا بياتاً أو نهاراً عقوبة لنا على قتل ولي الله الأعظم موسى الكليم عليه السلام، فلا ينبغي لنا الغفلة ونسيان النتائج الوخيمة المحتملة بحكم العقل والمنطق والسنن الإلهية في الخلق، وتجاهل عواقب الأمور الخطيرة، واعلموا أن لا سبيل لنا للنجاة والخلاص من العذاب الإلهي سوى الإيمان الصادق بالتوحيد والتصديق بنبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته والتسليم له وتوليته أزمة أمورنا في الحياة كلها.

وعبارة ﴿إِن جَاءَنَا﴾[1] فيها إدخال لنفسه معهم على تقدير مجيء البأس والعذاب، وليكون ذلك أبلغ في النصح وأوقع في قلوبهم مما يدل على ذكائه ولباقته وحكمته وقوة منطقه وحسن دعوته، إذ أظهر قرابته منهم وجعل الآمر والمصير مشتركاً بينه وبينهم ليفهموا أنه معهم، يطلب لهم ما يطلبه لنفسه من السلامة والعافية والنصح لهم كما ينصح لنفسه، ويريد لهم الخير الذي يريده لنفسه.

١. غافر: ٢٩

تدخل فرعون واعتراضه

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

فلما سمع فرعون الطاغية منطق مؤمن آل فرعون وفهم كلامه وما جاء به من النصائح الصادقة، وشاهد ما تركه من أثر بالغ في نفوس حاشيته وبطانته وقومه؛ لأنه مس عن قرب دنياهم ومصالحهم التي يخافون عليها ويخشون فواتها، وحذرهم من عواقب الأمور وخوفهم بجدية حول مصيرهم في الحياة، فتيقن فرعون من خطورة كلامه، وخشي على نظامه ودولته وملكه وهيبته وامتيازاته الملكية، فلم يلتزم الصمت، بل بادر إلى قطع كلام العبد الصالح وجاء بمراوغة شيطانية يوهم بها حاشيته وقومه بأنه لهم من الناصحين، وأنه الراعي المخلص الأمين لمصالحهم ووحدتهم الوطنية، ولا يسلك بهم إلا مسلكاً فيه طلب النفع لهم ودفع الضرر عنهم، يريد بذلك تثبيت حاشيته وقومه على ما كانوا عليه من الدين والولاء له، ويحافظ على هيبته ومكانته وموقعه بينهم.

فقال معارضاً لكلام الرجل المؤمن والعبد الصالح الناصح، وتجلداً وتمويهاً وتعزيزاً لحاشيته وقومه بدهاء وخبث: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[1] أي: لا أشير عليكم برأي إلا بما أراه خيراً ناصعاً وحقاً ثابتاً وصلاحاً لي ولكم، وهو عينه الرأي الذي أشير به على نفسي في السر والعلانية، ولا أدعوكم ولا أرشدكم إلا إلى طريق السداد والصواب المطابق للواقع والمؤدي إلى النجاة، ولا استصوب غيره، وهو قتل

١. نفس المصدر

موسى عليه السلام، وليس في ذلك غش أو تمويه أو تغرير بأي حال من الأحوال، بل هو طريق الهدى والنور والفضيلة والمصلحة العامة لكم.

فقد رأى فرعون الطاغية أن طريق الهدى والصواب والنجاة والمصلحة هو في قتل موسى الكليم عليه السلام وليس في تركه حياً كما أشار عليه به المستشارون؛ لأن بقاءه حياً يعني تغيير الدين الرسمي للدولة وهو الدين الذي ورثناه من الآباء والأجداد، وكانوا يتعبدون به وعاشوا وماتوا عليه لقرون عديدة متطاولة ويجب أن نبقى ونستمر على التعبد به أبد الدهر، أو أن يظهر في الأرض الفساد، بإعلان التمرد والثورة على النظام والدولة والملك والتراث وعز ووحدة الشعب الوطنية، ويضر بمصالحهم الحيوية في الحياة، فلا سبيل في رأيه لحل المشكلة القائمة مع موسى الكليم عليه السلام إلا بقتله ولا حل سواه، وقد أراد فرعون الطاغية التجلد والتمويه، وأن يظهر لحاشيته وبطانته وقومه، بأنه على يقين من صحة رأيه وصواب ما عزم عليه من قتل موسى الكليم عليه السلام وأن فيه الهدى والاستقامة والخير والفضيلة والمصلحة الوطنية العامة والصلاح لهم.

وقوله في الحقيقة: تمويه وتغرير وغش وقلب للحقائق، استخف به قومه وغشهم واستعداهم على موسى الكليم عليه السلام وحرضهم على موافقته الرأي في قتله والتخلص منه لما ثبت لديه من خطره الجسيم على الدين والنظام والدولة والحكومة والملك والتراث والمصلحة العامة، ولم يكن صادقاً معهم ولم يظهر لهم الحقيقة التي تيقنها واستقربها في أعماق نفسه، فقد كان في داخل نفسه متيقناً بصدق نبوة موسى الكليم عليه السلام

ورسالته وأن ما جاء به هو من عند رب العالمين وليس من نوع السحر، ولكنه جحد ذلك وإن كان على حساب الحقيقة والفضيلة والمصلحة الوطنية العامة، بل وإن كان على حساب آخرته، تماماً كما فعل إبليس الرجيم حين أبى السجود لخليفة الله في الأرض ووليه الأعظم آدمعليه السلام إذ أمره الله سبحانه وتعالى بذلك، استكباراً منه على الحق وأهله بسبب أنانيته وتضخم ذاته إلى درجة الإصرار على المعصية، رغم يقينه بأنها معصية وذنب كبير وتؤدي به إلى غضب الله عز وجل وعقوبة العذاب الأبدي العظيم في نار جهنم، وقد بالغ في العناد والضلال بالإصرار على إضلال أبناء آدمعليه السلام حسداً منه لهم وانتقاماً منه لنفسه، ليكونوا شركاء في المعصية والشقاء والعذاب المؤلم في الآخرة في نار جهنم. يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: «**فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه وزعم أن في اتباعه الحق وفي اتباع الحق اتباع الضلال**»[1].

وهذا هو دأب الطغاة المستكبرين والفراعنة المتجبرين في التعامل مع متبوعيهم ومرؤوسيهم وشعوبهم، فهم يعتبرون أنفسهم على حق دائماً وأن كلامهم صدق وعدل ولا كلام فوقه، فالرأي رأيهم وليس لغيرهم إبداء وجهة نظر مخالفة أو أن يروا غير ما يرونه هم؛ لأنهم يتوهمون بأن لهم عقولاً كاملة وعلماً واسعاً وشاملاً وسلطة مطلقة على الناس، وليس عند الناس ما عندهم من العقل والعلم الواسع بالمصلحة، فالواجب على الناس طاعتهم والامتثال لأمرهم ونواهيهم، يريدون بذلك تثبيت ملكهم ورئاستهم

---

١. تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، صفحة ١٠٣٥

وامتيازاتهم و إن كان ذلك على حساب الحقيقة والفضيلة والمصلحة الوطنية العامة غشّاً منهم لشعوبهم وخيانة منهم لأمانة الحكم والرئاسة وحمل المسؤولية العامة، وهذا يمثل منتهى الجهل والحماقة والغرور والأنانية، ومن المؤسف جداً أن يجد هؤلاء الحمقى المهووسون من يصدقهم ويجاريهم في سياساتهم الشيطانية ومواقفهم الجاهلية الضارة بإنسانية الإنسان وكماله ومصالحه الجوهرية والحيوية كما فعل الأقباط مع فرعون.

وينبغي أن نتذكر ولا ننسى في هذه الطامة الكبرى دور النخبة الانتهازية الفاسدة من السياسيين والمثقفين والكتاب ورجال الأعمال وغيرهم.

وقيل: إن مؤمن آل فرعون دافع عن موسى الكليم عليه السلام بالحكمة والموعظة وجادل قومه بالتي هي أحسن وقد استطاع بأسلوبه الرائع والمحكم والمؤثر أن يثني فرعون الطاغية عن عزمه على قتل موسى الكليم عليه السلام أو على الأقل تأخير تنفيذه إلى أن استطاع موسى الكليم عليه السلام أن يتغلب بإذن الله عز وجل على الخطر، وكان المؤمن الشجاع دقيقاً جداً في حساب وتقدير قيمة الوقت حيث تدخل في الوقت المناسب واللحظات الصعبة والحساسة جداً بالدفاع المنطقي المحكم والمتقن عن موسى الكليم عليه السلام، حتى استطاع أن ينقذه ببراعة من مؤامرة خطيرة كانت تستهدف حياته والقضاء على دعوته.

وعبارة ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[1] تدل على شبه الاعتذار من فرعون عما كان قد عزم عليه من قتل موسى الكليم عليه السلام،

١. غافر: ٢٩

ومعناه: ما عزم على قتل موسى عليه السلام إلا بعد التفكير و إمعان النظر والتدبر في عواقب الأمور، في الحالتين: قتل موسى عليه السلام وتركه حياً. وقد وجدت الحق والهدى والخير والفضيلة والمصلحة في قتله وأن الضلال والفساد والشر والرذيلة والضرر في إبقائه حياً، أي: إنني أردت بقتله خيركم وما فيه مصلحتكم وصلاحكم وصلاح مجتمعكم ودولتكم وليس لمصلحة أو رغبة خاصة أو نحو ذلك.

مواصلة مؤمن آل فرعون لنصائحه

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾

لم ينخدع مؤمن آل فرعون بمراوغة فرعون وتمويهه وأدرك ببصيرته النافذة وخبرته الواسعة ومعرفته الدقيقة بذهنية فرعون وشخصيته العدوانية وما تنطوي عليه نفسه الطاغوتية من المكيدة والخداع، ولم ييأس من هداية قومة و إنقاذهم وتجنيبهم ورطة ارتكاب جريمة قتل ولي الله الأعظم موسى الكليم عليه السلام، فلم يتوقف عن النصح والإرشاد ولم يثنه عتو فرعون وطغيانه وتعصب قومه من تكرار الدعوة والنصح والإرشاد، فمضى في دعوته ونصحه و إرشاده لقومه، ومحذراً لهم من بطش الله عز وجل وغضبه وعذابه الشديد لهم في الحياة الدنيا قبل الآخرة كما حصل للأمم السابقة المارقة بسبب كفرهم وتكذيبهم الرسل الكرام عليهم السلام و إيذائهم وقتلهم، وبسبب أعمالهم وما جنت أيديهم الآثمة من الذنوب الكبيرة والصغيرة.

وهذه حالة الدعاة المخلصين دائماً في الإصرار والثبات فلا يزالون يدعون إلى ربهم ولا يردهم عن ذلك ولا يثنيهم عتو طاغية مستكبر أو جهل قوم أو تعصبهم أو غير ذلك من العوائق والصعوبات.

وكان الشعب المصري آنذاك يمتاز نسبياً بالتمدن والثقافة وله حضارة عظيمة، وكان مطلعاً على أحوال الأمم السابقة التي لم تكن أرضهم وحضارتهم تبعد عنهم كثيراً في الجغرافيا والتاريخ، وكان عالماً بما آل إليه مصيرهم، فأراد مؤمن آل فرعون أن يوجه أنظار قومه إلى الأحداث المؤلمة والمصير الأسود الذي انتهوا إليه غير مأسوف عليهم، ويحذرهم من أن ينزل بهم ما نزل بتلك الأمم من العواقب السيئة، لعلهم يلينوا ويتعظوا ويفيقوا من غفلتهم المطبقة، ويرجعون عن عبادتهم وكفرهم وطغيانهم وما عزموا عليه من جريمة قتل ولي الله الأعظم موسى الكليم عليه السلام، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾[1].

أي: إني أخاف عليكم إن أصررتم على عنادكم وكفركم بالتوحيد وتكذيبكم بنبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته وتورطتم في قتله بغير حق أن يصيبكم من العذاب الإلهي المؤلم مثلما أصاب الأمم السابقة المارقة التي كفرت بالتوحيد وكذبت بالرسل الكرام عليهم السلام واتفقت وتحزبت ضدهم واجتمعت على معارضتهم وعمدت إلى إيذائهم وقتلهم، مثل قوم نوح وقوم هود (عاد) وقوم صالح (ثمود) وغيرهم من الكافرين المكذبين للرسل الكرام عليهم السلام الذين بعدهم، مثل قوم لوط الذين غضب الله عز وجل عليهم وأنزل

---

١. غافر: ٣٠-٣١

عليهم عقوبة الاستئصال فأهلكهم أجمعين قوماً بعد قوم، فكان لكل حزب منهم يوم دمار وهلاك جزاء ما دأبوا عليه من العناد والتعصب الأعمى والكفر والتكذيب للرسل الكرام عليهم السلام وإيذائهم وقتلهم والطغيان وارتكاب المعاصي والذنوب الكبيرة والصغيرة الظاهرة والباطنة، وإظهار الفساد ونشره في طول الأرض وعرضها، فأهلكهم الله عز وجل بعضهم بالطوفان (الفيضان) العظيم، وأهلك بعضهم بالريح الصرصر العقيم، وأهلك بعضهم بالصواعق المحترقة، وأهلك بعضهم بالزلزال المدمر وغير ذلك.

وهذه سنة إلهية جارية في الأقوام المارقين المكذبين في التاريخ الطويل للمسيرة البشرية، وتأتي وفق مقتضى الحكمة الإلهية البالغة والرحمة الواسعة بالعباد، فليس من الحكمة ترك هؤلاء المارقين يعيشون في الأرض فساداً ويقطعون الطريق على كل سالك يريد الوصول إلى الهدى والصلاح في الأرض وتحصيل السعادة الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، فيحيلون بين الإنسانية وبين الوصول إلى كمالها المعرفي والتربوي والحضاري وتحقيق غاية وجودها، وكأن الله عز وجل ضعيف ومغلوب على أمره وعاجز عن ردع هؤلاء المارقين، ووضع حد لسفاهتهم وطيشهم وحماقتهم، وكأنه يفضل هؤلاء المارقين المفسدين بإبقائهم على عباده المؤمنين الصالحين الذين يقطعون عليهم طريق الوصول إلى الله ذي الجلال والإكرام وطاعته، وأرحم بأولئك المارقين من المؤمنين، وحاشا لله سبحانه وتعالى أن يكون كذلك، فقد خلق الإنسان بفضله وفضَّله على كثير، وأنزل الكتب لهدايته، ودعاه إلى الإيمان به، والكفر بالطاغوت، وكلفه بطاعته، ومحاربة الطاغوت والطغاة المفسدين في الأرض والظالمين للعباد، وعليه

فإن إهلاك تلك الأقوام المارقة المكذبة بالرسل والتي عاثت في الأرض فساداً وما نزل بها من العذاب الأليم يعد جزاءً عادلاً استوجبوه بكفرهم وأعمالهم السيئة وما جنت أيديهم من الجرائم المشينة.

أي: جزاءً موافقاً لأعمالهم وللحكمة الإلهية البالغة والرحمة الإلهية الواسعة، وليس فيه ظلم لهذه الأقوام المارقة، فإن الله ﷻ لا يعاقب فرداً أو قوماً بغير ذنب أذنبوه، أو جرم أسلفوه، ولا يخلي الظالمين المفسدين في الأرض بغير انتقام، فهم الظالمون أنفسهم بسوء اختيارهم وتصرفاتهم وتكذيبهم الرسل الكرام عليهم السلام والتمرد على أمر الله ﷻ نهيه، وأنتم مثلهم في العناد والاستكبار والكفر والتكذيب والأعمال السيئة والتمرد على أمر الله سبحانه وتعالى ونهيه.

وقد جرت سنة الله ﷻ عليهم بالعقوبة، أفلا تخشون أن يصيبكم مثلما أصابهم من العقوبة ويحل بساحتكم مثلما حل بساحتهم من الهلاك والاستئصال؟ فأعمالكم مثل أعمالهم ولستم استثناء في القاعدة أو السنة الإلهية الجارية في الأمم عبر التاريخ الطويل والجغرافيا العريضة، فلا ضمان لكم بأن لا تشملكم العقوبات الإلهية، بل أنتم مرشحون ومستحقون لها بكفركم وأخلاقكم القبيحة وأعمالكم السيئة، وعليه: فإني أخاف عليكم بحق أن يكون مصيركم مثل مصيرهم الأسود، وأن يحل بكم الهلاك والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وقيل: في كلام مؤمن آل فرعون تعريض بفرعون ورد عليه حين قال:

﴿وَمَا أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[١] وكأن مؤمن آل فرعون رد عليه فقال: وأنا أيضاً ما قلت الذي قلته لكم إلا خوفاً عليكم من أن يصيبكم مثل الذي أصاب الأمم السابقة المارقة من العذاب الإلهي المؤلم في الدنيا قبل الآخرة، معتمداً في ذلك على المنطق والتجربة التاريخية والمعرفية اليقينية الواضحة بالسنن الإلهية.

مؤمن آل فرعون يحذر قومه من عواقب الآخرة

﴿وَيَا قَوۡمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ التَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنۡ عَاصِمٍ وَمَن يُضۡلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾

وبعد أن خوف مؤمن آل فرعون قومه من العقوبات الإلهية الدنيوية جزاء ذنوبهم، انتقل إلى تخويفهم من العقوبات الأخروية المهولة وتوجع من أجلهم فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ التَّنَادِ﴾[٢] أي: أخاف عليكم إن بقيتم على الكفر بالتوحيد وتكذيب الرسول الكريم موسى الكليم عليه السلام وتورطكم في قتله بغير حق عقاب يوم القيامة حين تسمعون الصيحة بالحق فتخرجون من القبور مسرعين إلى ساحة الحساب والجزاء الإلهي، وهو اليوم الفاصل في مسيرة الإنسان الوجودية، حيث يدعو الله عز وجل كل أناس بإمامهم وينادي المنادي ﴿أَلَا لَعۡنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٣] وينادي الظالمون بعضهم بعضاً بالويل والثبور ويستغيث بعضهم ببعض ويطلبون العون

١. غافر: ٢٩

٢. غافر: ٣٢

٣. هود: ١٨

والمساندة من بعضهم البعض مما اعتادوا عليه من الجرائم والذنوب والمعاصي في عالم الدنيا، وذلك لهول ما يشاهدونه من أهوال عرصات يوم القيامة، إلا أن أصواتهم واستغاثتهم لا تصل إلى مكان مكين.

وقيل: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾[١] من أسماء يوم القيامة، وهو مأخوذ من النداء أي يوم ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾[٢] ويوم ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾[٣] فيجيبهم أصحاب الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٤].

وفي يوم القيامة العظيم يحاول الكافرون الهرب مسرعين من نار جهنم خوفاً من حرها الشديد ومن عذابها المؤلم؛ برجاء النجاة منها ولكن بدون جدوى أو فائدة، فلا فرار من عذاب الله ﷻ ولا مخلص ولا منقذ منه إلا الله رب العالمين، ولا ملجأ من الله ﷻ إلا إليه، وهو الغالب على أمره لا يرده ولا ينازعه شيء.

وعليه: فإن مؤمن آل فرعون يريد أن يقول لقومه أن مصيركم إن بقيتم على الكفر والتكذيب والأعمال السيئة وتورطتم في قتل العبد الصالح وولي الله الأعظم موسى الكليم عليه السلام إلى النار لا محالة؛ لأنكم لا تملكون ما

---

١. غافر: ٣٢

٢. الأعراف: ٤٤

٣. الأعراف: ٥٠

٤. نفس المصدر

تدفعون به عذاب الله ﷻ لا من أنفسكم ولا من غيركم إلا الله ﷷ، واعلموا أن من يخليه الله ﷻ وما اختار لنفسه من الضلال والصواب فما له من هادٍ يهديه من ضلاله إلى الحق والعدل والخير والفضيلة والصواب؛ لأن الهدى بيد الله ﷷ وحده، فإذا منع عن أحد من عباده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، بخبث طبعه وعناده وفساد فكره وقبيح أخلاقه وسوء أعماله فلا سبيل له إلى الهداية أبداً، فالواجب عليكم بحكم الطبع والعقل أن تأخذوا حذركم وأن تقدموا على الإيمان والطاعة قبل فوات الأوان وأن تمتنعوا على الأقل عن الإقدام على قتل العبد الصالح والناصح لكم موسى بن عمران الكليم ﵇.

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**من يسلك طريق الضلال، فإن الله يضله ولا يجد من يهديه، تماماً كمن يشرب السم فإن الله يميته ولا يجد من يحييه**»[1] وقيل: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[2] معناه أن الذين ضلوا في الحياة الدنيا وابتعدوا عن سبيل الهداية والرشاد وتنكّبوا عن الصراط المستقيم وانقطعوا عن الاتصال بالله ذي الجلال والإكرام سيضلون في الآخرة عن كل خير وعن الجنة والرضوان الإلهي والنعيم الأبدي الخالد ويتركون في الشقاء والعذاب المؤلم في النار، قول الله تعالى: ﴿وَمَن أَعرَضَ عَن ذِكري فَإِنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنكًا وَنَحشُرُهُ يَومَ القِيامَةِ أَعمى ۝١٢٤ قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرتَني أَعمى وَقَد كُنتُ بَصيرًا ۝١٢٥ قالَ كَذلِكَ أَتَتكَ آياتُنا فَنَسيتَها وَكَذلِكَ اليَومَ تُنسى﴾[3]

---

١. تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، جزء ٦، صفحة ٤٥١

٢. غافر: ٣٣

٣. طه: ٢٤-٢٦

تذكير قومه بنبوة يوسف الصديق عليه السلام ورسالته

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾

بعد أن خاطب مؤمن آل فرعون وجدان قومه وخوفهم من عواقب كفرهم وتكذيبهم لموسى الكليم عليه السلام في الدارين الدنيا والآخرة، خاطب عقولهم خطاباً منطقياً محكماً مستفيداً من التجربة التاريخية لهم بغية محو الصدأ وآثار الكفر السوداء عن صفحة قلوبهم؛ كي تذعن للحق المبين وتسلم لرب العالمين وتصدق الأنبياء والمرسلين الناصحين عليهم السلام وتتبعهم وتترك العناد والتكبر والطغيان، فبيّن لهم بأن الدعوة التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام ليست بدعاً في التاريخ والحضارة المصرية العريقة، واستشهد بنبوة يوسف الصديق عليه السلام ورسالته الذي هو واحد من أجداد موسى الكليم عليه السلام ولا يبعد عنهم تاريخياً بزمن طويل، ولا تزال أواصر الارتباط الذهني قائمة بينهم وبينه، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[1].

---

١. غافر: ٣٤-٣٥

ولقد: الواو للقسم، والمعنى: وأقسم لقد جاءكم من قبل يوسف الصديق عزيز مصر بالمعجزات الباهرات والبينات الواضحات الدالة على صدق نبوته ورسالته، ودعاكم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته، وأنقذ شعب مصر من كارثة محققة بحسن تدبيره، فالتجربة والمنطق يدلان على صدقه بما لا يدع مجالاً للشك والريب والتردد، ومع ذلك حصل الارتياب في صدقه والإعراض عن رسالته ما دام حياً، ليس بسبب صعوبة دعوته وعدم وضوحها أو لغموض فيها أو عدم وجود الأدلة الكافية على صدقها، ولكن بسبب غرورهم وسوء طبعهم وعنادهم واستكبارهم على الحق وأهله، ولكي يعطوا لأنفسهم الذرائع والمبررات ليتنصلوا من المسؤولية وترك العمل بالتكليف الإلهي جرياً منهم وراء الأهواء الشيطانية والرغبات والشهوات الحيوانية والمصالح الدنيوية العاجلة التي لا يريدون التفريط فيها ولو كان ذلك على حساب الحقيقة والفضيلة وكافة القيم والمبادئ السامية.

ولما توفى الله ﷻ يوسف الصديق عليه السلام وانقضت أيام حياته ازداد الشرك والشكوك، إذ ضموا إلى تكذيب رسالته التكذيب برسالات الرسل بعد وفاته، إذ قالوا: ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾[1] ويومئ هذا التعبير إلى أنهم قد فرحوا بموت يوسف الصديق وعزيز مصر عليه السلام لأنهم ظنوا بأنهم قد تحرروا بموته من التكليف الإلهي، وهذا هو عين الضلال لأنه خلاف المنطق والحكمة الإلهية، فالمنطق السليم يقتضي متابعة الدليل، والشك في صدق نبوة يوسف الصديق عليه السلام مخالف للدليل فهو مخالف للعقل

١. غافر: ٣٤

والمنطق وهو مخالف للحكمة الإلهية، ولا يليق وصف الله سبحانه وتعالى به لأن الله تبارك وتعالى خلق الموجودات كلها وتكفل بهدايتها و إيصالها إلى غاية وجودها ولا يمكن أن يتركها سدى.

قول الله تعالى: ﴿قالَ رَبُّنَا الَّذي أَعطى كُلَّ شَيءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدى﴾[١] وهذا يشمل الإنسان وغيره. وهداية الإنسان تتطلب بعث الأنبياء و إرسال الرسل الكرام عليهم السلام و إنزال الكتب، حيث يتميز الإنسان بالعقل والاختيار وبذلك صارت لديه قابلية الصعود في مدارج الكمال وبلوغ القمة في الخير والصلاح والعطاء إن عمل وفق مقتضيات العقل والفكر، وقابلية الهبوط إلى حضيض الشيطنة والحيوانية وبلوغ الذروة في الهمجية والرذيلة والفساد إن أطلق العنان للهوى والشهوات، وصار مؤهلاً للتكليف وتحمل المسؤلية الدينية والمدنية إلا أن العقل وحده لا يكفي لمعرفة الإنسان جميع ما يلزمه للوصول إلى كماله التربوي والحضاري وتحقيق سعادته في الدارين الدنيا والآخرة، لهذا تكفل الله تبارك وتعالى بلطفه ورحمته بإرسال الرسل الكرام عليهم السلام، و إنزال الكتب السماوية مثل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن الكريم لهداية الإنسان سبيل الرشاد، وتعريفه ما فيه خيره وصلاحه، ونظم أمره على الوجه الأكمل في الدين والدنيا؛ لأنه العالم والمحيط وحده بجميع ذلك.

ودعم الرسل بالمعجزات الباهرات والبينات الواضحات التي تثبت صدقهم بما لا يدع مجالاً للشك ويلزم الناس بالإذعان لهم بالطاعة

---

١. طه: ٥٠

والامتثال، ولولا إرسال الرسل و إنزال الكتب السماوية لكان خلق الإنسان عبثاً ومخالفاً للحكمة الإلهية البالغة ولا يليق بالله سبحانة وتعالى؛ لأن الناتج: إنطلاق الإنسان في الفساد والجريمة بدون رادع ولا وازع مما يؤدي إلى الهمجية والرذيلة والشقاء مطلقاً.

كما أن حاجة الإنسان إلى الرسل تتطلب تجديد الرسالات كلما اختلفت الأوضاع، بحيث تتناسب الرسالة السماوية دائماً مع مستجدات الأوضاع والتطورات الحضارية و إلا فقدت قيمتها ووظيفتها في الحياة ولما انتهى الأمر إلى الرسالة المحمدية الخاتمة، فقد تكفل الله ﷻ بحفظ الكتاب الإلهي المنزل (القرآن) من التحريف وأن لا تخلو الأرض من حجة من الأوصياء الهادين المهديين عليهم السلام ما بقيت حياة الإنسان على وجه الأرض.

وعليه: فإن قولهم ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾[1] أي بعد يوسف الصديق عليه السلام يدل على عدم المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام حق المعرفة ﴿وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدرِهِ إذ قالوا ما أَنزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِن شَيءٍ﴾[2] لأن من عرف أن الله سبحانه وتعالى حكيم ورحيم بعباده، وأنه لم يخلقهم عبثاً بل خلقهم لغاية حكيمة، وأنهم إليه راجعون للحساب والجزاء ضرورة، يلزمه اليقين عقلاً بأن الله ﷻ يبعث إلى الناس أنبياءً ورسلاً لهدايتهم و إرشادهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة من

١. غافر: ٣٤

٢. الأنعام: ٩١

المعارف الإلهية الحقة، والأخلاق الفاضلة الجميلة والشرائع المنظمة لأحوال الأفراد والمجتمع التربوية والحضارية على الوجه الأكمل.

وبدون ذلك ينقص هدف الخلقة، وهو مخالف للحكمة الإلهية البالغة، وأيضاً: في إنكار الوحي والرسالات الإلهية، حط لمنزلة الربوبية الحقة، وقدح في الحكمة الإليهة، ونفي لأعظم منة إلهية على الإنسان، ووصف لله سبحانه وتعالى بما لا يليق وما هو على خلاف العظمة والرحمة واللطف بعباده.

وفي سلسلة الرسالات الربانية الهادية والإلهية المستمرة إلى الناس، جاءكم موسى الكليم عليه السلام بالمعجزات الباهرات والبينات الواضحات التي تدل على صدق نبوته ورسالته وأنها من عند الله رب العالمين بما لا يدع لأحد مجالاً للشك والريب والتردد، مما يثبت خطأ ما ذهب إليه آباؤكم من قبل، إذ قالوا لن يبعث الله من بعده رسولا، أي بعد يوسف الصديق عليه السلام، ومن المؤسف جداً أنكم وقفتم في نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته كما وقف آباؤكم من قبل في نبوة يوسف الصديق ورسالته، وكررتم نفس الخطأ الذي أخطأه آباؤكم وعلى نفس الأساس المَرَضِي المخالف للعقل والمنطق والفطرة، ولنفس الفرض السخيف وهو المحافظة على دين الآباء والأجداد وعدم التفريط في المصالح الدنيوية العاجلة.

فسلكتم بذلك نفس مسلكهم وهو الإسراف والمبالغة في المعاصي والتعدي على الحق والفضيلة، وتركتم سبيل البحث في أدلة النبوة والرسالة، وخالفتم العقل الذي تميز به الإنسان ومنطقه، مما تسبب في

حرمانكم من اللطف الإلهي، فلم تشملكم الرحمة الإلهية وأنوار الهداية الربانية، فسرتم في وادي الجهل والغي والضلال، وبقيت قلوبكم سوداء مظلمة محجوبة عن شعاع الهداية والفضيلة في ظل حكومة الطاغوت وفسادها، وهو عينه خذلان الله ﷻ للإنسان وإضلاله الذي ينتهي بهلاكه وشقائه في الدارين الدنيا والآخرة.

فإن الله ﷻ لا يهدي كل من هو مسرف في المعاصي مكثر منها، ومتمادٍ في تجاوز الحق وحد الاعتدال إلى الباطل والتطرف، ومرتاب من الدين الحق وكثير الشك وبشكل مرضي وعلى غير أساس صحيح وبدون حجة صحيحة أو دليل مستقيم فيما تشهد به المعجزات الباهرات والبينات الواضحات من وحدانية لله سبحانه وتعالى ووعده ووعيده وسائر الحقائق الإلهية وسواها، وذلك: لغلبة الوهم والتعصب والانهماك في التقليد الأعمى وتعطيل العقل والتجربة، وهذا هو وصفهم الحقيقي ووصفكم ما لم تتوبوا وتتراجعوا عما أنتم عليه من الكفر والتكذيب ونحوهما، ومن كان هذا وصفه الحقيقي فإن الله ﷻ لا يهديه ولا يوفقه إلى الخير لأنه لا يليق إليه، حيث رد الحق بالباطل ورفض الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، وخرج عن عالم الفضيلة فهو لا يستحق إلا الخذلان وأن يخليه الله ﷻ هو وما اختاره لنفسه ويضله.

وهنا يجب التمييز بين الشك المنهجي الذي هو السبيل إلى اليقين، ومعناه: أن يضع العالم أو الباحث عن الحقيقة المعلومة التي يحصل عليها موضع الشك حتى يحصل له اليقين بها عن طريق الدليل القاطع، فلا

يقبل أمراً على أنه حق إلا إذا عرف أنه حق بدليل واضح قطعي إلى درجة تمنعه من وضعه موضع الشك أو الريب والظن، وهو شك: نظري ومؤقت ولا ينطبق على الحياة العملية والذي يقابله الشك المرضي، ويسمى جنون أو داء الشك وهو: اضطراب عقلي مصحوب بالعجز عن ترجيج أحد الحكمين النفي أو الإثبات مهما تكن أماراتهما واضحة وقاطعة، فيضع جميع المعلومات النظرية والعملية موضع الشك حتى بعد قيام الدليل الصحيح القاطع عليها، ويشمل: المبالغة في اجترار المسائل الفكرية الفلسفية والعقائدية المتعارضة أو المختلف فيها، والمبالغة في القلق والتوهم وسوء الظن في المسائل والقضايا العملية، والميل إلى البحث في الأسباب والمسائل والقضايا التافهة، والدخول في الجدل السلبي العقيم أو غير المنتج ونحو ذلك، مما يفسد منطق الإنسان وفطرته ويضل الإنسان عن الصراط السوي في الحياة، ويهدم بنيان المعرفة والأخلاق والحضارة، ومن يبتلى بهذا النوع من الشك فهو مريض القلب والروح ويكون مضراً كثيراً بالمجتمع بعيداً كل البعد عن الهداية الربانية؛ لأنه غير لائق بها كما سبق بيانه.

وهؤلاء المرضى الضالون: بسبب أمراضهم القلبية والروحية و إسرافهم في الشك والمعاصي، يرفضون آيات الله تبارك وتعالى وبيناته الواضحة وحججه القاطعة التي بينت الحق والباطل وفصلت بينهما وصارت في ظهورها ودلالاتها بمنزلة الشمس في رابعة النهار للبصر، ليبطلوها بغير حجة واضحة ولا برهان صحيح وعلى خلاف المنطق والفطرة والطبع السليم، و إنما بالاعتماد على الشبهات والمغالطات والأهواء الشيطانية

المغرضة والرغبات والشهوات الحيوانية والوساوس المضلة الواهية والتقليد الأعمى للآباء والأجداد ونحو ذلك من عوامل الضلال والإضلال، بغية الاستمرار في رفع راية الجدل والمعارضة للحق بالباطل، وهذا وصف لازم لهم؛ لأن كل من يجادل في آيات الله تبارك وتعالى وبيناته ليبطلها، فإنه من المحال عقلاً أن يجد حجة صحيحة أو برهاناً سليماً يحقق به مراده، فالحق بما هو حق لا يعارضه دليل صحيح مطلقاً، وإلا لم يكن حقاً.

ثم يسعى هؤلاء المرضى ليصرفوا الآيات والبينات الإلهية إلى ما لا تحمله بحسب المنطق والطبع السليم من المعاني والمقاصد الباطلة بقصد الطعن فيها بغير حجة، لمجرد أنها تخالف أهواءهم الشيطانية المغرضة وشهواتهم الحيوانية الخسيسة.

ومقت الله ﷻ والعباد الصالحين دليل على شناعة كل من مقتوه وما مقتوه، وقد قرن الله تعالى نفسه بالمؤمنين، تعظيماً لشأنهم.

ومن جهة ثانية: فإن كل مسرف في المعاصي ومصاب بمرض الشك في الحقائق والبينات، وبين الإسراف في المعاصي ومرض الشك في الحقائق والبينات صلة وثيقة، وإذ أن الإسراف في المعاصي واتباع الأهواء يؤدي إلى الوساوس والأوهام واستقرار الشك والارتياب في النفس، فلا يستقر صاحبها على علم ولا يطمئن إلى حجة أو دليل ولا يهتدي إلى حل أو ركن وثيق، والنتيجة: يجادل في الحق وفي آيات الله تبارك وتعالى بغير حجة أو برهان صحيح.

ويعتبر الجدل المرضي العقيم بغير علم ولا هدى بقصد رد الحق بالباطل في منتهى البغض عند الله سبحانه وتعالى الذي فطر الناس على قبول الحق؛ لأنه يتضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل، وعند المؤمنين بما هم عقلاء سليمو الطبع والفطرة، فهم يكرهون أشد الكره من يعاند الحق ويجادل بالباطل، موافقة منهم لربهم ﷻ ولما عليه صاحب الشك المرضي من الطبع السيء وفساد العقل والمنطق والفطرة، بحيث ينقض إنسانية الإنسان ويهدمهما، ولما يرومونه من إبطال الدعوة الإلهية المحقة والتلبيس على من يريد الإيمان والهداية، وما يترتب على ذلك من ضلال المجادلين أنفسهم وتنكبهم عن جادة الهداية والصراط المستقيم، و إضلال الآخرين و إغوائهم حيث تنطفئ أنوار الحق وتتقوى أسس ودعائم حاكمية الباطل، ويظهر الفساد العظيم في الأرض مما ينقض غاية وجود الإنسان ويخالف مقتضى الحكمة الإلهية البالغة والرحمة واللطف الإلهي.

وعلى هذا النحو من سوء الطبع وعمى القلب وفساد المنطق يختم الله ﷻ على قلب كل متكبر في نفسه على الحق برده، وعلى العباد لا سيما الفقراء والمستضعفين باحتقارهم، ومتجبر بكثرة ظلمه وعدوانه و إصراره على إظهار الفساد في المجتمع وفي مختلف مظاهر الحياة مثل فرعون وغيره من الطواغيت والحكام المستبدين الظلمة والمترفين الأنانيين المستعلين، فلا ينفعه حجة ولا يركن إلى دليل أو برهان صحيح ولا يهتدي إلى خير أبداً؛ لأن العناد والتعصب الأعمى والتكبر والتجبر تشكل امتيازاً تحجب فكر الإنسان عن إدراك الحقيقة ويسلب منه روح طلب الحقيقة وقابلية التشخيص الصحيح وفيتحول القلب إلى إناء مغلق لا يمكن إفراغه

من محتواه الفاسد وإدخال المحتوى الصحيح الهادي إليه.

وإسناد الله جَلَّ جَلَالُهُ الطبع إلى نفسه، يعني جعل التكبر والتجبر سبباً لعمى القلب والضلال؛ لأن السبب لا يخلق المسبب وإنما يخلقه الله عَزَّ وَجَلَّ، ولهذا يقدر الله عَزَّ وَجَلَّ على تعطيل السببية، قول الله تعالى: ﴿قُلنا يا نارُ كوني بَرْدًا وَسَلامًا عَلى إبراهيم﴾[1] وهذا لا يعني إلغاء مبدأ أو قانون السببية بل هو موجود في جميع العوالم: عالم الطبيعة وعالم الغيب، ويجري التدبير فيها على أساسه وينتهي إلى سبب الأسباب أو العلة الأولى وهو الله سبحانه وتعالى، ولاتأثير لغيره من العلل إلا بإذنه ووفق مشيئته.

فرعون يأمر ببناء برجٍ عظيمٍ تمويهاً

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾

وكان لبيان مؤمن آل فرعون ومنطقه وقع شديد في نفس فرعون وحاشيته، وقد خاف فرعون معه أن يفقد هيبته ومكانته وموقعه وسلطته، فلم يستطع تجاهله، ولكنه وجد نفسه عاجزاً عن مواجهة الحجة بالحجة والدليل بالدليل فبادر لاحتواء الموقف وإخفاء خوفه وعجزه بخبث شديد ومكر ودهاء بالغ، شأنه في ذلك شأن كل الأدعياء والمزورين، فخاطب وزيره الأعظم وشريكه في التآمر والتدبير هامان،

---

١. الأنبياء: ٦٩

وطلب منه أن يبني له برجاً عظيماً عالياً مكشوفاً لعله يصل بالصعود فيه إلى طرق السماوات الكاشفة عن خباياها، سماء بعد سماء يبحث بالنظر في الطبقات العليا، أو بترصد الأوضاع السماوية وأحوال الكواكب، ويعثر عما يستدل به على وجود إله موسى الكليم عليه السلام الوهمي الذي يدعى أنه رب العالمين وأنه أرسله إليهم أجمعين لهدايتهم بعد اليأس من الظفر عليه بالوسائل الأرضية، أو بالمكوث على وجه الأرض والبحث من خلالها ليراه حتى يصدق به.

وقد نسب الإله إلى موسى الكليم عليه السلام ﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[1] كأنه يخصه، ليوهم بأن موسى الكليم عليه السلام قد اخترعه من نفسه ودعا إليه، فوجوده وهمي ولا وجود له في الواقع، كما يريد أن يوهم حاشيته وقومه بأن إله موسى عليه السلام ليس في الأرض لأنه لا إله في الأرض غيره، فإن كان له وجود فوجوده في السماء، ويمكن رؤيته، ولهذا فهو يصعد إلى السماء ليبحث عنه ويتحقق بنفسه من وجوده وصدق ادعاء موسى الكليم عليه السلام أو كذبه.

وهذا الطرح الفرعوني يقوم على التمويه والتضليل والمغالطة؛ لأنه في الواقع خلاف منطق موسى الكليم عليه السلام وأطروحته؛ لأنه يصف ربه بأنه ليس كمثله شيء وليس في مكان ولا في زمان، وخلاف عقيدة فرعون نفسه ودينه الرسمي، فهو يعتقد بأن واجب الوجود الذي هو إله الآلهة ورب الأرباب لا يمكن إدراكه أو التوجه إليه وعلى هذا الأساس يقوم الدين الرسمي في النظام الفرعوني.

---

١. القصص: ٣٨

وعليه: فإن فرعون أراد بهذا الطرح التمويه والتلبيس والتدليس على حاشيته وقومه، ولم يكن يطلب الوصول إلى الحقيقة أو البحث عنها، وهذا هو دأب الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة الذين يحمون أنظمتهم ومصالحهم وامتيازاتهم ويدافعون عن أنظمتهم وسياساتهم الشيطانية بالاعتماد على التضليل والتدليس والتلبيس والمغالطات ونشر الشكوك والشبهات، وليس بالاعتماد على المنطق السليم والحقائق التي تفضحهم وتسلب عن أنظمتهم وحكوماتهم وسياستهم الشرعية والتصويب، وتعريها أمام الجماهير والمراقبين.

ولهذا صار من الواجب عليهم بحسب منطقهم ومنهجهم طمس الحقائق وتغييب المنطق السليم وإظهار المغالطات ونشر الأباطيل، وقد جرت عادتهم إذا وقعت حادثة مهمة تربك سياساتهم وبرامجهم على أن يبادروا إلى خلق جو جديد يلهي الناس ويصرف أنظارهم عن تلك الحادثة؛ ليعيدوا سياساتهم وبرامجهم إلى مسارها وطبيعتها الأولى، ويستمروا فيها وقد يلجأون إلى تصفية المعارضين الواعين الشجعان الذين يسعون إلى فضح سياساتهم الشيطانية الخبيثة وبرامجهم الفاشلة ويطالبون بالإصلاح.

ولمّا كان النظام الفرعوني أمام خطر يقظة الجماهير بفضل ما جاء به موسى الكليم عليه السلام ومؤمن آل فرعون من الحجج والبينات، فقد لجأ فرعون الطاغية إلى مشروع البرج العظيم من أجل إلهاء الناس وشغل أذهانهم بسلسلة من المسائل الذهنية والشبهات والمغالطات والملهيات، وصرفهم

عن الاهتمام بالقضية الأساسية وهي نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته وحركة بني إسرائيل التحررية، ومطالبهم الحقوقية والسياسية، مثل: المساواة في الحقوق والواجبات بين المواطنين وعدم التمييز بينهم على أساس العرق والدين ونحوها، وحق الإقامة والسفر ونحو ذلك.

ويكشف مشروع البرج الفرعوني عن أن مؤمن آل فرعون الذي نجح ببراعته في ثني فرعون عن عزمه الشيطاني على قتل موسى الكليم عليه السلام لم ينجح في إزالة الغرور والتكبر على الحق وأهله والتجبر على الناس من نفس فرعون الطاغية؛ لأنه لم يكن يملك الاستعداد الفكري واللياقة الروحية والنفسية الكافية لنيل ذلك الشرف وتقبل نور الهداية، وذلك لسوء طبعه وفساد منطقه وفطرته، فمضى على نهجه الشيطاني الشرير، ومنه مشروع البرج العظيم.

وربما أراد فرعون الطاغية بمشروع البرج أن يستعرض قوته ويسترد هيبته وموقعه المهدور أمام حاشيته وقومه؛ ليحفظ بذلك نظامه وملكه وسلطته التي أصبحت كالهباء المنثور أمام عواصف المعجزات الباهرات والبينات الواضحات التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام من عند ربه، وأمام المنطق المتين والبيان الساحر المؤثر والجدال المفحم بالتي هي أحسن الذي جاء به مؤمن آل فرعون بتسديد من الله تبارك وتعالى وتوفيقه، فاحتال فرعون أمام ذلك التحدي وجاء بهذا التمويه والخداع والتضليل الخبيث؛ لينقذ هيبته ومكانته وموقعه وسلطته ولكي لا يخامر حاشيته وبطانته وقومه الشك في قدرته، ولكن بدون جدوى.

وقد قدم فرعون بين يدي مشروعه التضليلي بإظهار الشك في وجود إله سواه، والظن بحسب علمه -وهو أعلم الناس في تقدير قومه - أن موسى الكليم كاذب فيما يدعيه من وجود رب العالمين الذي يزعم أنه أرسله إليهم لهدايتهم ويدعوهم لعبادته وطاعته وحده لا شريك له؛ لأنه هو ربهم المزعوم، فإن وجده طلبه للمبارزة، وإن لم يجده كان موسى الكليم عليه السلام كاذباً، وهذا الطرح في الواقع تمويه منه وإخفاء لحقيقة ما في نفسه من اليقين بصدق نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته، فقد خاطبه موسى الكليم عليه السلام: ﴿قالَ لَقَد عَلِمتَ ما أَنزَلَ هؤُلاءِ إِلّا رَبُّ السماوات وَالأَرض﴾[1] وهذا يجعلنا أمام أربعة أصناف من الناس وهم:

١. لا يسمع ولا يرى بشكل صحيح.

٢. يسمع ويرى بشكل صحيح، لكنه لا يفهم بشكل صحيح.

٣. يسمع ويرى ويفهم بشكل صحيح ولكنه لا يعمل بشكل صحيح، وفرعون من هذا الصنف فيما يتعلق بالدين الحق الذي جاء به موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين.

٤. يسمع ويرى ويفهم ويعمل بشكل صحيح، وهم الصالحون.

والظاهر أن طلب فرعون إلى هامان بناء البرج العظيم يتضمن اعتراضاً على كلام مؤمن آل فرعون، وتكذيباً لموسى الكليم عليه السلام في دعوته إلى الإقرار

---

١. الإسراء: ١٠٢

برب العالمين وطاعته وعبادته وحده لا شريك له، لكنه أوهم حاشيته وقومه بأنه مجرد ناظر يطلب الحقيقة ويبحث عنها بموضوعية ونزاهة تامة، وليس له غرض خاص خلاف ذلك، حيث لم يحصل له العلم عن طريق ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من الخوارق والبينات بأن هناك إلهاً غيره في الأرض هو رب العالمين كما يزعم موسى الكليم عليه السلام، بل هو على يقين لا يشوبه الشك بأنه ربهم الأعلى ومعبودهم ولا رب ولا إله لهم غيره في الأرض، ولو وجد لعلمه ولم يخف عليه بالضرورة.

وعليه: فلا وجود أصلاً لرب العالمين الذي يزعم موسى الكليم عليه السلام وجوده وأنه أرسله إليهم وكلفهم بطاعته وعبادته وحده لا شريك له، ولكنه من باب الاحتياط التام والتنزل في المجادلة، والسعي لإقامة الحجة التامة أمر ببناء البرج العظيم في سبيل البحث عن الإله الوهمي المزعوم و إثبات صحة ادعاء موسى الكليم عليه السلام أو كذبه بالدليل الحسي القاطع، وأن يتحقق من الأمر ويرى ما هو الحق بنفسه ولا يوكله إلى غيره تحملاً منه للمسؤولية تجاه رعاياه وأتباعه.

فإذا ثبت لديه بالدليل الحسي الذي لا يقبل الشك والتردد وبالتجربة كذب موسى الكليم عليه السلام أظهره إلى الناس فلا تبقى بعده لموسى الكليم عليه السلام حجة على ما يدعيه، فيجوز معاقبته والاقتصاص منه لكذبه ومؤامرته على النظام والدولة والحكومة والملك والشعب، ولا تبقى لغيره حجة لتصديقه واتباعه، وعلى هذا النحو الثقيل من الخداع والتدليس والتضليل زيّن الشيطان الرجيم لفرعون الطاغية المتجبر قبيح عمله من الشرك

والتكذيب والظلم والطغيان ونحو ذلك، ولم يزل يزينه له ويحسنه حتى رآه حسناً فعلاً، ودعا إليه وناظر فيه مناظرة المحقين واستحسنته بطانته الفاسدة كما هي العادة لدى البطانات الانتهازية الفاسدة التي تلتف حول الفراعنة والحكام المستبدين الظلمة وتجاريهم في أطروحاتهم الباطلة وسياساتهم الشيطانية المرضية، وسلوكهم المنحرف ومواقفهم الجائرة تملقاً منهم إليهم من أجل مصالحهم الخاصة التي تأتي على حساب الحق والفضيلة والمصلحة الوطنية العامة، ويكونون شركاء الشيطان الرجيم في التزيين لفرعون أعماله السيئة القبيحة ومكائده الخبيثة لإدحاض الحق و إظهار الباطل بالباطل، والإيقاع بالمعارضين المطالبين بالإصلاح والحقوق، وصدّ الناس عن سبيل الهدى والرشاد والصلاح بالشبهات والتمويهات والمغالطات التي زينها الشيطان له فأراه الحق باطلاً والباطل حقاً، وأراه سبيل الهدى والرشاد ضلالاً وسبيل الضلال هدىً ورشاداً ونحو ذلك من أوجه الصد والإضلال، وتشجيعه على التمادي في البغي والطغيان والجدال في آيات الله تبارك وتعالى وبيناته بغير علم ولا هدى ولا كتاب مبين ولا حجة صحيحة أو برهان مستقيم، وزين لحاشيته وبطانته الانتهازية الفاسدة وقومه الجهله طاعته واتباعه فيما سلكه من الضلال والجهالات.

فانظروا إلى هذه الجرأة الفرعونية على الحقيقة والفضيلة، حيث ادعى أنه إله، وقال للناس أنا ربكم الأعلى وكذب بنبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته رغم كل ما جاء به من عند رب العالمين من المعجزات الباهرات والبينات الواضحات والبيان الساحر المؤثر، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق رب

العالمين، وفعل كل ما في وسعه وبكل وسيلة لينفي وجوده من أجل أهوائه ومصالحه الخاصة، ولعب بعقول النخبة السياسية والاقتصادية والثقافية والفنية والإعلامية ليصدقوه فيما ادعاه لنفسه بغير حق من الألوهية والربوبية والمالكية والسلطة المطلقة ونحوها، فصدقوه فعلاً، واتبعوه وناصروه ضد الأولياء الصالحين والمصلحين والمطالبين بالحقوق، وذلك لأنهم قوم أفسدت الأهواء والشهوات طباعهم ووجدانهم وضمائرهم ففسدت عقولهم وأديانهم، فلا عجب بعد ذلك أن نجد الادعاءات الباطلة الشنيعة في الملكيات المطلقة وقبول النخب قاصري العقل والوعي والإخلاص لهذه الادعاءات الباطلة الشنيعة بحكم العقل والدين والوجدان والدفاع عنها بالمغالطات والشبهات والتمويهات ونحوها من الأباطيل.

إلا أن المؤكد بحكم العقل والسنن الإلهية والتجارب التاريخية أن كيد فرعون وحاشيته الفاسدة وبطانته الانتهازية الأنانية وتدابيرهم الشيطانية التي أرادوا بها دحض الحق بالباطل في بوار وانقطاع، فلن توصلهم إلى ما أرادوا من إبطال آيات الله تبارك وتعالى وبيناته والتشويش على دعوة موسى الكليم عليه السلام الربانية وصرف الناس عن الإيمان بنبوته ورسالته، ولن تنجح في القضاء على حركة بني إسرائيل التحررية و إحباط أهدافها، بل على العكس من ذلك فإن كيدهم سيعود عليهم بالخسارة والدمار والشقاء والهلاك في الدارين الدنيا والآخرة، وعلى بني إسرائيل بالنجاة والخلاص والتحرر من العبودية والاستخلاف في الأرض بدلاً من آل فرعون، وسيرثون ما يخلفون وراءهم من الأرض والعمران والثروة والسلطة في مصر وتوابعها.

فإن الله ﷻ من ورائه محيط علماً بكل كيدهم ومكرهم وخططهم وقادر على إحباطها والوصول بها إلى ضد ما يريدون ويقصدون وهو نفس المصير الذي ينتظر كل نظام دكتاتوري وحكومة مستبدة ظالمة لشعبها، وكل ما يحاول أن يظلم الناس أو يخدعهم أو يمكر بهم من المترفين وأصحاب القوة والسلطة والنفوذ، وإن كان له مثل ملك فرعون وجيوشه وقوته ومثل سلطة هامان وخططه ودهائه، ومثل ثروة قارون وخدمه وعماله ونحو ذلك.

وقد ثبت بالتجربة والبرهان أن الخطط الشيطانية التضليلية والكيدية التي يلجأ إليها الفراعنة والمستكبرون والحكام المستبدون حتى وإن نجحت في خداع الناس وتضليلهم شطراً من الزمن، أي على المدى القريب فإنها تنتهي دائماً وحتماً إلى الفشل والخسران والدمار على المدى البعيد لهذه الكيانات المهترية.

فلا يغتر القائمون عليها بما في أيديهم من المال والسلطة والقوة وما يحققونه من نجاحات في مخططاتهم السلطوية الشيطانية على المدى القريب، ولا تيأس الشعوب المستضعفة المناضلة من رحمة الله ذي الجلال والإكرام فالنصر حليفها لا محالة، فعليها أن تعيش الأمل وتواصل النضال ولا تيأس حتى يتحقق النصر بإذن الله ﷻ.

وقال علماء التفسير أن هامان قد شرع في بناء البرج العظيم الذي أمره فرعون ببنائه، فخصص مساحة واسعة من الأرض لهذا المشروع الضخم وهيأ أكثر من خمسين ألف من العمال المهرة والمهندسين والفنيين وفتح

أبواب الخزائن وصرف أموالاً طائلة لإنجازه، واستخدم في البناء قوالب الطين المحروقة بالنار لتشتد صلابة، قول الله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾[١].

وكان كلما ارتفع البناء في المشروع أكثر كلما جلب الاهتمام إليه أكثر وأصبح حديث الناس كلهم في المجالس، وذلك على حساب التفكير والتأمل في القضية الأساسية وهي قضية نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته وما حققه من الانتصار على السحرة، والحركة التحررية لبني إسرائيل ومطالبهم السياسية والحقوقية، مما يدل على النجاح النسبي المؤقت لفرعون في التموية على الناس وخداعهم وصرفهم عن التفكير في قضية موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل بغية حماية نظامه وملكه.

ولما بلغ البناء في مشروع البرج نهاية ما قدر عليه من الارتفاع صعوداً إلى السماء، حيث باتت الرياح الشديدة مانعاً عن الاستمرار في العمل، فاعتذر هامان لفرعون عن الاستمرار في البناء وعند هذا الحد هيأ البرج وصعد فرعون بصحبة هامان إلى قمة البرج، وقيل أنهما صعدا على ظهر جواد، وعند القمة صوب فرعون سهماً نحو السماء فعاد إليه النصل مخضباً بالدم فقال لمن حوله: لقد قتلت إله موسى !! وما ذلك - إن صح الخبر - إلا من كيد رب العالمين.

وقيل: أن السهم أصاب أحد الطيور، وقيل: أن فرعون غمس السهم بالدم خفية عن قومه قبل تصويبه، أراد بذلك خداع الذين تأثروا من قومه بما

١. القصص: ٣٨

جاء به موسى الكليم عليه السلام أو ما نصح به مؤمن آل فرعون إذ يوهمهم بأنه قتل إله موسى الكليم عليه السلام وتخلص منه، وعليه ينبغي عليهم البقاء على ما كانوا عليه من الدين والولاء لفرعون ونظامه، ولا بأس عليهم في ذلك.

ومن المسلم به أن جماعة من البسطاء الموالين للنظام والملك ويتبعونهما إتباعاً أعمى قد صدقوا أكذوبة فرعون وتأثروا بها ونشروها في كل مكان، وهذه واحدة من التحديات التي تواجه المصلحين في التاريخ كله، فقد دأبت الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الظالمة في طول التاريخ وعرض الجغرافيا على الاعتماد في وجودها والترويج لسياساتها الشيطانية المغرضة على التجهيل والتضليل والخداع والشبهات والمغالطات، وتستخف بعقول البسطاء والجهلة الذين يخدعون بالظواهر ولا تنفذ بصائرهم إلى ما ورائها من البواطن والحقائق، وهناك من يصدقهم من النخب خوفاً أو طمعاً أو سفاهة.

وفي تفسير القمي وغيره أن هامان بنى برجاً عظيماً حتى بلغ مكاناً لا يمكن الإنسان من الإقامة عليه من شدة الرياح، وأن الرياح الشديدة حطمت ذلك البناء بشدتها، فاتخذ فرعون وهامان عند ذلك التابوت، فعمدا إلى أربعة أنسر، فأخذا أفراخها وقاما على تربيتها حتى كبرت وبلغت أقصى قوتها، ثم عمدا إلى جوانب التابوت الأربعة، فغرسا في كل جانب منه خشبة، وجعلا على رأس كل خشبة لحماً، وجوعا الأنسر، وشدا أرجل الأنسر بأصل الخشبة وجلسا في التابوت فنظرت الأنسر إلى اللحم فأهوت إليه تطلبه وصفقت بأجنحتها وارتفعت بها في الفضاء

ارتفاعاً عظيماً لم يبلغه أحد من الناس قبلهما.

المفارقة العجيبة بين دعوتين: دعوة مؤمن آل فرعون ودعوة قومه

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾

تمادى فرعون الطاغية وقومه الجهلة في الغي والطغيان والضلال والفساد، إلا أن مؤمن آل فرعون لم ينخدع، وحاول فرعون أن يحرف الموضوع عن وجهته عن طريق طرح مشروع البرج بتمويه فرعون ومغالطاته الشيطانية الخبيثة، ولم يلتفت إليها ولم ينشغل بها كما ينشغل البلهاء والحمقى الساذجون بألاعيب الطواغيت والحكام المستبدين، وتابع كلامه ونصيحته لقومه ورغبهم في أن يقبلوا دعوته لهم بإتباع سبيل الهدى والرشاد وحثهم على الإيمان بالتوحيد والنبوة والرسالة والمعاد، وحثهم على العمل من أجل الآخرة ونهاهم عن الاغترار بالدنيا الفانية،

وبما في أيديهم من الملك والثروة والقوة، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[١].

أي: اتبعوني فيما أقول وأنصح لكم به واقتدوا بي في الإيمان بالتوحيد والدين الحق، واتباع موسى عليه السلام كما تبعته عن قناعة تامة ويقين يستند إلى الدليل العقلي المستقيم، فإن فعلتم ذلك فقد سلكتم سبيل العقل والوجدان والهدى والرشاد الذي فيه إصابة الحق، ويوصلكم إلى الخير والصلاح وإلى كمالكم الإنساني المقرر لكم، وإلى سعادتكم الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة، ويحقق غاية وجودكم في الحياة، وفي هذا الطريق:

أ. عليكم أن تعلموا بأن الحياة الدنيا دار متاع ويتمتع فيها الإنسان ويتنعم قليلاً ثم تنقطع وتضمحل وتزول فهي إلى فناء حتماً، وهذا معلوم بالبداهية والوجدان، وهي مقدمته للآخرة التي هي الغاية والنهاية والمقر؛ لأنها دائمة لا تنقطع ولا تزول، والدنيا وسيلة ومجرد طريق عبور إلى الآخرة وليست ذات قيمة في نفسها، وعليه فنعيم الدنيا الفانية بالنسبة إلى نعيم الآخرة قليل، ونعيم الدنيا مشوب بالألم وصنوف المنغصات، ونعيم الآخرة نقي من الألم ومن جميع الشوائب والمنغصات، فلا قياس نعيم الدنيا الفانية بنعيم الآخرة الباقية في ميزان العقل والمنطق.

والركون إلى الدنيا هو أصل كل شر وإثم، وجالب لسخط الله جل جلاله وغضبه وانتقامه وعقابه، ولا يناسب كرامة الإنسان ومكانتها

---

١. غافر: ٣٨

المتميزة حيث تنتهي حياة الإنسان بصيرورته تراباً مثله في ذلك مثل سائر الحيوانات والنباتات، والذي يليق بكرامته أن يكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر، منعماً في جنات الخلد، فهذا ما يليق بالإنسان ويحقق غاية وجوده، فلا ينبغي للإنسان العاقل أن يغتر بالحياة الدنيا وينخدع بما خلق من أجله، وأن يؤثر الآخرة على الدنيا وأن يعمل من أجلها عملاً يسعده فيها ليكون من الناصحين المفلحين الفائزين. وفي نهج البلاغة قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة، وما يصنع بالمال من عمّا قليل يسلبه وتبقى عليه تبعته وحسابه؟**»[1]

فقد بدأ مؤمن آل فرعون بذم الدنيا وتحقير شأنها، ثم ثنى بمدح الآخرة وعظم شأنها كأنه يقول لهم: لنفترض أننا تركنا الحق وراء ظهورنا ولم نكترث به، وانتصرنا على موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل وفرضنا عليهم حكم الأمر الواقع بأساليب السياسة الشيطانية الخبيثة والحيل والخداع والقوة والعنف والإرهاب ونحو ذلك، - تحقيق ذلك غير مضمون ولكن لنفرض أنه حدث - فماذا بعد؟! إن أيام حياتنا في هذه الحياة الدنيا معدودة ثم تنتهي وتذهب لذتها ويذهب معها الملك والقصور والثروة والقوة والنعيم، ثم ننزل في قبر مظلم موحش لا أنيس لنا فيه، ونصير تراباً في التراب، ثم نبعث في يوم القيامة ونقف بين يدي الله عز وجل بلا حول لنا ولا قوة من أجل الحساب والجزاء، ولأننا كفرنا بالله ذي الجلال

١. غرر الحكم

والإكرام وباليوم الآخر، وكذبنا رسله، وظلمنا وطغينا وأفسدنا في الأرض وعملنا الأعمال السيئة، فسوف يكون مصيرنا حتماً إلى النار، فما قيمة الحياة الدنيا الفانية بالنسبة إلى هذا المصير الأسود في الآخرة الباقية في ميزان العقل والفطرة؟ الجواب لا شيء.

وهذه الأطروحة تدل على نفاذ بصيرة مؤمن آل فرعون وتمكنه من المعارف الإلهية الحقة وحكمته وقوة منطقه، فالإيمان بالآخرة هو المستند الواقعي الذي يستند إليه سلوك طريق الهدى والرشاد والتدين بدين الحق، ولولاه لكان الدين الحق مجرد نظرية تفتقر إلى الأساس الواقعي للعمل بها وتطبيقها في الحياة، ولهذا بدأ مؤمن آل فرعون بالتأكيد على الإيمان باليوم الآخر، ثم ثنى على الحساب والجزاء في ذلك اليوم العظيم والمصيري في دورة الحياة الكاملة للإنسان.

ب. إن القضية ليست مجرد فناء الدنيا وزوالها، و إنما حتمية البعث والحساب والجزاء في يوم القيامة، ففي الآخرة يحاسب الله ﷻ الإنسان على عقيدته وأعماله، ويجازى على السيئات بمثلها وعلى الحسنات بأحسن منها، فكل من يعمل عملاً سيئاً من أعمال القلوب أو الجوارح مثل: الكفر والشرك والنفاق والطغيان والعصيان، فإن الذي يصيبه ويعيش به من الجزاء في الآخرة يشاكل في السوء ما أتى به من الأعمال السيئة في عالم الدنيا، فلا يجزى في الآخرة إلا جزاءً موافقاً في السوء لعمله السيء، فيجازى على أعماله

السيئة بما يسوءه ويغمه ويحزنه، وبقدر إساءته وما يستحقه من العقاب كمّاً ونوعاً بلا زيادة مطلقاً؛ لأن الله سبحانه وتعالى عادل لا يظلم أحداً من عباده مهما كانت إساءته وظلمه؛ لأنه غني عن الظلم، والظلم قبيح ودليل على النقص والفقر، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، والله ﷻ قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، فلا حاجة له إلى الظلم في جزاء عباده العاصين، وقد يعفو الله تبارك وتعالى عن العاصين تكرماً منه ورحمة، بشرط أن يكون العبد ممن يليق به العفو، أي ليس من الذين استولى عليهم الشيطان مثل الفراعنة المتجبرين وأعوانهم الذين تورطوا في الظلم معهم وسفك الدماء بغير حق، وعليه ينبغي للعامل أن يتقي تبعة أعماله في دار الجزاء.

وفي المقابل من يعمل عملاً صالحاً من أعمال القلوب والجوارح مثل: الإيمان بالتوحيد والمعاد والنبوة والتحلي بالصدق والوفاء والأمانة ويؤدي الفرائض والمستحبات ونحو ذلك، أي يجمع بين الإيمان الحق والعمل الصالح، فإن الله تبارك وتعالى يتفضل عليه برحمته ويدخله الجنة، ويرزق فيها رزقاً حسناً وافراً بلا حد ولا عد ولا حساب، فلا يحصى لكثرته واستمراره وديمومته وعدم انقطاعه، أي: يعطي المؤمنين بموازنة عمله الصالح أضعافاً مضاعفة وما لا تبلغه أعماله، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر في طيبه وحسنه وجماله وكماله ونقائه وصفائه من الألم والشوائب والمنغصات، ولا تبعة عليه فيه ولا محاسبة ولا عتاب

ولا شيء من نحو ذلك، يعطى إياه فضلاً من الله تبارك وتعالى ورحمة.

وعليه: ففي كلام مؤمن آل فرعون مقارنة ومقابلة بين جزاء الأعمال السيئة وبين جزاء الأعمال الحسنة، وأن جزاء الأعمال السيئة بمثلها وبلا زيادة على المستحق، أي: له حساب وتقدير عدلاً منه تعالى، أما جزاء الأعمال الحسنة فهو زائد على المستحق أضعافاً مضاعفة، وليس له حساب ولا تقدير في الكثرة والنوع، تفضلاً من الله تبارك وتعالى وكرماً ورحمة، كما نخلص من كلام مؤمن آل فرعون إلى أن الدين الحق، إيمان عن يقين يستند إلى الدليل والبرهان، وعمل صالح في عالم الدنيا، وحساب وجزاء في عالم البقاء (الآخرة)، مما يعزز الشعور بالمسؤولية الفكرية والعملية في الحياة وعدم التصرف بدون رؤية وتفكير، وعبارة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[1]، فيها إيماء إلى أن الجنة محرمة على الكافرين المكذبين بالأنبياء والرسل عليهم السلام المخالفين لهم فيما جاءوا به من عند الله سبحانه وتعالى.

لم يلتزم فرعون وملؤه وقومه الصمت إزاء كلام مؤمن آل فرعون وهم يسمعون منه ما يسفه أحلامهم، ولكنهم عجزوا عن أن يناظروه ويقابلوا حجته بحجة مثلها، فجادلوه بالباطل ودعوه إلى الشرك وتكذيب الرسول الكريم موسى الكليم عليه السلام ورغبوه ورهبوه، فليس لهم منطق غير منطق التعصب الأعمى والأهواء والشهوات والعنف والإرهاب لفض ضمير الإنسان و إرغامه على مجاراتهم والسير معهم في طريق الغي والفساد والضلال،

---

١. غافر: ٤٠

فعاتبهم عتاب الحريص عليهم المحب لهم، ولامهم بلطف على دعوتهم له إلى الكفر والضلال، بينما هو يدعوهم إلى الهدى والإيمان، وعقد مقارنة واضحة عجيبة بين دعوته لهم، وهي دعوة حق وخير ومنطق سليم، وبين دعوتهم له، وهي دعوة شر وباطل وتعصب أعمى وضلال، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾[1].

أي: ما لي أدعوكم بما قلت ونصحت لكم إلى الخير الذي فيه الهدى والنجاة من عذاب الهلاك والاستئصال في عالم الدنيا، ومن عذاب النار في عالم الآخرة، بأن أدعوكم إلى الإيمان بالتوحيد والإيمان بأنبياء الله تبارك وتعالى ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر وهذا يقود حتماً إلى النجاة والسعادة الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة، وأنتم تصرون على الضلال وتدعونني إلى ما فيه الهلاك والشقاء في الدارين الدنيا والآخرة، ويؤدي بي إلى الخلود في عذاب جهنم في عالم الآخرة بأن تدعوني إلى أن أكفر بالله ذي الجلال والإكرام وربوبيته، و إشراك غيره معه في الطاعة والعبادة، وأكذب بأنبيائه ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر، وذلك بدون علم ولا حجة صحيحة ولا دليل أو برهان مستقيم بل تعصباً وطمعاً في الدنيا وخوفاً عليها، فأجانب الحق والصدق والعدل والصواب، وأخالف العقل والمنطق والفطرة والوجدان وأفتري على الله ﷻ الكذب.

وهذه من أعظم الذنوب وأقبحها ويقود إلى الشقاء والهلاك في الدارين

١. غافر: ٤١-٤٢

الدنيا والآخرة، فهو انحراف وضلال واضح لا لبس فيه ولا غموض، وطريق وعر ومظلم ومحفوف بالمخاطر ويؤدي إلى سوء العاقبة والمصير، لا يسلكه عاقل أبداً، فأنتم تقابلون النصح بالغش والخير بالشر والإحسان بالإساءة، وهذا خلاف العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم، وفي قول مؤمن آل فرعون إشعار بأن إدعاء الألوهية والربوبية ونفيهما يجب أن يستندا إلى دليل يقين لا شك فيه ولا ريب، وذلك لما يترتب عليهما من مسؤوليات وتبعات خطيرة ومصيرية في الدارين الدنيا والآخرة في حالتي النفي والإثبات.

ثم أشار إلى استجماع الله سبحانه وتعالى لكمال صفات الألوهية، صفات الجمال وصفات الجلال، فقال: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾[1]، أي: له القوة والقدرة المطلقة وله الغلبة كلها على غيره، فهو غالب دائماً غير مغلوب على شيء مما يعزم عليه، وهو ينصر رسله وعباده المؤمنين المجاهدين في سبيله، المتمكن من المجازاة: العقاب لكل من يعصيه والثواب لكل من يطيعه، والغفّار لمن آمن به وأسلم له لكنه أسرف على نفسه بارتكاب المعاصي والذنوب الصغيرة والكبيرة الظاهرة والباطنة وتجرأ على ساخطه، ثم تراجع وندم عما صدر منه من المعاصي والذنوب وتاب إلى ربه توبة نصوحة وأناب، فيتوب عليه بعفوه ويصفح عنه ويكفر عنه سيئاته برحمته ويرفع عنه ما كان يستحقه من العقوبات الدنيوية والأخروية بكرمه.

---

١. غافر: ٢٤

وعليه: فإن الله ﷻ ينفع الذين يؤمنون به ويعبدونه ويطيعونه في الدارين الدنيا والآخرة، أما فرعون والحكام فليس بيدهم شيء من الأمر على وجه الحقيقة والواقع، فهم لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ولا جزاءً في الدارين الدنيا والآخرة.

ثم خلص إلى نتيجه عقلية حاسمة فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[١]، أي: لا شك أن الأمر ليس كما تزعمون وأن الحق الواضح الصريح أن ما تدعونني إليه من الشرك بالله سبحانه وتعالى لا شأن له ولا قيمة له البتة ولا أساس صحيح له في حكم العقل والمنطق ولا حجة عليه ولا دليل له ولا برهان، فهو واجد البطلان أبداً لا ينقطع بطلانه، ولا يمكن أن ينقلب حقاً بأي حال من الأحوال وبأي وجه من الوجوه، ولا في أي ظرف من الظروف، وهو ضار بإنسانية الإنسان ومكانته وكرامته وكماله ولا فائدة منه، وهو الطريق إلى الشقاء والهلاك في الدارين الدنيا والآخرة، ولا يصح الرجوع إليه والأخذ به مطلقاً، ولا يستحق الدعوة إليه والحث على اللجوء إليه؛ لأنه ليس بشيء في الدارين الدنيا والآخرة.

أضف إلى ذلك أن الذين تدعونني لأشركهم مع الله سبحانه وتعالى في الطاعة والعبادة، يتبرأون من الذين اتبعوهم في الآخرة ويكفرون بعبادتهم، قول الله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

١. غافر: ٤٣

يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[١]، وأما ما أدعوكم إليه من التوحيد والإيمان بالآخرة ونحوه فإن له أساس متين من العقل والمنطق والوجدان، وقد جاء به الأنبياء والمرسلون والأوصياء عليهم السلام المبعوثون من الله تبارك وتعالى، وجاءوا عليه بما يؤيده من المعجزات الباهرات والبينات الواضحات والأدلة والبراهين المنيرة القاطعة، وهو نافع للإنسان والطريق إلى نجاته وسعادته الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة.

وعليه: فليس للشرك ودعوى الألوهية والربوبية لغير الله سبحانه وتعالى مصداقية أو واقعية في الدارين الدنيا والآخرة، وليس للأصنام وكل من ترفع إليه الأيدي والأكف بالدعاء سوى الله عز وجل القدرة على الاستجابة للداعي، فلا يقدر على أن يصنع له شيئاً مما يطلبه أو يدفع عنه شر ما يخافه، أو ينفعه بشيء من وجوه النفع.

وفي المقابل: للتوحيد كل المصداقية والواقعية في الفكر والعمل، فالله وحده القادر على أن يجيب دعاء داعيه، وبيده أن ينفعه بكل أوجه النفع وأن يدفع عنه كل أوجه الشر في الدارين الدنيا والآخرة، و إليه المرجع والمنتهى في الأمور كلها بلا استثناء أبداً.

فمن الحكمة والموافق للمنطق والفطرة أن تنتهزوا الفرصة وتبادروا إلى التوبة والتراجع عما أنتم عليه من الكفر والشرك والتكذيب بالرسل، الذي هو سبب الهلاك والشقاء في الدارين و إلا فإن مصيركم غير مأسوف عليكم

---

١. فاطر: ١٣-١٤

إلى الضياع، ويلحق بكم الهلاك الذي لحق بالأمم السابقة التي كفرت وكذبت الرسل عليهم السلام وتكونوا أنتم الظالمين لأنفسكم بسوء اختياركم.

ثم أكد مؤمن آل فرعون على العودة إلى الله بعد الموت بالبعث للحساب والجزاء، فقال: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[1]، أي: إليه يرجع الخلائق بعد الموت للحساب والجزاء وليس إلى فرعون أو سواه، وسيجازي بالحق كل على حسب عقيدته وعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهذا أمر حتمي لا مفر منه بحكم العقل والمنطق ومقتضى الحكمة والعدل الإلهي، وأن المسرفين المستكثرين من المعاصي والذنوب والمتجاوزين حد الحكمة والاعتدال والخارجين عن طور العبودية لله ذي الجلال والإكرام بالكفر والشرك والنفاق وسفك الدماء المحرمة وبغير حقها وغير ذلك من المعاصي، هم الناقصون في كمال إنسانيتهم والأشقياء الهالكون وهم أصحاب نار جهنم الذين يصيرون إليها والمعذبون فيها في الآخرة.

وعليه: يجب العبودية إلى الله ذي الجلال والإكرام واتباع سبيله سبيل الهدى والرشاد والتزام حد العبودية إلى الله ذي الجلال والإكرام؛ لأن ذلك هو حكم العقل والمنطق وفيه خيرنا وصلاحنا وكمالنا الإنساني المقدر لنا وسعادتنا الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة.

ثم حذر قومه من عواقب ما نصح به إليهم ونبههم، فقال: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ

---

١. غافر: ٤٣

مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾[١]، أي: أن ما قلت لكم هي حقائق يقينية ثابتة بالدليل والبرهان القطعي، وليست أوهام أو ظنون، وستعلمون حقيقتها، ولكن بعد فوات الأوان عندما تعاينون المصائب والأهوال الشديدة حين ينزل بكم العذاب الإلهي ويعمكم في الدارين الدنيا والآخرة، حيث ينغلق أمامكم باب التوبة بعد نزول العذاب بساحتكم في عالم الدنيا والآخرة، وينغلق أمامكم الطريق للرجوع إلى عالم الدنيا لاستدراك ما فات، قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[٢].

عندئذ: سترون مغبة مخالفة ما قلته ونصحت به لكم وستشاهدون بأم أعينكم عواقب رد ما قلته لكم وعدم تصديقه، وستعلمون حينها صدقي وأني قد بالغت في نصحكم وتذكيركم، ولكن بدون فائدة، إذ ختم الله ﷻ على قلوبكم بسبب إفراطكم في العناد والتعصب والإصرار على المعاصي والذنوب، وستعلمون في المقابل: أن الذين يخالفوني الرأي ويدعونكم إلى الشرك والتكذيب بالرسول الكريم ﵇ رغم كل ما جاءكم به من المعجزات والبينات هم في الحقيقة من الغاشين لكم وغير الحريصين على مصلحتكم وسعادتكم ولا يريدون لكم الخير بل يريدون لكم الشر والهلاك، ويقودونكم إليه من أجل مصالحهم الخاصة.

١. غافر: ٤٤

٢. فاطر: ٣٦-٣٧

وفي مقولة مؤمن آل فرعون تعرض واضح بأن سبيل فرعون وملئه هو سبيل فساد وضلال وشر وهلاك، وليس كما يزعم بأن ما يشير به على قومه هو عين الهدى والصلاح والرشاد، قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[1] وهذه حقيقة واقعية يدركها كل عاقل منصف لم تمنعه عن إدراكها صور وأحكامه المسبقة ورغباته الشهوانيه المنحرفة، فقد فضح العبد المؤمن الناصح إدعاءته وأبطل مقولته بالدليل والبرهان، وحذر قومه من أن يقعوا فريسة لأكاذيبه وخداعه ومكره ومغالطاته تحت تأثير الجهل والسذاجة والتملق أو الخوف والطمع أو نحو ذلك.

وفي كلام مؤمن آل فرعون تصريح واضح بإيمانه، فقد أزال الحجب والأستار وكشف عن هويته الدينية كما هي بدون تغليف، وأعلن أنه يؤمن بعقيدة التوحيد ويصدق بنبوة موسى الكليم عليه السلام وبرسالته وبعدالة قضيته ومطالبه السياسية والحقوقية من النظام الفرعوني، وانفصل علناً وبدون مواربة عن دين الطاغوت الملوث بالشرك والطغيان والفساد وعن نظامه الفاسد وحكومته المستبدة الظالمة، ووقف لوحده لا يملك إلا نفسه وعقيدته إزاء كفرهم وضلالهم وانحرافهم وجبروتهم وبطشهم الشديد غير مكترث ولا مبالٍ بجمعهم وقوتهم و إرهابهم، فلم يعد يسلك مسلك التقية ولم يعد يتحمل الصمت والكتمان والاختفاء؛ لأن الأمر جداً خطير، فحياة ولي الله الأعظم في خطر جدي محدق، وكذلك قومه في خطر شديد إن هم تورطوا في قتل ولي الله الأعظم عليه السلام، فلا مجال إذن للصمت والاختفاء، ولابد من الكلام بصراحة ووضوح لإنقاذ ولي الله الأعظم من

---

١. غافر: ٢٩

القتل، وإنقاذ قومه من الهلاك، وهذا هو فعل الإيمان الحقيقي في الإنسان المؤمن بشدة إلى الله ذي الجلال والإكرام، ولا يلتفت إلى سواه أو إلى العقبات والتضحيات.

ثم قال: اعلموا أني حين كشفت عن إيماني ونصحت لكم، فإني قد عرّضت حياتي للخطر إلا أني لم أكترث؛ لأني أقوم بتكليفي الإلهي وأنصح إلى قومي وأقودهم إلى طريق الهدى والخير والصلاح والنجاة والسعادة في الدارين الدنيا والآخرة، وأبعدهم عن طريق الضلال والشر والفساد والهلاك والشقاء في الدارين الدنيا والآخرة، وقد توكلت على الله ربي ﷻ وفوضت إليه أمري كله؛ ليجلب لي ما ينفعني في أمر ديني ودنياي وآخرتي، ويدفع عني السوء والضرر في أمر ديني ودنياي وآخرتي، وأسلمت لما يكتب لي ويقضي عليّ بحكمته ورحمته، فهو أرحم بي وأنظر لي من نفسي، واعتصمت به من شيطان مريد وجبار عنيد، فالأمر كله له وبيده وليس لي ولا لغيري في الحقيقة من الأمر شيء مستقل عنه، فلا يتصرف أحد إلا بإذنه ووفق مشيئته، وهو بصير بعباده ومحيط بهم علماً وقدرة، فلا يخفى عليه شيء من أحوالهم الظاهرة والباطنة ويعلم ما يسرون وما يعلنون، ولا يعجزه شيء ويعلم ما يستحقون من الثواب والعقاب وما يعطيهم وما يمنعهم في الدنيا والآخرة، فهو يمنعني من عدوي ويكفيني شره وما يكيدني ويريدني به من السوء، وإن سلّطه عليّ فلحكمة منه في ذلك ومن أجل صلاحي وسعادتي الأبدية عنده في الآخرة، فهو أرحم بي وأنظر إلي من نفسي.

قال ابن عربي في الفتوحات إن: «**(أفوض) مأخوذة من فاض الإناء إذا امتلأ ولم يقع للمزيد. فإذا حمل المؤمن أكثر مما في وسعه ورجع في الزائد الفائض إلى الله تعالى فيتلقى سبحانه الزائد من المؤمن ويخفف عنه وهو ﷻ العليم البصير بمن آمن به وتوكل عليه**»[١] وفي الحديث الشريف: «**المفوض أمره إلى الله في راحة الأبد والعيش الدائم الرغد**»[٢] والتفويض لا يعني أن يترك العبد الجد والعمل وإنما يعني التدبير والتخطيط والاستمرار في العمل بجد، فيبذل كل جهده وما في وسعه بعزم راسخ وهمة عالية، ولا يخشى الصعوبات والعوائق وإنما يسعى لتذليلها والتغلب عليها وقهرها، ويقدم ما يلزم من التضحيات بأريحية ونفس مطمئنة فيما اطمئن إليه واختاره لنفسه، ثم يسلم الأمر إلى الله ﷻ ليتكفل هو النتائج.

والتفويض مرتبة فوق التوكل، والتسليم مرتبة فوق التفويض، وعليه: فلأن البعث في يوم القيامة حق لا ريب فيه ولأن الجزاء: الثواب والعقاب يوم القيامة حتم لا مفر منه، ولأن الأمر كله بيد الله ﷻ وليس لأحد في الحقيقة من الأمر شيء مستقل عنه، فإني لا أستوحش من وحدتي ولا أرهب كثرتكم ولا أخشى تهديداتكم وإرهابكم لي، ولا أطمع في شيء مما تغرونني به من دنياكم الفانية، وأوكل أمري كله إلى الله ذي الجلال والإكرام ذي القدرة المطلقة والرحمة الواسعة والمحيط بكل شيء علماً، وأضع نفسي بين يديه وفي تصرفه وأرضى بقدره وقضائه وأسلم لجميع ما يكتبه علي ويحدثه بي بكل طمأنينة وسرور.

---

١. تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، جزء ٦، صفحة ٤٥٦

٢. سفينة البحار، المجلد الثّاني، صفحة ٣٨٤، مادة «فوض»

نجاة مؤمن آل فرعون وهلاك فرعون وجنوده

ولم يترك الله القوي العزيز عبده الصالح مؤمن آل فرعون الناصح الأمين لقومة وحيداً في ساحة النزال أمام الذئاب البشرية المفترسة بدون رحمة، بل حماه من مكر فرعون وحاشيته وبطانته الفاسدة الذين أضمروا له السوء وعزموا على قتله، وحماه من خططهم الشيطانية التي حاكوها للإيقاع به والانتقام منه بكل وسيلة؛ لأنه أظهر معارضتهم وأبدى ما يكرهون وأعلن موافقته التامة لموسى الكليم عليه السلام فيما يدعوهم إليه من التوحيد والإيمان بالنبوة والعمل من أجل الآخرة، وفيما يطالب به النظام الفرعوني الفاسد من الإصلاح السياسي والحقوقي والعدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات على أساس المواطنة ونحو ذلك من المطالب الشرعية الواقعية.

وهذا أمر لا يحتمله الحكام المستبدون الظلمة والقائمون على الأنظمة الدكتاتورية، حيث تضيق صدورهم من حرية الكلمة والمطالب الإصلاحية والحركات الإصلاحية والثورية، فقد أغضب مؤمن آل فرعون بأطروحاته الجريئة فرعون وحاشيته غضباً شديداً، واشتد حنقه عليه فأرادوا به شراً وخططوا للكيد والإيقاع به والانتقام منه بكل وسيلة، فحفظه الله عز وجل من كيدهم الباطل ومكرهم السيء، وكف بأسهم الشديد عنه وأبطل مفاعيل مخططاتهم الشيطانية والخبيثة، وأنجاه منهم وخلصه من شرهم، وعلى العكس مما يريدون: انقلب كيدهم ومكرهم السيء على أنفسهم، فالله جل جلاله ولي الذين آمنوا وهو الذي يدافع عنهم ويحميهم ويكفيهم شر عدوهم،

ويخلصهم منه، وفق مقتضى حكمته وحسن تدبيره في الحياة، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[١].

أي: إن الله ﷻ يدفع الأعداء وغوائل المشركين والكفار ووساوس الشيطان الرجيم وشرور أنفسهم وسيئات أعمالهم ويحمل عنهم عند نزول البلاء والمكاره ما لا يتحملون، وذلك بسبب إيمانهم وصبرهم على البلاء والمكاره وجهادهم في سبيل الله ﷻ، وأن الله سبحانه وتعالى يحب كل أمين قائم بأمانته وشكور لمولاه على نعمه، وفي المقابل لا يحب كل من يخون دينه و إنسانيته وضميره ووطنه ويتخلى عن مسؤولياته الإنسانية والدينية والوطنية وعن تكليفه الشرعي تحت الخوف والطمع أو التملق أو نحو ذلك، ويكفر بنعم الله تبارك وتعالى الظاهرة والباطنة ويجحد بها ويخون الأمانة التي حمله الله ﷻ إياها، أمانة الحكم والرعاية للأمة وشؤونها العامة، ويجحد المعروف والإحسان ويسيء لمن نصح له، فهذا مبغوض إلى الله ﷻ وممقوت عنده وسيجازيه بعدله على كفره وخيانته.

وقيل: أن حزقيل «مؤمن آل فرعون» انتهز فرصة مناسبة فالتحق بموسى الكليم عليه السلام وعبر البحر مع بني إسرائيل فكان من الناجين معهم وكانت عاقبته إلى السعادة الأبدية الحقيقية، وقيل: أنه هرب إلى جبل وبقي مختفياً فيه، وجمع بعض العلماء بين القولين، بالقول: أنه هرب إلى الجبل في أول الأمر ثم التحق بموسى الكليم عليه السلام وكان من الناجين مع بني إسرائيل. وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كان حزقيل يدعو قومه**

---

١. الحج: ٣٨

إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ونبوة موسى عليه السلام. وإلى البراءة من ربوبية فرعون، فوشى به الواشون إلى فرعون وقالوا: إن حزقيل يدعو إلى مخالفتك ويعين أعداءك على مضادتك. فقال لهم فرعون: ابن عمي وخليفتي على ملكي وولي عهدي إن فعل ما قلتم استحق أشد العذاب على كفره بنعمتي، وإن كنتم عليه كاذبين فقد استحققتم أشد العذاب لإيثاركم الدخول في مساءته، فجاء بحزقيل وجاء بهم فكاشفوه وقالوا: أنت تجحد ربوبية فرعون الملك وتكفر بنعماه. فقال حزقيل: أيها الملك!! هل جربت عليّ كذباً قط؟ قال: لا. قال: فسألهم من ربهم؟ قالوا: فرعون هذا. قال: ومن خالقكم؟ قالوا: فرعون هذا. قال: ومن رازقكم الكافل لمعائشكم والدافع عنكم مكارهكم؟ قالوا: فرعون هذا. قال حزقيل: أيها الملك فأشهدك وكل من حضرك أن ربهم هو ربي وخالقهم هو خالقي ورازقهم هو رازقي ومصلح معائشهم هو مصلح معائشي لا رب لي ولا خالق لي ولا رازق لي غير ربهم وخالقهم ورازقهم، وأشهدك ومن حضرك أن كل رب ورازق وخالق سوى ربهم وخالقهم ورازقهم فأنا بريء منه ومن ربوبيته، وكافر بإلاهيته، يقول حزقيل هذا، وهو يعني أن ربهم هو الله ربي، ولم يقل أن الذي قالوا أنه ربهم هو ربي، وخفي هذا المعنى على فرعون ومن حضره، وتوهم وتوهموا أنه يقول فرعون ربي وخالقي ورازقي، فقال لهم فرعون يا رجال السوء ويا طلاب الفساد في ملكي ومريدي الفتنة بيني وبين ابن عمي وهو عضدي، ثم أمر بالأوتاد فجعل في ساق كل واحد منهم وتد وفي صدره وتد، وأمر أصحاب أمشاط الحديد فشقوا بها لحومهم من أبدانهم»[1]

---

١. الاحتجاج، جزء ٢، صفحة ١٣٣

وقد جرت عادة بطانات السوء على مثل هذه الوشاية بالصالحين والمصلحين تملقاً إلى الدكتاتور وخوفاً على مصالحهم ومكانتهم من الضياع وهؤلاء يستحقون أن يمكر بهم جزاء نيتهم الخبيثة وأعمالهم السيئة.

وقيل: إن فرعون وحاشيته سطوا على حزقيل الرجل الصالح والناصح الأمين لقومه وقتلوه، ونال بذلك شرف الشهادة العظيم، أو قطعوه بعد قتله إرباً إرباً ولكن الله ﷻ ثبته على الدين الحق ورسخ قدمه في طريق الهدى والإيمان ووقاه من سوء المنقلب والارتداد بأن يفتنوه بمخططاتهم الشيطانية الخبيثة عن دينه الحق، بالانحراف تحت تأثير الإغراء والتخويف والتعصب ونحو ذلك من أسباب الضلال والانحراف والانزلاق عن الدين الحق والهداية المستقيم.

وهكذا يكون حال كل مؤمن صادق استكمل شمائل الإيمان الصادق الحقيقي، وجاهد بكلمة الحق ضد الظلم والطغيان والفساد والاستبداد فإنه يكون بعين الله عز جل لا يصيبه سوء إلا بإذن الله، و إن أصابه سوء ففي سبيل الله ﷻ ولحكمة بالغة من الله سبحانه وتعالى وعلى الله تبارك وتعالى جزاؤه، وفي جنة الخلد مقامه و إلى عرش الله ذي الجلال والإكرام مزاره، وفي النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى وأنوار قدسه والتحدث إليه بهجته وقرة عينه وسروره.

وفي مقابل نجاة حزقيل (مؤمن آل فرعون) وحسن عاقبته، أحاط بفرعون وأتباعه الضالين المكذبين بما جاءهم من عند رب العالمين

من المعجزات والبينات سوء العذاب، وهلكوا بالغرق في مياه البحر عن آخرهم في صبيحة واحدة، ولم ينجُ منهم أحد أبداً. كان ذلك عذابهم في عالم الدنيا أما بعد الموت والرحيل عن عالم الدنيا فسوف يلحقهم عذاب النار في البرزخ، يعرضون عليها في قبورهم صباحاً ومساءً دائماً من غير انقطاع إلى يوم القيامة. في صحيحي البخاري ومسلم وفي مجمع البيان وغيرهم قول الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغدي والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، و إن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة، فإذا قامت القيامة يلحقهم عذاب الآخرة العظيم الخالد في نار جهنم، إذ يقول الله تعالى لملائكة العذاب: أدخلوا فرعون وأتباعه في جهنم إلى المكان الذي يذوقون فيه أشد العذاب فيها وأعظمه، فكانت عاقبتهم إلى الشقاء الأبدي الكامل**»[١].

وقيل: أن عبارة ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾[٢] تدل على أن الكفار يعذبون في عالم البرزخ بالعرض على النار، أي: من بعيد، ويعذبون في عالم الآخرة بعد البعث والنشور بالإدخال فيها، ولا شك ولا ريب فإن الإدخال فيها أشد عذاباً من العرض عليها.

وقيل: أن ذكر الغدو والعشي في العذاب البرزخي فيه إشارة إلى الوقت الذي يقترن عادة في حياة الفراعنة والمترفين مع أوقات لهوهم واستعراض

---

١. مجمع البيان، جزء ٨، صفحة ٨١٨

٢. غافر: ٤٦

قوتهم وإظهار جبروتهم وطغيانهم، وهذا لا يتنافى مع دوام العذاب وعدم انقطاعه، وإنما يشير فقط إلى أوقات اشتداده وما في ذلك من العبرة والموعظة، وهذه العقوبات الإلهية الشنيعة تنتظر المكذبين بالرسل الكرام عليهم السلام والمعاندين لأمر الله جل جلاله ونهيه، والساعين في الأرض بالظلم والطغيان والفساد من الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة المترفين الأنانيين المستغلين وأعوانهم ومن لف لفهم ونهج نهجهم الباطل والمعتم بالظلمة في الحياة.

ويعتبر حزقيل (مؤمن آل فرعون) وأمثاله من الصالحين المصلحين الشرفاء حجة كافية على الناس أجمعين في تبليغ كلمة الحق والصدق والعدل وإيصالها واضحة صريحة إلى الناس: الحكام والرعية، بأسلوب رائع مقنع يشع منه النور والإخلاص والوفاء والمروءة ونحوها، وتثير في النفس إحساساً روحياً عميقاً ورعشة سماوية تصل العبد بربه في صفاء ونقاء سريرة، وهي حجة على النخبة: السياسية والاقتصادية والفكرية والأدبية والفنية ونحوها، التي تدعي الإيمان والوطنية وتسكت عن قول كلمة الحق والعدل والصدق، خوفا من العقاب أو طمعاً في الثواب: المصالح والمناصب. أو تملقاً أو تعصباً أو نحو ذلك.

فقد صدع مؤمن آل فرعون بكلمة الحق والصدق والعدل في وجه فرعون الطاغية وملئه من الأشراف وكبار الموظفين المدنيين والعسكريين، ووقف بشجاعة منقطعة النظير في وجوههم ولم يستوحش من الوحدة ولم يخف ولم يرتع رغم ما كانت لديهم من القوة وما كانوا يتصفون به

من الشدة والقسوة، وهو لا يملك إلا نفسه و إيمانه وثبات جنانه، وضحى بالملك والجاه والمنصب والثروة وكل زخارف الحياة الدنيا وبهارجها، وذلك إيماناً منه بتكليفه الديني والوطني وبعدالة قضيته وسلامة موقفه ويقينه برجوعه إلى ربه ﷻ في يوم القيامة، وحصوله على الثواب الجزيل من عنده.

وأثبت بأن المؤمن الصادق في إيمانه رجلاً كان أو امرأة يستطيع بصدقه و إخلاصه وقوة عزمه و إرادته وذكائه وحسن تدبيره وتصرفه وثبات جنانه أن يؤثر في إرادة أعتى الفراعنة والجبابرة، ويحبط المخططات الشيطانية الجهنمية الخبيثة ويقلب الموازين، وأن يوفر سبل النجاة للمؤمنين، ويمهد لهم سبيل الانتصار حتى و إن كان وحيداً لا يملك إلّا نفسه و إيمانه وقوة إرادته ومنطقه، ولا يوفق لمثل هذا الشرف العظيم إلا ذو بصيرة ويقين وحكمة وصبر وجلد وتحمل، وهذا يؤكد أهمية البصيرة والتخطيط والحكمة والتنويع في أساليب الدعوة والعمل السياسي: الثوري والإصلاحي، بحيث يكون مناسباً للظروف وفاعلاً في تحقيق الأهداف والغايات.

فقد يستحسن في بعض الأحيان التكتم و إخفاء القناعات والصدع بكلمة الحق، وذلك يتوقف على تشخيص متطلبات الواقع ومقتضيات الأهداف والغايات، كما يشكف عن دور السياسة وقوة المنطق والحكمة في التدبير والتصرف في دحر العدو الذي قد يتفوق مرات عديدة على دور السلاح المادي، والحذر من الجمود والخضوع للعاطفة والانفعال.

الجدير بالذكر أن مقولة فرعون: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ

﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[1] تدل على غلبة منطق السياسة والغلبة والمصلحة (البرجماتية) على منطق العقل والحجة والبرهان، والهيمنة عليه وعزل حياة الإنسان وواقعه القائم ومصيره الوجودي في الحياة عن الحقائق الوجودية والكونية، فلا قيمة للمعجزات الباهرات والبينات الواضحات والمنطق المتين والبيان الساحر الذي ينفذ إلى أعماق النفس، وكل ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين ليثبت به صدق نبوته ورسالته؛ لأن المهم عند القوم أن موسى الكليم عليه السلام يريد أن يغير الدين الرسمي الموروث للدولة. أي: يريد أن يغير الهوية الدينية والثقافية والتاريخية للشعب ويضر بمصالح النخبة الحاكمة والمتنفذة، وهذا ما ينبغي الالتفات إليه والاهتمام به، وهو أمر مرفوض لديهم بغض النظر عما جاء به موسى الكليم عليه السلام من الحجج والبراهين والأدلة على صدقه وصواب منهجه وعدالة مطالبه، أو عليه أن يجابه ويحارب ويقتل ويقضى على دعوته.

وهذا عينه المنطق والمنهج السائد والمهيمن على السياستين الداخلية والخارجية، على الدول في عالمنا المعاصر، حيث يرفض بشكل قاطع أن تعمل جماعة على الدعوة إلى دين أو فلسفة مغايرة لما هو قائم، وتجرم الجماعة وتحارب بغض النظر عما تأتي به من حقائق وقوة منطق، وقد يصنف عملها في إطار العمالة للأجنبي والتدخلات الخارجية لدولة في الشؤون الداخلية لدولة أخرى، وتعطي هذه الدولة التي تزعم التدخل في شأنها الداخلي لنفسها الحق في محاربة تلك الدولة إعلامياً وسياسياً

١. غافر: ٢٦

وعسكرياً، تحت عنوان الدفاع عن النفس ونحوه، وهذا رجعية ما بعدها رجعية، ونقوص في المسيرة الإنسانية، يعيدها إلى العهود السخيفة التي تتجاهل إنسانية الإنسان وحقوقه الطبيعية، وقيمة الفكر في حياته.

وقد حاول مؤمن آل فرعون أن يفند هذا المنهج غير الإنساني المتخلف، ويرد الاعتبار لمنطق العقل والبرهان، ويعيد السيادة والهيمنة على منطق السياسة والمصلحة (البرجماتية) ويربط واقع الإنسان وخيره وسعادته ومصيره في الدارين الدنيا والآخرة بالحقائق الوجودية والكونية والسنن الإلهية والتاريخية الحاكمة على واقع الإنسان وحياته، ولا شك فإن كلام مؤمن آل فرعون ونصائحة كانت تعتمد على العقل والمنطق السليم وتخاطب وجدان الإنسان وضميره وتنفذ إلى من يسمع له ويستجيب إلى نصائحه الصادقة ودعوته المباركة، ولكن الإعلام الفرعوني المضلل والقائمين على النظام الفرعوني من السياسيين الفاسدين والمترفين الانتهازيين والمثقفين النفعيين أحالوا بين الناس وبين الاستجابة لنصائح مؤمن آل فرعون ودعوته، وأبعدوهم عن الحقيقة وأضلوهم ضلالاً مبيناً فأضروا بهم وغشوهم، وحالوا بينهم وبين خيرهم ومصلحتهم وأسباب سعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة، واستعدوهم على أولياء الله الصالحين وعلى المصلحين الناصحين لهم، وهذا ما يجري في ظل الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الظالمة في كل عصر ومصر، فإنا لله و إنا إليه راجعون.

كما يكشف الدور العظيم الذي قام به مؤمن آل فرعون في الحفاظ على حياة ولي الله الأعظم موسى الكليم عليه السلام عن أهمية التقية والمرونة

في أساليب الدعوة والعمل السياسي الإصلاحي والثوري، فالتقية الحقيقية الصادقة النابعة من الإيمان والتي يؤتى بها عن وعي وبصيرة نافذة ليست دليلاً على الضعف والخوف ونحوهما، بل هي دليل على الرشد والحكمة والتمكين من أساليب العمل وأدواته وعدم الخضوع للعاطفة والانفعال، أي: التحلي بالواقعية والإجرائية في العمل، فالظروف قد تتطلب التكتم وإخفاء القناعات، وقد تتطلب الجهر وإظهار القناعات والصدع بالحق، ولا توجد ظروف مناسبة لجميع الحالات والممارسات، وعدم التمييز بين مختلف الظروف دليل على عدم الرشد وعدم الوعي، ويؤدي إلى الفشل في المهام والابتعاد عن تحقيق الأهداف والغايات.

فالتقية الحقيقية تمكن العاملين من إدارة الصراع مع الظالمين والبغاة بإحكام وبعيداً عن العواطف والانفعالات الهوجاء، وتتيح الفرصة إلى اختراق صفوف الأعداء واكتشاف أسرارهم ومخططاتهم لمقاومتها عن علم ودراية، والنفوذ إلى ذهنية العدو والعمل على تغييرها لصالح القضية العادلة والأهداف المشروعة، وتوجيه الضربات المباغتة للعدو، كما تعني التقية كتمان وإخفاء الخطط الاستراتيجية عن العدو والتمكن من مباغتته، ولولا التقية لما تمكن حزقيل (مؤمن آل فرعون) من النهوض بمسؤوليته في المحافظة على حياة ولي الله الأعظم موسى الكليم عليه السلام، ودوره المؤثر جداً في خدمة دعوته ورسالته وإحباط مخططات فرعون وحاشيته للكيد بموسى الكليم عليه السلام والقضاء على رسالته، حتى قيل بحق وحقيقة: ليس هناك أفضل من الظفر بشخص مؤمن بالقضية العادلة والأهداف المشروعة يزرع في أجهزة العدو ومؤسساته ويعيش في أوساطه.

وتكتسب التقية أهمية استثنائية في أوقات المحنة واشتداد حدة الصراع وحين تكون الجماعة المؤمنة أو الإصلاحية أو الثورية والمعارضة قلة تخضع لأكثرية لا ترحم ولا تتعامل بمنطق، والتقية ليست عقيدة أو فكرة شيعية بل هي أسلوب عملي واقعي حكيم يعمل به ويلجأ إليه كل العقلاء في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا بوعي أو بدون وعي، باسم التقية أو بأي إسم آخر، فالمهم هو المضمون وليس الاسم أو العنوان.

المحور السادس

سورة القصص (٢٩ - ٤٢)

- الفصل الأول: تلقي الرسالة والضمانات الإلهية
- الفصل الثاني: تبليغ الرسالة إلى فرعون وردود فعله وهلاكه

الفصل الأول: تلقي الرسالة والضمانات الإلهية

قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[1]

---

١. القصص: ٢٩-٣٥

عودة موسى من أرض مدين إلى مصر

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

بعد أن قتل موسى الكليم عليه السلام الرجل القبطي عن طريق الخطأ، وكان يريد الدفاع عن المحرومين المستضعفين و إنقاذ المظلوم من الظالم دون إرادة القتل، فرّ هارباً من مصر وحيداً فريداً، وكان راجلاً بغير دابة ولا زاد تخفضه الأرض مرة وترفعه أخرى في شقة وعناء بالغين، وكان يقتات على نبات الأرض وبقلها، وبالأمس القريب: كان في قصر فرعون يتمتع بما لذ وطاب من الطعام في راحة وسكون، وكان حال خروجه من مصر خائفاً من أن يلحق به جلاوزة فرعون وشرطته، مترقباً إدراكهم إياه وقتله قبل أن يصل إلى مأمنه، وفي الحقيقة فإن التربية الروحية الراقية تسمو بنفوس المؤمنين الأحرار وتجعل في ميزان قيمهم: الخوف والشدة والأكل من نبات الأرض خير ألف مرة عندهم من النعيم الحيواني مع الظالمين الفجار، يقول سيد الأحرار الإمام الحسين عليه السلام: «**إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما**»[1].

ولهذا لجأ موسى الكليم عليه السلام إلى ربه المؤمن المهيمن العزيز الجبار يدعوه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2]، مما يدل على أن الخوف حالة طبيعية يهذبها الإيمان، وأن الخوف الطبيعي لا ينافي الإيمان، وهو

---

١. تحف العقول، صفحة ١٧٤

٢. القصص: ٢١

من أسباب أخذ الحيطة والحذر واللجوء إلى الله ﷻ، والاستعانة به والتوكل عليه، وهي أمور لا تحدث بدونه، وكانت وجهة موسى الكليم عليه السلام إلى أرض مدين وهي قرية نبي الله شعيب وقبيلته، وهم من أبناء الذبيح إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وتقع عند النهاية الشمالية لخليج العقبة جنوبي فلسطين في الأردن الحالية حيث لا ملك ولا سلطان لفرعون عليها، وسميت بذلك نسبة إلى مدين بن إبراهيم الخليل، وتسمى في الوقت الحاضر معان، وكانت لها تجارة مزدهرة مع مصر وفلسطين ولبنان.

وكان موسى الكليم عليه السلام يحمل معه في هجرته القسرية مظلوميته ومظلومية قومه المستضعفين بني إسرائيل، ومسلّماً أمره إلى الله الواحد القهار ﷻ، راجياً أن يجتاز هذه المرحلة الصعبة جداً والمصيرية في حياته، وأن يصل إلى مأمنه في أرض مدين بسهولة ويسر وسلامة، وأن لا يضل الطريق إليها؛ لأنه لم يكن معه إلا إيمانه وحسن ظنه وثقته بربه ﷻ، فسأله أن يهديه إلى الطريق إليها في عافيته: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

وكان بينه وبينها مسيرة ثمانية أيام ماشياً، فأدركه ربه برحمته وتفضل عليه فهداه إلى سواء السبيل إلى أرض مدين فوصل إليها برعاية الله تبارك وتعالى وتوفيقه وتسديده وفيها استعاد أنفاسه وتهيأ إلى نهضة رسالية مباركة يقف فيها إلى صف المحرومين والمستضعفين ضد الفراعنة المتجبرين والمترفين المستغلين، ويشاطرهم آلامهم وأحلامهم في الحرية والحياة

١. القصص: ٢٢

الإنسانية الكريمة بعقله وقلبه وأحاسيسه كلها، وكان رصيده في ذلك الطريق الوعر والمهمة الشاقة طيبة قلبه وسلامة طبعه و إيمانه وثقته بربه وحسن ظنه به وتوكله عليه والتفويض إليه والتسليم إلى أمره.

وفي أرض مدين تعرف على شيخ الأنبياء الكرام شعيب عليه السلام ونزل في بيته الطاهر الكريم وتزوج إحدى بناته على أن يخدمه في رعي غنمه ثماني سنوات، و إن زاد المدة سنتين تبرعاً منه وباختياره فتلك منّة جليلة منه ستكون محل تقدير الشيخ وغبطته. وفي الإسلام الحنيف لا يحل النكاح بمثل هذه الإجارة مهراً للمرأة وهو حرام؛ لأنه بمثابة ثمن رقبتها وهي أحق بمهرها، وقيل أن الخدمة في الرعي المذكورة لم تكن مهراً للزواج ولا جزء منه بل المهر مستقل تماماً عنها، كلام الشيخ: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾[1] معناه: إن رعيت عندي بأجر، زوجتك ابنتي بمهر. وأن شعيباً كان يحرز رضا ابنته على ذلك ولديه وكالة منها على عقد النكاح، فهي المالك الأصلي لمهرها، وقد قبل موسى الكليم عليه السلام بالزواج والخدمة معاً، وأعطى لنفسه الخيار في قضاء أحد الأجلين الثماني أو العشر سنوات وأوكل الله جل جلاله وأشهده على ذلك.

وبعد أن أمضى موسى الكليم عليه السلام السنين المتفق عليها في خدمة الشيخ الجليل والولي الناصح، وقيل أنه قضى أتم الأجلين وأوفاهم وهي العشر سنوات، وهذا هو المتوقع من أخلاق موسى الكليم عليه السلام وأخلاق

---

١. القصص: ٢٧

الأنبياء الكرام عليهم السلام والمؤمنين الصالحين الأوفياء في عهودهم ومواثيقهم والتزاماتهم ومعاملاتهم مع غيرهم، ولا شك فإن السنوات التي قضاها موسى الكليم في خدمة شيخ الأنبياء شعيب عليه السلام كانت من أفضل سنوات عمره الشريف وأبركها عليه وأكثرها صفاء وعذوبة، إذ عاش خلالها في أجواء علمية وروحية عالية ومتميزة جداً، غسلت ما علق بنفسه الشريفه من آثار العيش في قصر فرعون وترفه، وتعرف فيها على أحوال الفقراء المحرومين والمستضعفين، وتعرف على همومهم وآلامهم وآمالهم وطموحاتهم في الحرية والحياة الإنسانية الطيبة، وأنتجت له الفرصة الكافية والنقية للتفكر بعمق في أسرار الخلق وعجائب الوجود، في أجواء هادئة تلفها السكينة والوقار، وتهيأ لتحمل السؤولية الرسالية الكبرى والمسؤولية التاريخية بمواجهة الفراعنة الجبارين والمترفين المستغلين والانتهازيين الأنانيين بصلابة وثبات ويقين، والعمل على نصرة المظلومين وتحرير المستضعفين من أسر الجبارين والمترفين، وغسل أدمغتهم مما علق بها من آثار الجهل والأسر والاستعباد والمذلة للمخلوقين.

بعد أن أمضى المدة خرج بأهله: زوجته وابنيه، متوجهاً إلى بلده وموطنه الأصلي مصر حيث أمه وعشيرته، وسار حتى أدرك جبل طور سيناء، وعنده: في ليلة ظلماء مباركة أخطأ الطريق ولم يعد يعرف إلى أين يتوجه وكانت ليلة باردة جداً في وسط صحراء موحشة، ولم ينقدح زنده، وأخذ امرأته الطلق وألم الولادة، فرق لها، وتفرقت ماشيته، وأصابه المطر، فكان في مسيس الحاجة إلى النار ليستضيئوا بها في تلك الصحراء المظلمة الموحشة وليتدفؤوا من شدة البرد القارس، فبينما هو كذلك رأى ناراً

على بعد من جانب الطور الأيمن فسر كثيراً واستبشر خيراً وعلم أن وجودها دليل على وجود أناس، فقال لأهله: هذه نار أراها من بعيد، الزموا مكانكم سأمضي إلى مكان النار لأسأل أهلها عن الطريق فيهدوني إليها وآتيكم منها بشعلة نستضيء بها أو جذوة نستدفئ بها من هذا البرد الشديد.

تلقي الرسالة الإلهية

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ۝٣١ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

فلمّا قرب من موضع النار وحضر عندها، وجدها تخرج من شجرة شديدة الخضرة لا تزيد النار إلا اشتعالاً لحظة بعد لحظة، ولا تزداد الشجرة إلا خضرةً وجمالاً، فلا حرارة النار تحرق الشجرة ولا رطوبة الشجرة تطفئ لهب النار أو تبطئ توقدها، وسمع تسبيح الملائكة ورأى نوراً عظيماً يملأ الوادي فألقيت عليه السكينة وشملته الهيبة والوقار، وسمع نداءً ربانياً ملأ كيانه وطربت إليه روحه وأنست به نفسه وسكنت روعته وذهبت عنه الوحشة، وكان النداء من جانب الطور الأيمن وهو الجبل المسمى طور سيناء الذي كلم الله سبحانه وتعالى عبده ووليه موسى بن عمران عليه السلام عليه تكليماً، ويقع الجبل عن يمين الوادي المباركة. والمراد بالأيمن يمين

موسى الكليم عليه السلام لا الجبل ولا الوادي؛ لأن الجبل والوادي الأيمن بمعنى: الأبرك أو الأكثر بركة من اليمن والبركة، بدليل قول الله تعالى: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1] والبقعة المباركة هي البقعة من الوادي التي كانت الشجرة النورانية التي نودي منها موسى الكليم عليه السلام ثابتة فيها، ومباركتها لتشرفها بأن جعلها الله تبارك وتعالى موضعاً لتكليم موسى الكليم عليه السلام واصطفائه بالرسالة، ولكثرة من فيها من الأنبياء الكرام من ذرية إبراهيم الخليل عليه السلام من بني إسرائيل، ولكثرة خيراتها.

على أن كلام الله سبحانه وتعالى لم يكن قائماً بالشجرة كقيام الكلام بالمتكلم؛ بحجة أن الكلام عرض يحتاج إلى محل يقوم به، وإنما كانت الشجرة الحجاب الذي احتجب كلام الله سبحانه وتعالى به، حيث كلم الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم موسى بن عمران عليه السلام من ورائه بما يليق بساحة قدسه من معنى الاحتجاب قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2].

أي: إن الله تبارك وتعالى خلق الكلام في الشجرة، وهذا يدل على أن كلام الله حادث وليس بقديم؛ لأنه فعل كسائر أفعاله سبحانه وتعالى، وكان الكلام من الله سبحانه وتعالى مباشرة، أي: بدون واسطة الملك، ويعتبر التكليم والوحي من غير واسطة الملك أعلى منازل الوحي ومراتب

---

١. النمل: ٨

٢. الشورى: ٥١

الأنبياء الكرام عليهم السلام، وكانت هذه اللحظة هي لحظة نزول الوحي على قلب موسى الكليم عليه السلام وإشراقه في قلبه وأنسه بكلام ربه، وكانت بلا شك: أعظم وسام ناله موسى الكليم عليه السلام في حياته، وكانت ألذ لحظة روحية في نفسه الطاهرة الشريفة، ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾[1] أي: أدنيناه وقربناه تقريباً معنوياً بتقريب المنزلة لدينا من أجل المناجاة معنا، وقال الله تبارك وتعالى له: إني أنا الله الذي يشافهك، فاخلع نعليك تأدباً وتواضعاً، إنك في الوادي المقدس طوى، وقال في مناجاته له: تبارك من تجلّى لك بكلامه وقدرته وظهور سلطانه من النار.

وبارك الله في النور المتقد بالنار، فالذي رأيته يا موسى وحسبته ناراً هو في الحقيقة ليس ناراً، وإنما هو نور إلهي مقدس خلقته بقدرتي وهديتك إليه بفضلي ورحمتي وأنت الذي تقف إلى جانب هذا النور مبارك أيضاً؛ لأني قد اخترتك للنبوة والوحي واصطفيتك للرسالة، تبشر عبادي المؤمنين بثوابي وتنذر الكافرين والمنافقين والعاصين بعقابي، وتنشر بركة رسالتك مني في الأرض بين عبادي بأعمالك الصالحة وهدايتك الناس إلى معرفتي وطاعتي وعبادتي وإصلاح أحوالهم وأوضاعهم بأمري، فاستمع لما يوحى إليك مني، وبارك الله تعالى فيمن حول النار معك من الملائكة المسبحين المقربين من ساحة القدس الذين يحيطون بتلك البقعة المقدسة المباركة.

يا موسى!! إنني أنا الله رب العالين الذي يشافهك، الخالق المالك المدبر

---

١. مريم: ٥٢

للعوالم كلها، فكافة العوالم مربوبة لي، وأنا الله العزيز الذي قهر جميع الأشياء، ولا يمتنع عليه شيء، وأذعنت له كل المخلوقات، والذي جاء بالأمور الخارقة، الذي لا يغلبني شيء فيما أريد وأعزم عليه من خلق وتدبير، الحكيم الباني خلقي وتدبيري وفعلي وجميع أموري على الحكمة والإحكام والاتقان، فأضع الأشياء كلها في مواضعها وأنزلها جميعها في منازلها، ومن حكمتي وحسن تدبيري أن اختارك لرسالتي وتكليمي؛ لأنك أهل لذلك، ومن عزتي أن تعتمد علي وتثق بي، ولا تستوحش من وحدتك وانفرادك وقلة أنصارك ومن كثرة عدوك وجبروتهم فإن نواصيهم جميعاً بيدي وأمورهم كلها تحت إرادتي وتدبيري، وأنا قادر على إهلاكهم والقضاء المبرم عليهم، ونصرك عليهم بلا عناء، فهذا التعبير في الحقيقة مقدمة أو توطئة حكيمة لما سيأتي به لاحقاً من المعجزات، وعليه: فأنا وحدي الذي يستحق الطاعة والعبادة لا شريك لي فأطعني واعبدني وحدي، وأقم الصلاة لذكري، أي: أخبره بألوهيته وربوبيته وكمال ذاته وصفاته وعظيم أفعاله ليطيعه ويمتثل أمره ونهيه.

وعبارة: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين﴾[1] في سورة النمل تدل على تنزيه الله سبحانة وتعالى عن أن يكون جسمانياً يحيط به المكان أو يجاوره الحدوث وما يعترض الجسم من العوارض أو يتوهم به نقص من كون التكلم جاء من وراء حجاب الشجرة المباركة، فهو الكامل ذاته وصفاته والعظيم في أفعاله. وقيل: العبارة تدل على تعجب موسى الكليم عليه السلام من عظمة ما قضى له من جلائل الأمور، وأن مكونها هو رب العالمين.

---

١. النمل: ٨

ثم أعلمه: بأن يوم القيامة آت لا محالة ولا شك في ذلك ولا ريب، وفيه تحاسب كل نفس على ما عملت في الحياة الدنيا وتجزى عليه: إن خيراً فخير و إن شراً فشر، وأوصاه: فلا يشغلك شيء أو أحد ممن يكفر عن الاستعداد لها والعمل الصالح لأجلها، فتشقى وتكون من الهالكين، أي: الإيمان بالآخرة يقتضي الإحساس العميق بالمسؤولية وكثرة العطاء والعمل الصالح لأجلها، وهذا هو سبيل السعادة الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة.

ثم أراه الله ﷻ بعض معجزاته النيرة الباهرة لتكون دعماً له ودليلاً واضحاً قاطعاً على صدق نبوته ورسالته وعدالة قضيته ومشروعية مطالبه السياسية والحقوقية من النظام الفرعوني الجائر، فأمره أولاً بأن يلقي عصاه من يده فألقاها، فإذا هي حية بيضاء حقيقية لها صورة عظيمة مهيبة تتلوى وتهتز وتتحرك باضطراب كأنها جان كناية عن السرعة والخفة في الحركة مع عظم جسمها، وتلقي الخوف والرعب في قلوب الناظرين إليها، حتى أن موسى الكليم عليه السلام نفسه خاف منها وهرب مدبراً منها من شدة الذعر، ولم يعد إلى الموضع الذي كان فيه، وذلك على مقتضى الطبيعة البشرية، وهو الخوف الذي لا ينافي الإيمان ولا ينقصه، وهو من أسباب الحذر والحيطة واللجوء إلى الله ﷻ، الأمور التي لا تحدث بدونه، فناداه الله ﷻ: أقبل ولا تخف من الحية ولا ضررها ولا من غيرها من المخاوف بحضرتي.

أي: نهي مطلق يؤمنه عن كل ما يسوء أو مما يخاف منه، ما دام في

حضرة القرب والمشافهة، فجميع المخاوف مندرجة في قضائي وقدرتي، والتصرف بها وتدبيرها بيدي وحدي وأنت من الآمنين من كل سوء؛ لأنك صفيي ورسولي، والذين اختصصتهم لوحيي واصطفيتهم لرسلي لا ينبغي لهم أن يخافوا غيري ثقة بي ولا يخافوا ولا يستوحشوا بحضرتي، لعصمتهم مما يوجب عقابي من ظلم أنفسهم بمعصية أو ظلم غيرهم باعتداء أو إضلال أو نحوهما، ولأنهم في حراسة مني وأمان من المخاوف والمهالك كلها، و إن كانوا في أنفسهم أخوف الناس مني لما يتجلى لهم من عظمتي وجلالي؛ لأنهم في مقام القرب مني والأمن المطلق في حرمي والأنس بي؛ لأن الأمن المطلق حاكم في حضرتي، فلا مجال للخوف إذاً، خصوصاً عند الحظوة بوحيي وتكليمي، ويعتبر هذا المقام مقاماً سامياً مقترناً بالضمان الإلهي عن الانحراف والخوف والحزن والوحشة، وهو مقام لا يستطيع الشيطان الرجيم اختراقه والوصول إلى أهله، وهو المقام الذي يدور في حماه العشاق من خواص الأولياء الصالحين والمؤمنين المجاهدين الذين يقدمون على الشهادة والتضحية وتحمل الأذى والمشقات في سبيل الله ذي الجلال والإكرام بنفوس راضية مطمئنة.

وفي التعبير تعليم وتأديب إلهي لموسى الكليم عليه السلام وليس فيه أي شيء من التوبيخ والتأنيب، و إنما الخوف والحزن والوحشة تكون للبعيدين عن حضرتي من الكفار والمشركين والمنافقين والمذنبين العاصين لأمري ونهيي، فإنهم مستحقون لغضبي وعقابي في الدارين الدنيا والآخرة؛ لأن الأمن والأنس يكون بالقرب مني والخوف والوحشة تكون في البعد عني، فكلما كان الموجود أقرب مني كان أكثر أمناً وأنساً، وكلما كان أبعد عني

كان أكثر خوفاً ووحشة، وهذه قاعدة وجودية ثابتة لا تتغير في الدارين الدنيا والآخرة، وبسبب ما يصدر عنهم من الجرائم، ما لم يتوبوا ويعودوا عن جهلهم بي إلى معرفتي، وعن معصيتهم لي إلى طاعتي، فإن تابوا وأنابوا وأخلصوا في توبتهم وندموا على ما عملوا من السوء، وعزموا على ألا يعودوا، وبدلوا سيئاتهم حسنات ومعاصيهم طاعات، فإني غفور رحيم، لا ييأس عاقل عارف بي من رحمتي وغفراني، أغفر ذنوبهم وأشملهم برحمتي ورضواني، وأجزل لهم الثواب، و إني أرحم بهم من الوالدة بولدها، فلا يخافون بعد توبتهم النصوحة شيئاً.

الجدير بالذكر: أن فرار موسى الكليم عليه السلام من العصا بعد أن تفاجأ بتحولها إلى ثعبان مبين كان جرياً على الطبيعة البشرية، حيث جبل الإنسان السوي على الخوف والفرار في مثل هذا الموقف، خصوصاً إذا لم يكن لديه شيء يدافع به عن نفسه، ولم يرد أمر من جانب الحضرة الإلهية المقدسة بأن يلزم مكانه، أو نهي له عن الفرار، فعمل ما تمليه عليه فطرته وطبيعته الإنسانية التي جبل عليها، وليس في خوفه وفراره ما ينافي الشجاعة والإيمان والنبوة.

وقيل أن عبارة: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾[1]، تدل على أبلغ ما يكون في التأمين ومنتهاه، لأن لفظ ﴿أَقْبِلْ﴾ يدل على الأمر بالإقبال، وهو واجب الامتثال، ولكن قد يقبل وهو لم يزل في الأمر المخوف، ولفظ ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ يدل على النهي عن الخوف، أي يجب أن يقبل وهو غير خائف، ولكن

---

١. القصص: ٣١

عدم خوفه لا يعني الوقاية والأمن من المكروه، وعبارة: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِين﴾ تدل على ارتفاع المحذور والوقاية والأمن من كل مكروه.

وعليه: فالعبارة تدل على منتهى التأمين والوقاية من جميع المخاوف، فاستجاب موسى الكليم عليه السلام لأمر ربه جل جلاله وأقبل إلى الموضع الذي كان فيه من البقعة المباركة عند الشجرة النورانية التي كلمه الله تبارك وتعالى من ورائها تكليماً، وهو آمن مطمئن غير خائف ولا مرعوب واثق بربه، وكان في ذروة الأنس بالحضور بين يدي ربه ذي الجلال والإكرام وتكليمه ومناجاته، وقد ازداد بذلك إيمانه وتم يقينه وشملته السكينة والهيبة والوقار، ليكون قبل ذهابه إلى فرعون الطاغية المتجبر، وحمل الرسالة الربانية إليه، على يقين تام، وأكثر قوة وصلابة في ذات الله عز وجل، ولا يشعر بشيء من هيبة فرعون وجبروته الزائف المصطنع، وكيف يشعر بهيبة فرعون وجبروته من رأى تجليات عظمة الله وجبروته، وأنس بالحضور بين يديه وكلامه ومناجاته؟!

وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص، ومن الأسباب التي يزداد بها الإيمان ويتم بها اليقين، الصبر على البلاء وعند الشدائد واللجوء إلى الله جل جلاله في ذلك، كما يكشف عن أهمية التجارب الروحية في تحصيل اليقين والتحلي بالصبر والثبات وضرورتها في إعداد الدعاة المجاهدين، ليكونوا أشداء في ذات الله جل جلاله، ولا تأخذهم في أداء التكليف الشرعي الإلهي لومة لائم ولا عذل عاذل، وللوقوف في وجوه الطغاة والفراعنة المتجبرين، رغم قلتهم وكثرة عدوهم وقوته وقسوته وبطشه، ويكونوا مأهلين للقيام بالمهام

الصعبة جداً والشاقة ابتغاء وجه الله ذي الجلال والإكرام والفوز برضاه وقربه والنظر إلى سبحات وجهه وأنوار قدسه.

وأن من أعظم نعم الله تبارك وتعالى على عبده ومعونته له على أموره وحسن رعايته له ورحمته ولطفه به أن يريه من آياته في الآفاق وفي نفسه، ويعلمه من بيناته ما يزيد به إيمانه وتطمئن إليه نفسه، وتثبيته إياه على الحق والقول الثابت، ويربط على قلبه عند المخاوف والشدائد والأمور المذهلة، فلا يخاف غيره، ويملك نفسه، وليتمكن من التفكير السليم والقول السديد والعمل الصواب والتصرف على هدى من أمره ونحو ذلك، فلا يضر نفسه ولا يضر غيره ممن ينبغي أن يحسن إليهم وينفعهم.

ثم أمر الله ﷻ عبده ورسوله ووليه الأعظم موسى الكليم عليه السلام أن يضع يده السمراء في جيبه (فتحة صدر القميص) ثم يخرجها، ففعل، فلما أخرجها وجدها بيضاء من غير مرض، وذات شعاع تتلألأ نوراً أضاءت له الدنيا، وتبهر الناظرين إليها حسناً وجمالاً، وهذه معجزة ثانية (اليد) آية من النور والأمل والرحمة تناسب البشارة، ليكون موسى الكليم عليه السلام بهاتين المعجزتين العصا واليد بشيراً ونذيراً للناس.

ثم قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾[1]، أي: اضمم يدك إلى صدرك أو اضمم عضدك إلى جنبك ليذهب عنك بذلك ويزول تماماً الخوف والارتجاف الذي اعتراك من رهبة الموقف وخوارقه العظيمة في ذلك الليل المظلم والصحراء الموحشة، وترجع إليك

١. القصص: ٣٢

السكينة والطمأنينة الروحية التي تستحقها بإيمانك ويقينك، وما تشرفت به من أمر النبوة والرسالة والولاية، وتشملك الهيبة والوقار، وذلك من أجل أن يظهر الله تبارك وتعالى كامل عنايته ورعايته ولطفه بعبده ورسوله ووليه موسى الكليم عليه السلام.

وفي العبارة حث لموسى الكليم عليه السلام على الجد في أمر الرسالة والعزم الراسخ الذي لا يزول على تحمل المسؤولية، وما أمر به من التكليف الإلهي الشريف، فلا يمنعه خوف أو طمع أو نحوهما من ذلك، وقيل: أوصاه الله جل جلاله بأن يتحلى بسيماء الخاشع المتواضع، ويتخلى عن الكبر والخيلاء والإعجاب بالنفس ونحو ذلك، فتلك هي صفة الأنبياء الكرام عليهم السلام والمؤمنين الموحدين الفانين في كبرياء الله وجلاله.

وكانت هذه الحادثة الفاضلة والتكليم الإلهي لموسى الكليم عليه السلام من وراء حجاب الشجرة ابتداء الوحي والنبوة والرسالة لموسى بن عمران الكليم عليه السلام، ثم قال له ربه: اذهب بهاتين المعجزتين النيرتين الباهرتين، فإنهما حجتان قاطعتان على صدق نبوتك ورسالتك، إذهب بهما إلى فرعون وملئه لتبلغهم الرسالة مني إليهم، وتدعوهم إلى معرفتي وطاعتي وعبادتي وحدي لا شريك لي، فإني وحدي المستحق للطاعة والعبادة بحق وحقيقة، وطاعتي وعبادتي الأساس الوحيد لكرامة الإنسان وكماله وسعادته الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة، وطاعة غيري وعبادته لا تقوم على أساس صحيح واقعي، وتكون سبباً لمذلة الإنسان وهدر كرامته ونقص إنسانيته وتخلفه: المعرفي والتربوي والحضاري، وهلاكه وشقائه

في الدارين الدنيا والآخرة، وقد جاوز فرعون وملؤه الحد وبلغوا الحالة القصوى في الظلم والطغيان والفساد، وخرجوا عن طور العبودية إلى التكبر وإلى أقبح وجوه الكفر والمعصية، مثل: ادعاء الألوهية والربوبية والمالكية والاستكبار في الأرض بغير الحق والعتو والعلو على العباد ونحو ذلك من الجرائم والمزاعم الباطلة بدون حجة واضحة أو برهان.

مخاوف موسى وطلب مؤازرة أخيه هارون

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾

لما كانت المواجهة مع فرعون الطاغية المتجبر تستدعي الشجاعة ورباطة الجأش وحسن التدبير والاستعداد، وكان موسى الكليم عليه السلام لطبيعة المهمة وخطورتها ومتطلباتها، ولحرصه الشديد على نجاح المهمة وحسن القيام بالتكليف وأدائه على أتم وأكمل وجه، فقد شكا إلى ربه وهو الأعلم بحاله أمراً واقعياً قد يكون عقبة أمام نجاح المهمة، ومراده: حسن الاستعداد والاطمئنان لما هو مقدم عليه، فقد قتل من الأقباط نفساً عن طريق الخطأ بدافع الدفاع عن المحرومين المستضعفين وإنقاذ المظلوم من الظالم بدون إرادة القتل، ولكن القتل حدث بدون قصد وتسبب في خروجه من مصر والاغتراب عن أهله ووطنه لمدة عشر سنوات، وأنه يخاف إن هو ذهب إليهم أن يقتلوه قصاصاً بدم صاحبهم، وسأل الله عز وجل أن يوفر له بعض الأمور الأساسية التي رأى أنها مطلوبة وفي غاية الأهميه

لنجاح المهمة، وهي:

أ. أن يشرح صدره ليسهل عليه الأمر وليحتمل ما يمكن أن يواجه من صعاب وتحديات ومشاق وعوائق.

ب. أن يعينه على البيان الواضح والإفصاح بشكل صحيح وسليم عن الرسالة؛ لأن الموقف يتطلب منتهى الدقة ولا يقبل أو يتحمل الخطأ، نظراً لما يتمتع به فرعون من دهاء وخبث يمكنه أن يوظف أي خطأ لقلب الحقائق وتضليل الناس وقلب الطاولة على خصومه.

ج. أن يجعل أخاه هارون الموجود في مصر ويكبره بثلاث سنوات شريكاً له في الرسالة وتبليغها؛ لتكون شراكته ضمانة لتبليغ الرسالة وإيصالها على أحسن وجه، خاصة وأنه يتوقع أن يحوطه فرعون ويخاصمه بقضية تربيته له في بيته وقتله الرجل القبطي الموالي لفرعون ونظامه ودولته أو نحو ذلك، فيغضب، فلا يستطيع بيان صدق دعواه وتبليغ الرسالة الإلهية إلى فرعون وملئه، فيتصدى في هذه الحالة هارون عليه السلام للنهوض بهذه المهمة ويقوم بتخليص الحق وبيان الحجة ورفع الشبهة، فهو قادر على المنافحة وغير مخصوم بشيء مسبقاً من جانب فرعون وملئه، فخوف موسى الكليم عليه السلام لم يكن على نفسه وإنما على الرسالة: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[1] أي: أخاف أن يكذبون إن لم يكن معي هارون بسبب عدم طلاقة لساني لمخاصمتهم ومحاصرتهم لي بشأن قضيتي: تربيتي في بيت

١. القصص: ٣٤

فرعون وقتلي القبطي، فلا يتم تبليغ الرسالة وإقامة الحجة على فرعون وملئه، وأصبح أنا المدان بينهم، فخشية موسى الكليم عليه السلام كانت في الحقيقة والواقع على الرسالة وليس على نفسه، وهذا هو دأب الأنبياء الكرام عليهم السلام والأولياء الصالحين والمؤمنين المجاهدين العاشقين أنهم يخافون على دينهم وقضيتهم أكثر مما يخافون على أنفسهم وأهلهم وما يملكون، وأنهم يضحون بأنفسهم وأهلهم وما يملكون من أجل دينهم وقضيتهم وتكليفهم الشرعي الشريف المقدس ولا يضحون بالتكليف الشرعي ويبحثون لأنفسهم عن الأعذار والمبررات لإنقاذ أنفسهم ومصالحهم الدنيوية العاجلة مهما كان الثمن باهظاً والتضحية عظيمة، وعبارة ﴿أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾[1] لا تدل على عدم فصاحه موسى الكليم عليه السلام، بل تتضمن نفي أن تكون في لسانه لكنة، لأنها تثبت فصاحته.

د. أن يعينه بتوفيقه وتسديده على طاعته وعبادته وتحمل المسؤولية، وأداء ما كلف به على أحسن وأكمل وجه وبنية صادقة وخالصة لوجهه الكريم الذي هو أكرم الوجوه إطلاقاً.

استجابه الرب الرحيم لطلبات موسى وتطميناته

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾

١. نفس المصدر

وقد أجاب الله تبارك وتعالى دعاء موسى الكليم عليه السلام وأعطاه جميع ما سأله، وقال له: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[١] وسنشد عضدك بأخيك ونقويك به، ونجعل لكما هيبة إلهية نورانية تبهران بها فرعون وتقهران جبروته وطغيانه، فلا يصلون إليكما بسوء أو أذى.

وأمره بأن يذهب مع أخيه ووزيره وشريكه في النبوة والرسالة إلى فرعون وملئه ويبلغوهم الرسالة الإلهية، ونهاهما عن الفتور والتقصير في ذكره أو في تبليغ الرسالة وتحمل المسؤولية، وأداء ما كلفا به، وأمرهما بأن يقصدا فرعون بالذات؛ لأنه رأس النظام الفرعوني والطغيان والتجبر والفساد في الأرض، وأوصاهما بأن يلينا له في القول، ويبلغاه الرسالة الإلهية في رفق دون فحش ولا صلف ولا غلظة في القول ولا فظاظة في الأفعال والتصرفات، بدون أن يخل ذلك بشيء من الوضوح والصراحة في إبلاغ الرسالة وكشف الحقائق الكونية والتاريخية والسياسية وغيرها، وبيانها على أحسن وأكمل وجه، لعله بحسن الكلام وطيب الخلق يلين قلبه ويصلح طبعه فيستمع منهما إلى آيات الله سبحانه وتعالى وبيناته، ويمعن النظر فيما يوعظ وينصح به، فيتذكر ما ينفعه فيأتيه، وما يضره فيتركه، ويخشى الله رب العالمين ويطيعه ويسلم إلى أمره ونهيه.

وهذا إرشاد إلهي شريف ينبغي أن يحتذى به في الدعوة إلى الله جل جلاله وفي الإصلاح؛ لأن اللين أفضل أثراً من العنف والشدة في رد النفس عن غيّها، ويعطي الإنسان فسحة للتفكير والتأمل والمراجعة و إدراك الحقائق

---

١. طه: ٣٦

كما هي عليه، وإدراك فائدة الموعظة والنصيحة، بعيداً عن الغضب والاستثارة التي تعتبر حجاباً يحجب العقل والقلب عن معرفة الأمور وإدراك الحقائق كما هي، ويهيأ النفس لقبول ما يعرض عليها من الحق والخير والعدل والفضيلة، وهو أليق بكرامة الإنسان ومكانته من الغلظة والقوة، فالشدة والقول الغليظ يحملان الإنسان عادة على النفور والتمرد والمقاومة، وعدم قبول ما يعرض عليه دفاعاً عن النفس وكبريائها.

إلا أن فرعون الطاغية لم يتأثر بحسن الكلام وطيب الخلق ولا بالبراهين العقلية القاطعة، ولم يصدق المعجزات النيرة الباهرة، ولم يتراجع عن الغي والضلال والفساد في الأرض، والعدوان على الناس، بل أصر واستكبر، مما يدل على أن اللين إنما يفيد ويعطي مفعوله الإيجابي في نفس الإنسان المعادي النفعي، فقلما ينفع معهم اللين وقد يحاولون أن يرموا الإنسان الفاضل الناصح لهم بأقبح النعوت وأسوء الصفات، ويتطاولوا على كرامته وحياته.

وعليه: لا ينبغي الجمود على أسلوب واحد مع جميع الأشخاص ومختلف الظروف، بل يجب الانتقال إلى المحاولة بأساليب أخرى حال فشل اللين، تبدأ بالقول البليغ في أنفسهم، قول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[1] أي: المنافقين ونحوهم، وتنتهي بقتالهم دفاعاً عن الحق والحقوق وطلباً للإصلاح والعدل في الأرض.

---

١. النساء: ٦٣

وتعتبر الاستجابة الإلهية لطلب موسى الكليم عليه السلام بشأن أخيه هارون عليه السلام من أكبر فضائل موسى الكليم عليه السلام ودليل على مكانته ومنزلته عند الله جل جلاله وقرب منزلته منه، وعلى عظيم نصحه وإحسانه لأخيه هارون عليه السلام، بأن سأل ربه أن يجعلة نبياً مثله وشريكاً معه في الرسالة، وبمثل هذا السؤال تعرف المحبة والنصح للأهل والأخوان، كما تعتبر الاستجابة الإلهية كذلك دليلاً على أهمية المشاورة والقيادة الجماعية، وأن لابد لكل دعوة وحركة ثورية أو إصلاحية من أنصار مؤمنين بعدالة قضيتها وشرعيتها وواقعيتها، والتضحية بالنفس والنفيس من أجلها، وأن العلم والشجاعة والكفاءة لا تكفي وحدها لإثبات عدالة القضية والدفاع عنها، ما لم تقترن بوجود الأنصار والحاضنة الشعبية، وإقامة الحجة بالبرهان وحسن البيان مما يكشف عن أهمية الدعاية ووسائل الإعلام، وضرورة أن تتصف هذه الوسائل بالوضوح والنزاهة وتسعى لإحقاق الحق وبيانه والانتصار لأهله، وليس الانتصار للباطل وأهله والدفاع عنهم والتشهير بالحق وأهله ومحاربتهم والوقوف في وجههم مقابل المال أو تحت تأثير التعصب الأعمى القومي أو الديني أو الطائفي أو نحو ذلك.

وقد ثبت بالتجربة أن ما تتركه وسائل الإعلام المنحرفة من فساد ليس أقل مما تتركه وسائل الإعلام المستقيمة من صلاح، بل يزيد عليه كثيراً، كما تدل الاستجابة الإلهية لسؤال موسى الكليم عليه السلام بشأن أخيه هارون عليه السلام على خطورة الدكتاتورية والاستبداد والتفرد في القيادة على الكيانات والجماعات والمؤسسات الكبيرة والصغيرة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مثل: الدولة، والحزب، والنقابة، والنادي، والبنك،

والمدرسة، والجامعة، ونحو ذلك، وهي من الأنانية وسوء الخلق وأسباب الفشل في القيادة والنهوض بالأمة أو الجماعة أو المؤسسة والوصول بها إلى تحقيق أهدافها، في الوقت الذي تؤكد فيه على ضرورة الكفاءة والتأهيل للقيادة الناجحة.

وعبارة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[1] دليل على أن نبوة هارون عليه السلام تابعة لنبوة موسى الكليم عليه السلام، وأن لموسى الكليم عليه السلام الإمامة والتقدم والزعامة على هارون عليه السلام رغم أنه يكبره بثلاث سنين، مما يدل على أن الإمامة والقيادة تدور مدار الفضيلة والكفاءة، وليس مدار السن وتقدم العمر قطعاً، وهذا حكم عقلي وشرعي في غاية القيام والوضوح.

وقد تضمنت الرسالة الإلهية التي حملها موسى الكليم وهارون عليهما السلام إلى فرعون النقاط الرئيسية التالية:

- أن يبلغوهم بأنهما رسولان من عند الله سبحانه وتعالى، وأنه رب العالمين، وأن فرعون عبد من عباده، وليس بإله ولا رب، ويجب عليه أن يسلم لله رب العالمين ويطيعه في أمره ونهيه.

- لا يحق لفرعون أسر بني إسرائيل وسلب حريتهم وتعذيبهم باستخدامهم في الأعمال الشاقة، ويجب عليه أن يطلق سراحهم ويساوي بينهم وبين الأقباط في الحقوق والواجبات، وأن يعطيهم حقهم في حرية البقاء في مصر أو الهجرة منها إذا شاءوا إلى الأرض

---

١. مريم: ٥٣

المقدسة فلسطين.

- أن يخبروهم بأن لديهما البينة النيرة الواضحة والدليل القاطع على صدق نبوتهما ورسالتهما وعدالة قضيتهما ومطالبهما السياسية والحقوقية وأنهما مكلفان بتبليغ ما قام بتبليغه إليهم.

- أن الأمن والسلام والسعادة الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة هي من نصيب كل من آمن بالله سبحانه وتعالى وصدق المرسلين واتبعهم وعمل صالحاً، وأن فرعون مقر على ملكه إن هو آمن بالله سبحانه وتعالى وأطاع الرسول، وهالك لا محالة مع أتباعه إن هو أصر على كفره وغيه وطغيانه وفساده في الأرض وعدوانه وعلوه على العباد.

وكان موسى الكليم وهارون عليهما السلام قد شكيا إلى الله عز وجل وأعربا عن خوفهما من أن يحمل فرعون جبروته وطغيانه وقسوة طبعه على الغضب والبطش بهما والتعجيل بقتلهما أو معاقبتهما قبل أن يتمكنا من إقامة الحجة والتبليغ بالرسالة، فقال لهما ربهما: ﴿لَا تَخَافَا﴾[1] فلن يصيبكما أي شيء مما قلتما وخفتما منه، فإني معكما أسمع وأرى، وسأحفظكما من بغي فرعون وبطشه، وسأجعل لكما تسلطاً عليه وعلى ملئه وقومه، وسأجعل لكما هيبة ونوراً إلهياً، فلا يصلون إليكما بسوء أو بأذى، ولن يقدروا عليكما بالحجة والنزال وسوف تتمكنان من تبليغ الرسالة وبيانها وإقامة الحجة على أحسن وأكمل وأتم وجه، وأنكما بما أيدتكما به من المعجزات

١. طه: ٤٦

والبينات والحجج الدامغة ستكونان أنتما ومن اتبعكما الغالبين، وسيكون النصر حليفكم والغلبة والظهور لكم على عدوكم من جميع الوجوه: قيام الحجة والبرهان، وتمام البيان، وهلاك عدوكم، واستخلافكم في الأرض وأن ترثوا كل ما يتركه عدوكم وراءه بعد هلاكه من الأرض والعقار والثروة والمال والسلطة والمقدرات، وهذا وعد إلهي قاطع لا خلف فيه ولا تبديل له، وبشارة إلهية نيرة عظمى طمأن الله ﷻ بها قلب موسى الكليم ﵇ وانشرحت لها نفسه الزكية الطاهرة، وأصبح راسخ العزم قوي الجنان ثابت اليقين والإيمان.

وقد أعطى الله ﷻ ذلك لوليه الناصح موسى بن عمران ﵇ في أول انطلاق الدعوة وكان وحيداً فريداً ولم يزل شريداً مطارداً؛ ليكون على بصيره تامة من أمره، فلم تزل الأحوال تتطور والأمور تنتقل، حتى أنجز الله ﷻ له ما وعده ومكّنه من البلاد والعباد وصارت له ولأتباعه الغلبة والظهور، وهذا يكشف عن أهمية البصيرة والتخطيط الاستراتيجي لنجاح الدعوة والعمل السياسي التغييري الثوري والإصلاحي، وأهمية الصبر والتحمل وطول النفس وتقديم التضحيات اللازمة والتحلي بالصدق و إخلاص النية من أجل تحصيل الظفر والفوز بالعناية والرعاية والتأييد الإلهي، والوصول إلى الأهداف والغايات الشرعية المرسومة بدقة ووضوح، وأن التحلي بالصدق و إخلاص النية والصبر والتحمل وطول النفس وتقديم التضحيات اللازمة لا تنفصل بأي حال من الأحوال عن اليقين والبصيرة، بل هما: اليقين والبصيرة، علة إلى تلك الحالات الفاضلة الراقية السامية، ويجب التأكيد على أن الوصول إلى الأهداف والغايات لا يأتي إلا بتهيئة

الظروف وتوفير الأسباب اللازمة، وأنها تتحقق بالتدريج شيئاً فشيئاً وليس دفعة واحدة.

وأنه يجب على الأمة المستضعفة أن تنهض لنيل حريتها وحقوقها، ولا تيأس مهما بلغت من الضعف، وعليها أن تعمل من أجل تهيئة الظروف وتوفير الأسباب لتغيير ميزان القوى لمصلحتها، وأن تعلم بأن الله الكبير المتعال ﷻ معها وناصرها على عدوها طال الزمن أو قصر، كما حدث لبني إسرائيل إذ استنقذهم الله ﷻ من أسر فرعون وملئه وخلصهم من جبروتهم وطغيانهم، ومكنهم في الأرض وملكهم البلاد.

وأن تحذر الفوضى في التفكير، بأن تفكر في القضايا وتعالجها بشكل جزئي وعاطفي، وتضعف أمام الصعوبات والتحديات والعوائق التي تقبل بأن يفرض عليها حكم الأمر الواقع، وتكف عن تقديم التضحيات اللازمة، وأن تعلم بأن الأمة الذليلة التي تقبل بأن يفرض عليها حكم الأمر الواقع وتكف عن النضال وتقديم التضحيات الضرورية اللازمة لا يصلح أمر دينها ولا دنياها، وتبقى في الحضيض الأسفل تعاني من الظلم والتخلف والانحطاط والفساد إلى الأبد، أو حتى تنتفض وتنفض عن نفسها غبار المذلة، وتنهض في حزم وجزم وثبات خطى لنيل حريتها وتحصيل حقوقها الأساسية الطبيعية المكتسبة في الحياة، ولنعلم جميعاً أن الله تبارك وتعالى قد يقدر على أمة من الأمم أو شعب من الشعوب أو عبد من عباده بعض المشاق والمحن، لينالهم بعد ذلك سرور عظيم، أو يدفع عنهم شراً كثيراً، فلنحسن الظن بالله ﷻ ونثق به ونتوكل عليه ونفوض أمرنا

ونسلم إليه لنكون من الفائزين، ولا نيأس ولا نضعف ولا نتراجع ولا نتخلى عن مسؤولياتنا وعن التكليف الإلهي الشريف فنكون من الخاسرين.

الفصل الثاني: تبليغ الرسالة إلى فرعون وردود فعله وهلاكه

قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾[1]

تكذيب فرعون لموسى واتهامة بالسحر

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾

مضى موسى الكليم بمعية أخيه ووزيره وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام

---

١. القصص: ٣٦-٤٢

يحملان رسالة ربهما إلى فرعون وملئه وقومه، فدخلا عليهم في قصر فرعون بعد عناء شديد، وكانا في هيئة متواضعة تشملهما السكينة والهيبة والوقار، وكان موسى الكليم عليه السلام يلبس جبة من صوف، وعصاه النورانية ذات الأسرار العظيمة في يده، مربوط خصره بشريط من خوص مفتول، نعله من جلد حمار وشراكها من ليف، وكان مع هذه الهيئة البسيطة المتواضعة يحمل روحاً ملائكية متألقة ومشدودة إلى الله خالقها ومربيها ذي الجلال والإكرام، ونفساً رحمانياً طيباً وقوة إلهية عظيمة وهيبة نورانية تشمل كيانه كله، تكاد جدران قصر فرعون تخرُّ لها ساجدة، وكان فرعون جالساً على عرشه مكللاً بأساور الذهب والفضة ونحوها، في كبرياء وتجبر، وقد حف به خدمه وجنوده وحشمه وخاصته.

فبلّغ موسى الكليم وهارون عليهما السلام رسالة ربهما إليهم وجاءهم موسى الكليم عليه السلام بما عنده من المعجزات النيرات الباهرات والبينات الواضحات والأدلة القاطعة الدالة على التوحيد والمعاد وصدق النبوة والرسالة التي يحملها من رب العالمين، بما لا يدع مجالاً للشك أو الريب أو التردد، حيث لا قصور ولا خفاء في الدلالة القاطعة على المطلوب، إلا أنهم لم يقبلوا منه ولم يصدقوه ورموه بالكذب واتهموه بالسحر والافتراء على رب العالمين، وبالمكر والخداع، وقالوا ظلماً وعلواً وعناداً حيث ظهر الحق المبين واستعلى بالحجة البالغة على الباطل البين ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾[1].

---

١. القصص: ٣٦

أي: إنهم زعموا أن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من المعجزات النيرات الباهرات والخوارق للعادة، ماهي إلا مجرد سحر ليس أكثر، وأن موسى الكليم عليه السلام مجرد ساحر ولكنه أمهر السحرة وأعظمهم وأكثرهم معرفة بأسرار السحر ودقائقه وخباياه، وأنه اختلق دعوى النبوة والرسالة لأهداف سياسية خبيثة، وزعم أن ما جاء به من السحر هي معجزات ونسبه إلى الله سبحانه وتعالى كذباً وزوراً من أجل خداع الناس وتضليلهم؛ ليصدقوا أكذوبته.

أي: رموه ظلماً وعلواً بداء أنفسهم على قاعدة «كل من يرى الناس بعين طبعه»، لا سيما الأنانيون والانتهازيون والنفعيون، وكان ذلك منهم في غاية المكر والكيد والخداع وغلبة الشقاء وسلوكهم طريق الأشقياء الهالكين، حيث جعلوا وجه الشبه بين المعجزة وبين السحر بأن كليهما خارق للعادة، أساساً لتكذيبهم بالحق والتدليس عليه و إثارة الشبهة في وجهه عن علم وقصد. لكن العاقل البصير يدرك بسهولة الفرق بين الساحر الكذاب والنبي الصادق، فالساحر إنسان منحرف ومتكبر ومخادع يبحث عن الإثارة والبروز والمصالح الدنيوية، والنبي إنسان في غاية الاستقامة والسكينة والوقار والنضج والتواضع والزهد في الحياة الدنيا والبحث عن الحقيقة وبيانها و إثباتها بالدليل القاطع، فضلاً عن الفوارق الجوهرية بين السحر وبين المعجزة.

وكانت حجتهم في تكذيب موسى الكليم عليه السلام قولهم: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ

آبَائِنَا الْأَوَّلِين﴾[١] أي: لقد عاش آباؤهم وأجدادهم وماتوا على عبادة فرعون الطاغية الحقير وعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولم يعرفوا عقيدة التوحيد ويتعبدوا بها، ولم يتبعوا الأنبياء ويطيعوهم في وقت من الأوقات.

وعليه: فإن عقيدة التوحيد النورانية وعقيدة النبوة بحسب زعمهم ومنطقهم الذي يقوم على الأهواء والتعصب الأعمى دين مبتدع وباطل وأحرى بالرفض والتكذيب، وأن عبادة فرعون الطاغية الحقير والأصنام التي لا تضر ولا تنفع دين حق ثابت يجب البقاء عليه والاستمرار أبد الدهر.

وهذا القول في الحقيقة بعيد كل البعد عن منطق العقل والفطرة والطبع الإنساني السليم ومخالف لكرامة الإنسان، وسبب إلى مذلته وهوانه وانحطاطه المعرفي والتربوي والحضاري، كما أنهم لم يتأملوا ويتفكروا في المعجزات والبينات والأدلة بموضوعية ونزاهة ولم يأخذوها بجدية وحزم، رغم خطورة ما ينبني عليها سلباً وإيجابياً في رسم واقع الإنسان وتقرير مصيره في الدارين الدنيا والآخرة، وهذا أيضاً مخالف للعقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم وناقض لكرامة الإنسان وهادم لقيمته ومكانته.

وعليه: فموقف فرعون وملئه مما جاءهم به موسى الكليم عليه السلام من المعجزات النيرات الباهرات والبينات الواضحات والأدلة النيرة القاطعة والبيان الشافي الواضح موقف غير إنساني وغير منطقي ولا يليق بكرامة

١. نفس المصدر

الإنسان ومكانته في عالم الموجودات، كما أنهم لم يكونوا صادقين البتة في قولهم: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾[١]، فقد جاءهم يوسف الصديق قبل موسى الكليم عليه السلام ودعاهم إلى التوحيد وأقام الدليل على صدق نبوته ورسالته، وكان ذلك معروفاً عندهم، كما كانوا عارفين بنبوة نوح وهود وصالح وغيرهم، وقد رد عليهم حزقيل مؤمن آل فرعون وذكرهم بذلك في حواره معهم ونصحه لهم فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾[٢] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[٣]

رد موسى على اتهام فرعون وملئه

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

وقد رد موسى الكليم عليه السلام على تكذيب فرعون وملئه واتهامه بالسحر بقوله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ﴾[٤] أي: إن وجود الله سبحانه وتعالى وربوبيته ثابت ومقرر بحكم العقل والمنطق السليم، وهو محيط بخلقه قدرةً وعلماً، فهو الحق الحقيق وهو يعلم حالي ومطلع على

---

١. نفس المصدر

٢. غافر: ٣٤

٣. غافر: ٣٠-٣١

٤. القصص: ٣٧

سري وعلانيتي، وهو أعلم منكم بمن يستحق النبوة والاصطفاء للرسالة وهداية الناس، ومن المحال أن يسمح لأحد بأن يتقول عليه كذباً وزوراً، وأن يدعم من يتقول عليه بغير حق ويؤيده بالمعجزات؛ لأنه غني حكيم وقوي عزيز، فلا يرسل الكاذبين والسحرة وأمثالهم؛ لأنه غني عنهم وغير محتاج إليهم؛ ولأن إرسالهم مخالف للحكمة والصواب ولغاية خلق الإنسان وبعث الأنبياء والرسل الكرام عليهم السلام التي هي هداية الإنسان وإيصاله إلى كماله اللائق به والمقدر له بمقتضى الحكمة الإلهية البالغة، وإلى سعادته الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة، ولا يترك من يتقول عليه بغير حق وشأنه، وهو القادر على فضحه وإهلاكه؛ لأن تركه فيه تغرير للناس ومخالف أيضاً للحكمة الإلهية وناقض لغاية خلق الإنسان، ولأن المعجزات النيرات الباهرات لا تكون إلا من عند الله عز وجل ومن المحال على الله سبحانه وتعالى أن يدعم ويؤيد بالمعجزات من يكذب عليه، وقد أتيت بالمعجزات فعلاً، فأنا محق، وما أدعيه من النبوة والرسالة صدق لا شك فيه ولا ريب، وأن الله سبحانه وتعالى قد اختارني للنبوة واصطفاني للرسالة وأرسلني بدين الحق والتوحيد إليكم، وأن ما أدعوكم إليه هو الهدى الحقيقي والرشاد الفعلي، وفيه صلاح أمركم ونجاتكم من المخازي والمخاوف والمهالك، وفيه سعادتكم الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة، وأن ما أنتم عليه من الدين هو الضلال بعينه والسفاهة بحقيقتها، وفيه فساد أمركم وانحطاطكم المعرفي والتربوي والحضاري، وتخلفكم وهلاككم وشقاؤكم في الدارين الدنيا والآخرة.

وعبارة: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ﴾[١] فيها إشارة إلى الاستغناء بالله ذي الجلال والإكرام والاكتفاء به عن جميع خلقه، أي: إذا كنت على الهدى عند الله فلا أبالي بتكذيبكم إياي، وسأمضي في طريقي، ولا أبالي بغضبكم وانتقامكم مني، قول الرسول الأعظم الاكرم ﷺ: «**إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي**»[٢]، فالمهم هو رضا الله ﷻ، ورضا غيره تابع لرضاه، فإذا رضي فلا يهم غضب غيره، سواء كانوا ملوكاً أم أناس عاديين، وأن رضا النفس الحقيقي وراحة الضمير، وغنى النفس الحقيقي وكمالها الفعلي يكمن في ذلك لا في سواه، قول الامام الحسين عليه السلام: «**ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟**»[٣].

وفيها توجيه لفرعون وملئه: بأن عليكم أن تنظروا فيما جئتكم به من المعجزات وتتدبروا فيها برؤية ومنطق سليم، لتعلموا حقيقتها ودلالتها على صدق نبوتي ورسالتي إليكم.

وتعرض لهم؛ لأنهم لم يفعلوا ذلك و إنما تعصبوا إلى ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم من الدين وورثوه منهم واتبعوه بغير حجة ولا برهان، ورفضوا الدين الحق الذي قام عليه الدليل القاطع، والأولى بحكم العقل والفطرة هو الأخذ بدلالة المعجزات النيرات وحجتها بدل التعصب الأعمى للتراث والجمود عليه بدون حجة ولا برهان، ولكنكم للأسف

---

١. نفس المصدر

٢. دعاء النبي ﷺ عند خروجه من الطائف مغموماً

٣. دعاء يوم عرفة

الشديد لاتفقهون حجة ولا تريدون أن تعلموا حقائق الأمور؛ لأنكم لا تريدون أن تغيروا ما أنتم عليه وما تعودتم وتربيتم عليه من الدين، وأنتم غافلون عن حقيقة إنسانيتكم وما به كمالكم وسعادتكم الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة، الذي يقتضي خضوعكم للعقل واتباع المنطق السليم لا للتعصب والجمود، وغافلين عن مصيركم الوجودي المحتوم في دورة الحياة الكاملة.

ثم إذا كنتم غير قابلين لنصحي إياكم وغير مبالين بما جئتكم به من المعجزات النيرات والبينات الواضحات والأدلة الساطعة القاطعة والبيان التام الجلي، وأبيتم إلا التمادي في غيكم والإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والتكذيب والمعاصي والجرائم والذنوب والطغيان والاستعلاء والفساد في الأرض فإن الله ﷻ ربي وربكم الذي له الخلق والأمر أعلم بالمهتدي والضال منا ومن تكون له عاقبة الدار، أي: من تكون له العاقبة المحمودة في الدارين الدنيا والآخرة، نحن أم أنتم؟ الذي يوظف عقله ويخضع للمنطق السليم فيصدق بالمعجزات النيرات والبينات الواضحات ويؤمن بعقيدة التوحيد والمعاد ويصدق المرسلين ويتبعهم ويعمل الأعمال الصالحة، أو الذي يتجاهل عقله وضميره ويخالف المنطق السليم ويتعصب لدين آبائه وأجداده بغير حق ولا حجة صحيحة ولا برهان سليم ولا يذعن للمعجزات الإلهية النيرة ولا للبراهين الساطعة والبينات الواضحة، ويدأب على عبادة الطواغيت وطاعة الفراعنة والحكام المستبدين الظلمة وتقديس الأصنام ويكذب المرسلين ويعصيهم ويحارب دعواتهم ويساهم في إيذائهم وقتلهم ويناهض حركات الإصلاح والمصلحين والمطالبين

بحقوق الإنسان ونحو ذلك، من الذنوب والمنكرات العظيمة المخالفة للعقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم والناقضة لكرامة الإنسان ومكانته الوجودية النوعية المتميزة بين الموجودات.

ولا شك: فإن الذي يتبع العقل والمنطق ويؤمن بالتوحيد والدين الحق ويتبع الرسل ويعمل الأعمال الحسنة الصالحة هو الذي تكون له العاقبة المحمودة في نهاية الأمر في الدارين الدنيا والآخرة، ويكون من السعداء الناجين، فالأرض لله ﷻ يورثها من يشاء من عباده، وقد كتب بحكمته وحتم أن يورثها عباده الصالحين، وقد كتب بحكمته وعزم بعدله وحتم أن الجنة والرضوان في الآخرة للعارفين به، المتقين المطيعين له، العاملين الأعمال الصالحة وليس لغيرهم، وأن الذي يتجاهل العقل ويخالف المنطق والضمير والفطرة والطبع الإنساني السليم ويتبع الطواغيت ويطيع الفراعنة والحكام المستبدين الظلمة ويعينهم على ظلمهم وفسادهم في الأرض وطغيانهم وعلوهم، ويعبد الأصنام، ويقدس الباطل تحت عنوان التراث ونحوه، لا يكون أبداً من المصلحين الفائزين عند الله، وتكون له العاقبة السيئة المذمومة ويكون من الأشقياء الهالكين في الدارين الدنيا والآخرة.

وبحكم العقل والمنطق والفطرة فإن العاقبة المحمودة الحسنة هي العاقبة التي يعتد بها العقلاء ويعملون من أجلها، ويحذرون العاقبة السيئة المذمومة ويعملون من أجل تجنبها والابتعاد عنها، والله يعلم أني على الحق والهدى والصواب وأنتم على الباطل والضلال والخطأ، وقد أرسلني

إليكم بالهدى ودين الحق ووعدني بأن من صدقني وأخد بديني واتبعني وأطاعني فله العاقبة الحسنة المحمودة في الدارين الدنيا والآخرة، ومن كذبني وخالفني وعصاني فله العاقبة السيئة المذمومة والهلاك والشقاء في الدارين الدنيا والآخرة، والدليل على ذلك المعجزات النيرات والبينات الواضحة والأدلة الساطعة القاطعة التي جئتكم بها من عنده، وعليه: فإني حريص على هدايتكم ونجاتكم ولا يضرني عنادكم وتكذيبكم إياي، ولا أكترث بتهديداتكم إياي بالقتل ونحوه، ثقة مني بربي وبوعده الصادق لي بحسن العاقبة والثواب الجزيل في الآخرة.

وقد صارت العاقبة الحسنة المحمودة والفوز والفلاح لموسى الكليم عليه السلام وأتباعه في الدارين الدنيا والآخرة وكانت العاقبة السيئة المذمومة والمؤلمة والخسارة البينة المعلومة، والشقاء والهلاك لفرعون وأتباعه في الدارين الدنيا والآخرة.

وقيل: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾[1] تعني العاقبة الحسنة المحمودة لدار الدنيا وهي الجنة؛ لأن الدنيا خلقت من أجل الآخرة، ولقول الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾[2]، وقيل: العاقبة الحسنة المحمودة في الحياة الدنيا نفسها، لقول الله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3] والجمع بينهما أتم

١. القصص: ٣٧

٢. الزمر: ٧٤

٣. الأعراف: ١٢٨

وأفضل وأحسن الوجوه وهذه نتيجة حتمية وفق منطق العقل والحكمة والسنن الإلهية، فلا يمكن لظالم متجبر متجاوز للحق والعدل والخير والفضيلة إلى الباطل والظلم والجور والطغيان والفساد والشر والرذيلة أن يفلح ويفوز بحسن العاقبة وينجو من الهلاك والشقاء ويكون من السعداء في الدارين الدنيا والآخرة، بل لابد لظلمه وفساده وشره أن يرديه ويفضحه ويشقيه ويهلكه في الدارين الدنيا والآخرة. فالظلم والشر والفساد والأعمال القبيحة مقدمة تؤدي إلى الابتعاد عن ساحة القدس وعن الرحمة الإلهية وينتج عنها الهلاك والشقاء والوحشة في الدارين الدنيا والآخرة.

وفي المقابل، العدل والخير والصلاح والأعمال الصالحة مقدمة تؤدي إلى القرب من ساحة القدس ومن الرحمة الإلهية والرضوان العظيم وينتج عنها النجاة والسعادة والأنس في الدارين الدنيا والآخرة، تماماً كما يشتد النور أكثر كلما اقتربنا أكثر من مصدر النور، وتشتد الظلمة أكثر كلما ابتعدنا أكثر عن مصدر النور، وكلما كان الحجاب أكبر وأكثر كثافة كلما كانت الظلمة وراء الحجاب أكثر، وبينما يكون الجانب المواجه للمصدر من الحجاب مضيئاً ونيراً، يكون الجانب الآخر من الحجاب مظلماً ومعتماً، ولا يغير في هذه المعادلة ما نجده كثيراً من العذاب والألم والبؤس الذي يعاني منه المؤمنون في الظاهر في الحياة الدنيا، وما يتمتع به الكافرون والمنافقون والعصاة من النعيم واللذات الحسية في الظاهر في الحياة الدنيا، فإن القيمة الحقيقة والمعيار في الأمر هي الحالة الروحية والنفسية التي عليها الإنسان وأن لذة الإيمان والثقة بالله ذي الجلال والإكرام وبوعده تذيب ما يعانيه المؤمنون من العذاب والألم

والبؤس في الظاهر وتحوله إلى أنس حقيقي ولذة روحية لا تنطفي، وفي المقابل فإن الكفر والخوف من المستقبل والمفاجئات تذيب ما يشعر به الكافرون من النعيم واللذات الحسية في الظاهر وتحوله إلى وحشة حقيقية وعذاب وألم روحي قاتل.

وقيل: إن عبارة: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1] معناها: أن حبل الكذب قصير، وأن الكذب قد تختفي حقيقة كونه كذباً لمدة من الزمن، ولكن سرعان ما يفتضح أمره وتنكشف حقيقة كونه كذباً، وعليه: فانتظروا لتشهدوا من الصادق الذي تكون له العاقبة الحسنة المحمودة والانتصار، ومن الكاذب الذي تكون له العاقبة السيئة المذمومة والاندحار، وفي العبارة تعريض واضح بفرعون وملئه وقومه المعاندين للحق والمستكبرين على أهله والمكذبين بالرسل الكرام عليهم السلام بأنهم لن تكون لهم العاقبة الحسنة والمحمودة بل ستكون لهم حتماً العاقبة السيئة المذمومة؛ لأنهم تجاهلوا الحق وخالفوا المنطق السليم وعاندوا وأصروا واستكبروا وبنو سيرتهم وسنتهم في الحياة على الباطل والظلم والجور والطغيان والفساد في الأرض على خلاف العقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم، وخالفوا السنن الإلهية وعاندوا النظام القائم عليها، وفيها إشارة إلى وجوب مقاومتهم والثورة عليهم وعدم الرضوخ إلى إرادتهم المنحرفة و إلى نزواتهم وأهوائهم الشيطانية ورغباتهم وشهواتهم الحيوانية، ولما يترتب على السكوت عليهم من الفساد وانتهاكات حقوق الإنسان وانحطاط معرفي وتربوي وحضاري وانسلاخ إنساني وضياع حقيقة الإنسان.

---

١. القصص: ٣٧

عناد فرعون وتضليله لقومه

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

وأمام النفس الرحماني والمنطق الموسوي المتين والبيان الواضح الساحر الوافي أحس فرعون بالخطر يضرب أركان نظامه المتهاوي الفاسد وحكومته وملكه وخاف على موقعه وهيبته ومصالحه وامتيازاته، فانبرى للرد على كلام موسى الكليم عليه السلام في عناد وإصرار وجرأة على الله عز وجل والحقيقة فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[1] وفي قوله تعريض بموسى الكليم عليه السلام ولما جاء به من الدعوة والمعجزات والبينات والأدلة ومعناه: أنا العالم بخبايا الأمور وأسرار العالم والمؤتمن عندكم والفاضل الذي لا يخون، وإني لا أعلم أن لكم في العالم إلهاً غيري، ولو وجد لعلمت بوجوده وكنت العارف به ولأخبرتكم عنه، وعدم وجوده في الأرض واضح تمام الوضوح لكم وترونه بأم أعينكم، فلا صحة لما يدعو إليه موسى الكليم عليه السلام من الطاعة والعبادة لإله واحد هو رب العالمين كما يزعم، أي: لا صحة لما يدعو إليه موسى عليه السلام من عقيدة التوحيد، ولما يزعمه من النبوة والرسالة من رب العالمين، ومن أجل إقامة الحجة التامة، وإثبات كذبه بالدليل الحسي والتجربة، لكي لا يبقى له ولا لغيره حجة، فسوف أتحمل المسؤولية الدينية والإنسانية والتاريخية والرعاية لكم، وأقوم بالبحث عن إله موسى عليه السلام بنفسي في السماء.

---

١. القصص: ٣٨

فقد تظاهر بالشك العلمي المنهجي، وبالنزاهة والموضوعية والبحث عن الحقيقة والحرص عليها والإخلاص لها من أجل أن يستميل قلوب قومه ويلقى منهم الميل له والقبول منه.

وقيل: إنه نفى علمه بإله غيره ولم ينفِ وجوده، ولأنه لا وجود له في الأرض بالضرورة، فقد سعى للبحث عنه في السماء، فقال تضليلاً لقومه واستخفافاً بعقولهم وأحلامهم، واستعراضاً لكمال قوته واقتداره كما يزعم، و إظهاراً لثقته التامة بنفسه وأنه على الحق والصراط المستقيم وأن ما يدعو إليه قومه هو الهدى والصواب والرشاد، ولأنه وجد من يتملق له ويصدقه من السفهاء وضعفاء العقول والأحلام ويصفق له على حساب الحقيقة والمنطق والخير والفضيلة والمصلحة الوطنية من النخبة السياسية والاقتصادية والفكرية والفنية والمهنية ومن عوام الناس الموالين له بغير حق ولا بصيرة، ولأنه قد عجز عن مواجهة الحجة بالحجة والدليل بالدليل، وقد خاف من موسى الكليم عليه السلام وعصاه، وكان أشد ما كان عتواً وكفراً ونفوراً من الحق وأهله، وأراد أن يخفي خوفه وعجزه، فلجأ إلى هذه الحيلة والخدعة الكبيرة كما هو دأب الأدعياء والمزورين في هذه الحالة: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[1].

أي: أوقد النار على قوالب الطين لتشتد صلابة وتستحكم وتتحول إلى آجر، واتخذ كافة الاجراءات الإدارية والعملية اللازمة الأخرى، وابنِ لي برجاً عالياً جداً واجعله مكشوفاً، لأصعد عليه إلى طبقات السماء العليا

---

١. نفس المصدر

والفضاء الرحب الواسع، فأنظر في طبقات السماء لعلي أجد فيها إله موسى عليه السلام وأقف على حاله، أو أجد في بروج وكواكب السماء ما يدل عليه فأصدق به وأخبركم عنه.

وقيل: كان فرعون موسى أول من ابتكر الآجر واتخذه في البناء، ويعتبر طلب فرعون الطاغية المتجبر لبناء البرج العظيم، من الخداع والتدليس؛ لأنه وضع إله موسى عليه السلام موضع نفسه، بأنه في حاجة إلى المكان، وهو يعلم علم اليقين: بأن الإله الذي يدعو إليه موسى الكليم عليه السلام وبحسب منطقه وبيانه الكافي الوافي الواضح، ليس مجسماً ولا في مكان: لا في الأرض ولا في السماء، غير أنه تجاهل ذلك من أجل التضليل والتدليس، ثم تمادى في غيه وتضليله وتدليسه وفي الإساءة إلى ولي الله الأعظم موسى الكليم عليه السلام الصادق الأمين، فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[1].

أي: إني على علم يقيني مسبق، بأن موسى عليه السلام كاذب في جميع ادعاءاته: رب العالمين، والنبوة، والرسالة، فلا إله غيري في العالم بأسره، ولم يتضح لي ويتبين ويحصل لي العلم وأنا الخبير العارف بالأدلة والمنطق والحجج، من خلال ما جاء به موسى وزعم أنها معجزات، بأن هناك إلهاً لكم غيري، وأنه صادق في دعوى النبوة والرسالة، فما جاء به مجرد سحر وليس بمعجزات ولا يدل على التوحيد وعلى صدق نبوته ورسالته أبداً، والخلاصة: أن فرعون الطاغية الحقير المتجبر بغير حق ولا دليل، أثبت لنفسه الألوهية، ونفى أن يكون هناك إله غيره، أي: نفى الألوهية عن الله

---

١. نفس المصدر

رب العالمين، بحجة أنه لا دليل على وجوده.

لقد لجأ فرعون إلى حيلة البرج تضليلاً لقومه، وسعياً لإخفاء ما في نفسه من القلق والخوف والعجز، ومن أجل أن يحفظ موقعه ومكانته وهيبته وملكه ونظامه أمام الخطر الداهم الذي ضرب أركانه ويكاد يهدمه على رأسه، فقد كان يعلم عن يقين: بأن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام ليس من السحر وخصائصه ودقائقه وأسراره وخباياه، وكان يمارس السحر وبه وصل إلى الملك، ويعرف نفسه بأنه من البشر وليس بإله، وأنه مخلوق وليس بخالق، ومرزوق وليس برازق، وأن كل ما يدعيه من ذلك وهم باطل لا حقيقة له ولا دليل عليه، ويعلم عن يقين: بأن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام معجزة حقيقية تقف وراءها قوة مطلقة فوق الطبيعية وفوق قدرة البشر، وأن موسى الكليم عليه السلام صادق كل الصدق في دعوى النبوة والرسالة، وأمين كل الأمانة فيما نقله من الرسالة عن رب العالمين، وأن الإله الذي يدعو إليه موسى الكليم عليه السلام والذي عرفه بأنه رب العالمين، ليس بجسم وليس في مكان لا في الأرض ولا في السماء ولا في غيرهما ولا في زمان، ولكن أخذته العزة بالإثم، وأصر على غيه وبغيه وضلاله، ولا يريد أن يتنازل عن دعوى الألوهية والربوبية وما يتمتع به من الطاعة والعبادة وامتيازات السلطة الروحية على الناس بغير حق ولا حجة ولا برهان، ويريد أن يقاتل على ذلك إلى آخر نفس له.

وتظاهر بالموضوعية والنزاهة والأمانة والوفاء والبحث عن الحقيقة والحرص عليها والإخلاص لها من أجل أن يستميل قلوب قومه إليه

ليقبلوا منه ليتمكن من التمويه عليهم وخداعهم وتضليلهم.

وهذه الحالة الروحية والنفسية المرضية المنحرفة عن الفطرة والطبع الإنساني السليم، مما يتكرر لدى الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة، تحت تأثير الشعور الزائف والمرض بالقوة والسلطة والعظمة، فيدعون ما ليس لهم بحق بدون حجة ولا دليل ولا برهان، ويوغلون في الظلم والعدوان والطغيان والفساد في الأرض والاستعلاء على الحق والعباد، ويعطون لأنفسهم الحق في استعباد الشعوب والسيطرة على مقدراتها، ويزدادون توغلاً في ذلك كلما كثر المتملقون لهم من النخبة السياسية والاقتصادية والفكرية والفنية والمهنية ونحوهم، وكلما غابت عنهم المقاومة والقوة الرادعة لهم أو ضعفت؛ لأن حالة الطغيان والعدوان والاستعلاء تستولي على الإنسان حين ينسى ربه، وتملأ فكره وقلبه أوهام التكبر والعظمة الزائفة، ولا يوجد من يردعه ويرجعه إلى عقله ورشده.

وفي المثل: «قيل لفرعون: من الذي فرعنك؟ قال: ما وجدت أحداً يردعني» وعليه: فالمؤاخذة أكثر ليس على الفراعنة أنفسهم والحكام المستبدين الظلمة، و إن كانوا في قمة الحقارة وفي ذروة الأنانية وفاقدين للإحساس الصحيح بالإنسانية، ولكن المؤاخذة الحقيقية تكون أكثر على النخبة السياسية والاقتصادية والفكرية والفنية والمهنية ونحوها، الذين يزعمون المعرفة وأنهم وجوه المجتمع والدولة وصناع الثقافة والحضارة، ثم يتملقون لهؤلاء الفراعنة المجرمين والحكام المستبدين الظلمة،

ويسمحون لهم بأن يلعبوا بعقولهم، ويخضعوهم لإرادتهم المنحرفة، ويسخروهم صاغرين لخدمة مصالحهم وأغراضهم ومقاصدهم، ولتعزيز نفوذهم وسلطتهم وتقويتها، ومساعدتهم على الظلم والجور والفساد والاستبداد، وما كان ذلك ليحدث لولا ضعف عقولهم وأحلامهم وخيانة أمانة العقل والمعرفة والضمير، وغياب إرادة المقاومة للأطماع والمخاوف والهواجس المرضية: الروحية والنفسية، بسبب الفسق وفساد الفكر والدين وسوء الطبع والأنانية الراسخة فيهم.

ويجب أن نعلم: بأن الحالة التي تعتري الطواغيت والفراعنة والملوك والحكام المستبدين، من الشعور الزائف بالقوة والاستعلاء والعظمة، هي حالة مرضية منحرفة ومدمرة للمجتمع والدولة والحضارة، ويجب مقاومتها بكل وسيلة حضارية مشروعة؛ لأن العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم والكرامة الإنسانية، تأبى على الإنسان بما هو إنسان، حين يشعر بمكانته الإنسانية وكرامته أن يكون منقاداً ذليلاً للطغاة والجبابرة والفراعنة والحكام المستبدين، يذيقونه صنوف الألم والعذاب والمذلة، ويسخرونه كالأشياء والحيوانات لخدمة مآربهم ومقاصدهم وأهوائهم وأغراضهم الشيطانية، ولنزواتهم ورغباتهم وشهواتهم الحيوانية، ويخضعونه رغماً عنه لإرادتهم، ويفرضون عليه حكم الأمر الواقع.

والقبول بذلك: يتنافى مع حقائق الإيمان، فالإيمان الحقيقي، يرسخ المنطق، وحكم العقل، ويسبغ العزة والكرامة على النفس، ويرسخ الشعور بالإنسانية ويعمقها إلى أقصى الحدود، وأقصاه: الفناء في الله ذي الجلال

والإكرام واكتساب صفاته والتخلق بأخلاقه والبقاء به، ولا يقبل الإيمان الحقيقي للإنسان، أن يذل نفسه، فتجب مقاومة الفراعنة والحكام المستبدين وعدم الخضوع لإرادتهم الاستكبارية المنحرفة، وقد ثبت بالتجربة التاريخية والمعاصرة، أن السكوت عن الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين، تترتب عليه المفاسد العظيمة في الدين والدنيا، والتخلف والانحطاط المعرفي والتربوي والحضاري، وانتهاكات شنيعة جداً لحقوق الإنسان الطبيعية والمكتسبة، وانتهاك كرامته، وأن الشعوب التي تقبل بالخنوع والخضوع لإرادة الفراعنة والحكام المستبدين، يفسد منطقهم وتفكيرهم وأخلاقهم وطباعهم، وبدلاً من الثورة على الظلم والعدوان، تتحول إلى معاداة المصلحين الشرفاء والمطالبين بحقوق الإنسان والمناضلين المصلحين من أجل شعوبهم وأوطانهم ومحاربتهم والمساهمة في القضاء عليهم، مما يجعل من السكوت جريمة بحق النفس والإنسانية والوطن، والتملق إليهم ومساندتهم جريمة أكبر.

هلاك فرعون بسبب استكباره

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾

وبالرد الفرعوني الجاهلي الاستعلائي والمخادع، الذي وافقه عليه

جنوده وأعوانه وأتباعه، تحت تأثير جنون العظمة والسلطة والشعور الزائف بالقوة، ثبت أن فرعون وجنوده وأتباعه من المستكبرين في أنفسهم، والاستكبار من المخلوقين باطل؛ لأن التكبر حقيقةً لا يحق إلا لله ذي الجلال والإكرام وحده لا شريك له؛ لأنه الكامل المطلق وفق كل شيء في ذاته، وكل شيء محتاج وخاضع إليه بالضرورة: في ذاته وصفاته وأفعاله. فلا يحق التكبر حقيقةً لغير الله سبحانه وتعالى، جاء في الحديث القدسي: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار**»[1].

كما ثبت أنهم متكبرون على الحق المبين وأهله، وعلى العقل والمنطق السليم، فرفضوا الحق المبين الذي جاء به موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين، رفضوه بدون حجة واضحة ولا دليل ولا برهان عقلي سليم، يدفعون بها ما أقامه نبي الله موسى الكليم عليه السلام من الأدلة والمعجزات على صدقه، إذ إن الإثبات والنفي يحتاج كل منهما إلى دليل.

ولم تكن لديهم شبهة فعلية، وإنما كان لديهم العناد والتعصب الأعمى والإصرار على ما هم عليه لأن عليه ألفتهم ومصالحهم، وزعموا أن ما هم عليه من الكفر والمعاصي والرذائل، أفضل مما دعاهم إليه موسى الكليم من الإيمان بعقيدة التوحيد والنبوة والمعاد وحسن الخلق والأعمال الصالحة، مما يدل على تعظمهم واستكبارهم على الحق، وهذا خلاف العقل والمنطق السليم والفطرة والطبع الإنساني السليم، وهم غافلون عن

---

١. إرشاد القلوب، الديلمي، جزء١، صفحة ١٨٩

حقيقتهم الإنسانية السامية، ومكانتهم النوعية المميزة بين الموجودات، وما به كمالهم وتحصل لهم به السعادة الحقيقة في الدارين الدنيا والآخرة.

فخير الإنسان وصالحه وكماله وسعادته الحقيقة، ليست في المال والثروة والجاه والسلطة والقوة ونعيم الدنيا الفانية، فهذه مما يمكن أن تشاركه فيها الحيوانات على مختلف أجناسها، وإنما خيره وصلاحه وكماله وسعادته الحقيقية، في معرفته بالله ذي الجلال والإكرام والتخلق بأخلاقه واكتساب صفات كماله: صفات الجمال والجلال والفناء فيه والبقاء به، فهذه مما يشارك فيها الملائكة المسبحين المقربين، ولا يشاركه فيها أحد من جنس الحيوانات أبداً، وبها يحصل الإنسان على الرضوان الإلهي العظيم والرحمة الإلهية الواسعة والنعيم الأبدي الخالد في جنات الفردوس في الآخرة، وهم غافلون كذلك: عن الوقوف بين يدي الله ﷻ في يوم القيامة للحساب والجزاء على الأعمال، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[1]، أي: غافلين عما ينتظرهم من العذاب العظيم المؤلم الأبدي في نار جهنم جزاءً على كفرهم وتكذيبهم الرسل وأعمالهم السيئة.

وعبارة: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾[2] لا تدل على وجود حجة لديهم أو دليل ينفي وجود البعث والحساب والجزاء في يوم القيامة، ولا وجود شبهة علمية فعلية لديهم حول ذلك، وإنما تدل على غلبة الأهواء الشيطانية،

---

١. الزلزلة: ٧-٨

٢. القصص: ٣٩

والرغبات والشهوات الحيوانية على عقولهم وسيطرتها عليها حتى صارت خاضعة ومتبعة لها تماماً، فاتبعوا أهواءهم وشهواتهم ومصالحهم الدنيوية العاجلة وفضلوها على أحكام العقل والفطرة والضمير، علواً في الأرض واستكباراً على الحق وأهله، وإصراراً على الظلم والطغيان والرذيلة والفساد، وكأنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء بعد الموت على الأعمال في الدنيا، وكأن الإنسان خلق عبثاً، ولا فرق له ولا ميزة على غيره من الحيوانات غير ما يتمتع به من الدنيا، ومن لا مال له ولا ثروة ولا سلطة ولا قوة، هو والحيوان على حد سواء!!

ثم جادلوا في ذلك بالباطل ليدحضوا به الحق، معتمدين على إثارة الشبهات واللجوء إلى المغالطات، ولا شيء لهم في ذلك من المنطق والبرهان السليم، ولو آمنوا بالآخرة وفكروا في مصيرهم بعد الموت لما تجرأوا على هذه الجرائم والجنايات الشنيعة والذنوب الكبيرة، ولما كان ما كان.

وهذا مأرب كل نزق لا يؤمن بدين ولا مبدأ ولا ضمير، ولا يرى إلا نفسه ومصالحه الدنيوية ويتصرف من وحي أهوائه وشهواته ونزواته ومن أجل مصالحه الخاصة، حتى وإن كانت على حساب الإنسان والإنسانية والقيم النبيلة السامية والمصالح العامة: الدينية والقومية والوطنية، وبمقتضى الحكمة الإلهية البالغة المستحقة للإنسانية والمؤمنين، فقد أخذ الله ﷻ فرعون وملأه وجنوده أخذ عزيز مقتدر، بسبب استمرار عنادهم وكفرهم وتكذيبهم الرسل الكرام عليهم السلام وإصرارهم على المعاصي والأعمال السيئة

والظلم والطغيان والاستعلاء والفساد في الأرض، وعدم تراجعهم عن ذلك أمام ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من المعجزات النيرات الباهرات والبينات الواضحات والأدلة الساطعة القاطعة، وعدم خضوعهم لعقل أو منطق سليم، وعدم استفادتهم من النصائح والمواعظ الصادقة التي وجهت إليهم، وخروجهم عن ربقة الإنسانية، ومحاربتهم للحق المبين وأهله والأولياء الصالحين والمصلحين الشرفاء والمطالبين بإخلاص لحقوق الإنسان المشروعة: الطبيعية والمكتسبة، وما يشكله وجودهم في الحياة من خطر جدي محدق على الأجيال الإنسانية القادمة.

فنبذهم (ألقاهم) في البحر كما يلقي الإنسان بكف من تراب من أجل إهلاكهم واستئصال وجودهم أجمعين من الحياة عن طريق الغرق، ليفتح بإهلاكهم الطريق أمام الأجيال القادمة والإنسانية إلى الهداية وسلوك طريق الرحمة والرقي الإنساني، المعرفي والتربوي والحضاري والوصول إلى الكمال اللائق المقدر للإنسان وفق الحكمة الإلهية البالغة والحصول على السعادة الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة.

فتحول النيل الذي هو مصدر معيشتهم وحضارتهم وعظمتهم إلى سبب هلاكهم وأصبح مقبرة لهم، فكانت عاقبتهم أسوء العواقب وأشرها، وذلك حين تعقبوا موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل لمنعهم من الخروج من مصر وإعادتهم إلى الأسر والعبودية والخضوع المطلق للنظام الفرعوني الفاسد وحكومته المستبدة الجائرة، أو للقضاء عليهم واستئصال شأفتهم والقضاء مطلقاً على دعوة موسى الكليم عليه السلام وما تشكله من معارضة وأخطار على

النظام الفرعوني وحكومة فرعون وملكه.

فلم يكتفِ فرعون الطاغية وجنوده المستكبرون برفض الحق المبين، بل تمادوا في غيهم وبعيهم وطغيانهم وأصروا على تصفية أهل الحق واستئصالهم: ولي الله الأعظم موسى بن عمران الكليم عليه السلام والذين آمنوا معه من بني إسرائيل، والقضاء على دعوة الحق.

فكانت النتيجة: أن أهلكهم الله عز وجل أجمعين، وطهر الأرض من لوث كفرهم وتكذيبهم وظلمهم وطغيانهم واستعلائهم وفسادهم في الأرض وأعمالهم السيئة، وأبعدهم تماماً عن طريق المؤمنين، وأراح الإنسانية قاطبة منهم.

والبحر الذي أغرق الله عز وجل فيه فرعون وجنوده المستكبرين هو نفس البحر الذي وضعت فيه أم موسى عليه السلام وليدها موسى حين كان طفلاً رضيعاً، لكي تعطيه فرصة للحياة من وراء جرائم فرعون وجنوده الذين كانوا يقتلون كل طفل ذكر يولد لبني إسرائيل؛ لأن أحد المنجمين أخبره بأن نهاية ملكه تكون على يد رجل سوف يولد من بني إسرائيل، فأنجى الله عز وجل موسى الكليم عليه السلام من القتل، ونشأ وتربى في بيت فرعون ثم أهلك الله عز وجل فرعون وجنوده المستكبرين أجمعين على يديه، وقضى على النظام الفرعوني والدولة الفرعونية بسببه، وورث بنو إسرائيل المستضعفون الملك من بعدهم.

وهذه هي العاقبة السيئة المذمومة التي تنتظر الظالمين الطغاة

والحكام المستبدين الظلمة، المستكبرين على الحق المفسدين في الأرض المستعلين على العباد المسرفين في المعاصي والذنوب وسفك الدماء المحرمة بغير حقها والمنتهكين لحقوق الإنسان وكرامته، حيث صاروا إلى الذل والهلاك، بشرط أن يقوم المستضعفون المظلومون بما يجب عليهم من الرفض والمقاومة والتخطيط الاستراتيجي والتحلي بالصبر والثبات وتقديم التضحيات اللازمة، فلا انتصار ولا عون إلهي بدون عمل وتضحيات مدروسة.

ولينبغي على كل عاقل لبيب: أن يتأمل في هذه العاقبة السيئة المذمومة التي لحقت بفرعون وجنوده المستكبرين، فلا ييأس المستضعفون من النصر والانتقام الإلهي من الظالمين والمستكبرين والطغاة والحكام المستبدين الظلمة، ولا يطمئن الطواغيت والفراعنة والمستكبرون والمترفون المستغلون والانتهازيون والأنانيون إلى ما يتمتعون به من النفوذ والسلطة والقوة، ولا يأمنوا المفاجئات والمخبئات وطوارق الأحداث، ولا يستعجلوا مكر الله ﷻ فإنه لهم بالمرصاد.

وفي عبارة: ﴿أَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾[1] إشارة إلى عظم شأن الله ﷻ، والحقارة من شأن فرعون وجنوده رغم كثرتهم، إذ شبههم القرآن بكف من تراب أخذه إنسان فرماه في البحر، أو شيء تافه لا قيمة له يرمى بعيداً بغير اهتمام، فليس للطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين وكل متكبر قيمة أكثر من ذلك في الحقيقة.

---

١. القصص: ٤٠

لقد كان فرعون بحق وحقيقه واحداً من الأئمة والقادة والرؤساء السابقين إلى الضلال، الذين أصروا واستكبروا وصمموا على الكفر وتكذيب الرسل عليه السلام ويدعون أتباعهم ومريديهم والمقتدين بهم إلى الكفر والمعاصي وما يوجب لهم عذاب النار، ثم إذا كان يوم القيامة، تقدموا اتباعهم من الجماعات الضالة إلى النار.

ولم يكن فرعون الطاغية آخر أئمة الضلال، بل أتى بعده آخرون مثله، وسيأتي مثلهم إلى أن يأذن الله عز وجل لوليه الأعظم الحجة المهدي بن الحسن العسكري عليه السلام بالخروج و إقامة دولة العدل الإلهي العالمية كحتمية تاريخية ويضع حداً لوجود الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والمستكبرين في الأرض، وذلك: في نهاية المسيرة التاريخية لحياة الإنسان على وجه الأرض.

وأن هؤلاء الأئمة الضالين، سوف يفعلون مثلما فعل فرعون من قبلهم، ويتمتعون بنفس الخصائص الفكرية والروحية والنفسية والسلوكية، ويتبعون نفس المنهج في السياسة الاستكبارية والاستبداد والاستعلاء في الأرض، والإسراف في سفك الدماء المحرمة بغير حق، ويدعون إلى الكفر النظري والعملي بالله عز وجل، وتكذيب الرسل الكرام وأئمة الهدى والأولياء الصالحين عليهم السلام ومعصيتهم ومخالفتهم ومحاربة دعوتهم وأنصارهم و إلحاق الأذى بهم وتعذيبهم، و إلى المعاصي والذنوب الكبيرة والصغيرة، الظاهرة والباطنة، التي تمحق الإنسانية وتفسد طبع الإنسان وفطرته وتسلخه من إنسانيته، وتبعده عن الحق والفضيلة ومكارم الأخلاق والمنطق السليم، ويعلّمون أنصارهم وأتباعهم والذين يقتدون بهم أخبث الأساليب وأقبحها

وأبعدها عن الإنسانية، في محاربة الأولياء الصالحين والدعاة إلى الحق والعدل والفضيلة، والمصلحين الشرفاء، والمطالبين المخلصين بحقوق الإنسان، ونحوهم، وكيف يقاومون جهودهم الخيرة في سبيل نشر الهداية وإصلاح الأمة والنهوض بها إلى أعلى مراتب الحضارة والرقي الإنساني: المعرفي والتكنلوجي والتربوي والمؤسسي والقضاء على الانحطاط والانحلال بكافة أشكاله، ونحو ذلك.

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أن الأئمة في كتاب الله إمامان، قال الله تبارك وتعالى:** ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[1] **لا بأمر الناس (أي: أئمة بأمر الله لا بأمر الناس) يقدمون أمر الله قبل أمرهم، وحكم الله قبل حكمهم، قال:** ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[2] **يقدمون أمرهم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عز وجل**»[3].

وسيكون لأئمة الضلال أتباع وأنصار بالطبع ويملكون السلطة والثروة والقوة والمكانة المرموقة في عالم الدنيا؛ لأن الدنيا دار ابتلاء وامتحان للإنسان ليظهر على حقيقته الإنسانية أو الحيوانية أو الشيطانية، ويحدد موقعه، قربه أو بعده عن ساحة القدس والحضرة الإلهية، وما يستحق من الرضوان الإلهي أو المقت والغضب، والثواب أو العقاب في الآخرة حيث

---

١. الأنبياء: ٧٣

٢. القصص: ٤١

٣. الكافي، جزء ١، صفحة ٢١٦، الحديث: ٢

الحساب والجزاء على الأعمال بحسب حقيقتها وما هي عليه في واقعها الوجودي الفعلي، حيث تتمايز الصفوف، وتمضي كل جماعة أو طائفة خلف إمامهم، قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[1] فيمضي أئمة الهدى وهم يتقدمون الذين اتبعوهم إلى الجنة، ويمضي أئمة الضلال وهم يتقدمون الذين اتبعوهم إلى النار، ويلاقون مصيرهم الأسود، ويجنون ثمار كفرهم وتكذيبهم الرسل الكرام وأئمة الهدى عليهم السلام وثمار أعمالهم السيئة في الحياة الدنيا، حيث لا ناصر لهم ولا جند ولا شفيع يطاع ولا مانع يمنعهم من عذاب الله عز وجل في الآخرة، بل يتبرأ في ذلك اليوم المتبعون من الأتباع، ويلعن الأتباع أئمتهم ولكن بدون جدوى، فإن فرعون الطاغية الذي استخف بعقول قومه فأطاعوه سافهين، تقدمهم فأغرقهم في النيل، ومضوا يلاحقهم الخزي والعار ولعنة التاريخ ولعنة عالم الغيب، وفي يوم القيامة يتقدم قومه السفهاء ضعفاء العقول والأحلام فيوردهم نار جهنم وبئس القرار، قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[2]

وقيل: إن عبارة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[3] تعني: أن خذلناهم ومتعناهم ألطافنا؛ لأنهم صمموا على الكفر وأصروا على تكذيب الرسل الكرام عليهم السلام وارتكاب الجرائم والمعاصي والذنوب، واتخذوا طريقاً منحرفاً

---

١. الإسراء: ٧١

٢. هود: ٩٦-٩٨

٣. القصص: ٤١

في التفكير والسلوك والمواقف والعلاقات، ينتهي بهم إلى أن يكونوا أئمة وزعماء وقادة ورؤساء في الكفر والضلال، يقتدى بهم في ذلك، وذلك لسوء حظهم العاثر واختيارهم البائس، وتنتهي عاقبة هؤلاء البائسين الظلمة من الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والمترفين والانتهازيين النفعيين الفاسدين إلى عاقبتين سيئتين:

الأولى - في الحياة الدنيا: أن تتبعهم في الحياة الدنيا زيادة على ما لحق بهم من الخزي والعار والهلاك، إبعاد عن الرحمة الإلهية الواسعة ولعنة عظيمة مستمرة، من عالم الغيب والشهادة، يلعنون بها باستمرار من الله ﷻ، ومن الملائكة، ومن الناس الذين يذكرون أعمالهم ويتصفحون تاريخهم، أي: تشملهم اللعنة العامة، وأحياناً يأتيهم اللعن الخاص، لاستمرار الكفر والتكذيب للرسل الكرام عليهم السلام والمعاصي والذنوب والفساد في الأرض، بسبب الاقتداء بهم واتباعهم وتقليدهم في أفكارهم وأخلاقهم ومناهجهم وأعمالهم السيئة حتى بعد هلاكهم، لكونهم أئمة ضلال يقتدى بهم في الكفر والشر والأعمال السيئة القبيحة، فلا يزال يتبعهم وبال ضلال من يقتدي بهم، ويتحملون أوزار كفرهم وأعمالهم السيئة، وأوزار كل من يتبعهم ويقتدي بهم في الكفر والظلم والاستكبار والاستعلاء والمعاصي والذنوب وسفك الدماء المحرمة بغير حقها ونحو ذلك من الجرائم والجنايات بحق الإنسان والإنسانية.

الثانية - في الحياة الآخرة: أنهم يكونون في يوم القيامة من المبعدين المخزين المطرودين، ومن المشؤومين المشوهين، من الذين قبحت

وجوههم وتشمئز منهم النفوس وتنفر منهم الطباع ويفر منهم الناس ويمقتونهم ويستقذرون أعمالهم ولا يدنو منهم أحد، لأنهم ليس وراءهم إلا السوء والشر والعذاب المادي والمعنوي الشديد، أي: إن سوء أعمالهم في الدنيا، هو الذي قبّح وجوههم في الآخرة، ويجتمع عليهم مقت الله ﷻ ومقت الناس لهم ومقت أنفسهم لأنفسهم، ويتبدل عزهم إلى ذل وهوان، والتبجل والتملق إلى اللعن لهم والنفور منهم؛ لأن عالم الآخرة هو عالم البروز وهتك الحجاب للضالين والظالمين المجرمين، لا سيما أئمة الضلال من الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين الظلمة والمترفين، وعليه: فقد حصلت لهم عقوبة إلهية عظيمة مستمرة في عالم الدنيا إلى فنائها، واتصلت بها أسوء العقوبات في عالم البرزخ وعالم الآخرة إلى بقائها.

المحور السابع

سورة الزخرف (٤٦ - ٥٦)

- الفصل الأول: رد فرعون الاستكباري على رسالة موسى وعاقبته

الفصل الأول: رد فرعون الاستكباري على رسالة موسى وعاقبته

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا
جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا
وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ
فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾
أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ
جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾
فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾[1]

تكذيب فرعون وملئه لموسى واستهزائهم بالآيات

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا
جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا
وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ

---

١. الزخرف: ٤٦-٥٦

عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾

لقد أرسل الله تبارك وتعالى عبده ورسوله الكريم موسى بن عمران الكليم عليه السلام بتسع آيات مفصلات، وهي: العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والقحط ونقص الثمرات، بالتفصيل والتعريفات المذكورة في الأبحاث السابقة، إلى فرعون وملئه من أشراف قومه وخاصتهم ومستشاريه وأعضاء حكومته وقادة جيشه وشرطته ونحوهم الذي يملأون العيون مهابة لحسن مظهرهم وما عليهم من الزينة وآثار السلطة والنعمة.

فلما دخل عليهم قصر فرعون، ومعه أخوه ووزيره وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام وذلك بعد صبر وعناء شديدين، وعرفهم بنفسه وبأخيه، بأنهما رسولا رب العالمين إليهم وإلى قومهم الأقباط، بالإضافة إلى بني إسرائيل وعامة الناس في زمانهم، بشيراً ونذيراً بين يديه عذاب شديد، ودعاهم إلى الإقرار بربوبية رب العالمين وتوحيده وطاعته وعبادته وحده لا شريك له ونفي الأضداد عنه، ونهاهم مطلقاً عن القول بربوبية غيره وعبادته وطاعته بشكل مستقل عنه، وأظهر لهم المعجزات العظيمة النيرة الدالة على دعواه وتثبت صدق نبوته ورسالته بشكل قاطع لا يترك مجالاً للشك أو الريب والتردد.

إلا أنهم لم يقبلوا منه وكذبوه، وقابلوا ما جاءهم به من الحقائق والمعجزات والبينات والأدلة أول ما رأوها ووعوها، بالتهكم والسخرية والاستخفاف والاستهزاء وضحكوا منه، بدل أن ينظروا فيها وفيما دعاهم

إليه من عقيدة التوحيد والمعاد والنبوة بجدية تتناسب مع عظمة المعجزات النيرات التي جاءهم بها والبينات الواضحات والأدلة الساطعة القاطعة في دلالتها على صدق نبوته ورسالته وعدالة قضيته ومطالبه الدينية والسياسية والحقوقية، وفي قيمتها المعرفية والتربوية والحضارية، كما هو دأب الجهال المستكبرين المتعالين على الحق والمنطق والقيم والمبادئ الإنسانية والحقوق، من الطواغيت الضالين، والفراعنة المتجبرين، والحكام المستبدين الظلمة، والمترفين المستغلين، والانتهازيين الأنانيين الفاسدين ونحوهم، أمام الحجج الواضحة والمنطق المتين والحقائق الساطعة التي يأتي بها المصلحون والقادة الحقيقيون، فيأخذونها بسخرية وتهكم واستهزاء، وذلك: تحت تأثير الغرور والشعور الزائف بالسلطة والقوة والعظمة وعلو الشأن، والاستعلاء على الخلق والاستكبار على الحق وأهله والقيم الإنسانية النبيلة والمبادئ السامية، ورؤيتهم الجامحة لأنفسهم: بأنهم فوق المبادئ والقيم والقانون والعباد، وفوق أن ينقادوا لصاحب دعوة حق أو فضيلة أو أن يحاسبوا، ونحو ذلك من الأفكار والمشاعر النزقة، ومن أجل مصالحهم الدنيوية السخيفة والأنانية، وليفهموا الآخرين: بأن دعوات المصلحين والقادة الحقيقيين ومطالبهم، باطلة وسخيفة لا تستحق أنظار الناس إليها، لئلا يتأثروا بها وينقلبوا عليهم، بدل أن يأخذوها بجدية وعزم، ويبحثوا فيها كما ينبغي، ليصلوا إلى الحقيقة ويعرفوها ويعملوا بمقتضاها، بمقتضى العقل والمنطق والفطرة الإنسانية والطبع السليم وكرامة الإنسان.

والخلاصة: أن ضعاف العقول وعديمي الضمير، إذا تربعوا على كرسي

الحكم وتولوا المناصب القيادية العليا وتمكنوا منها، فسيكون هذا منطقهم ومنهجهم وأسلوبهم في العمل، فهم لا يخضعون لسلطان العقل والحجة والمنطق، و إنما تهمهم أنفسهم وأهواءهم ومصالحهم؛ لأنهم خرجوا عن طور العبودية وربقة الإنسانية السامية.

وهكذا كان حال فرعون وملئه في مواقفهم الاستعلائية من رسالة موسى الكليم عليه السلام وما دعاهم إليه من الإيمان، وما جاءهم به من المعجزات والبينات والأدلة والبراهين العقلية النيرة الساطعة، التي كان ينبغي عليهم بحكم الكرامة الإنسانية والفطرة والطبع السليم والمنطق الصائب، أن يخضعوا لها ويعملوا بمقتضاها، إلا أنهم لم يفعلوا وفعلوا النقيض؛ كذبوا موسى الكليم عليه السلام وسخروا منه ومن رسالته، وقتلوا السحرة الذين أعلنوا إيمانهم، واضطهدوا المؤمنين من بني إسرائيل وعذبوهم وعزموا على قتل موسى الكليم عليه السلام نفسه.

ومع ذلك: لم ييأس الكليم عليه السلام منهم واستمر في العمل على هدايتهم، ولم يعجّل عليهم رب العالمين جبّار السماوات والأرض بالعقوبة وأمهلهم كثيراً.

في البداية: خاطب عقولهم بالمنطق، وجاءهم بالمعجزات النيرات والبينات الواضحات، بالإضافة إلى الأدلة العقلية التي تكفّل بها موسى الكليم عليه السلام ، وكانت آيات ومعجزات نيرة باهرة بالغة الدلالة على الحقيقة وعظيمة، وكل واحدة منها تتميز على أختها (مثيلتها وشريكتها) بميزة تجعلها أعظم منها وضوحاً وأكبر دلالة.

وقيل: إذا ضمت التالية إلى السابقة، إزداد الوضوح وعظمت الحجة وكبرت الدلالة.

وقيل: كل واحدة منها، يحكم من يراها بأنها أكبر من سابقتها ومثيلتها، وكلها آيات ومعجزات تامة وكاملة في إعجازها وبالغة الدلالة على حقيقة الرسالة وصدق النبوة من غير نقص ولا قصور فيها أو في دلالتها، لئلا يبقى لأحد منهم عذر ولا تبقى له حجة، ولينزلوا عن دابة الغرور التي ركبوها، ويتخلوا عن العجب والأنانية والاستعلاء والتكبر على الحق وأهله.

إلا أنهم لم يستفيدوا من ذلك شيئاً، ولم يستجيبوا للحق ويخضعوا ويتبعوا كما هو المفروض في الإنسان بما هو عاقل كريم، بل رفضوا الحق وكذبوا الرسول الكريم عليه السلام ووصفوه بأقبح الصفات وقرعوه بأغلظ الكلمات، فوصفوه بالكذب والخداع والتضليل والسحر ونحو ذلك من داء أنفسهم.

ومع ذلك: لم يعجل عليهم جبار السماوات والأرض بالعقوبة، بل أمهلهم كثيراً وأعطاهم فرصاً جديدة مصحوبة بأساليب التنبيه والتحذير والوعظ، فأخذهم بآيات العذاب، آية بعد آية على فترات من الزمن مثل: الطوفان ونقص الثمرات والقمل والجراد والدم وأخواتها، لعلهم يتعظون بما ينزل عليهم من العذاب، فيعودوا إلى عقولهم و إلى رشدهم ويرجعوا بالتوبة عن غيهم وعنادهم واستكبارهم وكفرهم وتكذيبهم الرسول الكريم عليه السلام وعن المعاصي والظلم والطغيان والأعمال السيئة والجرائم الشنيعة والفساد في الأرض ويزول شرهم، ويأخذوا بالهدى والرشاد وقبول الرسالة والصلاح في الأرض وتظهر خيرتهم وأعمالهم الصالحة.

لأن الإنسان السوي قد يعاند أو يتجاهل الحق أو يعصي ويعمل الذنوب في الحالات والأوضاع الاعتيادية، ولكن إذا نزلت عليه الشدة والبلاء والمصائب، اتعظ وتراجع وتاب بحسب فطرته، لكن فرعون الطاغية وملأه المفسدين، لم يتراجعوا وما أغنت عنهم الآيات والنذر، وإنما راوغوا، فقالوا لموسى الكليم عليه السلام مستغيثين به من العذاب ومعاهدين لله عز وجل: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾[١] أي: لم يعترفوا له بالنبوة، وإنما وصفوه عناداً منهم وتهكماً واستهزاءً به، ولم يقولوا: أدع لنا ربنا، وإنما قالوا: أدع لنا ربك، كأنهم لا يعترفون بربوبية الله جل جلاله لهم، وذلك رغم حاجتهم الماسة إلى مساعدته إياهم وأنهم في مقام الاستغاثة به، فلم يتخلوا عن غرورهم وعنادهم حتى وهم في حال المسكنة، مما يدل على فرط غرورهم وجهالتهم.

وقيل: كانوا يسمّون العلماء المهرة سحرة، وكانوا يوقرون السحرة ويعظمونهم لمكانتهم ودورهم الديني والعلمي والاجتماعي في الحياة العامة، فليس في الوصف ما يدل على الندم أو السخرية والتهكم والاستهزاء والاستخفاف، بل خاطبوه بما يخاطبون به علماءهم مدحاً له، وتضرعوا إليه: أن أدع لنا ربك الذي بعثك إلينا نبياً ورسولاً، واسأله بما عهد إليك من النبوة والرسالة والمكانة العالية المرموقة عنده، وبما خصك به من الفضائل والمناصب واستجابة الدعاء، أو بما عهد إليك وأخبرتنا به، أنه يكشف العذاب عمن آمن واهتدى، بأن يكشف عنا العذاب ويزيل آثاره السيئة عنا، فإن فعل ذلك بنا، فإننا سنكون من المهتدين المؤمنين

١. الزخرف: ٤٩

بنبوتك ورسالتك وبما دعوتنا إليه من التوحيد والفضيلة والعمل الصالح، ونتبعك فيما تأمرنا وتنهانا عنه، ونستجيب لمطالبك منا: السياسية والحقوقية، ونقيم العدالة والمساواة بين المواطنين: الأقباط وبني إسرائيل في الحقوق والواجبات، ونعطي الإسرائيليين الحق في حرية الإقامة في مصر والهجرة منها، ونحو ذلك.

أي: عاهدوا موسى الكليم عليه السلام بأن يتوبوا إن كشف عنهم العذاب، وهو عهد قد بيّتوا النية على نقضه وخلافه. فدعا لهم موسى الكليم عليه السلام وكشف الله عز وجل عنهم العذاب برحمته وعنايته وبفضل دعاء موسى الكليم عليه السلام فلم يفوا بوعدهم ونقضوا عهدهم، تكرر ذلك مرات عديدة، وفي كل مرة ينسون كل شيء ويغدرون، ويستمرون على ما كانوا عليه من الكفر وتكذيب الرسول الكريم عليه السلام والرذيلة والأعمال السيئة والجرائم والجنايات الشنيعة، ويجعلون موسى الكليم عليه السلام والمؤمنين غرضاً لسهام غدرهم وطعنهم.

ومن جانبه: يتجاهل موسى الكليم عليه السلام ما يكون منهم من سخرية واستهزاء وتهم وتعبيرات لاذعة، رحمةً بهم وحرصاً منه على هدايتهم ونجاتهم من العذاب وحصولهم على السعادة في الدارين الدنيا والآخرة، ويستمر في السعي لهدايتهم ولا ييأس بسبب عنادهم وتعصبهم ويدعو لهم، ويقابلون ذلك منه، بالعودة إلى السخرية والاستهزاء والتهكم والتحقير ونقض العهود: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1]

---

١. البقرة: ٩

وتوهماً منهم بأن ما نزل بهم من العذاب والشدة في كل مرة، لا يعود إليهم مرة أخرى، رغم تكرار نزول العذاب عليهم مرات عديدة، مما يدل على حمقهم وضعف عقولهم وأحلامهم وسخافة منطقهم وغفلتهم عن السنن الإلهية الحاكمة في الكون والحياة، وجهلهم بغاية وجود الإنسان ومقتضى الحكمة الإلهية البالغة والرحمة الإلهية الواسعة بالمؤمنين الصالحين، وهذا هو حال كل إنسان يغرق في أهوائه وتغلب نفسه الأمارة بالسوء على عقله وقلبه وضميره، وفي مقدمة هؤلاء: الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدون والمترفون الفاسدون والانتهازيون الأنانيون.

مراوغة فرعون وتضليله

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن
ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ
﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾

وأمام وقع المعجزات النيرات الباهرات، والبينات الإلهية الواضحات، والأدلة والبراهين العقلية الساطعة القاطعة، والبينات الموسوية الشافية الكافية البليغة الواضحة المؤثرة في النفس غاية التأثير، وأمام الابتلاءات والمصائب الشديدة التي نزلت بالأقباط وتركت آثاراً عميقة في نفوسهم، وعملت كلها على زعزعة أفكار الأقباط وعموم الناس واعتقاداتهم في فرعون، ووضعت نظامه وشرعيته أمام الاستفسارات والتساؤلات المشروعة

والمنطقية، وفي المقابل: زيادة نفوذ موسى الكليم عليه السلام وقوته ومكانته واعتلاء شأنه.

مما جعل فرعون يخاف خوفاً جدياً من أن يميل الناس جميعهم إلى موسى الكليم عليه السلام ويصدقوا دعوته ويتبعوه وينصرفوا عن فرعون، مما يهدد النظام الفرعوني بالانهيار وملكه ومكانته ودولته بالزوال، ولأنه كان مصمماً على المقاومة والقتال من أجل نظامه وحكومته وملكه وهيبته ومكانته وامتيازاته الدينية والملكية إلى الرمق الأخير وعدم الاستسلام، فقد لجأ إلى المراوغة والسفسطة والخداع والتمويه والتضليل والمغالطات في مقابل الحقائق والمنطق السليم والحجج البالغة.

فجمع الناس وعقد مجلساً شعبياً عظيماً ضم الوجهاء والأشراف والأعيان وكبار القادة المدنيين والعسكرين، وخطب فيهم بصوت عال مسموع، فقال مستعلياً بباطله، مغروراً بملكه وسلطته وماله وجنوده: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾[1] لا ينازعني فيه منازع ولا يخالفني مخالف وأتصرف في أرضها وثرواتها ومقدراتها كيف أشاء، وأفرض ما أشاء من قوانين وأتخذ ما أشاء من إجراءات وأعطي ما أشاء من تعليمات، وهذه الأنهار العظيمة: نهر النيل والأنهار المتفرعة منه، حيث كان نهر النيل كالبحر المترامي الأطراف، وكان يتشعب إلى فروع كثيرة تروي كل المناطق العامرة: الزراعية والسكنية في مصر، تجري بأمري وإرادتي ونظام تقسيمها وتوزيعها على المزارع والمساكن تحت سلطتي وبحسب تعليماتي، ومنها

١. الزخرف: ٥١

ما يجري تحت قصوري العالية الفخمة وفي وسط بساتيني الواسعة العظيمة، أفلا تبصرون ذلك وتستدلون به على ما أنا فيه من العظمة والشأن الرفيع، والقوة والسلطان وضعف موسى عن مقاومتي ومقارعتي ومجاراتي.

فقد ضحك على ذقون قومه ولعب بعقولهم وأحلامهم واستفضّ ضمائرهم، كما يفعل الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدون والمترفون والأنانيون المستغلون في كل عصر ومصر، بأن عقد مقارنة بين نفسه وبين موسى الكليم عليه السلام وفق معايير مادية بحتة، ليبدو من خلالها أنه متفوق على موسى الكليم عليه السلام ومفضل عنه، حيث لجأ إلى ما يتمتع به من الملك والسلطة، وما لديه من الثروة والقوة، وما كان عليه حال موسى الكليم عليه السلام من الفقر وضعف القوة المادية وقلة العدد والعتاد، ليثبت عظمته وعلو شأنه، غافلاً عن حقيقة كونه لم يخلق أو يوجد شيئاً من ذلك وإنما وضع يده عليها بالقوة المادية التي يمكن أن تزول وتذهب إلى غيره، وغافلاً عن قدرة الله عز وجل عليه وهي قدرة مطلقة لا طاقة له ولا لغيره عليها، وغافلاً عما يتمتع به موسى الكليم عليه السلام من خلال ما جاء به من معجزات عظيمة باهرة من عند رب العالمين، وأن موسى الكليم عليه السلام لا يفاخره ولا يباريه في شيء من القيم المادية ومتاع الحياة الفانية التي يمكن أن يحصل عليها عن طريق الرذيلة والحرام والجور على المحرومين وسرقة مقدرات الشعب، بل كان يدعو إلى القيم الروحية والإنسانية السامية، مثل: العلم والتقوى والخير والفضيلة والأعمال الصالحة والعمل من أجل الآخرة الباقية ونعيمها الدائم الذي لا يزول ولا يفنى.

وكان موسى الكليم عليه السلام يعمل من أجل إبطال المقاييس والمعايير والقيم المادية التي تمحق إنسانية الإنسان وتقوده إلى الشقاء الحقيقي والهلاك بدل النجاة والسعادة الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة ويقلل من شأنها، كما أن فرعون الطاغية كان غافلاً عن حقيقة كون ملكه وحكومته لمصر ونظامه فرض بحكم الأمر الواقع عن طريق القوة والعنف والإرهاب، ولم يأتِ بإرادة شعبية أو عن طريق الإقناع، فهو نظام وملك وحكومة يتنافى مع كرامة الإنسان وحقيقة كونه عاقلاً مختاراً ويقرر طريقه ومصيره في الحياة بنفسه، وأن الملك أمر زائل ويمكن أن يأتي بغيره وينازعه عليه وينتزعه منه ويلقي به في البحر لتأكله الأسماك أو في الصحراء لتأكله الوحوش أو يدفن في التراب ليتحول إلى جيفة ثم يتحلل ويصبح تراباً كما كان.

كما غفل فرعون عن حقيقة أنه في أمس الحاجة إلى الجنود لكي يدافعوا عنه، وإلى الأعوان ليقيم بهم حكومته ونظامه، وأنه بنى قصوره وشيّد الأهرام ونحوها بجهود شعبه وعرق جبينهم، فهو في الحقيقة ضعيف وفقير ولا ملك حقيقي له ولا قوة فعلية، وأن لا شرعية لنظامه وملكه وحكومته بحسب المنطق وحقوق الإنسان، وبناءً على قيمه المادية ومعاييرة الحسية، فقد توصل إلى نتيجة، مفادها: أنه خير من موسى الكليم عليه السلام فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[1].

أي: افتحوا عيونكم وانظروا جيداً وتأملوا دقيقاً، لتعرفوا لمن العظمة

---

١. الزخرف: ٥٢

والشأن الرفيع والمكانة العالية؟! لي أنا لما لي من الملك والنعيم المادي والألبسة الفاخرة والقصور العالية العامرة بالحشم والخدم والثروة والغبطة والسرور، أم لموسى مع ما هو عليه من الفقر والضعف وكونه شخصاً مغموراً من طبقة اجتماعية واطئة؟! فلا شك ولا ريب عندكم أني خير منه، ولم يذكر اسمه، وإنما قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا﴾[1] تحقيراً له، والسبب: أني ملك عظيم ولي العزة والكرامة والغلبة وبيدي الثروة العظيمة والسلطة الواسعة المطلقة والقوة الضاربة التي أقر بها جميع خصومي وأعدائي، وموسى رجل فقير وضعيف ومغمور من طبقة اجتماعية واطئة، ممتهن في نفسه لا عز له ولا جاه ولا سلطة ولا مال ولا ثروة، رث الحال ليس لديه إلا عصاه ولباساً صوفياً خشناً. فلا خير فيه ولا أهلية له للزعامة والرئاسة.

أي: عظّم القيم المادية السيئة والمظاهر الحسنة الزائفة ورفع من شأنها على خلاف العقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم، ليثبت من خلالها أنه العزيز المقتدر، وأن موسى الكليم عليه السلام الذي هو خليل الرحمن وكليمه والوجيه عنده وسليل الأنبياء والمرسلين الكرام عليهم السلام هو الذليل الحقير المهان!!

وهذه سنّة أهل الدنيا والطغاة المستبدين والمستكبرين الجبابرة أن لا يفكروا إلا في أنفسهم، ولا يعولون إلا على ما يملكون من القوة والثروة، ولا يقيمون وزناً للقيم الإنسانية السامية والمبادئ النبيلة والمصالح العامة، ولا يذعنون إلى الحق والمنطق والبراهين العقلية الساطعة القاطعة، ويتجاهلون

---

١. نفس المصدر

المعجزات الإلهية النيرة الباهرة العظيمة، ومن خلال هذا المنظار السيء المتطرف، يصف فرعون نفسه وهو الطاغية المتجبر بالعظيم والخيرية، ويصف موسى الكليم عليه السلام بالحقير المهين بسبب فقره وضعف إمكانياته المادية، فالفضل عنده للقيم المادية، مثل: الملك والقوة والمال، على القيم الروحية والإنسانية، مثل: العلم والتقوى والمحبة والسلام.

ثم أشار فرعون اللئيم إلى مسألة أخرى، وهي: أن موسى الكليم عليه السلام مدان له بتربيته في بيته منذ أن كان طفلاً رضيعاً، وأن له عليه حق القصاص لجريمة قتله الرجل القبطي من قوم فرعون والموالي له، وأن موسى الكليم عليه السلام بالخروج على فرعون، قد خان حق التربية والرعاية، وأنه بهذه الخيانة بالإضافة إلى جريمة القتل الشنيعة، غير مؤهل ولا لائق ولا يستحق أن يحمل رسالة من إله عظيم، وهذه أمور بينة واضحة، لا يستطيع موسى الكليم عليه السلام أن يرد عليها ويدافع عن نفسه فيها، وهي المراد من قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[1] مما يدل على عدم قناعته بما رد به عليه موسى الكليم عليه السلام في هاتين المسألتين.

وقيل المراد: لا يكاد يبين كلامه أو يفصح عما يريد قوله لثقل لسانه، وهذا القول غير مقبول لأنه خلاف الواقع الذي ظهر وتجلى في الحوار والسجال بين موسى الكليم عليه السلام وفرعون، وخلاف غاية الرسالة التي تقوم على وضوح وقوة البيان، وأن عبارة: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾[2] لا

---

١. نفس المصدر

٢. القصص: ٣٤

تنفي فصاحته بل تثبتها؛ لأن كون هارون أفصح لساناً منه لا ينفي فصاحته بل يثبت فصاحته، وليس معلوماً أن هارون أفصح من موسى عليه السلام في بيان اللسان، بل المراد أنه غير محجوج لفرعون بالتربية والقتل الخطأ كما سبق بيانه.

وقيل: كانت عقدة في لسان موسى الكليم عليه السلام زالت بدعائه: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾[1] واستجابة الله له بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[2] وأن فرعون قد عيره بما كان في لسانه قبل النبوة، إلا أن التعيير بعيب سابق لا فعلية حاضرة له ليس من الحكمة، وزوال هذا العيب يعد فضيلة لموسى الكليم عليه السلام ودهاء فرعون لا يسمح بأن يعير موسى عليه السلام بما يدل زواله فضيلة ظاهرة له وهو في مقام الاحتجاج عليه.

ثم عاد فرعون إلى فرض معاييره الحسية في تقييم الشخصية وإثبات مكانة الإنسان، فقال: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾[3] أي: إن كان رسولًا حقاً من رب العاليمن وسيداً وعظيماً فعلاً، فإنه يلزم عن ذلك أن يلقي عليه ربه مقاليد الملك والرئاسة، بأن يلقي عليه أسورة من ذهب يحليه بها، كما جرت العادة عند الأقوام المتحضرة، مثل: قوم فرعون نفسه، إذا اختاروا لهم رئيساً أو ملكاً وجعلوا له الملك والرئاسة والسيادة عليهم، طوقوه بطوق من ذهب وأسورة، وفي الحديث، قول أمير المؤمنين علي بن

---

١. طه: ٢٧

٢. طه: ٣٦

٣. الزخرف: ٥٣

أبي طالب عليه السلام: «**ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليه السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل فهلا ألقي عليهما أسورة من ذهب، إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه**»[1].

فقد جعل فرعون موسى الكليم وأاوه هارون عليهما السلام في معرض التفريع والتوبيخ والسخرية والتهكم والاستهزاء بسبب فقرهما وتواضعهما ولبسهما الصوف وحالهما الرث وعدم امتلاكهما الثروة وأدوات الزينة، غافلاً عن حقيقة كون السلطة والمال والثروة والقوة ونحوها من المظاهر الزائفة، أمور إضافية زائدة وخارجة عن ذات الإنسان، وأنها قابلة للتغير والزوال، فيتبدل فيها حال الإنسان من النقيض إلى النقيض، فينتقل من القوة إلى الضعف، ومن الغنى والثروة إلى الفقر والحرمان، ومن العز والسلطة إلى الذل والتشرد، ونحو ذلك. فلا تعرف قيمة الإنسان الحقيقية ومكانته بها، وإنما تعرف بأمور ثابتة وداخلة في ذاته لاتفارقه في حياته وبعد موته، مثل: العلم والتقوى وحسن الخلق والأعمال الصالحة ونحوها.

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقبان (نوع من الذهب) ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء (الخضوع الناس لهم بحكم الاضطرار) وبطل**

١. نهج البلاغة، خطبة ١٩٢

الجزاء واضمحلت الأبناء، (أي: بالخضوع الاضطراري للأنبياء، لا يبقى محل للجزاء ولا حاجة لأخبار السماء) ولما وجب للقابلين أجور المبتلين ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين ولا لزمت الأسماء معانيها، ولكن الله سبحانه جعل رسله أولى قوة في عزائمهم وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى، ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام، وعزة لا تضام، وملك تمتد نحوه أعناق الرجال، وتشد إليه عقد الرجال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة والحسنات مقتسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الإتباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته، أموراً له خاصة لاتشوبها من غيرها شائبة، وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل»[1].

ولكم للأسف الشديد: جرت العادة عند الأقوام الضالة والفراعنة المتجبرين، وهي السمة الغالبة على عصرنا الراهن، على الاهتمام الزائد بالألقاب الجوفاء والمظاهر الحسية الخلابة الزائفة، مثل: القصور العالية والمباني الفخمة والملابس الفاخرة والمراكب المتميزة والحشية والأتباع والجنود والأنصار والسلطة والجاه والادعاءات الفارغة ونحوها، وتجاهل الحقائق والفضائل والمنطق السليم والصلاح الحقيقي للأحوال والأوضاع والكفاءات والمؤهلات الفعلية ونحو ذلك.

---

١. نفس المصدر

ثم لجأ فرعون إلى الاحتجاج بشيء آخر لا يعبر عن قناعة حقيقية، بل عن عناد وجدل عقيم، ورغبة في التضليل والخداع لقومه ومريديه، خيانة منه للمسؤولية وللثقة التي أولته إياها رعيته، فقال: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[1] أي: جاء معه الملائكة متتابعين يقترن بعضهم ببعض، أو مقرونين به لا يفارقونه كما تفعل الحاشية مع الإنسان العظيم، ويعينونه على أمره ويؤيدونه، ويشهدون له بصدق نبوته ورسالته، وهذا القول منه: لا يدل على قناعة لديه، وإنما يدل على عناده ورغبته في الجدل العقيم بالباطل ليدحض به الحق تضليلاً لقومه لصرفهم عن الحق وليبقوا على ولائهم واتباعهم له؛ لأن وجود الملائكة ليس بمعجزة أعظم من تحول العصا إلى ثعبان عظيم يبتلع كل ما جاء به السحرة من السحر العظيم، وليس أعظم من تحول اليد السمراء إلى بيضاء تشع نوراً عظيماً يملأ الدنيا من غير علة أو مرض، فالذي يشك في معجزة العصا واليد لن يصدق وجود الملائكة، بل سيكون أسهل عليه أن يشك فيهم.

وعليه: فإن فرعون لم ينظر بموضوعية ونزاهة ومنطق سليم فيما جاء به موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين من المعجزات النيرات العظيمة الباهرة والبينات الواضحات والأدلة والبراهين العقلية الساطعة القاطعة، وما دعا إليه من عقيدة التوحيد والنبوة والمعاد، وإنما تجاهل جميع ذلك وكأنه لم يكن، وانصرف إلى أمور جانبية تافهة من أجل التضليل والخداع، وأثبت الخيرية للثروة والقوة والملك، على حساب الحق والفضيلة والعقل والمنطق السليم والحقوق الإنسانية ونحو ذلك، وأوهم

---

١. الزخرف: ٥٣

قومه بأن حال الرسل الإلهيين، ينبغي أن يكون كحال الملوك الجبارين وأن يحف بهم الخدم والحشم والجند، ونحو ذلك، متجاهلاً القيمة المعنوية العظيمة للاتصال بجبار السماوات والأرض، وما يلقونه من التأثير والدعم الإلهي، واتصالهم بعالم الغيب والملكوت، وما يتحلون به من العلم والفضيلة والاستقامة في السلوك والخيرية في الأفعال والأعمال الصالحة وخدمة الإنسانية وهدايتها والعمل على النهوض بها و إبعادها عن الانحلال والانحطاط والتخلف والعدوانية ونحو ذلك، ومتجاهلاً الغاية من بعث الأنبياء والرسل الكرام عليهم السلام التي هي الهداية التي تقوم على إحقاق القيم الروحية والإنسانية و إبطال القيم المادية والحيوانية، فارضاً قيمه الدنيوية الدينية، ونظراته المادية للكون والإنسان والحياة.

ولا يخفى ما في ذلك الأمر الذي دأب عليه الطواغيت الضالون والفراعنة المتجبرون والحكام المستبدون والمترفون المستغلون على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، إلا أن قومه الفاسقين أطاعوه فيما احتج به عليهم وغالطهم به، من الملك والثروة والقوة والقيم المادية والمظاهر الحسية الخلابة الزائفة، لا لأنها موافقة للعقل وتتمتع بقوة الحجة وسلامة البرهان، فهي هزيلة لا تسمن ولا تغني من جوع، وليس وراءها حقيقة وليس عليها نور ولا هدى، وما فيها من التضليل والخداع بيّن وفي غاية الوضوح والجلاء، ولا تروّج إلا على السفهاء الحمقى: ضعفاء العقول والأحلام والمنطق.

فأي دليل يقبله العقل يدل على صدق فرعون في دعوى الألوهية

والربوبية، وأن له شرعية ملك مصر وثرواتها والهيمنة على مقدراتها وفرض حكم الأمر الواقع عن طور الإنسانية والقائم على الاستخفاف بالعقول، أسلوب مستحكم لدى طريق القوة والعنف والإرهاب، وأي عاقل يصدق بطلان دعوى نبوة موسى الكليم عليه السلام لفقره وقلة أتباعه وعدم تجليه بأساور الذهب والملابس الفاخرة؟!

ولكن للأسف الشديد: فإن هذا الأسلوب الفرعوني المنحرف عن طور الإنسانية، والقائم على الاستخفاف بالعقول، أسلوب مستحكم لدى الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة، من أجل الاستمرار في وجودها، بطابعه غير الإنساني الذي لا يخضع لمنطق سليم، وتحقيق أهدافها الأنانية السخيفة المنحطة، حيث تسعى بشتى الأساليب والوسائل، وتستخدم كافة الإمكانيات المتاحة، مثل: وسائل التواصل الاجتماعي، والصحف والمجلات والقنوات الفضائية والفن والرياضة وغيرها، لتبقى الشعوب في مستويات متدنية من الوعي بالحقوق والواجبات، وغياب البصيرة بالمصير والغايات، ليطيعوهم ويسلموا إليهم، فيجعلوهم غرقى في حالة الجهل والغفلة عن الحقائق والحقوق والواجبات العامة الدينية والإنسانية والوطنية، وعن الغايات والأهداف ومجريات الوقائع والأحداث، وتمارس معهم عمليات غسل الأدمغة بشكل دائم ومتواصل، لكي لا تحدث فترة يقظة أو صحوة، وتغرس فيهم قيماً طاغوتية جاهلية، مثل: الطاعة العمياء لأولي الأمر، والتعصب للعادات والتقاليد والتراث، ونحو ذلك، وتعطي لهم موازين كاذبة منحطة؛ لأن الوعي والرشد الحضاري لدى الشعوب، يشكل أعظم خطر على هذه الأنظمة وبرامجها لمنطق سليم.

ولا تقبلها فطرة إنسان ولا طبع إنساني سليم، ويعتبر الوعي والرشد السياسي والحضاري، أعظم أعداء هذه الأنظمة والحكومات ولهذا فهي تحارب الوعي والفكر النير، وتسعى للقضاء عليهما قبل أن يتمكنا في المجتمع فيقضيا عليها، فوجودها ووجود الوعي والفكر النير، نقيضان لا يجتمعان.

وعليه: فإن أول واجبات دعاة الإصلاح والمطالبين بحقوق الإنسان، هو نشر الوعي والفكر النير، ومواجهة برامج الاستخفاف بالعقول التي تقوم عليها هذه الأنظمة الفاسدة والحكومات الظالمة بكل حزم وعزم، وقد كشف القرآن الكريم عن الأساس الذي يقوم عليه القبول بهذه المغالطات والشبهات، قول الله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[1].

أي: نجح فرعون في الاستخفاف بعقول قومه وأحلامهم واستفزهم فأطاعوه فيما حملهم عليه من الباطل والمغالطات؛ لأنهم في الحقيقة والواقع، متصفين بالسفه والرعونة، خارجين عن طور العبودية وربقة الإنسانية وعن العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم، وأنهم يجرون وراء أهوائهم الشيطانية الشريرة، ورغباتهم ونزواتهم الحيوانية المنحطة، ومصالحهم الدنيوية العامة الفانية التي لا يريدون أن يتنازلوا أو يتخلوا عنها طائعين، فليس لهم أساس متين يقفون عليه، ولا ركن شديد يأوون إليه.

---

١. الزخرف: ٥٤

أي: لأنهم فاسقون حمقى غير راشدين في تفكيرهم وتوجهاتهم في الحياة، فقد جاملوا فرعون وسايروه واستسلموا لطاعته وتابعوه في مثل هذه المغالطات الباطلة والخزعبلات السخيفة، وفيما ذهب إليه من الباطل وبدون حجة واضحة ولا برهان عقلي صحيح، وبدون أن يقيموا وزناً لإنسانيتهم وضمائرهم والحق والحقوق والقيم والمبادئ السامية والعقل والمنطق والوجدان، وغير مبالين بما يمكن أن يجري عليهم بعد الموت والرحيل من عالم الدنيا، فهم قد هيأوا بأيديهم أسباب ضلالهم، وليسوا معذورين أبداً فيما جرى وحصل لهم من التضليل والخداع.

وقيل: طلب منهم الخفة في مطاوعتهم له فيما دعاهم إليه، فاستجابوا له مسرعين غير مبالين ولا متريثين، كما هي العادة عند الأمم المتخلفة المنحطة فكرياً وروحياً وسلوكياً، حيث تطيع ملوكها وحكامها وأسيادها وتسايرهم على خلاف العقل والمنطق والحق والحقوق والقيم الإنسانية العالية والمبادئ السامية والفطرة والروح الإنسانية والطبع السليم والمصالح العامة الجوهرية ونحو ذلك.

وقيل: بسبب فسقهم قيض الله ﷻ لهم فرعون يزين لهم الشرك والفسوق والعصيان والأعمال السيئة والرذيلة، فهم فاسقون يتبعون قائداً فاسقاً مثلهم، ولو لم يكونوا فاسقين لما اتبعوا فرعون في مغالطاته ولما تمكن من إضلالهم وخداعهم.

وقد جرت العادة: أن الفراعنة والحكام المستبدين والقيادات العليا: المدنية والعسكرية، الذين أعمتهم السلطة والثروة والقوة عن رؤية

الحقيقة، فلا يخضعون لعقل أو منطق، ولا يسمعون موعظة أو نصيحة صادقة من أحد، ويصرون على قراراتهم الخاطئة، ولا يتراجعون عنها في غياب المراقبة والمحاسبة، حتى يجبروا على التراجع بسبب فداحة الخسائر ونحوها، مما يجعل الاستمرار فيها أمراً مستحيلاً قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[1] أي: أن الإنسان إذا ملك السلطة والثروة والقوة فإنه يطغى، ما لم يوجد من يراقبه ويحاسبه ويأخذ على يده ويمنعه.

وكلما كانت علاقة القائد كشخص بالقرار أوثق، وكلما بذل في تنفيذه من المال والجهد والوقت أكثر، كلما كان التصميم على الاستمرار فيه أكثر، والتراجع عنه أبطأ وأصعب، وينغلق الباب أمام المراجعة الموضوعية النزيهة، ويضعف الاستعداد للاعتراف بخطأ الخيار أو القرار، ويظهر الميل إلى تحميل أطراف أخرى أو عوامل خارجة عن الإرادة والسيطرة المسؤولية عن الفشل أو تأخير الإنجاز ونحو ذلك، وقد يضطر القائد المستبد في ظل غياب المراقبة والمحاسبة، إلى الاعتراف ببعض الأخطاء الجزئية، ويعتبر ذلك أمراً طبيعياً في كل عمل بشري غير معصوم من الخطأ، ولكنه لا يعترف بخطأ القرار أو الخيار في نفسه أو أصله.

وبعض الفراعنة والحكام المستبدين يدعون العصمة في جميع قراراتهم ولا يعترفون حتى بالأخطاء الجزئية، مما يعني: ضخ المزيد من ثروة الشعب ومن الجهد والوقت والأنفس، أي: المزيد من الخسائر المادية والبشرية

١. العلق: ٦-٧

والمعنوية المتلاحقة، وتستمر الحالة النازفة حتى يضطر القائد المستبد في الأنظمة الدكتاتورية حيث تغيب المراقبة والمحاسبة إلى التراجع عن القرار أو الخيار كارهاً، لاستحالة الاستمرار فيه، ويحمل غيره أو العوامل الخارجة عن الإرادة والسيطرة المسؤولية الكاملة عن الفشل، ويظهر نفسه بأنه القائد المتميز الحريص على مصالح شعبه ومقدراته وصانع نهضته.

وقد ثبت بالتجربة أن العقل يكون مستسلماً للخيارات السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها، إذا استرسل فيها الإنسان، ويختلق المعاذير والمبررات غير المنطقية وغير الواقعية لها، وأن الإنسان يكون أكثر ابتعاداً عن الدراسة والتقييم المنطقي الموضوعي، إذا كان راغباً في الشيء ومحباً له، فإنه يختاره، ثم يبحث له عن المبررات بحسب أهوائه.

أي: إن الخيار يكون ذاتياً بحسب ما ترغب النفس وتشتهي، وليس موضوعياً بحسب المنطق والمصلحة الموضوعية الفعلية، وقد يورط فيه آخرين أفراداً أو جماعات أو شعب أو أمة إذا كان قائداً في ظل نظام دكتاتوري تغيب فيه المراقبة والمحاسبة، ويكثر فيه التملق والمجاملة والمسايرة.

كما جرت العادة أيضاً: أن الموالين للفراعنة والحكام المستبدين، يطيعونهم في كل ما يأمرونهم به، مما هو مخالف للعقل والمنطق والفطرة والطبع السليم والكرامة الإنسانية والمصلحة العامة، بما في ذلك: محاربة الأولياء الصالحين والدعاة المصلحين والمطالبين بحقوق الإنسان وقتلهم بغير حق، وذلك: تحت تأثير التعصب والطمع في الفتات القليل

والخوف من التغيير ومن عقاب الفراعنة والحكام، متجاهلين عدالة الحقوق وقضايا المعارضة، وما يأتون به من حقائق ومنطق سليم وأدلة وبراهين عقلية وحوادث ووقائع تدل على عدالة قضيتهم وصحة مطالبهم وعقلانيتها وواقعيتها، ومتجاهلين العواقب الوخيمة السيئة التي تنتظر الظالمين وأعوانهم والراضين بالظلم في الدارين الدنيا والآخرة.

وهذا الموقف يدل على خفة العقل، والخروج عن الفطرة والضمير والمنطق، وعدم التقيد بمنطق العقل ومنهجه السليم في التحقيق والتمحيص والبحث عن الحقيقة والعمل بمقتضاها، ومتجاهلين القيم الإنسانية العالية والمبادئ السامية كما كان حال قوم فرعون.

ولأنهم كانوا كذلك، فقد كانت عاقبتهم بعد كل ذلك الوعظ والنصح والإرشاد وإتمام الحجة أن أغضبوا الله ﷻ عليهم، حتى استحكم عليهم غضبه، وحقت عليهم كلمة العذاب بسبب إفراطهم في العناد، وإصرارهم على الكفر وتكذيب الرسول الكريم موسى بن عمران الكليم عليه السلام وعلى الرذيلة والعصيان والظلم والطغيان والأعمال السيئة والجرائم والجنايات الشنيعة ونكث العهود والمواثيق المؤكدة، وعدم انتفاعهم بالمعجزات الإلهية النيرة الباهرة، والبينات الإلهية الواضحة، والأدلة والبراهين العقلية الساطعة القاطعة، والمواعظ المخلصة والنصائح الصادقة، مما أخرجهم عن رباط العبودية لله رب العالمين، وعن ربقة الإنسانية وروحها وطبعها السليم، وعن العقل والمنطق، وأصبحوا يشكلون خطراً جدياً على الإنسانية، ويعيقون نهضتها وسيرها نحو كمالها الحضاري ورشدها وتحقيق غاية وجودها.

فأهلكهم الله ﷻ أجمعين عن طريق الغرق في النيل العظيم، فأصبح نهر النيل الذي هو مصدر فخرهم وعظمتهم وثروتهم، وكان محل افتخار فرعون، بقوله: ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾[1] يعني: نهر النيل وتفرعاته، سبباً لهلاكهم واستئصال وجودهم وتطهير الأرض من رجسهم.

وقد اختار الله ﷻ لهم هذه العقوبة، ليكون لغيرهم من الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين وقوى الاستكبار العالمي عبرة، بأن يأتيهم الفناء والهلاك من حيث لا يحتسبون ومن حيث يظنون أنه مصدر حياتهم وقوتهم.

وبهذه العاقبة المأساوية التي لحقت بفرعون وقومه، أراح الله المؤمنين منهم وخلصهم من شرهم وأذاهم، وفتح الطريق أمام الإنسانية للهداية والنهوض و إقامة حضارة إنسانية سامية وشاملة ومتوازنة ومتطورة، تتجلى فيها إرادة الله ﷻ، وتتحقق فيها خلافة الإنسان لله ذي الجلال والإكرام في الأرض، وتتجسّد صفات الكمال الإلهي: صفات الجمال وصفات الجلال فيها، وتتحقق غاية وجود الإنسان، وهي: العبادة الكاملة عبادة الفرد الكامل، وعبادة المجتمع الكامل.

وجعل الله ﷻ فرعون وقومه بهذه العاقبة المأساوية المذمومة، السابقين أو المتقدمين على من يأتي بعدهم من أئمة الضلال والمقتدين بهم الذين يعملون مثل عملهم إلى نار البرزخ وعذابه المهين.

---

١. الزخرف: ٥١

وقيل: جعلهم الله ﷻ قدوة لكل من يأتي بعدهم من أئمة الضلال والمقتدين بهم في استحقاق مثل عقابهم المؤلم المهين، لإتيانهم مثل أعمالهم القبيحة وجرائمهم وجناياتهم الشنيعة، كما جعلهم الله ﷻ عبرة يعتبر بهم المعتبرون بعدهم، فلا يفعلون مثل فعلهم، لئلا يلاقوا مثل مصيرهم المشؤوم في الذل والهوان والهلاك واللعن المستمر من الناس طوال التاريخ ومن الملائكة في عالم الغيب ومن الله ﷻ، حتى يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، ثم يدخلهم الله ﷻ إلى نار جهنم خالدين فيها وبئس القرار في الآخرة.

وقيل: جعلهم الله ﷻ قصة أو حديثاً عجيب الشأن يجري مجرى الأمثال، حيث يشبه غيرهم بهم في السوء والعاقبة المذمومة في جميع الأجيال والأمم بعدهم، وفي هنا تحذير إلهي شديد اللهجة، إلى جميع المعاندين والمستكبرين والطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والمترفين المستغلين، يأمرهم بالنظر في أحوالهم، والحذر الشديد من أن تكون لهم نفس عاقبتهم في الدارين الدنيا والآخرة.

المحور الثامن

سورة الدخان (١٧ - ٣٣)

- الفصل الأول: الرسالة الإلهية إلى فرعون
- الفصل الثاني: دعاء موسى وهلاك فرعون
- الفصل الثالث: نجاة بني إسرائيل وتفضيلهم على العالمين

الفصل الأول: الرسالة الإلهية إلى فرعون

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾[1]

الأفكار الرئيسية والمضامين العامة

أقسم الله ﷻ الكريم بأنه قد ابتلى فرعون وقومه الأقباط وامتحنهم ليظهروا على حقيقتهم كما هم عليه في باطنهم وقرارة أنفسهم ولتكون لله سبحانه وتعالى الحجة البالغة التامة عليهم، بأن بعث فيهم وأرسل إليهم رسولاً كريماً، وهو موسى بن عمران الكليم عليه السلام كريم النسب والحسب؛ لأنه من سلالة الأنبياء الكرام المطهرين عليهم السلام، فهو من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام من أولاد يعقوب بن اسحاق «إسرائيل» عليه السلام، وهو كريم الطبع والصفات والخصال والسلوك، إذ يتحلى بالأخلاق الحسنة والخصال الحميدة ويعمل الخيرات والأعمال الصالحة التي ظهرت منه وثبتت له ولم يسبقه

١. الدخان: ١٧-٢١

فيها أحد غيره، وهو كريم في قومه لشرف نسبه وكريم خصاله، وكريم عند الله تبارك وتعالى، بأن استحق عليه أنواعاً كثيرة من الإكرام له، مثل: النبوة والرسالة والتكليم والنعم الجسمية، وذلك لحسن طبعه وسلامة منطقه وفكره وعقيدته وجميل أخلاقه وحسن صفاته وحميد خصاله وصالح أعماله ونفعه إلى العباد وهدايته إليهم وإرشادهم لما فيه كمالهم وخيرهم وصلاحهم ومصلحتهم وسعادتهم الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، ودفاعه عن المظلومين والمستضعفين ونحو ذلك، وبحسب المنطق ومقتضى الحكمة وبحسب التجربة، فإن الله ﷻ لم يبعث نبياً إلا أن يكون كريماً في نفسه، ويقع في الذروة من أشراف قومه وكرامتهم.

وامتحان فرعون وقومه بإرسال موسى الكليم ؑ إليهم، بأن يبين لهم الحق والعدل والخير والفضيلة والصلاح والأعمال الصالحة وما شرّعه الله تبارك وتعالى إليهم من العبادات والسنن والأحكام، ودعاهم ليؤمنوا بالتوحيد ويعملوا بمقتضاه وأن يطيعوا رسوله فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، ويبين لهم الباطل والظلم والشر والرذيلة والضلال والفساد والأعمال السيئة ونهاهم عن الكفر والضلال والمعصية لله سبحانه وتعالى ولرسوله الكريم ؑ ويقيم عليهم الحجة في جميع ذلك، قول الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1] وقول الله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2] وقد اختار فرعون وقومه الكفر على الإيمان والضلال

١. النساء: ١٦٥

٢. الأنفال: ٤٢

على الهدى بعد إقامة الحجة البالغة عليهم، وعصوا ربهم وعتوا عن أمره واستكبروا على الله سبحانه وتعالى وعلى الحق وأهله استكباراً فأغرقهم في البحر أجمعين.

وفي الآية الشريفة المباركة: تسلية للمؤمنين والمصلحين والمستضعفين وإنذار وتحذير لكافة المشركين والظالمين والمستكبرين والمعاندين في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا.

ويعتبر الابتلاء والامتحان سنة إلهية تعم الأفراد والمجتمعات البشرية في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، قول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1] أي: أحسب الناس أن يتركوا بمجرد قولهم آمنا ثم لا يفتنون ولا يمتحنون بما يظهر به حقيقة ما في أنفسهم من الصدق والإخلاص أو الكذب والنفاق، ويقسم رب العزة والجلال بأن الناس لن يتركوا الآن وفي المستقبل بغير امتحان، وأنه قد امتحن الناس جميعاً: الأفراد والجماعات والأمم فيما مضى، فالامتحان والابتلاء سنة إلهية ثابتة جارية في جميع الأفراد وفي جميع الأمم في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، ليعلمن الله ﷻ المخلصين الذين صدقوا في إيمانهم وثبتوا عليه رغم المكاره، وليعلمن المنافقين الكاذبين الذين يظهرون الإيمان وهم كاذبون فيما أظهروه، والضعفاء الذين إذا أوذوا في الله جعلوا فتنة الناس كعذاب، فيجرون وراء كل مطمع ويخافون ويهربون من

---

١. العنكبوت: ٢-٣

كل تهديد ووعيد، أي، امتحن الله الناس ليظهر علمه فيهم وما يعلمه من حقيقتهم الفعلية والأفعال التي يستحقون عليها الثواب والعقاب، لتكون له الحجة البالغة التامة عليهم.

وقيل: ابتلاهم بأن أمهلهم وأعطاهم الملك والسلطة والقوة والإمكانيات الضخمة والثروة العظيمة الواسعة والتمكن في الأرض ووسع عليهم في الرزق فغرّتهم، وكانت سبباً لطغيانهم وتمردهم على الحق وأهله واستكبارهم وجحودهم بالنعمة، فلم يؤدوا حقها ولم يشكروا المنعم بها عليهم واستخدموها في الإضلال والإفساد في الأرض، وتهافتوا على أنواع المعاصي والذنوب والآثام والظلم والجور والجرائم ونحو ذلك، فانتقم الله ﷻ منهم بأن سلبهم النعمة وأهلكهم بالغرق أجمعين ومحاهم من صفحة الوجود.

وكانت رسالة موسى الكليم عليه السلام إلى فرعون، تتضمن النقاط الرئيسية التالية:

١. ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾[1] أي: ارفعوا أيديكم عن عباد الله المؤمنين المستضعفين وهم بنو إسرائيل، بتحريرهم من العبودية والاسترقاق والاستضعاف والإذلال، ولا تعذبوهم بذبح الأولاد والذكور واستحياء الناس للخدمة والمتعة الجنسية، وباستخدامهم في الأعمال الشاقة والوضيعة، وامنحوهم حق السفر والهجرة من مصر إلى الأرض المقدسة أرض فلسطين، التي هي موطن جدهم إسرائيل «يعقوب» عليه السلام قبل هجرته منها إلى أرض مصر على عهد حكومة

١. الدخان: ١٨

ابنه يوسف الصديق عليه السلام العادلة في القرن الثالث عشر (١٣) قبل الميلاد، أي: قبل أكثر من أربعمائة سنة، حيث أمرهم الله سبحانه وتعالى بالعودة إليها معي واستيطانها من جديد، وهم عشيرتي وأنا زعيمهم وقائدهم والمقدم فيهم، وهم راغبون في الهجرة إليها معي.

ويعتمد هذا الطلب لموسى الكليم عليه السلام من فرعون الطاغية على الأسباب المنطقية والواقعية التالية:

أ. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[1] لأني رسول إليكم من رب العالمين، وهو الذي أمرني بذلك، وطاعته حق وواجب عليكم وعليهم.

ب. أني أمين من الله تبارك وتعالى على وحيه ورسالته، لا ألتمسكم منه شيئاً، ولا أزيد عليه ولا أنقص منه شيئاً، وأمين كذلك على مصلحتكم ومصلحتهم، غير مهتم في شيء من ذلك، ولا أخون في دعوى الرسالة ولا فيما عرضته عليكم من مطالب وقدمته إليكم من ضمانات. فلا أريد بتحرير بني إسرائيل الانقلاب عليكم والاستيلاء على السلطة والاستئثار بالسلطة والثروة والمقدرات وطرد الأقباط من أرضهم وديارهم ووطنهم والإضرار بمصالحكم، فإني أمين على مصالحكم ومصالح بني إسرائيل، على حد سواء، وقد أردت فقط العدالة وإعطاء كل ذي حقٍ حقه.

---

١. نفس المصدر

وهذا يدحض الاتهامات الباطلة التي ألصقها فرعون بولي الله الأعظم ورسوله الكريم، مثل: السحر والسعي إلى التفوق والاستيلاء على السلطة والثروة والمقدرات وغيرها، كما أن الرسالة من رب العالمين وما يتحلى به من الأمانة والصدق والوفاء وغير ذلك من الصفات الكريمة، توجب بحسب العقل والمنطق طاعته والانقياد له وتحقيق مطالبه الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية.

وبحسب العقل والمنطق والحقوق، فإن استضعاف عباد الله و إذلالهم وتعذيبهم، يعدُّ استكباراً على الله ﷻ، وظلماً للعباد، وليس لفرعون وقومه في ذلك أدنى حق، بل هو حرام ومرفوض بحكم العقل وفي جميع الأديان والشرائع الإلهية وعاقبته سيئة مذمومة في الدارين الدنيا والآخرة، فليس لفرعون ولا لغيره الحق في استعباد الناس وفرض الوصايا عليهم و إخضاعهم لإرادته وحكم الأمر الواقع بغير رضاهم وعلى خلاف إرادتهم ومصلحتهم.

والهجرة حق إنساني ثابت لبني إسرائيل وهي في مصلحتهم وهم راغبون فيها، فليس لفرعون الحق في منعهم منها و إجبارهم على البقاء في أرض مصر، خاضعين لإرادة فرعون وحكومته، ويستخدمهم في الأعمال الشاقة والوضيعة استهانة بهم وانتهاكاً لحقوقهم وللعدالة والمساواة ونحو

ذلك، وعليه: فإذا منعهم من الهجرة فواجبي الشرعي والقومي هو مناهضتك ومناصرة بني إسرائيل حتى يحصلوا على كافة حقوقهم، ومنها: حقهم في الهجرة، طوعاً منك أو كرهاً، وقد وعدني ربي الكريم بأن ذلك حادث لا محالة فلا تقدر على منعه بأي حال من الأحوال.

ووصف الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل بـ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾[1] فيه استرحام لهم، ودليل على أن استضعافهم وإذلالهم وتعذيبهم فيه استكبار على الله ﷻ، وليس فيه لفرعون أي حق.

وقيل: المراد من قوله: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾[2] نداء لهم، بمعنى: أدوا إليّ يا عباد الله ما هو واجب عليكم من الإيمان بي وقبول دعوتي وطاعتي واتباع سبيلي، أي: أطيعوني فيما آمركم به من الإيمان والطاعة لله سبحانه وتعالى وأداء ما فرضه عليكم من الصلاة والصيام والحج والزكاة والعمل بالسنن والأحكام، وفيما أنهاكم عنه من الكفر والضلال والفسوق والعصيان والطغيان والعدوان، لأنكم عباد الله ﷻ، وأنا أبلغكم عنه، وأمرني بتبليغ ما بلغته إليكم، وإقامة الحجة عليكم، فإن أطعتم كنتم من المهتدين الفائزين المصلحين السعداء، وإن عصيتم كنتم من الضالين

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

الخاسرين الأشقياء.

٢. ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾[١] أي: أدعوكم إلى الهدى والرشاد والإيمان بتوحيد الله سبحانه وتعالى وطاعته، وهو حق بيّن ثابت عليكم، يستند إلى الحجة والبرهان والدليل الصحيح، فلا تستعلوا وتتجبروا على الله سبحانه وتعالى بأي عمل لا ينسجم مع أصول العبودية المطلقة لله رب العالمين سبحانه وتعالى، والاستمرار في ادعاء الألوهية والربوبية وفي الشرك وعبادة غير الله سبحانه وتعالى، والعلو على العباد بفرض الإرادة الإستكبارية عليهم و إخضاعهم لحكم الأمر الواقع بالقوة والعنف والإرهاب والتضليل ونحو ذلك، بغير رضاهم وعلى خلاف إرادتهم ومصلحتهم، وبتكذيب رسالته ورسوله إليكم، والاستهانة بي والإعراض عما آمركم به من الإيمان والطاعة، والإصرار على ما أنتم عليه من العناد والمكابرة والكفر والضلال والفسوق والعصيان والطغيان والعدوان والظلم والجور والاستضعاف لعباد الله و إذلالهم وتعذيبهم، فإن في تكذيب الرسول في رسالته، استعلاء وتجبر على من أرسله.

وقد جئتكم ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[٢] أي: بآيات كريمات، ومعجزات باهرات قاهرات، وفي مقدمتها: العصا التي تتحول إلى ثعبان حقيقي ضخم، واليد السمراء التي تتحول إلى بيضاء في غاية

---

١. الدخان: ١٩

٢. نفس المصدر

الحسن والجمال، وتشع نوراً بهياً أبهى من نور الشمس الطالعة يملأ المكان، وسائر الآيات التسع، وحجج ظاهرات بارزات، وبينات واضحات فاصلات، وأدلة وبراهين نيرة ساطعة قاطعة، يعترف بصحتها كل عاقل منصف صاحب منطق سليم، ولا سبيل إلى إنكارها، تثبت صدق نبوتي ورسالتي إليكم من رب العالمين، وعدالة قضيتي، وصحة دعوتي إليكم إلى التوحيد، وشرعية المطالب الإصلاحية، الدينية والسياسية والحقوقية التي تقدمت بها إليكم، وفي مقدمتها: تحرير بني إسرائيل ورفع اليد عنهم، والسماح لهم بالهجرة بحسب رغبتهم إلى أرض فلسطين، ولكنهم بدل الإيمان والتصديق به، كذبوه وهموا بقتله.

٣. ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾[١] لقد هدد فرعونُ المتغطرسُ الطاغيةُ موسى الكليم عليه السلام وتوعده بالسجن والقتل بأشر القتلات وهو الرجم بالحجارة وتشويه السمعة في الرأي العام، كما هو دأب الفراعنة دائماً مع المعارضين لهم، فرد عليه موسى الكليم عليه السلام بكل ثقة وثبات: إني قد التجأت واستجرت واحتميت بالله عز وجل رب العالمين، الذي هو ربي وربكم على حد سواء وإني متكل عليه، وهو يعيذني ويعصمني منكم، وهو حارسي وحافظي من أن تقتلوني أو أن تنالوني بأذى مادي أو معنوي، ولأن الله عز وجل هو المدبر الوحيد للعالم ولأمري ولأمركم وهو المالك لأنفسنا وصفاتنا وأفعالنا، فلا نقدر على فعل شيء إلا بإذنه.

---

١. الدخان: ٢٠

أي: لا تقدرون على قتلي و إلحاق الأذى والضرر بي إلا بإذنه، وقد وعدني بالسلامة منكم، فلن تقدروا على قتلي أو إلحاق الضرر والأذى بي مطلقاً.

وعليه: فهو لم يكن مبال بهم وبكيدهم وغير خائف بما كانوا يتوعدون به من القتل والأذى، وأنه يملك إرادة الثبات والصمود في وجههم حتى النفس الأخير، وهذا هو حال المؤمنين المجاهدين الصادقين في إيمانهم وجهادهم، ويعتبر هذا الحزم والعزم والثبات والروح الإيمانية القتالية، من أهم الأسباب الرئيسية التي تلهم المحبين والأتباع الثبات والاستقامة والاستعداد التام للبذل والتضحية والفداء؛ لأنهم يعلمون أن إمامهم وقائدهم يقاوم ويضحي حتى النفس الأخير فيقتدون به ويتحلون بأخلاقه وصفاته، كما يعجّل بانهيار الأعداء وتراجعهم، وهذا يدل على ضرورة تحلي القيادات بهذه الصفات من أجل النجاح والانتصار وتحقيق الأهداف.

٤. ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾[١] أي: لقد بينت لكم الحق ودعوتكم إليه، وبينت لكم الباطل ونهيتكم عنه، وأتممت عليكم الحجة التامة البالغة، فلا عذر لكم في المخالفة، ومقتضى العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم، ومن أجل مصلحتكم في دورة الحياة الكاملة وسعادتكم في الدارين الدنيا والآخرة، أن تؤمنوا بالتوحيد

---

١. الدخان: ٢١

والنبوة والمعاد، وتطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه، وتتبعوا سبيلي وتقتدوا بي مطلقاً، فإن فعلتم فهو مرادي منكم ومقصودي وما أطمع فيه معكم، وإن لم تصدقوني ولم تقروا بنبوتي ورسالتي إليكم، وأبيتم إلا تكذيبي ومخالفتي والإصرار على العناد والمكابرة وعلى ما كنتم عليه من الكفر والضلال، فإني أطلب منكم الحد الأدنى بحسب العقل والمنطق والحقوق الطبيعية للإنسان، وهو أن تتركوني ومن آمن بي وشأننا، فلا تكونوا لنا ولا علينا، ولا تتعرضوا لنا بشركم وأذاكم، حتى يحكم الله سبحانه وتعالى بيننا وبينكم بالحق وهو أحكم الحاكمين، فقد دعوتكم إلى الخير والصلاح والفلاح، وأتممت عليكم الحجة في ذلك، وجادلتكم بالتي هي أحسن، فليس من المنطق والعدل أن يكون جزائي منكم أن تقابلوا ذلك بالشر والأذى، وهذا الخطاب المتوازن الحكيم، ينضح بالأدب الرفيع والعدل والإنصاف والحكمة والمحبة وإرادة الخير والإخلاص والوفاء والحرص التام على مصلحة المخاطب وسعادته في الدارين الدنيا والآخرة، وهذا هو مسلك المؤمنين المجاهدين والمصلحين الصادقين الشرفاء، والواثقين بعدالة قضيتهم، وشرعية مطالبهم، وقوة منطقهم وحجتهم، ولكن الفراعنة والمستكبرين والحكام المستبدين يقابلونهم بالتهديد والوعيد والقتل والسجن والتعذيب والتضييق والتشريد ونحو ذلك من الإنتهاكات والمظالم.

وقيل: كان موسى الكليم عليه السلام واثقاً من قدرته على التأثير في الناس، وجلبهم إلى ساحة الإيمان والطاعة، لو ترك وشأنه، وذلك

بالنظر إلى ما في يديه من الآيات والمعجزات، وما يملكه من قوة المنطق والبيان، ولهذا رضى بأن يترك وشأنه، ولا يكوِّن فرعون الطاغية وحزبه المجرمون حاجزاً بينه وبين الناس، فلم يقبلوا منه وأصروا على قتله و إلحاق الأذى به وبالمؤمنين، فأخذهم الله ﷻ أخذ عزيز ومقتدر فأهلكهم جميعاً بإغراقهم في البحر ومحوهم من صفحة الوجود، عقاباً لهم بسبب جرائمهم ورحمة بالمؤمنين المستضعفين.

وما سبق يدل على أمور عديدة في غاية الأهمية، منها:

أ. اتباع موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل للمنهج السلمي الحضاري الذي يقوم على المنطق وصيانة الحقوق لجميع الأطراف، وهو منهج لازم لا يجوز عقلاً وشرعاً تخطيه واللجوء إلى القوة ما دام إليه سبيلاً.

ب. كذب النظام الفرعوني فيما ادعاه من أن هدف موسى الكليم وهارون عليهما السلام ومعهما بني إسرائيل إسقاط النظام الفرعوني والاستيلاء على السلطة و إقصاء أنصار فرعون والموالين له عن المناصب الرئيسية والوظائف العامة العليا، وطرد المواطنين الأصليين وهم الأقباط من أرضهم وديارهم ووطنهم بغية الاستئثار دونهم بالسلطة والثروة والمقدرات، كما أن المطالبة بحق الهجرة والشروع فيها يدل على نفس الأمر.

ج. لا يجوز الرضوخ لإرادة الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين والمستكبرين، والقبول بالذل والهوان وفرض حكم الأمر الواقع، فيجب بحكم العقل والشرع الرفض لذلك ومقاومته والسعي لتحصيل الحرية والاستقلال وحق تقرير المصير والحياة الكريمة واختيار نظام الحكم والحكومة وصيانة الحقوق الطبيعية والمكتسبة كافة، والتضحية في سبيل ذلك كله.

ولأن الطغاة في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا يخشون من بقاء الحق طليقاً، ويعيشون الخوف والعقد النفسية والهوس الأمني منه، لما يعرفونه عن أنفسهم من القيام على الباطل والظلم والبغي والعدوان والطغيان، فلم يترك فرعون الطاغية موسى الكليم عليه السلام والمؤمنين لحال سبيلهم، كما هو دأب الفراعنة والحكام المستبدين الظلمة والمستكبرين في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا مع المعارضين لهم، فهم يأخذونهم بالتهمة والظنة، ويضيقون عليهم بكل وسيلة وتحت كل عنوان مضلل، وباسم القانون والعدالة، ومن أجل المحافظة على الأمن والاستقرار وهيبة الدولة والمصالح الشعبية والمكاسب الوطنية ونحو ذلك من الأباطيل والتضليلات والمغالطات التي يريدون من وراءها تصفية الخصوم، والاستمرار في السلطة والإبقاء على الصلاحيات الواسعة والامتيازات الفخمة والمصالح الخاصة لأنفسهم، ونحو ذلك.

الفصل الثاني: دعاء موسى وهلاك فرعون

قول الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[1].

الأفكار الرئيسية والمضامين العامة

لقد لجأ موسى الكليم عليه السلام إلى كل وسيلة متاحة له من أجل النفوذ إلى قلوب أولئك الظالمين: فرعون وحزبه لتنويرها بالإيمان والعلم والهداية الربانية إلى ما فيه كمالهم وخيرهم وصلاحهم ومصلحتهم وسعادتهم الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، إلا أنه لم يؤثر فيهم أدنى تأثير، فكذبوه ولم يستجيبوا لما دعاهم إليه من الإيمان والطاعة والأعمال الصالحة وأقام عليهم الحجة فيه، بل اتهموه بالسحر والجنون والسعي للتفوق والاستعلاء عليهم والاستيلاء على السلطة والثروة والمقدرات

---

١. الدخان: ٢٢-٢٩

والاستئثار بها دونهم، وأرادوا قتله وسعوا في إيذاء بني إسرائيل والمؤمنين به بكل طريقة ووسيلة: مادياً ومعنوياً، بهدف تقليل عددهم ومنعهم من التكاثر والازدياد وبناء قوتهم وتهديد النظام ومصالح القائمين عليه والموالين له، وسلب السلطة منهم والتقليل من صلاحياتهم الواسعة وامتيازاتهم الضخمة.

فما كان من موسى الكليم عليه السلام بعد أن يأس من إيمانهم وتحييدهم، إلا أن لعنهم ودعا عليهم، قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[١].

وقيل: كان دعاؤه عليهم: اللهم عجّل لهم ما يستحقونه من العذاب والهلاك في الحياة الدنيا قبل الآخرة، بسبب كفرهم وإجرامهم. فعلّة دعائه عليهم وهلاكهم هي كونهم مجرمين وقد أجرموا جرائم شنيعة توجب تعجيل العقوبة عليهم، مثل: العناد والفسوق والعصيان والطغيان والعدوان والبغي والظلم والجور على العباد، وعدم استفادتهم من الآيات والبينات والمعجزات والحجج والمواعظ المؤثرة والنصائح البليغة الصادقة ونحو ذلك. فلا أمل أبداً في هدايتهم وصلاحهم.

وقد استجاب الله جل جلاله لدعاء وليه الناصح الأمين وعبده ورسوله الكريم موسى بن عمران الكليم عليه السلام فأمره بالخروج مع بني إسرائيل والذين آمنوا من أرض مصر، وأن يتوجه بهم نحو أرض الميعاد، وهي الأرض المقدسة

١. يونس: ٨٨

فلسطين، وأوصاه بأن يكون خروجهم سراً وأثناء الليل، لتتاح لهم الفرصة للابتعاد قبل أن يصل خبر خروجهم إلى فرعون الطاغية وحزبه المجرمين، فيمنعوهم من الخروج.

وأخبره بأن فرعون الطاغية سيعلم عن طريق جواسيسه بخبر خروجكم سريعاً وبعد ساعات قليلة فقط، فليس من الممكن عادة أن تبقى حركة جماعية بضخامة حركتكم خافية عن أنظار حزب فرعون وجواسيسه لمدة طويلة، ولكن الساعات القليلة السابقة لعلمه بخبر خروجكم كافية لابتعادكم بما يكفي لعدم إدراكه إياكم، وهي المقدار المطلوب للحوقه بكم من أجل إهلاكه والخلاص منه.

وأنه سيتبعكم بجيش جرار ضخم، بهدف إدراككم وردكم إلى أرض مصر لإبقاء بني إسرائيل تحت حكمه وسلطته وخاضعين لإرادته المطلقة، ولإبقائهم قائمين في خدمته وخدمة قومه الأقباط في الأعمال الشاقة والوضيعة التي يستنكف الأقباط ويمتنعون عن العمل فيها استعلاءً لوضاعتها بحسب تقييمهم، ولما فيها من المشقة البالغة عليهم، فلا يصلح إلا العبيد والذين هم في الطبقة الدنيا للعمل فيها.

وأوصاه بأن يكون مطمئناً ولا يقلق، ووعده بنجاة بني إسرائيل والذين آمنوا معه جميعاً وهلاك فرعون وحزبه المجرمين أجمعين.

وأخبره بأن البحر الأحمر «بحر سوف» أو نهر النيل العظيم سوف يعترض طريقهم، وأن فرعون وحزبه المجرمين وجنوده سيكونون قريبين

جداً منهم، حتى يتيقن بنو إسرائيل من إدراك فرعون وجنوده لهم و إبادتهم والقضاء عليهم عن آخرهم، فهم بين كماشتين: البحر من أمامهم يهددهم بالغرق، والجيش الفرعوني الجرار من خلفهم يهددهم بالإبادة، ولكن كن مطمئناً ولا تخف وكن واثقاً من قدرتي وبوعدي وتأييدي ونصري لكم، وطمئن بني إسرائيل وأخبرهم بنجاتهم وهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض بدلاً عنهم.

فإذا بلغتم البحر فاضربه بعصاك المباركة الميمونة التي تتجلى فيها آيات الرحمة الإلهية بالمؤمنين، وآيات العذاب والنقمة بالكافرين المكذبين، فإذا فعلت ذلك فإن البحر سينفتح لكم باثني عشر طريقاً يابساً مهيئاً تماماً لعبوركم، ويصبح الماء عن جانبي الطريق كالجبل العظيم، فاعبر أنت والذين معك من بني إسرائيل والمؤمنين من الطرق الاثني عشر إلى الضفة الأخرى من البحر، وأترك البحر مفتوحاً على حاله، أو اتركه ساكناً لا يتحرك.

وقيل: أن موسى الكليم عليه السلام أراد أن يضرب البحر بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق، ليحول بين فرعون وبين العبور فأمره الله عز وجل بأن بترك البحر على حاله وهيئته: مفتوحاً أو ساكناً لا يتحرك، لا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئاً ليدخله فرعون وجنوده، رغم أن فرعون وجنوده لن يتعظوا بما يروا من الآيات النيرات والمعجزات الباهرات القاهرات للعقول النيرة، وسوف يأخذهم الحمق والغرور بالسلطة والقوة والثروة والمكابرة لتجاوز هذه الحقيقة الواضحة العظيمة، ويدخلوا في الطرق المفتوحة اليابسة

في البحر، بغية أن يدركوكم للقضاء عليكم وإبادتكم قبل أن تخرجوا من الحدود المصرية، بدلاً من الاتعاظ والاعتبار والوقوف على اشتباهاتهم وأخطائهم ويقومون بالمراجعة والتصحيح لمعتقداتهم الباطلة وأخلاقهم القبيحة وأعمالهم السيئة المذمومة والكف عن جرائمهم بحق الإنسانية والمستضعفين من بني إسرائيل وغيرهم والعودة إلى الله سبحانه وتعالى.

فإذا دخلوا في البحر جميعاً، وخرجتم أنتم منه جميعاً، أطبقه الله ﷻ عليهم، فيغرقهم عن آخرهم فيكون ذلك سبباً لهلاكهم المحتوم ومحوهم من صفحة الوجود وإزاحتهم عن طريق المؤمنين وإراحة المؤمنين من أذاهم وشرهم واستخلاف بني إسرائيل المستضعفين بدلاً عنهم.

أي: أن الحال في التدبير الإلهي المحكم، أن تتقدموا عليهم ويتبعوكم بهدف القضاء عليكم وإبادتكم، فينجيكم الله العزيز الحكيم، ويلاقي فرعون وجنوده المجرمين المصير الذي ينتظرهم وهو الغرق في البحر، يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**هذا هو أمر الله ﷻ الحتمي الصادر بحق هؤلاء القوم، بأنهم يجب أن يغرقوا جميعاً في نهر النيل العظيم، الذي كان أساس ثروتهم وقوتهم!! وبأمر إلهي واحد تحول هذا النهر الذي كان عصب حياتهم إلى أداة فنائهم وموتهم**»[1] فهل يتعظ الظالمون والمستكبرون والمفسدون في الأرض من الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظالمين المترفين المستغلين والانتهازيين الأنانيين والنفعيين المتسلقين ونحوهم، ويتراجعوا عن غيهم

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ١٦، صفحة ٨٩

وبغيهم وظلمهم وفسادهم في الأرض بغير الحق؟! ليتهم يفعلون ولكنهم لن يفعلوا!!

وقيل: إن التعبير بـ﴿مُغْرَقُونَ﴾[١] في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾[٢] مع أنهم لم يكونوا قد غرقوا بعد، إشارة إلى أن هذا الأمر الإلهي وهو إغراقهم، أمر حتمي الوقوع وقطعي لا تبديل له ولا تغيير فيه، وهذا ما حدث بالفعل كما وعد الله ﷻ وأخبر به، فنجا موسى الكليم عليه السلام وبنو إسرائيل والذين آمنوا معه أجمعين، وهلك فرعون الطاغية المتجبر وجنوده وحزبه المجرمون بالغرق أجمعين، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم وهم يغرقون ويهلكون عن آخرهم، ويتحقق وعد الله الصادق لبني إسرائيل بنجاتهم وخلاصهم من أذى فرعون وقومه وشرهم، واستخلافهم في الأرض بدلاً عنهم.

ولقد كان استكبار فرعون وقومه على الحق وأهله، وإصرارهم على الكفر والضلال والفسوق والعصيان والبغي والطغيان والعدوان والظلم والجور، سبباً لهلاكهم أجمعين وسلب النعمة منهم، نعمة الملك والسلطة والتمكين في الأرض والقوة والإمكانيات الضخمة: المادية والبشرية والعلمية والثروات الطائلة ونحو ذلك.

فقد تركوا وراءهم بعد هلاكهم الملك والسلطة والثروات الهائلة من الأموال والمعادن الثمينة والأحجار الكريمة، مثل: الذهب والفضة والماس والعاج والياقوت وغيرها، وتركوا الحدائق الغناء والزرع والبساتين الخضراء،

---

١. الدخان: ٢٤

٢. نفس المصدر

والعيون والأنهار الجارية في مزارعهم وقصورهم، والقصور الفخمة والبنايات الشاهقة المزخرفة والمزينة بأنواع النقوش والفنون الجميلة، والأثاث الزاهي، والمراكب البهية الفاخرة، والمحافل والمنابر ومجالس الأنس والطرب، وغير ذلك من مظاهر الفرح والترف ووسائل الترفيه والازدهار والرخاء والنعم العظيمة التي كانوا يتمتعون بها ويتلذذون.

ولكنهم جحدوا النعمة ولم يشكروا المنعم بها عليهم، واستخدموها في المعصية وفيما يغضب الله ﷻ، وتهالكوا على المعاصي والذنوب والآثام والجرائم والأعمال القبيحة بغير حياء ولا رادع من عقل أو دين أو ضمير أو رقيب خارجي، فكانت النتيجة أن سلبهم الله ﷷ النعمة عقاباً لهم على عنادهم واستكبارهم وكفرهم ومعاصيهم وجرائمهم الشنيعة، وأورثها قوماً آخرين غيرهم، ليسوا منهم في دين أو قرابة أو ولاء، وهم بنو إسرائيل الذين كانوا قبل ذلك مستعبدين عندهم مسخرين لخدمتهم، فأهلكهم الله ﷷ بظلمهم على أيديهم، واستخلفهم في الأرض مكانهم، وأورثهم ملكهم وديارهم وأملاكهم وثرواتهم الطائلة، بدون تعب ومشقة، كما يحصل الإنسان على الإرث بدون أن يشقى أو يبذل جهداً في تحصيله.

وهذا التعبير يقتضي أن يكون بنو إسرائيل قد عادوا إلى مصر بعد غرق فرعون وجنوده وهلاكهم أجمعين وحكموها.

وقيل: إن بعضهم عاد إلى الأرض المقدسة فلسطين، إلا أنهم لم يدخلوها وتاهوا في الصحراء لمدة أربعين سنة، توفى خلالها هارون وموسى الكليم عليهما السلام ثم دخلوها بجيل جديد مع وصي موسى يوشع بن نون عليه السلام.

فماذا حدث لهلاكهم أجمعين؟ لاشيء!! فلم يجدوا ناصراً ينصرهم وينجيهم من أمر الله العزيز الحكيم، ولم يجدوا أحداً يحزن عليهم أو يتألم أو يأسف لهلاكهم، فلم يبكِ عليهم أهل السماء وأهل الأرض وما فيهما من الموجودات والكائنات، ولم يكترثوا لهلاكهم؛ لأنهم لم يكونوا يعملون عملاً صالحاً أو خيراً ينفع أهل الأرض، ولم يصعد لهم قول طيب ولا عمل صالح إلى السماء، ليبكي عليهم أحد من أهل السماء وأهل الأرض، بل كانوا مسرورين ومستبشرين لهلاكهم بسبب جرائمهم، ولأنهم لم يخلفوا إلا ما يسود وجوههم ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين إلى يوم الدين.

ولم تتأثر لهم الموجودات والكائنات السماوية والأرضية، وفي ذلك دليل على أن الموجودات والكائنات السماوية والأرضية وأهل السماء وأهل الأرض يتأثرون وجودياً وطبيعياً لفقد الأنبياء الكرام والأوصياء المطهرين والأولياء الصالحين عليهم السلام أو إذا أصيبوا بأذى، وفي الحديث النبوي الشريف: **«ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه، إلا بكت عليه السماء والأرض»**[1] فالسماء والأرض تبكيان على الصالحين وليس على البغاة والطغاة والظالمين والمفسدين في الأرض.

فقد أخذهم الله عز وجل أخذ عزيز مقتدر في الوقت الذي قدره لهلاكهم بعد أن أقام الحجة البالغة التامة عليهم، ولم يمهلوا أو يتأخروا ساعة أو يتقدموا عن الموعد المقدر لهلاكهم في علم الله عز وجل وكتابه.

---

١. الكشاف للزمخشري، جزء ٤، صفحة ٢٧٦

وقيل: لم يمهلوا العذاب الآخرة، بل حلّ بهم العذاب الأليم وأهلكوا في عالم الدنيا بسبب كفرهم وجرائمهم الشنيعة وأعمالهم السيئة المذمومة.

وقيل: عبارة ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[١] كناية عن سرعة جريان القضاء الإلهي والقهر الربوبي في حقهم، وعدم مصادفته لمانع يمنعه ولا يحتاج إلى علاج في رفعه حتى يتأخر به، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[٢].

وقيل: إذا مات إنسان عظيم، قالت العرب: بكت عليه السماء والأرض، وأظلمت له الشمس والقمر، ونحو ذلك، تعظيماً لشأنه وعلو مكانه وتضخيماً للمصاب به ومبالغة في وجوب الحزن والجزع والبكاء عليه، وقوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾[٣] فيه تهكم بهم وتحقير لشأنهم وعدم الاكتراث بوجودهم وهلاكهم، فهم ليسوا من الذين يعظم فقدهم ويجل رزؤهم.

وقيل: إن الكافرين بحسب نظرتهم المادية للكون والإنسان والحياة، واستغراقهم في عالم الدنيا والمصالح الدنيوية، ولا يرون إلا أنفسهم، ولا يرون في أعينهم شيئاً أعظم من الدنيا وأولى من لذاتها وحسناتها المادية، فأخبرهم الله ﷻ بأنه أهلكهم أجمعين وأفناهم عن آخرهم، وخسروا الدنيا وما كانوا يجمعون فيها وارتكبوا الجرائم من أجلها، وبقيت الدنيا

١. الدخان: ٢٩

٢. القمر: ٥٠

٣. الدخان: ٢٩

على حالها لم تتغير لهلاكهم، وورثها قوم آخرون غيرهم بدلاً منهم، وأنه سيعذبهم بعد هلاكهم عذاباً شديداً في الآخرة، بسبب كفرهم وجرائمهم وأعمالهم السيئة المذمومة.

وعلى كل حال: فإن في هلاكهم بشرى سارة للمؤمنين والمصلحين والمستضعفين وتحذير شديد للمعاندين المكذبين الضالين والظالمين والمفسدين في الأرض، ودليل على ضعفهم وعجزهم وحقارتهم وهوانهم على الله ﷻ، وأنهم غرباء على نظام الوجود، وأنهم كائنات شريرة تحمل أرواحاً خبيثة، ويشكلون خطراً شديداً على الإنسانية والمسيرة التاريخية التكاملية للإنسان، وأن الله سبحانه وتعالى يمقتهم بسبب كفرهم وأخلاقهم القبيحة وخصالهم المذمومة وأعمالهم السيئة وجرائمهم الشنيعة بحق الإنسانية والأبرياء والصالحين، وأن هلاكهم واستئصالهم ضرورة بمقتضى الحكمة الإلهية البالغة والرحمة الواسعة بالمؤمنين، ولإبقاء الطريق مفتوحاً لكل من يطلب الحق ويبحث عنه ويسير نحو الهداية والرشاد ويسعى من أجل كماله وخيره وصلاحه ومصلحته وسعادته الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة.

الفصل الثالث: نجاة بني إسرائيل وتفضيلهم على العالمين

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾[1].

الأفكار الرئيسية والمضامين العامة

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى كيفية إهلاك فرعون الطاغية وحزبه المجرمين وانكسار شوكتهم وانتهاء سلطتهم وحكومتهم، بيّن كيفية إحسانه لعباده المؤمنين الصالحين المجاهدين: موسى الكليم عليه السلام وقومه الإسرائيليين، إذ نجاهم الله عز وجل بقيادة وليه الأعظم موسى بن عمران الكليم عليه السلام من العذاب المهين: الجسمي والمعنوي الذي كان يذيقهم إياه فرعون الطاغية المستبد وحزبه المجرمون وقومه الفاسقون، حيث كانوا يستعبدونهم ويذبحون أبناءهم الذكور الذي يمثلون القوة الضاربة فيهم؛ ليبقوهم ضعفاء خاضعين لإرادتهم وسلطتهم، ويستحيون نساءهم

---

١. الدخان: ٣٠-٣٣

للخدمة في منازلهم وللمتعة الجنسية إذلالاً لهم، واستخدام رجالهم في الأعمال الشاقة الوضيعة، والتمييز ضدهم مع الأقباط في المعاملة وأمام القانون والقضاء، وغير ذلك من التعذيب والانتهاكات لحقوقهم.

ولا شك فإن وقوع أمة أو شعب تحت سلطة غاشمة وحاكم دموي مستبد لا يعرف الرحمة والشفقة مثل فرعون، لهو أمر مؤلم حقاً وابتلاء عظيم، وقد ابتليت به الكثير من الشعوب المستضعفة ونكبت به في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا.

وقيل: المراد بالعذاب المهين هو فرعون نفسه للمبالغة، كأنه في نفسه عذاب مهين لإفراطه في استضعاف بني إسرائيل و إذلالهم وتعذيبهم، ولأنه كان عظيم السعي في إهانة المحقين والصالحين والمصلحين المعارضين لحكمه ونظامه، وهذا ينطبق على جميع الطواغيت والمستكبرين والفراعنة والحكام المستبدين الظلمة والمترفين الذين يفعلون مثل فعله في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا.

ويعتبر فرعون موسى من أكثر الفراعنة تجبراً، وكان متكبراً ومتغطرساً ومعتداً كثيراً بنفسه وعالي الدرجة في طبقة المسرفين، ومتجاوزاً لكل الحدود التي يرسمها العقل والدين الحنيف في الكفر والضلال والفسوق والعصيان والعتو والتعالي والتعاظم والشيطنة والبطش والقسوة والبغي والظلم والطغيان والعدوان والجور والجرأة على محارم الله ﷻ وحدوده ومقدساته، وقد أهلكه الله ﷻ بسبب كفره وضلاله وخصاله المذمومة وأعماله السيئة وجرائمه الشنيعة، وخلص بني إسرائيل المستضعفين من

شره وأذاه وطغيانه، واستخلفهم بعده في الأرض بدلاً عنه وعن قومه.

وقيل: في الآيات الشريفة المباركة تطييب لنفس الرسول الأعظم الأكرم ﷺ والمؤمنين الذين معه، وفيها إيماء إلى أن الله ﷻ سينجيهم من فراعنة مكة ويختارهم ويمكنهم في الأرض فينظر كيف يعملون بعد الانتصار والتمكين، على قاعدة: التبشير للمؤمنين المطيعين، والتحذير للكافرين والمنافقين والعاصين، فعليهم ألا يخافوا من كثرة الأعداء وتعاظم قوتهم، ولا يحزنوا على شيء فاتهم من الدنيا، وليطمئنوا بأن الله ﷻ سيمنّ عليهم بالنصر كما منّ على بني إسرائيل.

وهذا التطمين والتطييب في الحقيقة يعم كل المؤمنين المجاهدين المخلصين الملتزمين بالصراط المستقيم والنهج القويم والطريقة الوسطى في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، وفيه تحذير ظاهر من الانحراف بعد الانتصار والتمكين بالانصراف إلى البغي والطغيان والعدوان والاستئثار والإقصاء لغيرهم كالذين سبقوهم وكما حدث من بني إسرائيل وغيرهم الكثير في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، فإن الحساب سيكون عليهم عسيراً جداً والعذاب عظيم ومؤلم جداً.

وقد فضل الله تبارك وتعالى بني إسرائيل على العالمين في عصرهم وما قبله وما بعده، حتى بعث الله تبارك وتعالى الرسول الأعظم الأكرم نبينا محمد بن عبدالله ﷺ ففضلت أمته المسلمة على العالمين أجمعين، وامتن الله تبارك وتعالى عليهم بما لم يمتن بمثله على غيرهم من الأمم، مثل: القرآن الكريم والعترة الطاهرة، قول الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1] وتدل الآية الشريفة على ميزتين سوف تبقيان ملازمتين لأمة محمد ﷺ إلى آخر الدهر، وهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاستقامة على الدين الحق والصراط المستقيم والطريقة الوسطى.

ومن تفضيل الله تبارك وتعالى لبني إسرائيل على العالمين: أنه اصطفى منهم أنبياءً على علم منه بمكان الخيرة وباستحقاقهم لفضيلة حمل مسؤولية الرسالة الإلهية وترجيحهم على غيرهم.

وقيل: اختيار بني إسرائيل كقوم وكأمة على علم منه باستحقاقهم لذلك التفضيل على العالمين في عصرهم وما قبله وما بعده حتى بعث الرسول الأعظم الأكرم ﷺ فكانت أمته خير الأمم قاطبة، حيث امتاز بنو إسرائيل على سائر الأقوام والأمم بكثرة الأنبياء الكرام المبعوثين منهم، إذ لم يظهر في أي قوم أو أمة مثل ما ظهر فيهم من عدد الأنبياء الكرام عليهم السلام ولصبرهم مع موسى الكليم عليه السلام ولجهادهم في سبيل الله عز وجل، وجعل فيهم ملوكاً عظاماً مثل سليمان وداوود ويوسف الصديق عليهم السلام وخصهم بكثير من النعم العظيمة دون غيرهم من الأمم والأقوام، مثل: إنزال الكتب السماوية المقدسة عليهم، مثل: التوراة والإنجيل والزبور، وتضليل الغمام عليهم في صحراء سيناء، و إنزال المن والسلوى طعاماً لهم أثناء فترة التيه في صحراء سيناء لمدة أربعين سنة، وتفجير العيون لهم من الصخور الصماء ونحو ذلك، قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

١. آل عمران: ١١٠

جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وقال الشيخ محمد جواد مغنية: «**والآن استوحينا من الآية التي نحن بصددها أن المراد بالعالمين فيها فرعون ومن أقر له بالربوبية فقط، وليس كل أهل ذلك الزمان، أما السر في تفضيل بني إسرائيل على فرعون ومن استجاب له فواضح، وهو أن الإسرائيليين لم يعبدوا فرعون كقدماء المصريين**»[2].

وقيل: على علم منا بأنهم سيزيغون ويسيئون استغلال النعم الإلهية، ويصدر عنهم الفرطات في بعض الأحوال، ومع ذلك فقد أنعمنا عليهم ومنحناهم التفوق والتفضيل لنختبرهم؛ لأن الاختبار الإلهي كما يكون بالمصيبة، يكون بالنعمة، قول الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3].

وقيل: ربما كانت كثرة الأنبياء فيهم دليلاً على غاية تمردهم وقمة عصيانهم.

وقيل: إن ترتيب الآيات موضوع البحث يدل على صحة القاعدة العقلية، وهي: «أن دفع الضرر مقدم على إيصال النفع» فقد بدأ الله تبارك وتعالى في بيان كيفية دفع الضرر عن بني إسرائيل، قول الله تعالى:

---

١. المائدة: ٢٠

٢. الكاشف، محمد جواد مغنية، جزء ٧، صفحة ١٢

٣. الأعراف: ١٦٨

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[1] **ثم شرع في بيان كيفية إيصال النفع والخيرات لبني إسرائيل، قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2].

وقد امتحن الله ﷻ بني إسرائيل بأن آتاهم البينات النيرات، والآيات الكريمات، والمعجزات الباهرات القاهرات مثل: انشقاق البحر من أجل نجاتهم، وانطباقه من أجل هلاك عدوهم فرعون وقومه، وخلاصهم من شرهم وأذاهم واستخلافهم في الأرض بدلاً عنهم، بالإضافة إلى المعجزات التسع: اليد والعصا والطوفان والقمل والجراد والضفادع والدم والقحط ونقص الثمرات وغيرها، وهو عدد لم يعهد مثله في غيرهم من الأمم والأقوام.

وتعتبر هذه الآيات والبينات والمعجزات نعمة جلية ظاهرة امتن الله تبارك وتعالى بها عليهم، وامتحان عظيم ظاهر لهم وحجة بالغة عليهم، أي: ابتلوا بما آتاهم الله العزيز الحكيم من البينات والمعجزات ابتلاءً مبيناً لينظر الله ﷻ كيف يعملون وكيف يتصرفون، وليظهروا على حقيقتهم كما هم في علم الله سبحانه وتعالى، وليظهر من أعمالهم ما يستحقون به الثواب أو العقاب.

أي: هل يشكرون النعمة ويؤدون حقها إلى الله سبحانه وتعالى و إلى الناس، أم يجحدون بالنعمة ويستخدمونها فيما يغضبه ولا يرضيه من المعاصي

---

١. الدخان: ٣٠

٢. الدخان: ٣٢

والذنوب والآثام والجرائم، فتقوم لله ﷻ عليهم الحجة البالغة.

وما يؤسف له بحق وحقيقة، أنهم رغم كثرة النعم والآيات والمعجزات التي اختصهم الله تبارك وتعالى بها، فإنهم لم يعرفوا قدرها ولم يؤدوا حقها عليهم وفشلوا في الامتحان، فقد ظهر منهم من البغي والغدر والفساد والطغيان والعصيان والتمرد على الحق والأحكام أكثر مما ظهر من غيرهم، وأن أجيالهم اللاحقة بعد موسى الكليم عليه السلام قد ارتكبوا من المعاصي والجرائم ما لا تقل بشاعة وفظاعة عن المعاصي والجرائم التي ارتكبها الفراعنة وغيرهم بحق أسلافهم، ومن جرائمهم: قتل الأنبياء بغير حق والتمرد على أحكام الدين الحنيف بكل تصلب وعناد وأكل الربا وأموال الناس بالباطل ونحو ذلك.

ومنها الجرائم التي يرتكبها الجيل المعاصر في الكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين بحق أبناء الشعب الفلسطيني المستضعفين المظلومين.

ولأنهم غيّروا وبدّلوا فقد غيّر الله ﷻ عليهم وبدّل، فلعنهم وغضب عليهم وهددهم بأشد العقوبات، وجعل منهم القردة والخنازير بسبب جرائمهم الشنيعة وسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، قول الله **تعالى:** ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[1] **وقول الله تعالى:** ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

---

١. البقرة: ٦١

٢. الأعراف: ١٦٦-١٦٧

المحور التاسع

سورة النازعات (١٥ - ٢٦)

- إجمال حديث موسى الكليم مع فرعون الطاغية

إجمال حديث موسى الكليم مع فرعون الطاغية

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[١]

الأفكار الرئيسية والمضامين العامة

قص الله تبارك وتعالى حديث موسى الكليم عليه السلام مع فرعون الطاغية، لنبيه الكريم ورسوله الأمين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله في ظل صراعه المرير مع طواغيت قريش بهدف تسلية قلب حبيبه وصفيه وخيرته من خلقه محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وتسلية قلوب المؤمنين الصالحين المجاهدين في سبيل الله عز وجل، الذين يتعرضون إلى الاضطهاد والأذى من فراعنة زمانهم والحكام المستبدين الجائرين عليهم، وتطييب خواطرهم وتطمينهم وحملهم على أن لا يخافوا من قوة الأعداء الظاهرية مهما بلغت، لأن تدمير

---

١. النازعات: ١٥-٢٦

قواتهم و إهلاكهم على يد الله ﷻ أسهل مما يمكن أن يتصوره كل إنسان.

وللتأكيد لهم: أن الله ﷻ سينصرهم على أعدائهم ويظهرهم عليهم حتماً، كما نصر الله ﷻ موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل المستضعفين، على فرعون الطاغية والمتجبر وقومه المستكبرين، رغم الفارق الكبير في ميزان القوة: العدد والعتاد لصالح فرعون وقومه، وتلك العاقبة الحسنة الممدوحة لموسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل، بسبب إيمانهم بالله ذي الجلال والإكرام وتوحيده في الطاعة والعبادة، ولرفضهم الذل والهوان والظلم والطغيان ومقاومتهم له وصبرهم في المقاومة وتقديمهم التضحيات اللازمة، والعاقبة السيئة المذمومة لفرعون الطاغية وقومه، بسبب إفراطهم في العناد والتعصب، و إصرارهم على الكفر وتكذيب الرسول الكريم موسى الكليم عليه السلام وعلى الأخلاق القبيحة والأعمال السيئة والجرائم والجنايات الشنيعة، وعدم استفادتهم من المعجزات النيرات الباهرات، ومن البينات الواضحات والأدلة الساطعة القاطعة والمواعظ المخلصة والنصائح الصادقة للهداية إلى الحق والعمل بمقتضاه.

وفي الآيات: تهديد لفراعنة قريش وطواغيتهم، ولجميع الفراعنة والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين وأعوانهم في كل عصر ومصر، بأن يلاقوا نفس المصير الأسود الذي لاقاه فرعون الطاغية وجنوده وأتباعه، من عقوبة الهلاك والاستئصال، وخزي الدنيا واللعن المستمر من عالم الغيب والشهادة إلى نهاية الدهر في عالم الدنيا، ثم عذاب البرزخ المهين وعذاب القيامة المؤلم العظيم الخالد بعد الموت، وذلك لعل وعسى أن

يرعووا ويتراجعوا عما هم عليه من العناد والتعصب الأعمى والتعجرف والكفر والضلال والاستكبار والظلم والطغيان والعصيان والاستبداد وأخواتها من المعاصي، ويكفوا عن إيذاء الرسول الأعظم الأكرم ﷺ والمؤمنين الصالحين المجاهدين في سبيل الله ﷻ، والمطالبين بالإصلاح والحقوق الواقعية المشروعة: الطبيعية والمكتسبة.

فبعد أن قضى موسى الكليم عليه السلام أقصى المدة وأتم الأجلين: (١٠ سنوات) في خدمة شيخ الأنبياء شعيب عليه السلام في قرية مدين عند النهاية الشمالية لخليج العقبة جنوبي فلسطين، خرج بأهله: زوجته وابنيه ومعه غنمه، متوجهاً إلى وطنه مصر، ولما وصل إلى صحراء سيناء المصرية وفي ليلة مظلمة مباركة شديدة البرد، ضل الطريق ولم يعرف إلى أين يتوجه وجاء زوجته الطلق وألم الولادة، ولم ينقدح زنده، وكان في أمس الحاجة إلى النار، يستضيء بها مع أهله ويستدفئوا بها.

فبينما هو كذلك: إذ رأى ناراً على بعد من جانب جبل طور سيناء الأيمن، فسر بما رأى كثيراً واستبشر خيراً، وعلم بأن وجود النار دليل على وجود أناس عندها، فقال لأهله: هذه نار أراها من بعيد، الزموا مكانكم، سأمضي إلى مكان النار لأسأل أهلها عن الطريق فيهدونني إليها، ولآتيكم منها بقبس (شعلة) نستضيء بها أوجذوة نستدفئ بها في هذا البرد الشديد.

فلما قرب من موضع النار وحضر عندها، وجدها تخرج من شجرة شديدة الخضرة، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً يملأ الوادي

الذي تقبع فيه الشجرة المباركة، وسمع نداءاً ربانياً من الشجرة النورانية التي كانت تنبت في الجانب الأيمن من وادي طوى المقدس، الذي يقع أسفل الجانب الأيمن من جبل طور سيناء، والجانب الأيمن هو في الحقيقة بالنسبة إلى موسى الكليم عليه السلام؛ لأن الجبل والوادي لا يمين لهما ولا شمال في أنفسهما، و إنما اليمين والشمال بالنسبة إلى الشخص صاحب اليمين والشمال الذي يقابلهما.

وكان النداء: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1] وهو أول ما أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى الكليم عليه السلام وقلده الرسالة، وأمره بأن يذهب ومعه أخوه ووزيره وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام إلى فرعون الطاغية وملئه المستكبرين في عقر دارهم، ويبلغهم رسالة رب العالمين إليهم، وعلل ذلك التكليف: بما عليه فرعون وملؤه من الإفراط في التكبر والعلو والطغيان.

وقد تمادى فرعون في غيه وطغيانه حتى ادعى الألوهية والربوبية بغير حق ولا حجة ولا برهان صحيح.

قول الله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[2] مما يدل على مخالفة الطغيان لحقيقة الإنسان وفطرته وغاية وجوده، وما يترتب عليه من الفساد في الأرض والانحلال في السلوك والانحطاط في الحضارة، وأنه في غاية القبح والسوء في نفسه، وتجب مجاهدته في النفس، ومقاومة الطغاة بكل وسيلة مشروعة.

---

١. القصص: ٣٠

٢. النازعات: ١٧

وأمر الله جَلَّ جَلَالُهُ موسى الكليم عليه السلام أن ينهى فرعون الطاغية عن الطغيان بالقول اللين والأسلوب الجميل اللطيف، قول الله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[1] أي: هل لك رغبة وميل إلى أن تطهر نفسك من قذارة الكفر والشرك والطغيان والعصيان وسائر الرذائل الروحية والأخلاقية والانحرافات السلوكية، لتكون لائقاً للارتقاء في مدارج كمال الإنسانية والقرب من الله العلي الأعلى ذي الجلال والإكرام والتخلق بأخلاقه واكتساب صفات كماله؟

والعبارة تدل على أن التجبر والطغيان رجس خبيث ونقص خطير في النفس الإنسانية ويجب على الإنسان بحسب فطرته وطبعه السليم وبما هو عاقل، أن يتطهر منهما لكي يتمكن من الارتقاء في مدارج الكمال الإنساني والقرب من الله العلي الأعلى ذي الجلال والإكرام والفناء فيه والبقاء به واكتساب صفات كماله: صفات الجمال، وصفات الجلال، فما يراه الطغاة في التكبر والتجبر على أنه كمال، هو في الحقيقة والواقع: رجس ونقص، ويجب على الإنسان بما هو إنسان، أن يتطهر منهما، إلا أن الطغاة لا يرون ذلك، بسبب فساد فطرتهم ومنطقهم، وأن دعوات الأنبياء الكرام عليهم السلام: تتضمن الدعوة إلى تطهير النفس من الطغيان والتجبر، وتزكيتها بالتواضع والدخول في طور العبودية لله ذي الجلال والإكرام، و إعادتها إلى فطرتها السليمة التي خلقت عليها.

---

١. النازعات: ١٨

وعبارة: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[١] عرض فيه لطف ولين وترغيب بحكم الطبع الإنساني السليم لدى الإنسان السوي مستقيم الفطرة، كما يقول الرجل الكريم لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وقد تمت المخاطبة بلفظ ﴿تَزَكَّىٰ﴾[٢] بدلًا من «أزكيك» أو نحوها، ليدل على أن التزكية الحقة للنفس وتطهيرها، يجب أن تنبع من رغبة ذاتية صادقة في النفس، لا أن تفرض عليها من الخارج، وأن توفير أسس وظروف موضوعية خارجية لا تكفي، و إن كانت تلعب دوراً ثانوياً مكملاً، فالدور الأساسي الذي يبنى عليه تزكية النفس الحقة، هي الرغبة الذاتية التي تنبع من داخل النفس.

وأمر الله ﷻ نبيه الكريم موسى الكليم عليه السلام أن يبين لفرعون الطاغية الطريق الوحيد إلى التطهر من رجس التكبر والتجبر والطغيان، والوصول إلى الكمال الإنساني اللائق به والمقدر له بحسب الحكمة الإلهية البالغة، وهو المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام، وطاعته وعبادته وحده لا شريك له والفناء فيه والبقاء به والتخلق بأخلاقه واكتساب صفات كماله: صفات الجمال وصفات الجلال، قول الله تعالى: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾[٣].

أي: أرشدك إلى معرفة ربك ذي الجلال والإكرام، الذي خلقك وهو مالكك ومدبر أمرك و إليه مصيرك ومرجعك، وأهديك عن يقين لا يقبل الشك إلى توحيده وطريقة وعبادته، فتطمع في رضاه وثوابه فتطيعه،

---

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

٣. النازعات: ١٩

وتخشى عظمته وتخاف عدله وغضبه وسخطه وانتقامه وعقابه فلا تعصيه.

أي: تؤدي الواجبات الشرعية عليك، وتترك المحرمات، فهو الطريق الوحيد إلى الوصول إلى كمالك الإنساني اللائق بك والمقدر لك، ونجاتك من غضب الله ﷻ وانتقامه وعقابه والحصول على سعادتك الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة.

وعبارة: ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾[1] تعني: الخشية الملازمة للإيمان الصادق والمعرفة الحقيقية بالله ذي الجلال والإكرام، والداعية إلى طاعته، والرادعة عن معصيته، فالخشية إنما تأتي أو تكون بعد المعرفة ولا تكون بدونها، قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2] فكل من عرف الله ذا الجلال والإكرام حق معرفته، أطاعه حق طاعته، وارتدع أبداً عن معصيته، واتصف بالخيرية وعمل الصالحات، وتخلى عن الشر والأعمال القبيحة، وحسن مظهره ومخبره.

فالمعرفة بالله ذي الجلال والإكرام والخشية منه من جهة والخيرية والصلاح من جهة ثانية متلازمان لا ينفكان عن بعضهما، والمعرفة والخشية من جهة والشرية والفساد من جهة متناقضان لا يجتمعان.

وعليه: يلزم من المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام والخشية منه،

---

١. نفس المصدر

٢. فاطر: ٢٨

الشعور العميق بالمسؤولية والاتصاف بالخيرية والأمانة والوفاء ونحوها، وترك التجبر والتكبر والطغيان والعصيان والاستكبار من الأصل أو بالتوبة الصادقة النصوحة، والرجوع إلى الله ﷻ، وعدم تعدي طور العبودية لله رب العالمين بأي شكل من الأشكال وفي أي حال من الأحوال أو ظرف من الظروف وتحت تأثير أي عامل من العوامل.

نعم قد يتظاهر بعض المنافقين بالخشية بهدف خداع الضحية فيأمن له ثم يباغته بالانقضاض المفاجئ عليه، أو من أجل أن يضفي الشرعية على جرائمه، وهؤلاء المجرمون من المنافقين إنما ينخدع بهم البسطاء من الناس، أما أصحاب البصائر العارفين بحالهم فلا ينخدعون بهم أبداً.

ولا تكون المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام والخشية منه، إلا عن هداية ربانية، ورشد واستنارة عقلية في عملية التفكير.

وعبارة: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[1] عرض منطقي بليغ، سعى لاستنزال فرعون بلطف ومداراة عن دابة غروره وعتوه وكبريائه، إلى التواضع والطاعة لله ذي الجلال والإكرام، وهذا يدل على ضرورة اتصاف الدعاة والمصلحين بالرحمة والحرص الصادق على نجاة الناس ومصلحتهم، وليس التظاهر الخبيث بالنصح كما يفعل الفراعنة والحكام المستبدون الظلمة من أجل خداع الشعوب وتضليلهم بهدف تعزيز ملكهم وسلطتهم على الشعوب وسلب ثرواتها وخيراتها بغير حق، وإحاطة الدعاة من يريدون هدايته باللطف والرعاية والمحبة وتحسيسه بحسن نيتهم ونبل مقاصدهم،

١. النازعات: ١٨

واستخدام اللين والأساليب الجميلة في الخطاب، ولا يكفي إقامة الدليل المنطقي، وإن كان ذلك كافياً لدى الخاصة الذين ينذر وجودهم بين الناس في المجتمعات، قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]

وذكر الهداية بعد التزكية: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[2] للدلالة على أن تزكية النفس وتطهيرها، مقدمة يجب أن تسبق الهداية، فلا تتم الهداية إلا بها، قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3] فالمتقون قد تلبسوا في الحقيقة بهداية ربهم الخاصة، بسبب اتصافهم بما سبق من سلامة الطبع وتصفية النفس وطهارتها من الصفات الخبيثة، مثل: العناد والتعصب الأعمى والاستكبار على الحق ونحوها، وقبولهم لما ينسجم مع الفطرة ومنطق العقل السليم، فهم بين هدايتين:

أ. هداية فطرية سابقة صاروا بها متقين.

ب. هداية قرآنية لاحقة إكراماً من الله تبارك وتعالى لهم بسبب تقواهم السابق.

فذهب موسى الكليم بمعية أخيه هارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه

---

١. التوبة: ١٢٨

٢. النازعات: ١٨-١٩

٣. البقرة: ٢

يحملان معهما رسالة ربهما إليهم، وأبلغوهم برسالة ربهم إليهم بلطف ولين وترغيب وأسلوب جميل كما أمرهما ربهما، وأراهم موسى الكليم عليه السلام المعجزة النيرة الساطعة الكبرى، وهي: قلب العصا حية حقيقية عظيمة، وسماها الله عز وجل ﴿الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾[1] لأنها كانت الأصل، والثانية وهي اليد السمراء التي تخرج بيضاء من غير مرض تشع نوراً عظيماً كالتابع لها، وقيل: أراد بالآية الكبرى: العصا واليد، وجعلهما واحدة للجنس، أو لأنّ الثانية كأنها من الأولى لكونها تابعة لها، وهي تثبت بشكل قاطع وبما لا يقبل الشك أو الريب أو التردد صدق دعواهما في النبوة والرسالة من رب العالمين سبحانه وتعالى.

إلا أن فرعون وملأه أخذتهم العزة بالإثم، واستكبروا على الحق وأهله وجحدوه، تحت تأثير التجبر والتكبر والغرور والشعور بالقوة الزائفة وعزة الملك والسلطان، حيث لم ينفع معهم اللطف واللين والأسلوب الجميل في الخطاب، وإظهار المحبة والحرص والرعاية، وإظهار المعجزات النيرات الباهرات والبينات الواضحات والأدلة والبراهين العقلية الساطعة القاطعة ونحوها، فلم يصدقوا موسى الكليم عليه السلام ولم يقتنعوا بما جاءهم به من عند رب العالمين من المعجزات والبينات ولم يذعنوا للحق المبين.

بل كذبوا موسى الكليم عليه السلام وعصوه فيما أمرهم به من الواجبات وترك المحرمات، واتهموه بالسحر والخداع والتضليل، ووصفوا ما جاءهم به من المعجزات النيرات العظيمة بالسحر، واتهموه كذباً فوق ذلك: بأن

---

١. النازعات: ٢٠

له أهدافاً سياسية انقلابية خبيثة، وهي: الانقلاب على النظام الفرعوني القائم، بهدف إسقاطه والسيطرة على الحكم والثروة، وطرد الأقباط من مصر للاستئثار بالحكم والثروة، كما هو دأب الفراعنة والحكام المستبدين الظلمة في كل عصر ومصر، إذ يرمون الأولياء الصالحين، والمصلحين الشرفاء، والمطالبين المخلصين بحقوق الإنسان: الطبيعية والمكتسبة بداء أنفسهم الخبيثة، خارجين بذلك عن طور العبودية لله الواحد القهار، وعن حقيقة الإنسانية وملكاتها، ومخالفين للعقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم، وقرروا أن يقابلوا المعجزات الإلهية التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين بالسحر، زاعمين ظلماً وعدواناً على الحقيقة بأنها من جنس السحر لا غير، فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾[1].

وبذلك: فقد تولى فرعون وملؤه وأعرضوا عن الإيمان وطاعة الرحيم الرحمن، وعملوا بجد واجتهاد في إظهار العناد والطغيان والعصيان والفساد في الأرض، وتدبير الكيد والمكر السيء لمعارضة موسى الكليم عليه السلام ومحاربته والسعي لإبطال دعوته، فبعث فرعون كبار ضباط جيشه ومعهم الجنود إلى جميع أنحاء مصر ومدنها وقراها، ليجمعوا له من كان فيها من السحرة المهرة العارفين بفنون السحر، والواقفين على دقائقه، والمطلعين على خباياه وأسراره، ويحشروهم في يوم العاصمة: طائعين أو كارهين، ليبارز بهم موسى الكليم عليه السلام في يوم الزينة «يوم العيد» المتفق عليه موعداً للمبارزة في الساحة العامة، ليثبتوا بسحرهم العظيم، كذب

---

١. طه: ٥٧-٥٨

دعوى موسى الكليم عليه السلام النبوة والرسالة من رب العالمين.

كما جمع قومه الفاسقين وأهل مملكته أجمعين، ونادى فيهم بصوت مسموع، وقيل: أمر منادياً ينادي في محافلهم ومجالسهم، بقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[1] أي: إنه زعم الربوبية العليا لأهل مملكته جميعاً، وليس لطائفة أو جماعة منهم خاصة، فبيده حياتهم وأرزاقهم وتدبير شؤونهم، ويحفظ بإرادته صلاح أمورهم، ولا إله لهم ولا رب فوقه، فهو أعلى في الربوبية من جميع الأرباب التي يقول بها قومه، ويفضل نفسه على سائر آلهتهم، ويجعل نفسه أقرب إله من رب الأرباب و إله الآلهة «واجب الوجود» الذي لا يمكن إدراك حقيقة ذاته ولا يمكن التوجه إليه مباشرة، و إنما يتوجه إليه ويتقرب بواسطة الآلهة غيره، مثل: الآصنام والفراعنة ونحوهم.

وهذه الحالة المرضية تنتاب كل حاكم يقع تحت تأثير الغرور والتكبر والتجبر والأنانية المفرطة وفقدان البصيرة بالذات والمصير، ويبتلي بغفلة جماهير الشعب، وضعف عقول النخبة السياسية والاقتصادية والفكرية والفنية والمهنية، و إذعانهم له وانقيادهم تحت تأثير التعصب الأعمى أو الخوف أو الطمع فيغتر بذلك، وقد يدعي الألوهية والربوبية والمالكية، أو يتصرف عملياً وكأنه إله، مع أنه يعلم في قرار نفسه علم اليقين: أنه بشر كسائر البشر، مخلوق وليس خالق، ومرزوق غير رازق، وأنه فقير وضعيف ومحتاج في نفسه، يجري عليه نفس ما يجري على غيره من البشر من

---

١. النازعات: ٢٤

الأحوال، فهو يتنفس ويأكل ويشرب وينكح ويمرض ويموت وغيره.

لكن غفلة الجماهير وتملق النخبة الفاسدة ومسايرتهم له وإذعانهم إلى باطله، وتنازل الجميع عن حقوقهم الأساسية: الطبيعية والمكتسبة، وعن إنسانيتهم وعزتهم وكرامتهم وانحنائهم طائعين له، أغراه كما يغري غيره من الفراعنة والطواغيت والحكام المستبدين والمترفين، بالتمادي في غيهم والظلم والطغيان والاستكبار والعصيان، وإن وجد من يصدقه، فسوف يدعي الألوهية والربوبية، ويقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[١] كما فعل فرعون، ولن يتعفف عن ذلك!! قول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإنسان لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[٢] أي: إن الإنسان إذا ملك السلطة والقوة والثروة، فإنه يتمادى في الطغيان والفساد، ما لم يوجد من يراقبه ويحاسبه ويأخذ بيديه ويمنعه، مما يدل على ضرورة المراقبة والمحاسبة الشعبية والبرلمانية والقضائية على الحكام ومعاقبتهم على المخالفة، من أجل منعهم عن الظلم والطغيان والفساد في الأرض بجميع أشكاله.

وكان الذي كان من فرعون الطاغية؛ لخوفه الشديد على نظامه السياسي الفرعوني الفاسد من الانهيار، وعلى موقعه وهيبته ومكانته الدينية والمدنية وامتيازاته المعنوية والمادية من الضياع؛ لأن عقيدة التوحيد التي يدعو إليها موسى الكليم عليه السلام تنقض ما يدعيه لنفسه من الألوهية والربوبية الباطلة، وذلك: رغم تطمين موسى الكليم وهارون عليهما السلام له ببقاء

١. نفس المصدر

٢. العلق: ٦-٧

ملكه ودوام عزه إن هو أسلم لرب العالمين وأطاعه، أي: إن هدف موسى الكليم وهارون عليهما السلام هو الهداية والإصلاح، وليس السيطرة على الحكم والثروة والتمتع بالامتيازات، إلا أن فرعون لغروره وطغيانه، يرى نفسه فوق الحق وفوق أن يؤمر أو ينهى.

ولما فشلت الدبلوماسية والأساليب السلمية والإجراءات الأمنية والحيل في القضاء على الدعوة و إيقافها، ونجح موسى الكليم عليه السلام بالخروج ببني إسرائيل من مصر ليلاً خفية على فرعون وأعوانه، متوجهاً إلى فلسطين المقدسة، ثم علم فرعون بخروجهم، وخشى أن تقوى شوكتهم هناك، ويعقدوا تحالفات سياسية وعسكرية ضده، فجمع جنوده وحشد أنصاره وخرج في أثرهم بجيش جرار ضخم لا قبل لبني إسرائيل به، بهدف القضاء المبرم عليهم واستئصال شأفة وجودهم.

مما يدل على فرط عناده و إصراره مع أعوانه على الكفر والطغيان والعصيان واستكبارهم على الحق وأهله، ولم يستفيدوا من المعجزات النيرات الباهرات والبينات والحجج الواضحات، والأدلة والبراهين الساطعة القاطعة، والمواعظ الصادقة والنصائح المخلصة.

ولأنهم يشكلون خطراً جدياً شديداً على الإنسانية ومسيرتها التكاملية، ولأن تركهم وشأنهم مع القدرة عليهم مخالف للحكمة الإلهية البالغة ولسنن الله عز وجل في الكون والحياة، فقد أخذهم الله عز وجل أخذ عزيز مقتدر، وعاقبهم بذنوبهم، فأغرقهم أجمعين في نهر النيل العظيم، الذي كان مصدر حياتهم وعزهم وثروتهم وقوتهم وحضارتهم وفخرهم، ولم يُبقِ منهم

أحداً، وألحقهم بعد هلاكهم لعنة دائمة مستمرة، من الله جَلَّ جَلَالُهُ ومن الملائكة ومن الناس أجمعين، حتى يرث الله عَزَّ وَجَلَّ الأرض ومن عليها، وأدخلهم بعد هلاكهم إلى نار البرزخ ثم يدخلهم في يوم القيامة بعد البعث والنشور إلى نار جهنم خالدين فيها أبداً.

وقدم الله تبارك وتعالى ذكر عذاب الآخرة على عذاب الدنيا، بقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾[1] مع أن عذاب الدنيا متقدم زماناً على عذاب الآخرة، إشارة إلى أن عذاب الآخرة هو الأشد، وهو العذاب الدائم الذي لا يزول، بينما عذاب الدنيا أخف وإلى زوال، ويجب بحكم العقل والفطرة: اتقاء عذاب الدنيا والآخرة، إلا أن اتقاء عذاب الآخرة يجب أن يكون أشد وبشكل لا يقبل التساهل.

وقيل: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾[2] المراد: نكال كلمته الآخرة، وهي قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[3] ونكال كلمته الأولى، وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[4] وبينهما أربعون سنة، وإتماماً للحجة عليه، وفي الحديث النبوي الشريف: «**قال جبرئيل: قلت يا رب تدع فرعون وقد قال:** ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[5] **فقال: إنما يقول هذا مثلك من يخاف الغوث**»[6].

١. النازعات: ٢٥

٢. نفس المصدر

٣. النازعات: ٢٤

٤. القصص: ٣٨

٥. النازعات: ٢٤

٦. الخصال، صفحة ٣٤٦

وقد ورث بنو إسرائيل المستضعفون بعد هلاك فرعون وجنوده الأرض والسلطة والثروة والمقدرات، مما يدل على أن الله ﷻ لا يتخلى عن عباده المستضعفين المجاهدين، الذين يلتزمون بالتكليف الإلهي، بالصبر والمقاومة وتقديم التضحيات اللازمة، التي بها يستحقون الثواب، ويتأهلون لتحقيق الخلافة الإلهية للإنسان في الأرض، وإقامة حضارة إنسانية راقية ومتكاملة ومتوازنة، تتجسد فيها صفات الكمال الإلهي، وتلبي جميع احتياجات الإنسان الفكرية والروحية والمادية.

وأن الباطل مهما قويّ واستعلى ووجد له أنصاراً وأعواناً وأتباعاً كثر، فإنه ينهزم لا محالة في نهاية المطاف أمام راية الحق وأنصاره ويزول؛ لأن الحق قوي في نفسه ومدعوم بقوة العقل والمنطق السليم والفطرة والسنن الإلهية الحاكمة في الكون والحياة، والباطل ضعيف في نفسه، ومخالف للعقل والمنطق السليم والفطرة والطبع الإنساني، ومناهض للسنن الإلهية الحاكمة في الكون والحياة، قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1].

ويعتبر المصير الأسود المأساوي الذي لحق فرعون الطاغية وجنوده وأتباعه المستكبرين على الحق والعباد، هو عينه المصير الأسود المؤلم الذي ينتظر كل الطغاة والفراعنة والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين وأتباعهم الظالمين، الذين يسعون في الأرض فساداً ويعملون وفق إرادتهم ومصالحهم على الشعوب المستضعفة بغير حق، متبعين

١. الإسراء: ٨١

شتى الطرق وبالأساليب الدنيئة؛ مثل: المكر والخداع والكذب والتضليل، والعنف والإرهاب، و إشعال الفتن الدينية والطائفية والعرقية، وشراء الذمم والضمائر الرخيصة، وتصفية المعارضين: بدنياً ومعنوياً، عن طريق القتل والسجن والتشريد وتشويه السمعة، ونحو ذلك.

وينبغي أن يعلم: أن كل من يدعي ما ليس فيه من الفضائل، ويحب أن يمدح بما لم يعمل، ويأخذ ما ليس له، ويتولى من المناصب ما هو ليس أهلاً له، ونحو ذلك، فهو على مبدأ فرعون ومنهجه في الحياة، وقد ثبت بالتجربة: أن الإنسان إذا تولى منصباً قيادياً أكبر من كفائته فإنه إما أن يتحلى بالواقعية والشجاعة الأدبية فيعترف بعدم كفائته ويترك المنصب، أو يظهر ضعفه ويفرض نفسه عليه ويفشل، أو يتقوى بالإدعاءات الباطلة فيفسد، والفشل أقل ضرراً من الفساد.

والعاقبة السيئة المذمومة التي لحقت بفرعون وجنوده وأتباعه الظالمين، بأن أهلكهم الله ﷻ أجمعين، رغم قوتهم وكثرتهم، وأزال ملكهم ودولتهم - والتهديد الإلهي بأن يكون نفس العاقبة السيئة والمصير الأسود لكل من يعمل مثل عملهم - له أكبر الأثر في نفوس المجاهدين المستضعفين، يشحذ همتهم، ويقوي عزيمتهم، ويجعلهم يعيشون الأمل بالنصر على الأعداء والتمكن منهم، ويبعد عنهم اليأس والقنوط، ويزيل عنهم الشعور بالتعب والضعف، ويشعرهم بالأنس في جميع الأحوال والظروف.

وهي عبرة بالغة ودرسٌ شاخصٌ لكل الأجيال عبر التاريخ، يعتبر بها

كل إنسان عاقل شأنه الخشية والاعتبار، يخشى الله ﷻ، ويخشى الشقاء والعذاب وسوء العاقبة والمصير، بحكم غريزته وسلامة طبعه وفطرته، فيتدبر الأحوال والعواقب بعقله وضميره، ويحتاط تمام الاحتياط لنفسه، فلا يفعل مثل ما فعل فرعون وملؤه، ولا يعمل مثل عملهم الخبيث السيء، لئلا تكون له نفس العاقبة السيئة المذمومة ونفس المصير الأسود، ويحل عليه ما حل بهم من الهلاك والخزي واللعن ما بقي الدهر، والعذاب المهين في عالم البرزخ، ثم العذاب المؤلم العظيم الخالد في نار جهنم في الآخرة.

وذلك: بحكم العقل والمنطق السليم، وجرياً على السنن الإلهية الحاكمة في الكون والحياة، وهي سنن ثابتة لا تقبل التغير والتبديل، قول الله تعالى: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1].

وكل عاقل سليم الطبع والفطرة يخشى الله سبحانه وتعالى، ويخشى الشقاء والعذاب والعاقبة السيئة والمصير الأسود والذكر السيء في الحياة، ويتدبر بعقله العواقب ويحتاط لنفسه تمام الاحتياط، أما من يتجاهل عقله وضميره ويذهل عن نفسه وعن السنن الإلهية الحاكمة في الكون والحياة، فتهجم عليه الدواهي وتأخذه من مأمنه.

وعليه: لا يوجد مؤمن حقيقي صادق الإيمان واليقين، ولا عاقل فطن سليم الطبع والفطرة، يعمل مثل عمل فرعون وملئه، وكل من يفعل مثل

١. فاطر: ٤٣

فعلهم من الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين، والحكام المستبدين الظلمة، والمترفين المستغلين الأنانيين، وأتباعهم من الإنتهازيين النفعيين الفاسدين، فهو ليس بمؤمن حقيقة أو عملياً، حتى وإن تظاهر بالإيمان نظرياً وصلّى وصام، وليس بإنسان حقيقة حتى وإن كان أجمل الناس هيئة وأكثرهم مالاً وجنداً وقوة وعتاداً وأعظمهم ملكاً وجاهاً.

وفي عبارة: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[1] مدح وثناء لكل إنسان يخضع لمنطق العقل والشرع، ويحافظ على سلامة طبعه وفطرته، ويخشى من الله ﷻ حق خشيته، فيؤدي الواجبات ويزيد من المستحبات، ويترك المحرمات وما يستطيع من المكروهات، ويتدبر العواقب، ولديه الشعور بالمسؤولية، ويحاسب نفسه في جميع سلوكه وتصرفاته على ضوء أحكام العقل والدين.

وفي هلاك فرعون وملئه دليل على صدق نبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام وصدق رسالتهما من الله رب العالمين إلى الناس، ويثبت ربوبية الله سبحانه وتعالى للناس جميعاً، وهدفية الخلق، والبعث والجزاء: الثواب بالجنة والرضوان، والعذاب بالنار والحرمان في يوم القيامة، وإثبات ضرورة النبوة والرسالة والهداية الربانية للناس في الحياة، لبلوغ كمالهم الإنساني اللائق بهم والمقدر لهم في أصل الخلق وفق الحكمة الإلهية البالغة والحصول على السعادة الإنسانية الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة.

---

١. النازعات: ١٩

صدر لدار الوفاء للثقافة والإعلام

سلسلة نهج الولاية:

١- العمل المؤسساتي في فكر الإمام الخامنئي

٢- الاستغفار والتوبة، الإمام الخامنئي

٣- التحليل السياسي في فكر الإمام الخامنئي

٤- العبد الصالح، رواية الإمام الخامنئي عن الإمام الخميني

٥- سيد شهداء محور المقاومة، الشهيد القائد قاسم سليماني

٦- عهد الأمير إلى المسؤول والمدير، الإمام الخامنئي

٧- النفوذ في فكر الإمام الخامنئي

كتب أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين:

١- الشهادة رحلة العشق الإلهي

٢- في رحاب أهل البيت

٣- الإنسان رؤية قرآنية - الجزء الأول

٤- الإنسان رؤية قرآنية - الجزء الثاني

٥- الدولة والحكومة

٦- قراءة في بيانات ثورة الإمام الحسين عليه السلام

٧- إضاءات على درب سيد الشهداء عليه السلام

٨- القدس صرخة حق

٩- الجمري في كلمات أمينه وخليله

١٠- الإسلام والعلمانية

١١- رسول الرحمة

١٢- الإسلام دين الفطرة

١٣- اللامنطق في الفكر والسلوك (مجلدين)، مواجهة النبي موسى (ع) لفرعون (هذا الكتاب)

سلسلة رجالٌ صدقوا:

١- هكذا عرفوه، الشهيد رضا الغسرة

٢- المؤمن الممهد، الشهيد علي المؤمن

٣- فخر الشهداء، الشهيد عبدالكريم فخراوي

٤- الخارجون من الماء، رواية المحرر من السجون الخليفية محمد طوق، كمال السيّد

٥- القادم من هناك، رواية الشهيد القائد رضا الغسرة، كمال السيّد

سلسلة من داخل السجن:

١- التغيير في سبيل الله، الشيخ زهير عاشور

٢- تأملات في الفكر السياسي، الشيخ زهير عاشور

٣- الإسلام والعلمانية، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

٤- الرحيل نحو الأبدية، الساعات الأخيرة للشهيد علي العرب قبل إعدامه، كمال السيّد

٥- يسألونك عن عاشوراء، محمد فخراوي

٦- رسول الرحمة، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

٧- على ضفاف الحسين، الأستاذ محمد سرحان

٨- نشيد الشهادة، شرح وصية الشهيد القائد قاسم سليماني، الأستاذ محمد سرحان

٩- ماضون على دربك، قصص أسرى البحرين بعد استقبال خبر شهادة الشهيد قاسم سليماني

١٠- مرج البحرين يلتقيان، حياة الإمام علي وفاطمة الزهراء عليهما السلام، الأستاذ محمد فخراوي

١١- خط الإمام الخميني، الشيخ جاسم المحروس

١٢- الإسلام دين الفطرة، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

١٣- شقشقة المظلوم، شرح الخطبة الشقشقية لأمير المؤمنين عليه السلام، الشيخ زهير عاشور

١٤- إلى أحبتي، نصائح تربوية إلى الشباب، الشيخ زهير عاشور

١٥- وذكرهم بأيام الله، شذرات من فكر الإسلام المحمدي الأصيل للإمام الخميني، الأستاذ محمد سرحان

١٦- اللامنطق في الفكر والسلوك (مجلدين)، مواجهة النبي موسى (ع) لفرعون، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين (هذا الكتاب)

سلسلة تاريخ البحرين:

١- شهادة وطن، إفادات قادة الثورة المعتقلين وعذاباتهم

٢- آل خليفة الأصول والتاريخ الأسود

٣- الإبادة الثقافية في البحرين

٤- تيار الوفاء الإسلامي، المنهج الرؤية الطموح

كتب أخرى:

١- قافلة الخلود - شهداء البحرين

٢- عاشوراء البحرين ٢٠١٩

٣- كتيّب المقاوم العارف، الشهيد المقاوم أحمد الملالي

٤- عاشوراء البحرين ٢٠١٨

٥- حصاد البحرين ٢٠١٧

٦- عاشوراء البحرين ٢٠١٧

٧- في رحاب مدرسة الإمام الخميني ﭤ

٨- المهدوية في الفكر الولائي

٩- الحصاد السياسي ٢٠١٦

١٠- ألم وأمل، السيد مرتضى السندي

كتب باللغة الفارسية:

١- تغيير در راه خدا (التغيير في سبيل الله)، الشيخ زهير عاشور

٢- بازخوانى خطبه هاى امام حسين (قراءة في بيانات ثورة الإمام الحسين)، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

٣- بر آستان اهل بيت (في رحاب أهل البيت)، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

٤- رنج و اميد (ألم وأمل)، السيد مرتضى السندي

٥- گواه ميهن (شهادة وطن)، إفادات قادة الثورة المعتقلين وعذاباتهم

٦-تاريخ سياه آل خليفة (آل خليفة الأصول والتاريخ الأسود)

٧-بت شكن (رواية الخارجون من الماء)

أنّ بني إسرائيل قد لا يكونون بأنفسهم وبالاعتماد على قوتهم وقدراتهم الذاتية وإمكانياتهم الخاصة قادرين على إنقاذ أنفسهم من قبضة فرعون وقومه وتخليص أنفسهم من أذاهم والانتصار عليهم، ولكنهم إذا أخلصوا لله سبحانه وتعالى وتوكلوا عليه ووثقوا به وعملوا بتكليفهم الشرعي وقاموا بما يجب عليهم القيام به من الرفض والمقاومة والصبر والتخطيط والعمل المبرمج والممنهج وتقديم ما يلزم من تضحيات، فإنّ الله عز وجل قادر على نجدتهم ونصرهم وإنقاذهم من أذى فرعون وقومه وتخليصهم من شرهم وقبضتهم والانتصار عليهم، قول الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وقول الله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾

ISBN: 978-622-95092-8-9
9786229509289
دار الوفاء للثقافة والإعلام